موسوعة مصر

تاريخ مصر

أحمد حسين

مؤسسة دار الشعب

مطبوعات الشعب
ثقافة وعلوم إنسانية لكل الشعب

موسوعة تاريخ مصر

الجزء الأول

بقلم الأستاذ

أحمد حسين

الاهـــداء

الى روح مصر الخـالدة ، التى وهبتهـا كل حيـاتى وصحتى ، الى الأجيال القادمة والشباب المعاصر .

الى الشهداء الذين تساقطوا عبر العصور ، لتحقيق مجـد مصر ومن بينهم ابنى الطيـار ســامح مرعى عبد الرازق ، أهدى هذه الموسوعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد . أما بعد . فقد قلت فى كتابى تاريخ الانسانية : ـ

الانســـان فى العصر التــاريخى :

يبدا دخول الانسان فى عصر التاريخ ، ونعنى بذلك التاريخ المحقق والمدون على الآثار وجدران المعابد والتماثيل ، أو فى بطون الكتب واوراق البردى على شتى الصور والاشكال . فعن طريق التدوين أو بالاخرى الكتابة دخل الانسان فى عصر جديد أصبح من المستطاع فيه تراكم المعلومات والمعارف الانسانيه للاستفادة بها ، والانتفاع بثمراتها عبر الزمان .. وعلى اختلاف الامكنة .

ـ واذا كان اختراع اللغة الملفوظة هو الذى أقام هذا الفارق الضخم بين الانسان وغير الانسان . فان اختراع الكتـــابة قد فرق بين العصور وجعل ما قبلها يوصف بأنه ما قبل التاريخ وأما ما بعدها فقد دخل فى نطاق التاريخ .

كيفية اختراع الكتـــابة :

ولقد تم اختراع الكتابة بالطريقة التى تم ويتم بها أى اختراع انسانى ، أى من خلال سلسلة من التطور نتيجة تراكم المعلومات ، وتعقد الحاجات فليس من شك فى أن أول نقش نقشه الانسان على الحجر ، أو رســـم ملون يحكى به صورة ثور أو أســـد أو حصان ، كان يضع اللبنةالاولى فى اختراع الكتابة ، فقد أصبحت الصورة ترمز للواقع وأمكن استحضار شيء غائب الى الذهن برسم صورته .

ومن الصور التى ترمز لموضوعيتها بدأ التطور الذى انتهى بالابجدية .. فمن الصور الكاملة للدلالة الى شيء معين .. الى الصورة المبسطة (١) . فمجرد الخطوط الاساسية ، ثم الى استعمال هذا الرمز للدلالة على صـــوت معين وهكذا نشأت الابجدية اى الصور الخطية الدالة على الاصوات الملفوظة .

---

(١) لا تزال الكتابة الصينية تقف عند هذه المرحلة .

مصر القـــديمة :

والاجماع منعقد تقريبا بين الباحثين والدارسين على أن مصر القـديمة هى مبدعة اختراع الكتابة وعنها تلقت باقى شعوب وامم ما يعرف الآن بالشرق الادنى او الشرق العربى ، وتولت فينيقيا (لبنان الحديث) صياغة الابجدية فى صورتها الحاضرة المألوفة ونشرها فى أنحاء عالم ذلك الزمان .

وسواء اكانت مصر القـديمة هى مخترعة الكتابة ، ام انها نقلتها عن الشعوب المجاورة ، فان ثمة حقيقة لاتجد خلافا عليها : وهى ان أقدم نصوص مكتوبة قد وجدت فى مصر ، حيث تشير الى معـرفة المصريين القـدماء للتقـويم الشمسى وتقسيم السنة الى ٣٦٥ يوما وان هذا التقويم قد بدىء فى استعماله عام ٤٢٤١ ق.م

على ان هناك من يقول ان التاريخ المكتوب يجب أن يبدأ عنـد مصب الدجلة والفرات ، حيث كانت سومر وبابل وأشور وان المصريين القدماء انفسهم ، انما جاءوا من هذا القسم من العالم حاملين حضارته عن طريق شبه جزيرة سيناء (١) . ونحن الذين حاولنا أن نثبت أن آسيا هى موطن الانسان الاول ومنشأ الحضارة ، لا نرى ما يدفعنا الى دحض هذا الرأى ، ولكن ثمة آراء اخـرى تقول أن المصريين القدماء قد جاءوا من الجنوب سائرين مع النيل شمالا حتى وصلوا الى مصبه ، وان آسيا كانت موطنهم الاول ، وقد كانت الارض متصلة بين آسيا وأفريقيا ، وحتى بعد انحدث الصدع وغمر ماء البحر بوغاز باب المندب ، فقد ظل المضيق يسمح بالانتقال عبر البحر من اليمن الى الحبشـة وبالعكس . والذين يأخـذون بهذا الرأى يقولون ان حضارة وادى النيل قد سبقت حضارة الدجلة والفرات .

ومرة اخرى نقول كما قلنا بالنسبة للكتابة ، سواء سبقت الحضارة فى سومر وبابل واشور أم كانت سابقة على ضفاف النيل ، فالحقيقة الثابتة المقررة ، ان أهرامات مصر هى أقدم الآثار المبنية فوق سطح الارض فى الوقت الحاضر وعلماء الآثار يتراوحون فى تحديد تاريخها بين ٣٠٠٠ — ٢٥٠٠ ق.م . ولا يعرف سطح الكرة الارضية أثرا قائما باقيـا على الزمن أقدم من هرم زوسر والمصاطب التى سبقت بناءه .

الانســان فى مصر القــديمة :

ولما كانت اهرامات الجيزة أو بالاحـــرى هرم خوفو بالذات يمثل ذروة ما وصلت اليه امكانيات الانســـان وحضارته وكان بناؤها قـــد تم كما قدمنا فى الالف الثالث قبل الميلاد ، فلا بد أن تكون مظاهر الحضـــارة قد سبقت ذلك التاريخ ببضعة آلاف أخرى من السنين ، وأكثر التقديرات تواضعا لبدء الحضارة فى مصر القديمة ترجع الى منتصف الالف السادس قبل الميلاد (٢) . فقد خلف

(١) عبد العزيز الدسوقى — الكيان العربى — ص ١٧ .

(٢) الدكتور عبد العزيز صالح — حضارة مصر — ص ٧٨ .

لنا المصرى القديم فى هذا العهد المبكر ما يدل على أنه قد تجاوز العصر الحجرى القديم والاوسط وبدأ العصر الحجرى الحديث الذى لم يبدأ فى مناطق أخرى الا بعد ذلك ببضعة آلاف من السنين . فلم يعد المصرى يجيد التكلم ويحذق صنع الآلات واشعال النيران ويستانس الحيوان ويزرع الارض بطريقة بدائية فحسب ، بل كان قد دخل بالفعل الى متطلبات التطور الزراعى فأصبحت الآلات اكثر تطورا وفاعلية كالفؤوس والقواديم واسنان المناجل ، وزاد عليها صناعة جديدة تمثل درجة جديدة من الحضارة وهى صناعة الفخار ، أى صنع الاوانى من الطين ثم حرقها بعد ذلك بالنار لزيادة صلابتها : بل انه ذهب الى أبعد من ذلك فبدأ يلون هذه الاوانى ويرسم عليها .

صناعة النسيج :

وبدأ الانسان المصرى فى هذا العصر السحيق ، الصناعة الاخرى التى لا تزال حتى الآن تعتبر اهم صناعة فى الوجود ، لانها صناعة الكساء عن طريق الغزل ، وقد خلف لنا الانسان المصرى فى آثاره من هذه الحقبة انسجة الكتان التى يعجب ائمة النسيج فى ايامنا هذه كيف استطاع المصريون أن يتطوروا فيما بعد بهذه الصناعة الى هذا الحد المعجز . واذا كان الانسان المصرى قد حذق صناعة الفخار والنسيج فلا عجب اذا خلف لنا فيما خلف من صناعات هذا العهد ، السلال والحصير والحبال وتغص اليوم المتاحف ودور العادبات بهذه الآثار التى استجلبت كلها من مناطق معروفة ومشهورة بين علماء الآثار والمشتغلين بالتاريخ هى مرمدة بنى سلامة ــ حلوان ــ والفيوم ــ دير تاسا .. الخ (١) .

عصر بداية المعادن فى مصر :

وتلا هذا العصر الحجرى الحديث المبكر فى مصر عصر بداية المعادن ، أى منذ اواسط الالف الخامس قبل الميلاد ، فبدأنا نرى مصنوعات نحاسية فى منطقة البدارى باسيوط ومنطقة نقاده .

ويحاول الباحثون وعلماء الآثار ان يتخيلوا كيف توصل المصرى القديم الى استخلاص النحاس من مركباته لاول مرة من خلال عمليات الصهر بالنار ، ويبدأ خيالهم من الحقيقة الثابتة وهى ان النحاس متوفر فى شبه جزيرة سيناء حيث يختلط بكربوناته الخضراء (التوتيا الخضراء) والزرقاء (كبريتات النحاس) فلابد أن يكون حدث مرة ان استعمل بعض هذه الاحجار فى موقد من المواقد فاذا هو يكتشف يوما من الايام بمحض الصدفة قطعة من المعدن البراق فى مخلفات النار .

وكيفما كان الامر فقدعرف المصرى القديم صناعة التعدين وهى استخلاص النحاس من مركباته مبتدئا بذلك مرحلة من مراحل التطور البشرى ، وتتجلى أهمية

(١) المرجع السابق ــ ص ٩٢ .

هـذا الكشف اذا تذكرنا ان النحاس لايزال هو اعظم وسـيط لنقل الكهرباء التى تؤلف القوى المحركة فى دنيانا الحديثة .

وهكذا بدانا نرى فى آثار المصرى القديم الادوات الحجرية القديمة والفخار .

ومضت صناعة الآلات فى تطورها نحو الفاعلية والدقة ، فطرا تغيير جديد على صناعة البناء .. اذ اصبح المصرى يبنى بيته بقوالب منظمة الشكل من الطين بدلا من هـذه (الجواليص) غير المنظمة التى كان يبنى بها مسكنه من قبل . ومع اكتشاف صنع قوالب الطين (اللبن) كانت صناعة البناء تدخل مرحلة جديدة سوف تصل فى ذروتها الى الاهرام كما سترى .

انشـاء المدن :

وظهرت المدن بمعناها المفهوم لنا لأول مرة على صفحات التاريخ حيث يسكن الزراع والصناع واصحاب الحرف الاخرى الى جوار بعضهم فى علاقات منظمة تحكمها قيادة واحدة وتقاليد واحدة ، وانظمة واحدة . وكانت المدينة تنشأ دائما حول هيكل الرب المعبود لهذه الجماعة . ولا شك فى أن كاهن هذا المعبد وسادنه كان هو أول حاكم وملك للجماعات الاولى فقد كانت السلطات كلها تنحدر من هذا الاله ، والقوانين والتعاليم والأوامر والنواهى كلها لا تتصور الا باعتبارها أوامر الاله ، فكان الناطق باسم لاله هو دائما صاحب السلطة والآمر المطاع ... وهى حالة ستظل تقابلنا فى كل مجتمع من المجتمعات القديمة ... وستظل تهيمن على المجتمع البشرى خلال العصور ، ولا نكاد تخف حدتها فى بعض المجتمعات حتى تعود لسلطانها كاقوى ما كانت فى اى وقت مضى . كما سيكون عليه الحال فى أوربا فى ظل المسيحية وبابوات المسيحية ثم ملوك المسيحية .

تكوين الدولة المصرية :

ونشأة المدن حول هيكل المعبود وتمتع سادن الهيكل بالسلطة والنفوذ ظاهرة مقررة فى كل المجتمعات ... ولكن كثيرا من المجتمعات حتى فى عصور متأخرة وحديثة قد ظلت عند دائرة المدن لا تعدوها ، فتؤلف كل مدينة وحدة سياسية قائمة بذاتها ويكون لها جيشها الخاص واستقلالها الذى تحرص عليه كما حدث ذلك عند الاغريق .. بل وفى ايطاليا واوروبا فى العصور الوسطى .

ولكنا نرى مصر القديمة تشذ عن هذه القاعدة منذ عصر مبكر فنراها كلها وقد توحدت فى ظل دولة مركزية فى العالم كله ، حيث تدار الامور من عاصمة تخضع لها سائر المدن والمناطق ، ولا شك فى أن نهر النيل وفيضانه السنوى كان هو العامل الذى ادى الى توحيد مصر فى هـذا العصر المبكر . فقد كان هـذا الفيضان الذى يشكل فى كثير من الاحوال داهما مشتركا لكل من يعيش على ضفتيه ، ولم يكن هناك سـبيل لدفع هذا الخطر الا من خلال تعاون جميع الساكنين على شاطئيه ،

واذا كان النيل من ناحية أخرى يؤلف شريانا حيويا للمواصلات ، وليس كالمواصلات بين الجماعات سبيلا الى توحيدها وتجميعها ، فقد انتهى النيل بأن كان على رأس العوامل التي وحدت مصر سياسيا . ولذلك فليس هناك ما هو أصدق من كلمة هيرودوت المؤرخ الاغريقي الذي سيزور مصر في القرن الخامس قبل الميلاد .. عندما يقرر أن مصر هبة النيل ، فها هو النيل يخلق أول دولة وسس على الطراز العصرى منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وقد كان النيل قبل ذلك هو خالق دلتا النيل خلقا من العدم بما يجلبه كل عام من طمى يقذف به الى البحر (١) .

عهد الأسرات :

وهكذا يطالعنا تاريخ مصر بجلوس مينا على عرش المملكة المصرية الموحدة ، ويلبس لأول مرة تاجي الوجه القبلي والبحرى معا عام ٢٩٠٠ ق.م على أكثر الآراء مبالغة في تقريب هذا التاريخ (٢) اذ أن هناك كثيرين وعلى رأسهم بريستيد يرجعون بهذا التاريخ خمسة قرون الى الوراء .

وهكذا نرى أنفسنا لأول مرة أمام أكبر تكتل بشرى يمتد على رقعة طويلة من الارض ويخضع لسلطة مركزية تبدأ برئيس دولة يعاونه وزراء وقضاة ويبعث بحكامه الى بقية المحافظات والمديريات .. ويجبى الضرائب ويقيم العدل بين الناس على أسس من قوانين ثابتة مكتوبة وأنظمة ادارية محكمة .

وبدأنا نشهد مجتمعا ينطوى على كل ما تنطوى عليه مجتمعاتنا الحديثة من مظاهر ومقومات ، فعمل في سبيل الانتاج ، وعمل في الادارة ، بجد ولهو واستمتاع مادى ومعنوى بالحياة . وأجود الأطعمة المطهية والاشربة والانبذة والفواكه وأصناف الحلوى والخبز والكعك ، كل ذلك قد عرف طريقه الى المائدة .

والفنون بكل أنواعها من موسيقى ورقص وشعر وأدب ورسم ونحت ، بل ان النحت ليصل الى ذروة لم يصل اليها أى نحات في القديم أو الحديث . والألعاب الرياضية والعاب الفروسية ، من قذف بالجلة والرمح والعدو والمصارعة والملاكمة والسباحة والتجديف والصيد كل ذلك قد أصبح يمارس على أوسع نطاق .

وأصحاب المهن والصناعات المتخصصون بدأوا في الظهور ابتداء من البنائين والنجارين والمبيضين ، حتى الكتاب والموظفين والأطباء والمعلمين . وهكذا نرى الانسان قد توصل في هذا العهد البعيد الى الحياة الاجتماعية الراقية كما نفهمها وكما نزاولها ، ويستمتع بحياته كما يستمتع بها أحدث انسان عصرى ، عندما يتخذ من لعب الكرة أو مشاهدة مباريات الكرة أعظم هواياته .

---

(١) تبلغ كمية الطمى التي يحملها النيل الى مصر سنويا ٨٥ مليون طن أنظر كتاب من وحى الحروب للمؤلف .

(٢) موسوعة تاريخ العالم .

اختراع الورق :

واذا كان انسان ما قبل التاريخ قد وضع أسس اللغات أو صناعة الآلات .. الخ مما أشرنا اليه فيما سبق ، فان أحد اختراعات انسان التاريخ جدير بأن يشار اليه لعظيم خطره فى الأجيال والقرون التالية وذلك هو اختراع الورق ، فلو لم يكن الورق لظلت الكتابة بكل جلالها وخطرها محدودة النفع والاثر ، وليس مثلنا فى العصر الحديث من يقدر قيمة الورق ، وكيف أن حضارتنا الحديثة اذا كان يحلو للكثيرين أن يصفوها أحيانا بأنها حضارة الحديد والصلب والكهرباء ، ويقيسوا رقى الشعوب بنصيب كل فرد من الصلب أو الكهرباء ، فما احراهم أن يصفوها أولا بأنها حضارة الورق قبل ان تكون حضارة الصلب والكهرباء . فلولا الورق لما كان شىء من ذلك كله ، وانى لأجهد نفسى فى تصور ماذا كان يمكن ان تكون عليه حياتنا لو لم يكن فيها هذا الورق اكان من الممكن أن أخط هذا الكتاب .. أكان من الممكن أن يجد سبيله الى الوف القراء ما لم يكن هناك ورق .. من اين كنت أستقى معارفى اذا لم يكن هناك ورق .. كيف يمكن للتعليم أن يتم بغير كتب وورق ، كيف يمكن لاية حكومة ان تزاول سلطانها عن غير طريق الورق ، اكان يمكن لأى اختراع أو اكتشاف أن يتم ما لم يكن هناك ورق توضع عليه الرسومات الاولى والتصميم .

والانسان فى مصر كان هو أول صانع للورق بلا جدال أو شبهة ولذلك لا يزال اسمه فى اللغات الأوروبية كلها يحمل الاسم المصرى الذى اشتقه الاغريق من اسم نبات البردى وهو papjrus ، وسوف ترى أن الاداة التى يصنع منها الورق سوف تتغير على مر العصور .. فيصنع أحيانا من رق الغزال أى جلده ، وسيصنعه الصينيون من القماش وسنصنعه فى عصرنا الحديث من لب النباتات .. ولكن الأساس والفكرة واحدة وهى صنع هذه الاداة الخفيفة البسيطة البيضاء لنكتب عليها .

الهندسة والرى والطب والفلك والكيمياء والتعدين :

وبقيام المجتمع المتكامل والدولة الموحدة ، كان طبيعيا أن تصب المعارف الانسانية فى علوم يستقل بعضها عن بعض ويتخصص فى كل فرع منها المتخصصون ، فكان علم الفلك حيث استطاع الانسان فى هذا الوقت البعيد أن يحدد السنة الشمسية بـ ٣٦٥ يوما ، ولن تتجلى عظمة هذا الكشف الا عندما تدرك ان الانسانية بعد ذلك لم تستطع أن تغير من هذا الحساب الا بقدر خمس ساعات وكسور . وقام علم الهندسة والطب والكيمياء والجيولوجيا أى التعدين ووجد الأطباء والمهندسون والكيميائيون والوزراء والحكام الاداريون والقضاة والكتبة وسائر الموظفين .

الدين :

ووصل الوازع الدينى ، أو بالأحرى الضمير الانسانى وهو المقياس الذى يمكن أن يقاس به درجة رقى أى مجتمع الى درجة عالية ، ولست أحسب أن هناك ما يمكن أن نسوقه لتصوير ما كان عليه الانسان فى مصر فى هذه الحقبة من التاريخ،

من حيوية الضمير ويقظته أكثر من أن تنقل نصا واحدا من مئات النصوص التي وجدت منقوشة على القبور والتي يقدم فيها الميت الحساب عن أعماله .

فهذا حاكم مقاطعة (جبل الحية القرناء) يقول عن نفسه :

« لقد كنت أعطى الخبز لكل جائع في جبل الحية القرناء .

« ولقد كسوت كل من كان عاريا هناك .

« لقد ملأت شطوطه بالماشية الكبيرة وأراضيه المنخفضة بالماشية الصغيرة .

« ما ظلمت أحدا حتى شكا مني بسبب ذلك لاله مدينتي ، ولكنني كنت أنطق بما هو خير واتحدث به .

« لم يوجد شخص يستولى عليه الخوف بسبب شخص أقوى منه حتى شكا منه للاله .

« لقد كنت صانع معروف ، اني لا انطق بأكذوبة ، لأني كنت شخصا يحبه أبوه وتثنى عليه امه ، فائق الخصال نحو أخيه ومحبوبا لدى أخته (١) » .

وقد يكون كل ما جاء في هذا النص ، لاينطوى على غير المباهاة والتفاخر الكاذب، فنحن نعلم أن الحكام في كثير من الأحيان يقولون ما لايفعلون ، بل أن ماكيافللي قد أوصى الحكام بذلك على أساس أن ذلك هو فن الحكم . ونحن نعلم أن اتباع الحكام ينافقونهم فيصفونهم بما ليس فيهم ، وقد يصفونهم بالعدل وهم في أوج الطغيان ، ومع ذلك فان هذا النص يسجل لنا دستور الحكم ومبادئه الانسانية من ناحية والأخلاق الفاضلة من ناحية أخرى والتي يجب أن يتصف بها الحاكم ليكون جديرا بالثناء عليه عند الآلهة وعند الناس .

وانظر اليه وهو يتحدث عن توفيره أنواع الماشية ووضع كل منها في مكانه الصحيح تراه يفتخر بما تفتخر به الدولة العصرية بمضاعفة الانتاج .

وانظر اليه وهو يتحدث عن اطعام الجائع وكسوة العاري تجد أن الفكرة الاشتراكية التي تقوم على احسان التوزيع بين الناس كانت معروفة لدى هذا الحاكم منذ ستة آلاف من السنين .

وانظر اليه وهو يقول انه لم يوجد في رعاياه من يمتلىء قلبه خوفا من انسان لكونه أقوى منه .. لترى أعظم مظاهر الديمقراطية التي تقوم لتأكيد حقوق الانسان أو ما نطلق عليه التحرر من الخوف . وأخيرا أنظر الى علاقته بأبويه وأخيه وأخته وكيف يفخر بأنه كان محبوبا منهم جميعا ، تجد أمامك النفس البشرية في رقتها وصفائها .

ولعل القارىء يدرك قبل ذلك من مطالعة هذا النص ، أن أشد ما يفزع الحاكم في الدرجة الأولى ، هو أن يشكوه المظلوم الى اله المدينة .

(١) بريستيد ـ تطور الفكر الديني في مصر القديمة ـ ص ٢٤٢ .

التدين سر الحضارة المصرية :

والحق أن الخوف من الله كان هو مفتاح الحضارة المصرية القديمة ، وليس باستطاعتنا ان ندرك قليلا أو [illegible]ن تفوق قدماء [illegible] [illegible]خارق الا على ضوء فهم عقيدتهم الدينية التى كانت تملأ عليهم كل حياتهم . لقد كانوا ينظرون الى الدنيا باعتبارها معبرا الى الحياة الثانية ، وليس باستطاعتنا فى هذه العجالة أن نفصل الكثير من أحكام هذه الديانة (١) ، وحسبنا أن نشير الى أن المصريين قد عرفوا جوهر الأديان كلها ، وأعنى به الايمان بالامور الغيبية ، كالبعث بعد الموت والحساب على ما قدمت يد الانسان فى هذه الدنيا ، ثم الثواب والعقاب فاما الى جنة الخلد أو الى قاع الجحيم ، واذا كان القرآن الكريم قد تحدث كثيرا عن الميزان الذى توزن به أعمال الانسان (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) فان قدماء المصريين بلغتهم التصويرية قد صوروا الميزان على جدارن قبورهم وقد وضع فى احدى كفتيه قلب الانسان .

اهرامات الجيزة :

والحق أن ايمان المصرى القديم قد أوصله الى درجة جعلته يفعل المعجزات التى ما كان يمكن أن يقوم بها لولا هذا الايمان .. وعلى رأس هذه المعجزات بناء الهرم .

فنحن نعلم أن الهرم قد بنى على مساحة ١٣ فدانا ويبلغ من الارتفاع ٤٨٠ قدما وقد ظل هذا الارتفاع هو أعلى بناء فى العالم حتى مطلع القرن العشرين اى طوال خمسة آلاف سنة . وقد تطلب من الصخور لبنائه مليونين وثلثمائة الف حجر ، متوسط ثقل الصخرة الواحدة طنان ونصف ، اى أن ثقل هذه الاحجار فى مجموعها يبلغ خمسة ملايين طن . وقد قطع الجزء الاكبر من هذه الصخور من جبل المقطم ونقل الى صحراء الهرم عبر النيل . أما كسوة الهرم الخارجية ودهاليزه الداخلية وحجرات الدفن فقد صنعت من حجر الجرانيت الذى استجلب من أسوان ، وحيث تبلغ زنة بعض الاحجار من عشرين طنا الى ١٥٠ طنا (٢) .

وعلينا أن نستحضر الآن فى أذهاننا ، أن الصلب لم يكن قد عرف فى ذلك الوقت وكذلك الطاقة الكهربائية ، فبأى قوة وطاقة أمكنهم قطع هذه الاحجار ونحتها ، ثم نقلها هذه المسافات الطويلة ورفعها بعد ذلك الى هذا المدى الكبير .

بل علينا أن نتصور قبل ذلك وبعد ذلك ، بأى عقول قد صممت هذه الأهرامات ورسمت ، ثم بأى قدرة وبأى تجربة وبأى فن نفذت بهذه الدقة العجيبة التى تذهل أعظم المهندسين دقة فى العصر الحديث فحيث يبلغ طول ضلع قاعدته ٧٥٠ قدما فان نسبة الخطأ فى طول بقية الاضلاع والمسح والفراغ لا تبلغ $\frac{١}{١٠٠٠٠}$ كما أن مواضع

---

(١) اقرأ المؤلف كتاب « فى الايمان والاسلام » .

(٢) ول دورانت ــ قصة الحضارة الجزء الاول ــ ص ٧٠ .

تلاصق الصخور الضخمة لا تزيد مسافتها ١/١٠٠٠٠ من البوصة . ويقول بريستيد « وأن هذه الدقة فى السطوح والحافات التى تشمل مسافات تقدر بالأفدنة مما لا يمكن مقارنته بدقة المهندسين العصريين ، الذين لا تتعدى دقتهم بضع أقدام أو ياردات » (١) .

الأهرام رمز لقدرة الانسان :

وما أكثر ما ارتفعت الاصوات من حين لآخر تحاول على ضوء مقاييس العصر الحديث ان تحكم على صواب هـذا العمل ، وان تتخذ منه رمزاً على الطغيان والاستبداد وان تصور الأهرام على انها مجرد قبر لانسان فرد ، وعندنا أن ذلك كله هو اون من الوان التخبط والقاء الكلام على عواهنه ، فما كان الطغيان بقادر على أن يبنى ويعمر فضلا عن ان ينشىء معجزة الدهور كلها .

وما كان لشعب يرزح تحت اثقال الظلم ، أن ينهض بهذا العمل الجبار ، ولا ان يجد العقول المبدعة التى تبدعه ، وانما الحق يقال أن ليس سوى شعب مؤمن بفكرة الخلود ، وتوفرت لديه العزيمة على تحدى الزمن وعوامل الفناء ، من يقدر على بناء هذا الهرم الذى قال قائلهم فيه بحق « أن العالم كله يرهب الزمان ، ولكن الزمان ، نفسه يرهب الأهرام » (٢) .

والحق أن بناء الأهرام يجب أن ينظر اليه على انه رمز لعظمة الانسان فى كل زمان ومكان ، وكما يحاول كل شعب وتحاول كل أمة ان تبنى بناء يرمز لما وصلت اليه من قوة واقتدار .. فيجب أن يعتبر الأهرام رمزاً ناطقا على مر الدهور ، أن الانسان قبل خمسة آلاف سنة وصل الى هـذه الدرجة من القـوة والاقتدار والسيطرة على الطبيعة وتحديها .

وذلك ما كتبته فى كتابى تاريخ الانسانية الذى هو فى حقيقته فصل من كتابى الأكبر عن الامة الانسانية والذى حاولت عند كتابته ان انسلخ من عواطفى ومشاعرى المحلية والاقليمية وأن اتحدث بمشاعر الانسان الذى ينتمى الى الانسانية جمعاء دون أن يتعصب لوطن من الأوطان .

ولكن تاريخ مصر والاشادة بحضارتها قد فرض نفسه على فرضا كما يفرضه على كل من يحاول دراسة تاريخ الانسانية فأيا كان منشأ الانسان الأول وأيا كانت الحضارات الاولى لبنى الانسان فالامر المحقق ان الحضارة الانسانية كما هى اليوم تبدأ طلعتها بحضارة مصر القديمة فعنها نقلتها فينيقيا ونشرتها فى أرجاء حوض

(١) بريستيد ـ تاريخ مصر ـ ترجمة حسن كمال ـ ص ٧٧ .
(٢) دورانت ـ قصة الحضارة ـ ص ٧٢ .

البحر الأبيض ثم كان الاغريق الذين انتفعوا بهـذه الحضارة وبداوا يحولونها الى علوم نظرية تلقفها منهم العالم بعد ذلك .

ويتصور الكثيرون أن دور مصر الرائد يقف عند التاريخ الفرعونى ولكنك سترى فى هذه الموسوعة أن مصر بحكم تكوينها الجغرافى الذى يكاد يجعل منها قلب العالم قد فرض عليها أن تقوم بدور الريادة على مر عصور التاريخ وهذه حقيقة تخفى على بعض العلماء والمحققين انفسهم ذلك أنهم يتصورون أن مصر قد فقدت هذه الرياده بعد العصر الفرعونى وهناك باحثون يضيفون الى هذا العصر تاريخ مصر الاسلامى ولكنهم يتصورون مصر قد غرقت فى الظلام وأصبحت لا تؤدى دورها القيادى للعالم خلال فترتين الفترة الأولى خلال الحكم الرومانى لمصر والذى ينتهى بدخول الاسلام الى مصر والفترة الثانية خلال الحكم العثمانى والتى تنتهى مع بداية تاريخ مصر الحديث الذى يبدأ بحملة نابليون ولكنك سوف ترى فى هذه الموسوعة من الحقائق التاريخية الثابتة أن مصر لم تكف عن اداء رسالتها وأرسال اشعاع النور فيما حولها يوما واحدا وكل الاختلاف الذى كان يحدث هو فى درجة هـذا الاشـعاع وقوته وحسبك أن تعلم أن مصر فى عهد الرومان كانت تخوض معركة المسيحية ضد الوثنيه حتى انتهى الأمر بانتصار المسيحية كما سوف ترى .

ولذلك فقد تحدثت عن تاريخ الكنيسة المصرية بأسهاب نسبى باعتباره جزءا لا يتجزأ من تاريخ مصر ، وانى لاعتز بهذه الاضافة فقبل هذه الموسوعة كان تاريخ الكنيسة القبطية يكتب على حـدة مع انه هو كل تاريخ مصر فى هـذه الحقبة من تاريخها ، قبل ظهور الاسلام كانت المسيحية والكفاح فى سبيل نشرها وفهمها هى أعلى ذروة للحضارة الانسانية .

ويرجع عزمى على تأليف هذه الموسوعة أو بالاحرى الحافز الذى دفعنى بطريقة مباشرة الى صياغتها على هذا النسق هو انه وقع فى يدى ما يسمى موسوعة تاريخ العالم الذى اشرف على وضعه وليم لانجر ونسقه بطريقة السنوات اى أن الانسان يستطيع أن يعرف ماذا حدث فى أى بلد من بلاد العالم فى سنة معينة فهو أشـبه بالقاموس منه الى كتب التاريخ فعن لى أن أصوغ تاريخ مصر بهذا اسلوب ورأيت أن أشرك معى فى وضع هذا القاموس عن تاريخ مصر بعض زملائى المتخصصين كل فيما تخصص فيه كالاستاذ أحمد عزت فى التاريخ الفرعونى والاستاذ محمد صبيح فى التاريخ الاسلامى والاستاذ أنور الجندى فى التاريخ الحديث والاستاذ عبد العزيز الدسوقى لتاريخ الادب بالذات . ولكن الفكرة تطورت بعد ذلك فلم اشـأ أن الجأ لاسلوب لانجر فقد كان مضطرا الى هذا الاختزال الشديد لانه يؤرخ للعالم كله وأراد أن يكون كتابه اشبه بالقاموس أما أنا فأؤرخ لوطن واحد . ولما كنت مولعا طـوال حياتى بتاريخ مصر فأردت أن يكون الكتاب موسوعة بالفعل وأن أنفرد بوضعه حتى يكون هناك تناسق فى جميع أجزائه وانا على ثقة أن سيأتى بعد ذلك دور احتشاد

المتخصصين لوضع موسوعة عن تاريخ مصر وقد يكون اصدار هذه الموسوعة بالذات حافزا على ذلك فشرعت فى العمل على بركة الله وكانت المصادرمتوفرة بكثرة كبيرة عن العصر الفرعونى وعن العصر الاسلامى والحديث ولكنها شحيحة كما قدمت عن العصر الرومانى والعثمانى ولكنى استطعت بعون الله أن اغطيها كما سوف يرى القارىء بحيث لا يشعر بالفراغ فى هاتين الحقبتين . وكان فى عزمى وتصميمى أن اتحدث عن هذه المصادر وأن أعرف بهاالقارىء فى توسع واسهاب فى هذه المقدمة ولكن شاءت ارادة الله الحكمة يعرفها أن أصاب بالشلل الكلى فى أكتوبر عام ١٩٦٩، وكنت قد وصلت فى الموسوعة الى سنة ١٩٠٨ ولم أفرغ من كتابة المقدمة التى كنت قد أخرت كتابتها حتى أفرغ من كتابه التاريخ كله . واليوم وبعد قرابة تسعة أشهر وقد من الله على بحياة جديدة اعود بعون الله وحمده للامساك بالقلم لاقدم هذه الموسوعة بعد أن تفضلت ادارة « كتاب الشعب » فرات أن تقدم هذا العمل الذى قطعت فى تاليفه بضع سنوات وقدمت فى النهاية صحتى على مذبحه .

واذ أعود للكتابة فلست بمستطيع ان انفذ ما كان فى عزمى وهو ان أصوغ هذه المقدمة كما كنت أشتهى وارغب تاركا التعريف بالمصادر الى نهاية البحث ولكن الامر الذى لا أستطيع تأخيره ولكنى استطيع ان اوجزه فى هذه المقدمة هو الانطباع العام الذى استقر فى ذهنى عن طبيعة الشعب المصرى ودوره فى التاريخ والخصائص التى اختص بها من بين شعوب العالم وجملة ما يقال فى ان الشعب أن طبيعة مصر والنيل جعلت الشعب المصرى يستقر على الارض المصرية ويكون سباقا الى اكتشاف الزراعة والزراعة بطبيعتها تحتاج الى الاستقرار والامن والسلام وتحتاج قبل ذلك وبعد ذلك الى سلطة قوية لاقرار هذا الامن وهذا السلام . فالشعب المصرى شعب متحضر من الراس حتى أخمص القدم . اذ كان هو منشىء الحضارة الانسانية . ثم توالت عليه مختلف الحضارات الانسانية ، من فرعونية واغريقية ورومانية ومسيحية واسلامية وحديثة واصبحت الحضارة تجرى فى دمه والحضارة عنده هى فى ان يعيش فى امن وسلام ويعمل وينتج ويؤمن بالله وانه ستكون حياة ثانية ، وهو يقدس العدل على الارض ، ويحافظ على الحقوق ، ويكره العنف ويميل الى حل كل مشاكله بالحق والعمل والانتاج .

وسوف يعرض لنا ان الشعب المصرى تعرض خلال حياته الطويلة الى غزوات الشعوب الاقل حضارة منه والتى لا تزال فى أدوارها البدائية الاولى ، فغلبوه على أمره واستولوا على السلطة ، ولا لوم فى ذلك على الشعب المصرى ولا تثريب ، فان أى انسان بدائى ، يستطيع أن يغلب اى انسان مثقف ، وكذلك شأن الجماعات كلما كانت أكثر بدائية ، كانت اكثر همجية ووحشية اى تميل الى العنف فى حل مشاكلها .

وقد استطاعت مصر دائما أن تغزو غزواتها ، فتحضرهم بحضارتها ومدنيتها ، ثم لا تلبث أن تنتصر عليهم ، اذ يكون مصيرهم الزوال ، ويبقى الشعب المصرى

ماضيا فى طريقه ، مؤديا رسالته فى الحفاظ على المدنيـة والحضـارة السائدة فى العالم ، والتى لا يتغير لبها وجوهرها أبدا ، وهى العمل والانتاج فى ظل السـلام القائم على العدل .

سوف يمر علينا فى هذه الموسوعة استيلاء كثير من الامبراطوريات على مصر . فيجب أنلا يزعجنـا ذلك ، ويقلل من اعتزازنا بأنفسنا ، فهـذه الامبراطوريات لم تستول على مصر فقط ، بل استولت على كل العالم المعروف فى وقتها ، وكانت هذه الامبراطوريات لا تستكمل قوتها وعظمتها ، وقدرتها على الحياة الا بالاسـتيلاء على مصر قلب العالم ، وسرعان ما كانت مصر تلعب دورا رئيسيا فى حياة الامبراطورية الغازية ، ثم لا تلبث هـذه الامبراطوريات أن تزول وتبقى مصر ويبقى شعبها كما قدمنا ، حصنا للحضارة والمدنية . وقد كان من حظنا نحن أبنـاء الجيل الحاضر ان نشهد انحلال الامبراطورية الانجليزية التى اعتدت علينا كما سوف نرى فى عام ١٨٨٢ م وخرجت مصر من محنتها أشد لمعانا وتألقا كما كان شأنها دائما . فالشعب المصرى تعلم طوال تاريخه أن ينتصر بالعمل والانتاج والصبر ، ولا يجب أن يخجلنا ذلك فنحن شعب متحضر ومتمدن ، نلوذ بالمثل العليا اكثر مما نلوذ بالقوة والعنف ثمة حقيقة اخرى يجب ان يتمثلها من يطالع هـذا التـاريخ ، وهو يشهد الشعب المصرى يقف دائما موقفا سلبيا ازاء السلطات التى كانت تتنازع فيما بينها لتحكمه، اقول ان هناك حقيقة يجب أن لا تغرب عن بال القارىء وهى ان الدولة فى القديم لم تكن كما هو شأنهااليوم وانما كانت الاسرة والعائلة هى وحدة المجتمع ، فالمصرى منذ اقدم العصور يعنى بعـائلته وارضه ودينه ، فما لم يتعرض له أحد فى هـذه الثلاثة فهو يؤثر العيش فى أمن وسـلام ومن هنـا كان الحاكمون على اختلاف اجناسهم يحرصون اشد الحرص على ترك المصريين ومقدسـاتهم وهى العائلة والارض والدين .

وسيرى المطالع لهذه الموسوعة انها تبدأ تاريخ مصر بتاريخ الكوكب الارضى وذلك لكى يعرف مكانة تاريخ مصر من هذاالكوكب ولكن هذا القسم اقرب الى الجيولوجيا منه الى التاريخ ولكن كان لا مناص من تسجيله وتسجيل تكوين مصر . ولكن هذا الجزء الذى تبدأ به الموسوعة قـد يكون جافا فليتجاوزه القـارىء العـادى الى الفصول التاليةحيث يبدأ تاريخ مصر المتدفق .

والمطالع لهذه الموسوعة سيقطع معنا شوطا كبيرا فعلى بركة الله وباسم الله نقول وبالله التوفيق ، ، ،

الروضة فى ١٩٧٠/٨/١٦

احمد حسين

الفصل الأول

ما قبل مصر والمصريين

وحدة الارض ووحدة الجنس الانسانى

ليست مصر الا جزءا من الكوكب الارضى ، وليس المصريون الا فرعا من هـذا الجنس البشرى .. فتاريخ مصر وأرضها ، هو تاريخ هذا الكوكب ونشوئه وتطوره، وتاريخ الانسان المصرى ، هو جزء من تاريخ الانسان منذ وجد على هذا الكوكب .

وقد انتهى وجدان الانسان ، والمعرفة التى الهمها الهاما ، الى أن هذا الكون الذى هو جزء منه ، من خلق قوة قديمة تسبقه فى الوجـود ، قوة لا أول لها أو آخر . أبدية أزلية عالية ، قادرة ، مريدة ، فعالة ، شـاءت ، لحكمة لايدركها الانسـان ولا يستطيع أن يدركهـا ، أن تحـدث هـذا الكون وأن تخلق الحيـاة والانسـان .

والاديان السماوية التى حملها نفر من اعلام البشر وهداتهم ، قـد تحدثت عن هذا الاله الخالق ، ودعت الانسان لعبـادته بالعمل والانتـاج والعيش فى تعـاون وسـلام .

والاحاطة بالاله الخالق المبدع على هذه الصورة التى عرفها الانسان من خلال الوجدان والالهام ، لا يمكن أن تكون من موضوعات العلم ، الذى يقوم على المحسوس والملموس ، والقياس والكيل والميزان ، والعقل بكل مداه ليس الا جزءا ... والله هو الكل وما كان الجزء ليحيط بالكل ، ولذلك فمعرفة الله لا تتم الا بالوحى والالهام والوجدان الذى هو سر يعلو على سر العقل .

وقد انتهى العلم الى ما انتهى اليه الوجدان من قبله من أن هـذا الكون ، كان حيث لم يكن من قبل . اى انه لم يكن على هذه الصورة التى هو عليها اليوم ، وان ما نراه حولنا من شموس ونجوم واقمار وكواكب ، وبحار وجبال ووديان ، ونباتات وحيوانات وانسان هى ثمرة تطور ونشوء وارتقاء .

بدأت رحلتها الأولى من المـادة المجردة ، التى كان يظن فى وقت ما ، انها مؤلفة من هذه الذرات التى تكون مختلف العناصر ، ثم تبين أن هذه الذرات ليست كلهـا سوى ذبذبات كهربية ما بين سـالب وموجب على اختلاف فى النسب ، وان هـذه الذبذبات أو الأمواج الكهرومغناطيسية ، تطور من الاشعاع الذى هو أحد خصائص الضوء ، وهكذا انتهى العلم المادى الحديث ، الى أن لبنـة لكون الاولى هى وحدة الضوء .... وهكذا انتهى بنا العلم المـادى التجريبى ، الى حيث توصل الانسـان منذ اللحظة الأولى ، بأن الله خلق نور السموات والأرض ، أو كما يقول كتاب العهد القديم فى البدء كان النور .

وليس من مهمـة كتاب يؤرخ لجزء من الكوكب الأرضى ، أن يخوض فى مباحث لاهوتية عن اثبات وجود الله ، فنحن انما نبدأ تاريخنـا من الحقيقـة المحسـوسة

الموجودة . من ان هذا الكوكب الذى نعيش عليه موجود قائم ، وانه كان حيث لم يكن من قبل .

وتقول أرجح النظريات الفلكية ، ان الأرض فى أصلها جزء من الشمس كبقية الكواكب انفصلت عن الشمس ، وقيل فى سبب الانفصال عديد من النظريات . وهناك قول بأن الأرض هى جزء من نجم آخر غير الشمس قد تمزق ، وهى تدور حول الشمس طبقا لقانون الجاذبية .

ومرة اخرى تبين لنا الحقيقة المحسوسة الملموسة من أننا نعيش على هذا الكوكب الأرضى ، والذى كان يظن أن الشمس تدور حوله ، ثم ثبت لنا أن الأرض هى التى تدور حول الشمس .

والرأى العلمى الآن على أن الأرض ، بدأت حياتها المستقلة على صورة كرة هائلة من النيران والمواد الملتهبة ، تنطلق فى الفضاء دائرة حول الشمس فيما يوصف بأنه قطاع اهليلجى ، اى اقرب الى شكل البيضة منه الى الكرة ، بسرعة ١٨٫٥ ميلا فى الثانية ، وعلى بعد ٩٣ مليون ميل تقريبا .

وكما كان رأى العلم يكاد يستقر على أن الأرض قد انفصلت عن الشمس ثم نشأت نظريات تقول غير ذلك ، فكذلك كان العلم قد أوشك على أن يستقر على أنه لأمر ما انفصل القمر عن الأرض ، حتى لقد حددوا المكان الذى انفصل منه جرم القمر وهو المحيط الهادى فقد نشأت نظريات تقول غير ذلك . ولا جدال أن وصول الانسان الى القمر ، سوف يزيد من تحقيق هذه الواقعة ، وعما اذا كان القمر قد انفصل من الأرض ، أم أنه قد تكون بصورة اخرى .

والمهم أن ثمة قمرا يدور حول الأرض والأرض تدور حول الشمس .. والفضاء يغص بالنجوم والكواكب والشموس .

عمر الأرض بالطبقات والأملاح :

وقد اهتدى الانسان فى العصر الحديث الى ما يشبه أن يكون ساعة زمنية لتحديد عمر صخور القشرة الأرضية التى تكونت بعد أن برد سطح الكرة الارضية الملتهبة وذلك عن طريق حساب الزمن اللازم لتحويل اليورانيوم الى رصاص .

ولكن كم من الوقت مضى قبل أن يبرد سطح الكرة الأرضية وتنشأ قشرتها وتتنوع صخورها ، كل ذلك لا يزال محلا للتخمينات ومختلف النظريات فقدره البعض بألفى مليون سنة .. بينما يضاعف البعض هذا الرقم فقدره بأربعة آلاف مليون سنة ، وكل ذلك لا يعدو أن يكون فروضا وتخمينات لا تعتمد على أساس يعتد به ومع ذلك فلا مناص لنا من أن نتخذ من هذه التخمينات نقطة ابتداء لتاريخ الأرض ، وبدء تكون قشرتها الارضية ، لنبدأ رحلتنا الزمنية عبر هذه الدهور والحقب السحيقة والممعنة فى القدم .

٤٫٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ — ٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠

التاريخ المفترض لبدء تكون القشرة الأرضية وتخانتها وتقلصها .

٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ — ٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠

العصر الاركى ، أو ما قبل الكامبرى Pre-Cambrian Time

وهو ما يطلق عليه بالعربية اسم الدهر السحيق ، وفى هذا الدهر تكونت الصخور النارية المعروفة كالجرانيت والبازلت والصخور المتحولة من هذين النوعين .

ومن المؤكد أن الأرض لم تعرف الحياة فى الثلثين الأولين من هذا الدهر ، ولكن بعض العلماء لا يستبعدون نشوء الحياة فى البحار فى الثلث الأخير من هـذا الدهر ، ولا يغض من هذا الفرض عدم عثورنا فى صخور هـذه الحقبة على بقايا هذه الحياة فان هذه الصور البدائية البسيطة من الحياة ، لا يمكن أن تترك أثرا على الصخور .

٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ — ٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠

حقبة الدهر القديم أو الباليوزوى Paleozoic Era وفى هـذا الدهر الأحدث عهدا نسبيا بدأت معالم الأرض تتحدد وبدأ كتابهـا يصبح أكثر يسرا فى مطالعته ، وذلك بسبب نشوء نوع جديد من الصخور الرسوبية ، التى هى فى الأصل فتات من الصخور القديمة ، فدلتنا هذه الصخور على طغيان البحر على اليابسـة وانحساره عنها أكثر من مرة .

وينقسم هذا الدهر القديم فى دراسته عادة الى ستة أزمنة تتمايز بأنواع الحياة المختلفة ، فنرى فى أولها ازدهار الحياة النباتية فى المستنقعات والبحيرات والحيوانات وحيـدة الخليـة واللافقرية ، ثم نشوء أول صنوف الأسـماك ثم ظهور النبـاتات الأرضية ، فالحيوانات البرمائية الاكثر تطورا ، فأول أنواع الزواحف ، حيث بدأت الحياة تتعلم كيف تتنفس الهواء ، وان ظلت جذورها فى الماء ، ولذلك فقد كان يتعين عليها دائما أن تعود اليه لتضع بيضها .

على أن كل أنواع الحياة فى هذه الحقب القديمة تخالف كل الاختلاف ما نعرفه من حياة فى حقبتنا الحديثة .

٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ — ٧٠٫٠٠٠٫٠٠٠

حقبة الدهر الوسيط الميزوزى Mesozoic Era وتتميز هذه الحقبـة بالهدوء النسبى فلم تحدث هزات أرضية أو بركانية شديدة ونشطت حركة التعرية ،وتنقسم

هذه الحقبة فى دراسة الاحياء بها الى ثلاثة أقسام ، فتشاهد فى القسم الاول منها أول نشاة حيوان الديناصور .

وفى القسم الثانى منها يصل الديناصور الى ذروته فيبلغ طوله من الراس حتى الذنب ٨٤ قدما ويعتبر بذلك (ملك الأرض) وتبلغ بعض الزواحف الى مائة قدم ، كما ينشأ نوع من الطيور الجبارة . وفى القسم الثالث والأخير من هذه الحقبة تنقرض لسبب غير معروف الديناصورات والطيور الجبارة .

كما تسجل لنا الصخور الرسوبية من هـذه الحقبـة حفريات نباتات أقرب ما تكون شبها الى نباتات حقبة الدهر الحديث ، فهى بمثابة حلقة الاتصال ، بين القديم والحديث .

٠٠٠ر٠٠٠ر٧٠ — ٠٠٠ر٠٠٠ر١١

حقبة الدهر الحديث Cenozoic Era وفى هذا الدهر الحديث تكونت سلاسل الجبال العظمى مثل الهملايا وروكى والانديز والألب والبرانس والاطلس ، وانحسر البحر عن جزء كبير من القارات . وغمرت مياه البحر بعض الفجوات والشقوق مثل شق البحر الأحمر .

وقد عرفت الارض فى هذه الحقبـة ازدهار ذلك النوع المتطور من الحيوانات ، التى لم تعد تقنع فى عملية اكثار النوع بوضع بيض تتخلى عنه بعد ذلك ، بل أصبحت تحتضن الجنين فى داخلها وتغذيه من دمها (داخل الرحم) حتى اذا خرج أرضعته من احدى غددها التى تفرز لبنا ، وتلك هى الثدى ، ومن هنا فقد اطلق على هـذه الحيوانات اسم الحيوانات الثديية أو اللبونة وكل ما حولنا من حيوانات فى الوقت الحاضر من أمثال الأرنب والقطة والشاة والبقرة والكلب والأسد ... الخ ليست الا فروعا من هذا النوع الذى عرفته الأرض فى هذه الحقبة .

وقد تنوعت الثدييات وسادت وبلغت ذروة تطورها فيما يطلق عليه اسم الرئيسات Primate وهى الغوريلا والشمبانزى والاورانج أو تانج والجيبون حيث نجد لدى هذه القردة ، أول مظاهر الاجتماع فتعيش متجاورة فى جماعات يقلد بعضها بعضا ويراقبه ويحذره وينذره عند اقتراب الخطر .

وتنقسم هذه الحقبة من الدهر الحديث الى : ما يسمى الزمن الثالث Tertiary الذى ينقسم بدوره الى خمسة اقسام :

٠٠٠ر٠٠٠ر٧٠ **عصر الباليوسين** Paleocene

٠٠٠ر٠٠٠ر٥٨ **عصر الايوسين** Eocene

(حيث بدات معالم القارات الحديثة تاخذ شكلها المعروف) .

ويتلوه عصر الاوليجوسين Oligocene

۰۰۰ر۰۰۰ر۲۱ عصر الميوسين Meocene

وهو العصر الذى ظهرت فيه الحيتان والنسانيس واكلة الاعشاب (وانحدار اجداد اشباه الانسان نحو الغوريلا) .

۰۰۰ر۰۰۰ر۱۱ عصر البليوسين Piliocene

وفيه ظهرت الحيوانات آكلة اللحوم .

ويعقب الزمن الثالث ، الزمن الرابع والذى ينقسم الى عصرين :

۰۰۰ر۰۰۰ر۱ عصر البليستوسين Pliostocene

وهو العصر الذى يعتبره الكثيرون ، عصر ظهور اصول الانسان الأول ، مما يطلق عليه انسان الفجر ، على اختلاف فى ازمنة الوجود ، ما بين المليون سنة والمائة الف سنة . وذلك ان الجليد قد زحف خلال هذه الفترة أربع مرات ، بحيث كان يغطى فى كل مرة الكثير من أجزاء أوروبا وآسيا ، ثم لا يلبث أن يتكشف فتتكاثر الحياة بشتى صورها واشكالها من جديد .

۰۰۰ر۵۰۰ عصر الجليد الأول :

ويعرف باسم جونز Gunz اى التى انكشف فيها الجليد ويقع فى الفترة بين ۰۰۰ر٤٧٥ سنة و ۰۰۰ر۰۰٤ سنة .

۰۰۰ر٤۰۰ عصر الجليد الثانى :

وهو أعظمها شانا وأجلها خطرا والفترة التى توسطت بين هذا العصر والتالى اى انكشف فيها الجليد ۰۰۰ر۳۷٥ ـ ۰۰۰ر١٧٥ ويعرف باسم مندل Mindel

۰۰۰ر١٧٥ العصر الجليدى الثالث :

والفترة التي توسطت بين هذا العصر والتالي هى من ۰۰۰ر١٥۰ ـ ۰۰۰ر٥۰ سنة

١٢٥ر٠٠٠ :

اذا كان بعض علماء الحفريات لا يستبعدون وجود الانسان الأول أو انسان الفجر منذ مليون سنة سالفة ، فان الأبحاث الأكثر واقعية ، تجعل هذا التاريخ هو ١٢٥ الف سنة ، ويطلق على حفريات الانسان فى هذه المرحلة اسم الثقافة أو الصناعة السابقة على العهد الشيلى pre-chellean ، حيث يظهر على الأحجار انها صنعت . وانما استخدمت كما وجدت فى الطبيعة ، وقد كان وجود بعض هذه الأحجار ولها مقابض تلائم قبضة اليد ، ولها طرف واحد ، هو الذى جعل البعض يرجح انها من صنع انسان ذلك العهد وخاصة فى الحقبة الأخيرة منه (دورانت — جزء ١ مجلد ١ ص ١٥٩) .

١٠٠ر٠٠٠ عصر الثقافة الشيلية :

حيث تحسنت الآلة الحجرية بارهاف جانبيها وان ظلت على شىء من الغلظة وبتدبيبها بحيث تتخذ شكل اللوزة .

٧٥ر٠٠٠ سنة الثقافة الأشولية :

٥٠ر٠٠٠ سنة العصر الجليدى الرابع :

والذى انسحب منذ خمسة وعشرين الف سنة ، والرأى على أننا نعيش الآن فى اعقابه .

ويرجح البعض أن الانسان قد اكتشف النار فى هذه الفترة .

٤٠ر٠٠٠ سنة الثقافة الموستيرية :

حيث عثر على انسان نياندرتال وهيدلبرج .

واللذين يعتبرهما البعض أصل الانسان الحقيقى الاول بعد أن انفصل عن القردة العليا مكونا الانسان الحديث .

والقائلون بنظرية تطور الانسان عن الحيوان مازالوا يعترفون بوجود فجوة كبيرة بين ارقى القردة وأول صورة للانسان ، وتبدو هذه الفجوة فى ضخامة مخ أول انسان ، بالنسبة لأرقى نوع من القرود ولذلك يفترض التطوريون دائما وجود حلقة مفقودة لم يتحقق اكتشافها حتى الآن . وتقول الداروينية الحديثة — لتتغلب على هذه الحقبة وتسد هذه الثغرة — ان التطور قد يتم على سبيل الطفرات ويجب التسليم بحدوث طفرة فى الحياة ، انتهت بالانسان . كما حدثت الطفرة فى الحضارة الانسانية كما سوف نرى .

واذا كان ذلك كله لا يزال من باب التخمينات والفروض العلمية التى لم تصل بعد الى حل قاطع قلنـــا ما تقوله الكتب السماوية ، وما يؤيده الواقع المشـــاهد المحسوس بل ويؤكده هـــذا العرض الذى استعرضناه من تطور الثقافة الانسانيـــة وهى أنه منذ كان الانسان انسانا فى أبسط الصور التى يريد التطوريون أن يعتبروها نقطة البدء فانه قد اختص بالعقل والحرية فى الاختيار والعمل الأمر الذى جعله يتكلم ويصنع آلاته ويشعل النـــار ، ويمضى فى تطور مستمر ــ فى الوقت الذى نرى فيه كل ما فى الوجود من كائنات أخرى جامدة ثابتة على صورتها التى هى عليها منذ كانت فى الوجود . ففى الطبيعة اليوم كل صورة الحياة ، ابتـــداء من الخلية الأولى حتى مختلف فروع الأجناس وأطوارها . ولو كانت نظرية التطور صحيحة على اطلاقها ، لوجب أن تتطور هذه الصور البدائية ، الأمر الذى يدل على أن الطبيعة قد قصدت قصدا الى وجود كل نوع وكل جنس ، وكل طراز على سبيل الاســـتقلال والذاتيـــة ... ومن هنا تبقى حجية كتب الوحى والالهام قائمة غير منقوضة .

وقد خلف من بعده آثار تدل على افتراقه عن الحيوان بالكلام وصناعة الآلات ، والتطور الدائم المستمر حيث تجمد كل صور النباتات والحيوانات الكائنة على ظهر البسيطة على الصورة التى هى عليها منذ كانت .

وان أقدم هذه الكتب بين أيدينا وهو كتاب العهد القديم يحدثنا عن خلق الانسان بهذا الترتيب الذى مر علينا ، فقد خلق الله السموات ثم الأرض ، والمـــاء ومن المـــاء خلق الحياة فكانت الأسماك والزواحف والطيور ثم حيوانات الأرض ، وبعد ذلك كله كان خلق الانسان . فصنع الله وحوش الأرض بحسب ، أصنافهـــا ، وكل دابات الأرض بحسب أصنافهـــا ورأى الله ان ذلك حسن وقال الله لنصنع الانســـان على صورتنا ومثالنا ، وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الأرض ، وكل الدابات الدابة على الأرض ، فخلق الله الانسان على صورته ، وان الرب الاله جعل الانسان ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار الانسان نفســـا حيه (سفر التكوين ــ الفصل الأول والثانى) .

ونجد فى القرآن الكريم ذات الصورة التى يقول بهـــا العلم من انفصال الكوكب الأرضى عن نجم سماوى وخلق الحياة من الماء .

« السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حى » . سورة « الأنبيـــاء » .

ويقول عن خلق الانسان :

« لقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما » . سورة « المؤمنون » .

ويطلق كتاب العهد القديم على هذا الانسان الأول اسم آدم ، وعلى انثاه حواء

ويتابع القرآن الكريم العهد القديم على هذه التسمية للذكر والأنثى الأولين على ظهر هذا الكوكب من أنهما آدم وحواء .

ويمضي العهد القديم متابعا حياة هذا الانسان فقد ولد لآدم قابيل ثم هابيل ثم شيتا وبعد ذلك ولدت بنات وتزوج البنون البنات فكثروا ونموا حتى جاء نوح ، وفى أيامه وقع الطوفان الذى اغرق كل الأحياء ، ثم بدأت الحياة على الأرض من جديد حيث رزق نوح أولادا ثلاثة سام وحام ويافث ، ومن هؤلاء الثلاثة تفرع البشر الذين يملأون الدنيا .

فاما يافث فهو ابو الترك والصقالبة وياجوج وماجوج ، وهم المغول (أى الجنس الأصفر) .

وأما سام فهو جد شعوب العرب والروم والفرس (أى الجنس الأبيض) .
وأما الابن الثالث وهو حام فهو والد القبط والأحباش السودان والبربر (أى الجنس الزنجى) أو من تسميهم التوراة كوش ومصرافيم وقوط وكنعان .

هذا الأصل الواحد لبنى الانسان وتفرعه الى هذه الفروع الثلاثة ، هو ما حاول علم الاجناس الحديث أن يلغفله ويبنى أبحاثه على تقاسيم وتفاريع جديدة ... فاذا به ينتهى فى خاتمة المطاف الى هذا التقسيم الثلاثى ، فقسم الجنس البشرى الى مجموعة بيضاء ، ومجموعة مغولية ، وثالثة زنجية .

وحاول علماء الاجناس من الأوروبيين ، أن يحطموا وحدة الجنس البشرى ، فزعموا أن الجنس الابيض هو وحدة الإنسان ، وأن الجنسين المغولى ، وبصفة خاصة الزنجى أمس رحما بالحيوان ، وان كلا من الأجناس الثلاثة قد تفرع من أصل حيوانى خاص به ، حتى لقد اعتبروا هذه الثقافات المختلفة التى أشرنا اليها أمرا خاصا بأوروبا دون باقى العالم ، ثم وجدوا آثار هذه الثقافات بهذا التطور فى كل جزء من أجزاء العالم تقريبا ..

وقد انتهى ذلك كله بالتسليم بما جاء فى كتب الوحى والالهام من وحدة الأصل الانسانى حيث اجتمع علماء الأجناس الاعلام من سبعة عشرة دولةفىموسكو عام ١٩٦٤ فى مؤتمر دولى ، وأصدروا بيانا من ثلاث عشرة نقطة جاء على رأسها :

« كل الكائنات البشرية التى تعيش اليوم تنتهىالى نوع واحد هو النوع البشرى» وكلها ترجع الى سلالة مشتركة وأصل واحد . وهناك خلاف فى وجهات النظر فيما يتعلق بالكيفية والزمن اللذين تفرعت فيهما الجماعات البشرية عن هذا الأصل المشترك ـ « الأمة الانسانية (أحمد حسين) » .

واذ انتهينا الىالفراغ من تتبع تاريخ هذا الكوكب وهوالارض ونشأةالحياة ووجود الانسان على ظهرها وتفرعه وانتشاره على أرضها ، فقد آن الأوان لنبدأ تاريخ مصر والمصريين ، باعتباره أقدم تاريخ مسجل ومكتوب فى تتابع منذ أقدم حقب التاريخ حتى

عصرنا الحاضر ، وليس ما يماثل تاريخ مصر والمصريين فى هـذه الناحية الا تاريخ حوض الدجلة والفرات .

وسنرى انه جزء لا يتجزأ من تاريخ مصر فكل منهما متصل اشد الاتصال بالآخر، حتى لا يمكن التفريق بينهما .

وقد قسم هذا العصر الانسانى الحجرى ، الذى كانت فيه الأحجار هى آلات الانسان ، الى عصر حجرى قديم أسفل ، وحجرى قديم أوسط ، وحجرى قديم أعلى .

وقد تهيأت الفرصة للاوروبيين للسبق والتعمق فى دراسة هذه الأطوار الانسانية، فقسموا آثار هذا الانسان الحجرية الى ما اسموه ثقافة أو صناعة ، وهى تبدأ بالثقافة السابقة على العهد الشيلى .

١٢٥ر٠٠٠ ما قبل الشيلى : Pre Chellean

ومعظم الأحجار الصوانية (الظران) التى وجدت فى هذه الطبقة الوطيئة من طبقات الارض لا تدل دلالة قوية على أن أهل ذلك العصر قد صنعوها بأيديهم وانما يبدو انهم استخدموها كما وجدوها فى الطبيعة ان كانوا قد استخدموها اطلاقا ، ولكن ما جعل البعض يرجح وجود انسان قد استعملها هو وجود أحجار كثيرة بينها ، لهـا مقبض يلائم قبضة اليد ولها حد وطرف (الى حد ما) وهو ما جعل البعض من الأوروبيين يزعمون أن الانسان السابق على العهد الشيلى قد استعمل أول آلة وهى المدية الحجرية .

ولكن عدم وجود بقايا للانسان من هذا العصر هو الذى يجعل كثيرا من الباحثين يشكون فى وجود هذا الانسان .

١٠٠ر٠٠٠ ق.م الثقافة الشيلية : Chellean

وقد سميت كذلك نسبة لبلده شيلية بفرنسا ، وقد تحسنت فيها المدية الحجرية بارهاف جانبيها ، ارهافا على شىء من الغلظة وتدبيبها بحيث تتخذ شكل اللوزة أو النواه ، ثم تهيئتها تهيئة تجعلها اكثر صلاحية لقبضة اليد البشرية .

٧٥ر٠٠٠ ق.م الثقافة الأشولية : Acheulean

ولقد تخلفت عنها آثار كثيرة فى أوروبا وجرينلندة والولايات المتحدة والمكسيك وأفريقية والشرق الأدنى والصين والهند ، فى هذه المرحلة ، لم تتطور المدية الحجرية، فتصبح أكثر تناسقا وأحد طرفا واشد فاعلية فحسب ، بل قد وجد الى جوار المدية انواع كثيرة من الآلات ، كالمطارق والسندانات والكاشطات والصفائح ورؤوس السهام وسنان الرماح والمدى .

٤٠٫٠٠٠ ق.م الثقافة الموستيرية : Mousterian

نسبة الى بلدة مستوبيه بفرنسا وتوجد آثارها فى القارات كلها ، والمدية الحجرية نادرة نسبيا بين آثار هذه الفترة ، بعد أن حل محلها آلة جديدة ، وهى رقيقة من الصخر . أخف من المدية السابقة وزنا وأرهف حدا وأحسن شكلا . وقد بدأ يعثر من هذه الفترة على آثار النار وقبور الموتى ويطلق على الانسان فى هذه الحقبة انسان نياندرتال وهيدلبرج واللذين يعتبرهما البعض أصل الانسان الحقيقى الأول .

٢٥٫٠٠٠ ق.م الثقافة الأورجناسية : Aurignacian

وهى أولى المراحل الصناعية بعد عصر الجليد وأولى الثقافات المعروفة لانسان كرومانيون بعد أن انفصل عن القردة العليا مكونا الانسان الحديث .

وفى هذه المرحلة أضيف الى آلات الحجر ، آلات من العظم ، مشابك وشندانات وحاملات ، وظهر الفن فى نقوش غليظة منحوتة على الصخر أو فى رسوم ساذجة بارزة أغلبها رسوم لنساء عاريات ، ثم جاءت فى مرحلة متقدمة من مراحل تطور انسان كرومانيون ثقافة أخرى هى :

٢٠٫٠٠٠ ق.م الثقافة السولترية : Solutrean

حيث وجدت آثار انسان هذا العهد فى فرنسا وأسبانيا وتشيكوسلوفاكيا وشمال أفريقيا التى يرى البعض أنها مصدر هذه الثقافة (ول دورانت ــ جزء ١ ــ مجلد ١ ــ ص ١٦١) .

ومن آثار هذه الفترة فوق آثار الثقافات الماضية ، صفائح ومثاقب ومناشير ورماح وحراب ، وأبر دقيقة حادة من العظم ، عدة آلات من قرن الوعل ، وقد تنقش قرون الوعل أحيانا برسوم .

١٦٫٠٠٠ ق.م الثقافة المجدلية : Magdalenian

وهى تتميز فى الصناعة بمجموعة كبيرة منوعة من رقيق الآنية المصنوعة من العاج والعظم والقرن ، وتبلغ ذروة تطورها فى مشابك وابر متواضعة ولكنها تصل الى حد الكمال فى الاتقان . وهذه المرحلة هى التى تميزت فى الفن برسوم التاميرا **Altamira** وهى اذق وارق ما صنعه انسان كرو كرومانيون .

والى هذا الانسان الأول نعزى كما رأينا معرفتنا للكلام ، والنار والفن .

وعند هذا الحد من التطور تقطع سلسلة الثقافات الانسانية البدائية فى أوروبا لنبدأ الانسانية فى عصر التاريخ والحضارات المزدهره التى لا تقارن بها هـذه الآثار البدائية ، ويبزغ نور هذه الحضاره من حوض الدجلة والفرات فيما يسمى اليوم بالعراق ، وحوض النيل فيما يسمى مصر ، وسنرى فيما هو آت وثاقة الصلة على مر عصور التاريخ بين سكان هذين الحوضين وشدة تأثر كل منهما بالآخر ، بحيث يكاد يؤلف تاريخهما وحده لا تقبل الانفصام .

١٠٫٠٠٠ ــ ٨٫٠٠٠ ق٠م : العصر الحجرى المتوسط :

وهو عصر انتقال ، أى المرحله الانتقالية من العصر الحجرى القـديم الى العصر الحجرى الحديث ، وهـو عصر لا يعترف به كثير من العلماء ويرى العلمـاء الذين يقولون به .. انه يجب ان تكون هنـاك فترة انتقـال مميزه بين العصر القديم والحديث يطلقون عليها اسم العصر الحجرى الموسط وينسـبون الى هـذه الفترة ما وجد من آلات قزميه فى مدينه آزيل .

ولكن لا مناص لنـا ، قبـل البدء فى فصلنا الثانى عن الانتقال من العموم الى الخصوص بالتحدث عن تاريخ مصر ، أن نلفت النظر الى أننا أتينا بما نذكره الكتب العلمية عن تطور الانسان ، بعد انفصاله عن القردة العليا ،وكيف وجد ما يسمى بانسان الفجر أقرب الى الحيوان منه الى الانسان ، ثم انسان نياندرتال وكرمانيون ، الذى يعتبر جدا للانسان العصرى الذى يبدأ أول تاريخه بعشرة آلاف سنة .

٨٠٠٠ ــ ٦٠٠٠ ق٠م : العصر الحجرى الحديث :

وهنا سنجد الانسان قد بدأ حضـارة واسعة النطاق ، يجب أن تعتبر طفرة بالنسبة لكل ما سبقها حيث لا نجد فيها تسلسل التطور فقد عرف الانسان الزراعة، واستأنس الحيوان ونسج القماش ، وصنع الخزف وشيد المبانى وعرف الدين .

وقد كان الانسان الذى تحققت على يديه هذه الطفرة هو الإنسان السـاكن فى حوض الدجلة والفرات أو فى حوض النيل .

ولذلك فقد حان الوقت لننتقل بتاريخ الانسان من الشـمول والعموم ، الى التخصص فى وادى النيـل، حيث بزغت الحضـارة الانسـانية عملاقة جبـارة تذهل المراقبين .

الفصل الثانى

مصر والنيل

جيولوجيا وجغرافيا وشعبا

تكون الصخور النارية كالجرانيت والديوريت وكذلك الصخور المتحولة والتى ترجع الى الزمن الجيولوجى الابتدائى ، أى ما قبل الكامرى أو الآركى ، الدعامة الأولى لأرض مصر ، وتتمثل فى الوقت الحاضر فى سلاسل جبال البحر الاحمر والمنطقة الجنوبية من شبه جزيرة سيناء ، والمرتفعات الجنوبية الغربية بالصحراء الغربية ، كما تظهر فى منطقة الجندل الأول قرب أسوان وخانق كلابشة جنوب أسوان بخمسين كيلومترا .

وقد شهدت مصر فى تاريخها الجيولوجى حركات أرضية تختلف بين الانخفاض تحت سطح البحر وبين الارتفاع فوقه ، وقد ظلت أجزاء كبيرة منها مغمورة بالماء كجزء من بحر كبير ، عدة ملايين من السنين ، ثم انحسرت مياه البحر وبدأ البحر الأبيض المتوسط يأخذ صورة اقرب ما تكون الى صورته الحاضرة . كما تكون منخفض البحر الأحمر ، وبرزت على جانبه الجبال كنتيجة لحركات التوائية وانكسارية .

ثم ظهر نيل مصر آتيا من الحبشة بعد ان نجح فى حفر مجراه وتعميقه بواسطة التعرية النهرية متجها نحو الشمال وفقا لميل الأرض ، شاقا طريقه بين صحراوين عظيمين .

ويقول الجيولوجيون ان مياه البحر عادت لتطغى من جديد فى أواسط عصر البليوسين على مجرى النيل ، كأثر لانخفاض الأرض من جديد ، ووصلت مياه البحر حتى منطقة أسنا جنوبا ، وربما حتى أسوان نفسها ، مكونة خليجا بحريا .

ولكن النيل عاد من جديد ، حاملا معه الرواسب من الرمال والحصى والطمى ، فكون لنفسه مجرى أعلى من مجراه الأول ، وتغلب على البحر . فاستطاعت رواسبه ان تغطى الخليج بالتدريج ، مكونة فى خاتمة المطاف تلك الارض المنبسطة المثلثة الشكل التى أطلق عليها الاغريق اسم دلتا لانها تشبه أحد حروفهم الهجائية بهذا الاسم . (مصر الخالدة ــ عبد الحميد زايد) .

وكان يظن فى القديم أن نهر النيل ينبع من جنادل أسوان . أو ما نسميه الشلال الأول : وما عرف فى التاريخ باسم بلاد النوبة ، ولكن هذا المنبع ظل يتراجع الى الوراء ، كلما توغل المصريون جنوبا . وثمة رأى قال به العرب ، من أن النيل ينبع من قبة فى الجنة ، مع عدد آخر من الأنهار . وهو معنى يرمز لما يجلبه النهر

من الخير العميم لأبناء وادى النيل ، وهو امتداد لتقديس القدامى لنهر النيل هذا التقديس الذى وصل الى حد العبادة .

ونحن نعلم اليوم ان نهر النيل يبدأ جنوبى خط الاستواء بثلاث درجات من هضبة وسط افريقيا التى ترتفع ٤ آلاف قدم فوق سطح البحر ، ويتجه شمالا نتيجة انحدار الأرض ، فيصل فى عصرنا الحاضر الى البحر الابيض المتوسط على بعد ٢١٫٥ درجة شمال خط الاستواء .

ويبلغ طول نهر النيل ٤١٥٧ ميلا وهو بهذا على احدث الآراء أطول انهار الدنيا ، وهو ينبع من بحيرات خط الاستواء (فيكتوريا) والتى تعتبر بدورها خزانا كبيرا للمياه التى تصب فيها من عديد من النهيرات واهمها نهر كاجيرا . وسمى النيل فى اول مراحله الآن بنيل فيكتوريا حتى اذا وصل الى بحيرة البرت نيانزا التى تمده بدورها ببعض المياه . يصبح اسمه بحر الجبل ، ويتصل به من الشرق بحر السوباط الذى ينبع من الحبشة ويسمى النيل بعد ذلك بالنيل الأبيض . ويؤلف النيل الأبيض ٢/٧ من موارد النيل المائية على طول العام .

وعند خط العرض السادس عشر وعلى بعد ١٣٠٠ ميل من البحر يلتقى من جهته الشرقية بالنيل الأزرق الذى يجلب الى النيل مياهه الغزيرة حتى ليقدر ما يمد به النيل ٤/٧ مياهه ، ٧٠٪ من الغرين (الطمى) الذى كون أرض مصر الزراعية ودلتا مصر (١) . وبعد مائة واربعين ميلا يصب فى النيل من جهة الشرق كذلك نهر العطبرة الذى يمد النيل بمياه شمال غرب الحبشة .

ثم يتعرج النيل أشبه بحرف S وسط صحراء قاحلة ، وتعترض مجراه شلالات صخرية غير منظمة يبلغ عددها ستة ، وهى أقرب ما تكون الى الجنادل منها الى الشلالات ، حيث تتصدى عدة صخور جرانيتية ضخمة . ويطلق على الأرض التى تحف شاطىء النيل الجبلية قبل وصوله الى أسوان ، بلاد النوبة وتشمل الأرض الممتدة بين الجندلين الاول والرابع . وبالقرب من أسوان يعترض النيل شلاله الأول المعروف بشلال اسوان ، حيث أنشىء السد العالى ، ويسير النيل بعد ذلك حتى مصبه فى البحر الأبيض ، بطىء نسبيا فى جريانه لقلة انحدار الأرض وعدم وجود صخور رملية فى تربته ، فلا تكاد السرعة تتجاوز ثلاثة أميال فى الساعة — واقصى عرض يبلغه النيل فى مصر هو الف ومائة ياردة وذلك فى موضعين فقط على طول مجراه .

ويسير النيل بعد ذلك شاقا واديه بين سلسلتين من المرتفعات والهضبات ، مغطيا منساحة من الارض تصلح للزراعة لا تتجاوز فى أوسع حالاتها ١٢ ميلا . وقبل أن يصل النيل الى نقطة تفرعه ، يقع خارج واديه على مسيرة بضعة كيلومترات من حافته الغربية ، اقليم جغرافى قائم بذاته هو اقليم الفيوم وهو عبارة عن منخفض فى الصحراء الغربية .

---

(١) يبلغ الطمى الذى كان يحمله النيل سنويا الى مصر ما يقرب من ٨٥ مليون طن .

وعلى بعد نيف ومائة ميل من البحر يتفرع النيل الى عدة افرع ، بلغت في فترة من الفترات سبعا ، بل ان بعضا منها كان يصب في البحر الأحمر وقت طغيان المياه على شمال مصر .

ولم يبق من فروع النيل سوى فرعين هما دمياط ورشيد ، بعد أن حلت الترع الصناعية محل فروع النيل .

ويمتاز نهر النيل بأنه أطول أنهار الدنيا على الاطلاق باستقامة مجراه الذى لا يكاد ينحرف عن الخط المستقيم الا مرتين ، يعود بعدها للاتساق العجيب حتى لقد شبهه البعض بالنخلة الفارعة التى تنتهى بتاجها من الفروع المثمرة .

ويمتاز قبل ذلك كله وبعده باتساق فيضانه العجيب الذى يبلغ الساعة فى دقته وانتظامه ، حتى لقد كان احد السبل التى مكنت المصريين القدمى من تحديد الدورة الزراعية ، ومعرفة السنة الشمسية .

ولما كان يسير في أرض صحراوية بحتة ، فقد جعل حياة من يعيشون على شاطئيه تعتمد اعتمادا كاملا عليه ، فالهوه وقدسوه كما راينا وكما سوف نرى .

وقد استقر الراى على تقسيم ارض مصر الى اربعة أجزاء رئيسية ، هذا الوادى الذى أنشأه نهر النيل فى تدفقه نحو الشمال والذى ينتهى بالدلتا التى هى من انشاء النيل ، مما جعل كلمة « هيرودوت » « مصر هبة النيل » ، تخلد على مر الزمن . ثم الصحراء الغربية (الليبية) وهى جزء من صحراء افريقيا الكبرى ، الشديدة الجفاف ، القليلة المياه . اما الى الشرق من الوادى فتقع الصحراء الشرقية ، والتى تطل على النيل بحافة قليلة الارتفاع ثم يتدرج الارتفاع حتى ينتهى بسلسلة من الجبال الشاهقة التى تمتد محاذية لساحل البحر الأحمر .

وأما القسم الرابع فهو شبه جزيرة سيناء ، التى هى فى حقيقتها جزء من الصحراء الشرقية ، ولكن خليج السويس فصلها عنها .

وقد احتلت شبه جزيرة سيناء ، دورا بارزا فى التاريخ المصرى القديم كما سنرى ، لكثرة معادنها ، ولأنها الطريق الذى يربط مصر بغرب آسيا ، حيث جرت الهجرات غربا وشرقا من وادى النيل ووادى الدجلة والفرات .

اصل المصريين :

يقول كتاب العهد القديم ان حام بن نوح قد أنجب كوشيين ومصرايم وفوط وكنعان .

ويقول الطبرى فى تاريخه على سبيل الرواية : ويقال ان مصرايم ولد القبط والبربر .

ومضى مؤرخو العرب والمصريين يفرعون هذا الايجاز فيقول لنا ابن تغرى

يردى فى النجوم الزاهرة : فأما مصر فقد سميت هكذا نسبة الى مصرايم بن بيصر ابن حام بن نوح .

وكان لمصرايم اربعة أولاد ـ وهم قبط وأشمون وأثريب ورحا ، واقباط مصر يضافون فى النسب الى ابيهم قبط .

ولا يعترف علماء الآثار بهذه الأقوال بطبيعة الحال ، حيث لا دليل عليها من نوع الأدلة التى يعترفون بها .

وعلى اية حال فقد افترق علماء الأجناس والحفريات حول أصل قدماء المصريين ، فمن قائل انهم من الأصل الحامى (نسبة الى حام) الذى يكون شمال افريقيا ، وآخرون يرون انهم من الجنس السامى (نسبة الى سام) وفدوا الى مصر من آسيا ، على اختلاف فى طريق الوصول ، فمن قائل انهم جاءوا عن طريق برزخ السويس ، ومن قائل بل عن طريق الجنوب .

ونحن الذين لا نعلق كبير اهتمام على الفوارق بين الأجناس . فسواء كانوا من الجنس الحامى أو السامى ، فهذه التسمية فى حد ذاتها تعود بنا الى نوح والد سام وحام .

وكيفما كان الأمر ، فالأمر لا يخلو فى مصر كما هو الشأن فى أى بقعة أخرى على ظهر الأرض ، من استيطان بنى الانسان فى بقعة من البقع ، ثم يفد عليهم الوافدون ، مهاجرين أو غازين ومعتدين ، حيث يهاجرون بدورهم أو يعبرون .. وفى كل ذلك يختلطون ويمتزجون بسلالة أسلافهم من بنى الانسان الأقدم عهدا منهم ، وسنرى أن مصر منذ أقدم عصور التاريخ حتى عصرنا الحاضر ، وكما ستظل دائما بوتقة تنصهر فيها مختلف الأجناس والفروع والشعوب والثقافات والمدنيات .

وقد شهدت أرض مصر كل العصور والحقب التى مرت بالكوكب الأرضى ، ومنذ وجد انسان عليها ، اجتاز هذه المرحلة التى قطعها الانسان الفجر خلال عصور التاريخ الحجرية كلها قديمها ومتوسطها وحديثها .

فكان بها العصر الحجرى القديم بأقسامه الثلاث الذى يجعل البعض كما ذكرنا بدايته ترجع الى مائة الف سابقة .

وعثر على أدوات حجرية تنسب الى الثقافات المتعددة ، ما قبل الأشيلين والأشيلين والأشولية والمستيورية .

وقد عثر على هذه الأدوات الأبرليتية (القبضية) على عمق مائة قدم ، كما عثر على أدوات اشيلية عند مستوى خمسين قدما ، كما عثر على أدوات موستيرية عند مستوى ٣٠ قدما .

كما عثر على مصانع من العصر الحجرى القديم ، عند العباسية حيث مصب النيل القديم ، وبالقرب من نجع حمادى ، وأسوان ، والى الشرق من الواحة الخارجة ، وعلى حافة الدلتا الشرقية .

ولان مناخ مصر كان أغزر مطرا منه الآن ، وأكثر برودة بعشر درجات على الاقل فقد كانت الحياة فى الصحارى المصرية تختلف عن صورتها الآن ، فقد كانت تغص بالوان الحياة تنمو بها الأعشاب والأشجار وتكثر فيها الحيوانات سواء آكلة العشب او المفترسة ، لذلك فقد عاش بها الانسان متخذا منها مسرحا لحياته وتاركا آثاره فى داخلها أو فى اطرافها على حافة وادى النيل .

وقد اعتمد انسان ذلك العصر فى طعامه على جمع الثمار وصيد الحيوانات وعاش الانسان فى قبائل ، تحكم بعادات القبائل والتقاليد .

١٤٫٠٠٠ ق ٠ م :

توصل المصرى القديم الى الزراعة وقد كان هذا الراى متنازعا عليه حيث كان يتصور أن أقدم اثر للزراعة قد اكتشف بالقرب من آريحا فى الاردن ويرجع تاريخها الى ٩٨٠٠ سنة قبل الميلاد .

ولكن الأبحاث الأخيرة التى قامت بها البعثات الامريكية والبولندية والمصرية فى منطقة توشكا بالقرب من ادفو واسنا مديريتى أسوان وقنا قد كشفت عن وجود آلات حجرية للمصرى القديم استعملها لحصد الحبوب ، حيث وجدت مسننة ومشحوذة كالمنشار ، كما عثر على رحايا لطحن الحبوب ــ وقد حدد عمر هذه الآلات لحجرية بواسطة الكربون المشبع رقم ١٤ فحددت عمرها ب ١٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد . كما دلت هذه الأبحاث على أن طول الانسان المصرى القديم كان ١٨٠ سم ــ كما عثر بين الهياكل العظيمة على ما يفيد وجود البقر البرى وصيد قشطة والغزال السودانى والزراف والضباع والحمار البرى ، وكلها من حيوانات السافانا التى تعيش حاليا فى منطقة جنوب السودان .

١٠٫٠٠٠ ــ ٨٫٠٠٠ : وعلى آثار العصر الحجرى القديم الاعلى وجدت آثار من العصر الحجرى المتوسط (الميزولتين : Lemesolithique

وهو عصر لا يعترف به كثير من العلماء ، بينما يرى علماء آخرون انه يجب تحديد فترة انتقال متميزة بين العصر الحجرى القديم والحديث .

٨٠٠٠ ــ ٦٠٠٠ ق ٠ م ٠ ــ العصر الحجرى الحديث :

وتتفق بداية هذا العصر مع تقهقر الجليد الذى ظل الى يومنا هذا وحيث يبدأ تاريخ مصر القديم أكثر اتساقا ،ويسرا فى مطالعته ، وبدأت مصر تصبح آهلة بالسكان الذين بدأوا يتجهون نحو سكنى الوادى ، مخلفين الصحراء التى كان الجفاف قد بدأ يزحف عليها . ولا يعود ثمة شك فى أنتشار الزراعة على أوسع مدى ، فقد وجدت

فى أمعاء جثث هذا العصر ، حبوب الشعير والذرة الرفيعة والقمح ، ولما كانت هذه النباتات لا تنمو فى مصر بريا فدل ذلك على معرفة الزراعة فى هذا العصر المتقدم .

كما استأنس مصريو هذا العهد الحيوان وأولهم الكلب وذلك لأن الكلب كان أول من رافق الانسان عند رحيله من الصحراء الى النيل ، وكان يعيش على فتات طعام الانسان ثم استأنس بعده الخنزير والبقر والحمير واستخدمه لاغراضه ، فأخذ اللحم لغذائه ، والجلد لملبسه وغطائه ، والعظام لأدواته وأسلحته .

وقد تمت عدة كشوف من هذا العصر ، تكشف عن خصائصه ، ومن بينها حفائر الفيوم ا ، ب .

ولكن الكشف الأهم من حيث قوته فى الدلالة ، هو مرمدة بنى سلامة بوردان مركز امبابة ، حيث تم الكشف عن قرية كاملة من قرى هذا العصر بعد أن غطاها طمى النيل ، وهى احسن مثل لمدينة من العصر الحجرى الحديث ، حيث يعيش سكانها على الصيد و لزراعة ، فقد عثر على بقايا من سنابل القمح وظهرت عظام للخنزير مما ايد استئناس الانسان للخنزير ، ووجد كذلك عظام حيوان فرس النهر (سيد قشطة) وظهر انهم يسكنون فى مساكن منظمة على شوارع مستقيمة . وان صناعة الفخار بها متقدمة متطورة عن مثيلاتها فى مناطق العالم الاخرى ،وتمتاز بدقة الصنع وجمال الصقل ، وتعدد الأشكال ، واللونين الأحمر والاسود ، وكانت العشش تقام من القاب (البوص) بيضية الشكل محكمة الغلق من الجهة المعرضة لهبوب الرياح ، وكانت ارضية المسكن مغطاة بطبقة من الطين ، والجزء المنخفض من هذه الأرضية به اناء مثقوب من أسفله لاستعماله فى تصريف المياه . وكانت المدافن قريبة من القرية ، وهى حفر بيضية الشكل بوضع فيها الموتى على الجانب الأيمن بضم الركبتين نحو الصدر ، وموجهة ناحية المساكن . مع وضع بعض الحبوب فى الأيدى . واحتوى القبر على أجران فخارية ، وألواح لطحن الكحل الأخضر وآلات من الظران (الصوان) .

ويدل وجود هذه الأدوات ، والحبوب على أن الاعتقاد بالبعث بعد الموت ، مستقر فى قلوب المصريين منذ هذا العصر المبكر .. والايمان بالبعث بعد الموت ، هو جوهر أى دين من الأديان .

العمرى : وقد تم الكشف عن قرية أخرى كاملة من هذا العهد أطلق عليها أسم العمرى نسبة الى المرحوم أمين العمرى الذى اكتشفها فى وادى حوف شمالى حلوان، وقد دلت الآثار التى كشفت بها على اطراد التقدم فى سلم الحضارة ، اذ وجد بها أوان من الفخار مزخرفة برسوم جميلة ، وآنية أسطوانية من الحجر ، واقداح من الحجر الجيرى والمرمر والبازلت والجرانيت الوردى ، ووجدت عششها مستديرة وفى وسطها موقد ، وعلى مقربة منها كانت تقام سلال كبيرة من الحصر المجدول ولها غطاء ومدهوكة بالطَّمىَ وتستعمل كمخازن للحبوب .

اما المدافن فكانت تحفر فى مكان خاص بالقرب من القرية على حافة الصحراء . ونظام الدفن كمثيله فى مرمدة .

وقد عثر فى الوجه القبلى بدوره على خير نموذج ومثال للعصر الحجرى الحديث وذلك فى دير تاسا بالقرب من البدارى ، وقد وجد بها مقابر فقيرة وبعض اثار لمساكن متفرقة بسيطة ، وأوان فخارية يدوية ، على نوعين ، احدهما بنى والثانى اسود ، وأن كان لم يحرق حرقا محكما فان عليه زخارف هندسية والمميز لهذه الثقافة الأوانى ذات البوق والحلاة بزخارف غائرة نوعا ما ومطعمة بالعجينة البيضاء . وكانوا يستعملون القوس المنقولة ، ومغارف كبيرة حجرية ، وآلات تدل على انهم من الزارعين . ومخازن للمحاصيل فى اقفاص كبيرة من الخوص . كما وجد بها عقود من الخرز المصنوع من العاج أو العظم أو العقيق . وكانت المقابر بيضية الشكل وكان الميت يدفن مقرفصا ويكفن اما بجلود الماعز أو الحصير وغطاء من فروع الشجر وكانت توضع تحت رأس الميت مخدة من القش .

٦٠٠٠ ــ ٤٥٠٠ ق ٠ م عصر بداية استعمال المعادن : Leneolithique

ظهرت المعادن فى العصور السابقة على شكل حلى للزينة ولكن العهد لم يطلق عليه عهد استعمال المعادن الا عندما استعملت المعادن فى الاسلحة والادوات .

واهم نموذج لثقافة هذا العصر قد تجلت فى حفائر البدارى بالقرب من أسيوط ، وهى التى تأتى فى التاريخ مباشرة بعد ثقافة دير تاسا .

واهم مميزات ثقافة البدارى هو اوانيها الفخارية التى امتازت بتزين سطح الفخار الخارجى ، عن طريق تطعيمه بخطوط بيضاء ، مع رقة سمكه بالرغم من انه كان لايزال يصنع يدويا . وبدأ الصانع يزخرف الفخار بأشكال آدمية وحيوانية ونباتيـــة .

ولم يعثر الا على قليل من مســـاكن القـوم مبعثرة وأكثر الكشوف كانت فى مقابرهم . وقد دلت على أنهم كانوا يعرفون الكتان ، وانظلت ملابسهم العادية من الجلد ــ وكانوا يزرعون ويستأنسون الأغنام والثيران اذ وجدت عظام هذه الحيوانات وكانوا يتحلون بعقود من العاج والصدف وانواع من الخرز ، ووجدت لوحات من حجر الشست لدق الكحل وتزيين الأعين ، ووجدت واحدة منها فى كل مقبرة أمام وجــه الميت .

وكان القبر حفرة بيضية الشكل ووجد الميت مكفنا فى حصير أو جلد ماعز وكان يوضع فيما يشبه التابوت وهو صندوق من القش المجدول ، وقد استدل من ذلك على أن الانسان المصرى بدا يفكر فى صنع التابوت الذى وجدناه فيما بعد من الفخار او الخشب . كما وجدت بعض الدمى فى المقابر ، وهى التى ستصادفنا فيما بعـد فى كل مقابر المصريين القدماء ، والتى كانت تدل على عقيدة القوم فى الحياة الآخرة ، وعلى حاجة الميت الى من يخدمه ، ومن يدفع عنه مختلف أنواع الشرور التى ستقابله فى الحيـاة الآخرى .

عصر ما قبل الاسرات

٤٥٠٠ ق ٠ م ـ عصر ما قبل الأسرات :

رأينا فيما مر بنا ، كيف أن المصرى القديم بدأ يخوض غمار الحضارة بقدم ثابتة وعزم صادق ، كما تكشف لنا عن ذلك قبوره المتتابعة ، فمن حالة البدائية الأولى ، وحياة الصيد ، الى حياة الاستقرار ، واستنباط الزراعة واستئناس الحيوان ، وتشييد المساكن المجتمعة مؤلفا بذلك القرية المصرية . وهكذا بدأ يمهد السبيل للقيام بأول وحدة سياسية عرفها التاريخ ، حيث بدأت الآثار والكتابة تحدثنا عن قيام المدن وتقوية الصلات فيما بينهـا ، مما أدى الى ظهور الوحدات الاقليميـة ، وقيام الامارات المحلية بدلا من نظام العشائر والأسرات .

٤٢٤١ ق ٠ م :

التاريخ الذى يرى كثير من العلماء وعلى رأسهم بريستيد ، وان المصرى القديم قد عرف فيه السنة الشمسية لاول مرة وقسمها الى اثنى عشر شـهرا وكل شهر ثلاثين يوما ، وكانوا يضيفون فى آخر كل سنة خمسة ايام قدسوها واقاموا فيهـا الأعيـاد .

وقد امكننا التوصل لتحديد هذا التاريخ ، استنادا على أن المصريين القدماء ، قد بدأت دراستهم الشمسية الأولى ، باقتران نجم الشعرى مع شروق الشمس .

وقد حسب بعض علماء الفلك تاريخ وقـوع هذا الحادث ، فوجده وقع فيما وقع فى ١٩ يوليـو سنة ٤٢٤١ ق٠م٠ ولما كان هذا الحـادث يتكرر مرة كل ١٤٦٠ سنة ، فان بعض العلماء الآخرين يبدأون التاريخ المصرى متأخرا بهذا القدر (وليم لانجر ـ موسوعة تاريخ العالم) .

ويقول سليم حسن ان الآراء قد اصبحت متفقة على اتخاذ تاريخ طريق وسط على جعل التاريخ المصرى يبدأ عام ٣٢٠٠ ق٠م

ونحن ممن يميلون الى ترجيح اكتشاف المصريين للسنة الشمسية منذ اشتغلوا بالزراعة ذلك ان فيضان النيل ، يتم بطريقة دورية تتفق ودورة الفصول ، وقد كان هو اول كاشف للمصريين على أن هناك دورة زمنية هى السنة الشمسية .

وقد أصبح عصر ما قبل الأسرات محدد المعالم نتيجة كشوف وحفريات السير فلندر ريترى الذى قسم عصر ما قبل الاسرات الى ثلاثة اقسام ووضع تاريخا متتابعا

بالنسبة لتطور الفخار فى هذه الحقبة ، واعد جدولا بهذه الحلقات المتتالية من ١ ــ ١٠٠ ومعتبرا عصر ما قبل الأسرات يبدأ بالأرقام المتتابعة من ٣٠ إلى ٧٨ حيث يبدأ عهد الأسرات من الرقم التتابعى ٧٩ اما الأقسام الثلاثة لعصر ما قبل الاسرات كما رتبه فلندر تيرى فيجرى على الوجه التالى :

١ ــ عصر ما قبل الأسرات القديم :

وتتابع ارقام فخاره من ٣٠ ــ ٣٧ .

ويدخل فى هذه الحقبة حضارة « العمرة » نسبة الى قرية العمارة بجوار نجع حمادى ، حيث عثر على صناعة الحجر الصوان بحد واحد ، كما صنع منه مناجل ومباشر، وبلط مصقولة . وفخار هذه الحضارة من النوع الأحمر المصقول أو ذات الفم الأسود ومزينة برسومات الحيوانات و لأزهار ــ وكانت هناك صلات تجارية مع الأقاليم الأخرى ، اذ وجد بها الذهب النوبى والخشب السورى ، وانسان هذا العصر يؤمن كأسلافه بالحياة الأخرى ، يدل على ذلك وجود الآلات والحراب داخل القبور .

٢ ــ عصر ما قبل الأسرات المتوسط وتتابع ارقامه من ٣٨ ــ ٦٠ :

وتندرج حضارة جزرة فى شمال ميدوم بالفيوم ، تحت هذا القسم وهى تتميز بوجود أوان حجرية برسومات حلزونية وانواع الصبار عليها . وقد بدأت صناعة الأوانى الحجرية تظهر فى هذا العصر ، بحيث انتهت للقضاء على صناعة الفخار المزخرف فى ختام العصر .

وفى هذه المرحلة تقدمت الزراعة وزادت الأراضى الزراعية ، وزرع شجر النخيل والسنط والجميز واصبحت صناعة الآلات الصوانية (الظران) فى غاية الدقة ، ومن أهم مصنوعاتها سكين ذيل السمكة . ومعظم أوانيها الفخارية ، كانت تزين بتقليد نقوش الأوانى الحجرية التى تميز بها العصر .

٣ ــ عصر ما قبل الأسرات الحديث :

وتتابع ارقامه من ٦١ ــ ٧٨ :

وبندرج تحت هذا العصر ما يعرف بحضارة السمانية نسبة الى مدينة سمانية شرق مدينة العمرة بنجع حمادى ، حيث دلت الأبحاث على انه كانت توجد مبادلات تجارية مع آسيا الغربية ــ العراق ــ راحت تزيد على مر الزمن . وهذا العصر هو عصر التحول الى نشوء عصر الأسرات ، وتطورت عنه صناعة المعادن وارتقت صناعة الأوانى الحجرية ، فصنعت من المرمر والديوريت ، وزينت ونقشت عليها الصور والأشكال ــ وظهرت أنواع المينا الزجاجية ، وازدانت الأوانى الفخارية التى وجدت بمناظر جميلة واستعمل النحاس فى تفريغ الأوانى الحجرية ، وجهزت الآلات الحجرية

بمقابض من المعادن ، فقد وجدت سكين جبل العرقى بناحية نجع حمادى بالمحفوظة الآن باللوفر ولها يد من ذهب ، وهى مزينة بمناظر صيد الحيوان . كما وجد من هذا العصر الواح من الاردواز وقطع من العاج . ويرى بعض علماء الآثار ، أن نظام فلندرز بترى التتابعى الذى وضعه لهذه الحقبة من تاريخ مصر : ينطبق تمام الانطباق على الأوانى الفخارية ولكن نظرا لاندثار صناعة الفخـــار فى أواخر هذا العصر وظهور الأوانى الحجرية متطورة بصورة سريعة ، تجعل نظام بترى لا يصلح .

٣٢٠٠ ق . م ــ اندماج الأقاليم :

كانت درجة الحضارة قد أخذت طريقها نحو التطور السريع حتى أشرفت على العصر التاريخى ، وكان من أسباب هذا التطور التقدمى اندماج الأقاليم التى نشأت تحت سيطرة أمير واحد ، فأصبح الجميع ينشدون غاية واحدة ، ويترسمون طريق قائدهم ، وقويت بينهم الروابط الاجتماعية والقوميــة ، وتركزت الثروة فى أيدى الحكومات ، فأعان ذلك على القيام بالمشروعات العامة للنهوض بالبلاد .

وقد أرخت الينا الأساطير المصرية ، أن الوحدة المصرية بدأت أول ما بدأت فى الوجه البحرى ، حيث تألفت به دولتان احداهما غرب الدلتا فى البحيرة وعاصمتها بوتو ، والثانية فى صا الحجر (سايس) .

وحدث أن ملح مماثل فى أقاليم الوجه القبلى واتخـذت مدينة نخن (الكاب) عاصمة لهذه الدولة .

ويحدثنا حجر بالرمو عن هذه الدولة بأنهم أتباع حـور الجنوبيين وأتباع حـور الشــماليين .

ويسجل لنا العمال بعض هؤلاء الملوك فى شن الحروب واقامة الأعياد ، وتأسيس المعابد والمدن وعمل التعدادات ، وقياس النيل وقت الفيضان .

الملك العقرب : وأهم أثر وصل لنا عن عصر ما قبل الأسرات هـو رأس دبوس من الحجر الجيرى للملك المسمى العقرب ، وقد وجـد فى نخن العاصمة الجنوبية ، ويرى به أعلام الأقاليم المختلفة التابعة له ، ويتدلى من كل منها طائر مذبوح يرمز الى أعدائه الذين انتصر عليهم .

ومن الآراء العلمية التى بدأت تتردد الآن ، أن وحدة الاقليمين فى مملكة واحدة تحت لواء الشماليين قد تحقق مرة أولى قبل بداية التاريخ المعروف لنـا والذى بينا بعضا كما سوف نرى . والظاهر أن هذه الوحدة قد انفصمت عراها لأســباب دينية ثم عادت من جـديد فى أول العصر التاريخى عندما اخضــع أهـل الجنوب الشــماليين .

وقامت الوحدة التاريخية التى بدأتها الأسرة الأولى التى أنهت عصر ما قبـل التاريخ وبداية التاريخ .

الفصل الثالث
الدولة القديمة

٣١٠٠ — ٢٨٩٠ ق٠م :

الاسرة الاولى الطينية : نسبة الى بلدة طينة بمديرية جرجا التى ينتسب اليها مينا مؤسس الأسرة حسب ما أورده مانتون ومينا هو الذى وفق الى تحقيق الوحدة السياسية للبلاد ، حسب اكثر المصادر التاريخية والبعض يميل الى أنه « نعرمر » صاحب لوحة الششست الموجودة فى المتحف المصرى التى تصوره لنا وهو يكافح الشماليين بينما هو يحمل تاج الصعيد ، حيث يرى فى الوجه الثانى للوحة وهو يحمل تاجى الوجهين البحرى والقبلى واستطاع أن يكون لمصر حكومة ثابتة ويؤسس أول اسرة حكمت مصر الفرعونية . وقد اقام الجدار الابيض عند رأس الدلتا ، قرب البدرشين ، لتكون نواة لعاصمة استمرت عشرة قرون وهى مدينة « من نفر » التى حرفت الى منف ويطلق عليها اليوم منفيس ويقال أنه حول مجرى النيل .

أما الاله الرسمى لهذه الدولة الموحدة فلم يكن أحد الآلهة السابقين مثل أوزير أو حور ورع ولكنه كان الاله المحلى للعاصمة الجديدة واسمه الاله « بتاح » .

وقد اعتبر المصريون الملوك الذين حكموا البلاد قبل مينا أشباه آلهة الذين جاءوا بعد أسرات الآلهة . وكان ملك الوجه القبلى يلبس التاج الابيض وتحميه الآلهة النسر (نخبت) وملك الوجه البحرى يلبس التاج الاحمر وتحميه الآلهة (الصل) أى الثعبان .

وقال مانتون أن مينا حكم ٦٢ عاما ويظن البعض أن نعرمر غير مينا غير عحا وأنها أسماء لثلاثة أشخاص مختلفين ، ولكن الرأى على أن نعرمر هو مينا . وأن عحا هو ابن نعرمر من زوجه نيت حتب وخلفاؤه هم :

جر — زر ، أجو — زت ، دق (ودمو) ، وتولى العرش بعده إبنه عزايب ، وقد تولى العرش بعده سمرخت الذى محا اسم عزايب عن الآثار ، وكذلك محا قع الذى خلفه اسمه بدوره وأهم ما فعله سمرخت أنه قام بحملة الى وادى المغارة فى شبه جزيرة سينا واحتفل بعيده الثلاثينى وقد عثر على معظم قبورهم بالعرابة المدفونة بالبلينا وقد وجد مدفن الملك ودمو الذى حكم ثلاثين عاما — وقد قام بحملات كثيرة فى سينا — بالعرابة المدفونة أرضيته من الجرانيت وهى أول مرة نعثر فيها على الجرانيت — كما عثر على مقبرة لزوجته مرت نيت أى محبوبته نيت معبودة صا الحجر — وقد كشف فى سقارة مقبرة كبيرة بها ٤٥ مخزنا لاحد اشراف هذا الملك ويسمى جماكا وهى تحوى كثيرا من الآثار الرائعة وتحتل مكانا بارزا بالدور الثانى من المتحف المصرى .

٢٨٩٠ ـ ٢٦٨٦ ق٠م ـ الأسرة الثانية :

ومؤسسها الملك حتب سخموى وقد عثر له على تمثال بالمتحف المصرى من الجرانيت يمثله وهو راكع وعلى كتفه اسمه وأسماء الملكين اللذين جاءا من بعده ثم خلفه الملك « نب رع » (كاكاو) ثم الملك نتر ـ ان وبعده الملك بيرايب سن وقد احدث انقلابا اذ غير اسمه الحورى الى اسم الاله ست كما اعاد عاصمة الملك الى العرابة .

ثم خع سخموى ومعنى اسمه (الاثنان القويان) اى الاله حور والاله ست .

وقد امتاز عهدة بالتقدم والسلام والهدوء ، ويبدو أنه نجح فى القضاء على عوامل الفتنة التى كادت تؤدى الى هلاك البلاد وقد عثر له على مقبرة ضخمة فى ابيدوس ، وقد بنى بها حجرة كاملة من الحجر الجيرى الأبيض لاول مرة فى تاريخ العمارة المصرية ، ويغلب الظن ان الملكة « نى ماعت حتب » هى زوجته وأم زوسر مؤسس الأسرة الثالثة .

٢٦٠٦ ـ ٢٦١٣ ق٠م :

الأسرة الثالثة المنفية : وعدد ملوكها خمسة وبها يبدأ ما يسمى بالدولة القديمة حيث اتخذت منف عاصمة لها : وقد أسسها الملك نترخت زوسر وقد حكم ٢٠ سنة وكان من اهم ملوك هذا العصر البعيد وهو اول ملك بنى لنفسه مقبرتين احداهما مصطبة ضخمة من الطوب اللبن فى بيت خلاف بجوار البليتا بصفته ملكا للوجه القبلى والثانية شيدت له باعتباره ملكا للوجه البحرى فوق الهضبة المجاورة لمدينة منف بسقارة وهى أقدم هرم عرف حتى الآن فى التاريخ ، ويعتبر الحلقة المتوسطة بين المصطبة والهرم الحقيقى ، ويعرف باسم الهرم المدرج .

وكان « امتحب » المهندس الذي اشرف على تصميم وبناء هذا الهرم كاهن الملك ووزيره ، وكان زيادة على تفوقه فى الهندسة من أكبر علماء الطب وله قدم راسخة فى الادارة ، حتى لقد اعتبر اله الطب ، وبقى اسمه خالدا حتى عصر اليونان ولكنه حرف الى « اموتس » .

وقد عثر على تمثال جميل الملك زوسر فى سردابه وكشف عن عدة مبان له وخاصة معبده الجنائزى ومقبرتى ابنه ونحن ازاء هذه المبانى تحس اننا نشاهد خطوة انتقال فى تاريخ فن العمارة وتصميم البناء بالاحجار فى وادى النيل .

كما أننا نضع المهندس الذى وضع تصميمها والعمال الذين قاموا بتنفيذها بأعلى مراتب الشرف والعلم .. وهرم زوسر او سقارة المدرج عبارة عن ست مصاطب فوق قبره ، كل منها أصغر مما تحتها حجما .

ويبلغ ارتفاع المصاطب السبت ١٩٥ قدما وكان الغموض يكتنف خلفاء سنفرو ، ولكن اعمال الحفر التى قامت بها مصلحة الآثار المصرية فى المدة من ١٩٥١ - ١٩٥٤ كشفت عن هرم مدرج لم يتم بناؤه لملك يدعى سخم حت ، وقد القى الضوء على مكان بانيه بين ملوك الأسرة الثالثة .

وهناك احتمال ان يكون خليفة لزوسر . وثمت ملك آخر من ملوك هذه الاسرة وهو « سلخت » له مقبرة فى بيت خلاف ثم الملك حابا ، ثم نفركا ولا يعرف عنهما شيء .

اما آخر ملوك هذه الاسرة فهو الفرعون حـو ويدعى حونى ومعناه (الضارب) وقد اقام لنفسه هرما فى دهشور فى جنوب سـقارة وهو الحلقة الموصلة بين الهرم المدرج والهرم الكامل .

وقد جاء ذكره فى ورقة عثر عليها من عهد الدولة الوسطى تنص على ان حونى هذا هو السلف المباشر للفرعون سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة .

وهناك مباحث حديثة ومحاولات جـادة لتحقيق ملوك هـذه الاسرة واعادة ترتيبهم ، وتحقيق آثارهم على ضوء آخر المكتشفات .

« مصر الخالدة - للدكتور عبد الحميد زايد » .

٢٦١٣ - ٢٤٩٤ ق.م - الاسرة الرابعة :

عصر بناة الاهرام الدنلمى : اهرامات ميدوم - دهشور الجيزة وابو رواش .

عمليات تعدينية فى سـينا - تجارة مع ببلوس للاخشاب - محاجر لاستخراج الجرانيت من اسوان وصحراء النوبة .

وقد اسسها الملك سنفرو (١) الذى تزوج ابنة الملك حـونى آخر ملوك الاسرة الثالثة « حتب حرس » وهى التى اكتشف قبرها حديثا فدلنا على اساس تسلم سنفرو العرش نتيجة المصاهرة - وتاسيس هذه الاسرة بعد ان كانت غامضة .
وقد نقلت محتويات هذه المقبرة الى غرفة خاصة بجوار غرفة الحلى بالمتحف المصرى ، وتقول حتب حرس عن نفسـها انها ابنة الملك « حونى » وزوجة الملك « سنفرو » وأم الملك « خـوفو » .

وقد بنى سنفرو لنفسـه اخذا بالتقاليد القديمة مقبرتين على شـكل أهرام ، احدهما فى ميدوم بالقرب من الواسطى وهو يقرب من الهرم الكامل ، قاعدته مربعة وله وجوه أربعة مثلثة - اما الهرم الثانى ففى دهشور جنوبى سقارة ، توفرت فيه كل صفات الهرم الكامل بزواياه المضبوطة .

---

(١) يعتبره بريستيد آخـر الاسرة الثالثة - ولكن مانيتون ذكره على رأس الاسرة الرابعة والاكتشافات الاخيرة قد ايدت ذلك .

وفى عهده قامت حملة بحرية الى سوريا وعادت بأربعين سفينة محملة بالأخشاب، فكان ذلك أول اسطول بحرى عرفه التاريخ .

وكان الملك سنفرو بناء عظيما ، محبوبا لدى الشعب وقد ظل صدى هذا الحب عالقا فى اذهان الناس لمدة قرون ، وقد اعتبر المؤسس الاخير للنفوذ المصرى فى سيناء ـ وقد افتخر الملوك بعد عهده بألف سنة أن مشروعاتهم فى سيناء قد فاقت مشروعاته ، ويعتبر عصره بصفة عامة عصر رقى وقوة ورخاء وازدهار ، بلغت فيه الدولة القديمة درجة رفيعة وقد حكم ٢٩ سنة تقريبا .

٢٥٨٤ ق.م :

ولى الملك ((خوفو)) ابن الملك سنفرو : وقد تزوج فيما يعتقد البعض اخته ((مرنيت ايتس)) واستفاد خوفو من خبرة رجال ابيه وجهود عهده وقد توفر له من سعة السلطان مما توفر لابيه وتوفر لمصر فى عهده من الامكانيات المادية والكفايات الفنية ما لم يتوفر لها فى العهود السابقة أو التالية .. وكان هذا هو ما مكنه من بناء أخلد ما عرفت الدنيا من معجزات ، فقد كان يقال أن الاهرام احدى معجزات الدنيا السبع ، وقد زالت المعجزات الست الاخرى ولم يعد لها وجود ، أما معجزة الأهرام فلا تزال باقية فحق بأن يوصف انه معجزة المعجزات .

ويشغل مبنى الهرم مساحة قدرها ١٣ فدانا وارتفاعه الاصلى ١٤٦ مترا أو اقل قليلا وقاعدته مربعة يبلغ طول احد أضلاعها ٧٥٠ قدما واستخدم البناءون فى بنائه على ما يقال مليونين وثلثمائة الف كتلة حجر تراوحت زنة الواحدة بين طنين وثلاثة اطنان ويصل وزن بعضها الى ١٥ طنا ، قطعت جميعها من الحجر الجيرى وكان يظن الى وقت قريب جدا أنها من محاجر المقطم جنوبى القاهرة ـ ولكن الرأى اثبت الآن انها من هضبة الجيزة نفسها . فيما عدا الكساء الخارجى للهرم قطعوا لوحاته السميكة من الحجارة الرملية .

وقد جرى الخلاف ولا يزال قائما حول الكيفية التى استجلبت بها حجارة الأهرام الى موقع العمل ، ثم رفعت بعد ذلك لبناء الهرم . وقد روى هيردوت أن المصريين قد استعملوا الحبال والبكر لرفع الاحجار ثم جاء من اعترض على ذلك مقررا أن طريقة المزالق (الطريق المنحدر) هو الذى استعمل لرفع الاحجار وان حفائر الجامعة المصرية عثرت على بكرتين بجوار الأهرام (ص ٢٨٨) جزء أول .

كما كسيت بعض حجرات المدفن بالاحجار الجرانيتية وقد عثر حول الهرم على كثير من قبور بعض أفراد اسرته . ولكن نقوش هذه الآثار لم تتحدث كثيرا عن ايام حكمه وقال هيرودوت فى تاريخه ، أن عدد الذين استعملوا فى بناء الهرم ١٠٠ الف .. ولا يجد علماء الآثار مبالغة فى هذا الرقم ، وكانوا يعملون لمدة ثلاثة اشهر ثم يستبدلون بغيرهم .

ومن عجائب الاقدار أن جثة الملك الذى بنى هــذه المقبرة للمحافظة عليها ، لم يعثر عليها .

ولم يعثر لخوفو الا على تمثال صغير من العاج فى أبيدوس وهو محفوظ بمتحف القاهرة . ومن أهم المكتشفات الأثرية فى عهده العثور على مراكب الشمس المصنوعة من الخشب طول الواحدة منها ٥٥ مترا .

وقد حكم خوفو ٢٣ سنة .

٢٥٦١ ق . م ـ ولى العهد « ددف رع » :

ويقول برستيد أنه يجهل تاريخه وعلاقته بأسره خوفو ، ولكن المباحث الحديثة بعد الكشف عن مراكب الشمس ، قد رجحت أنه ابن خوفو ، ذاته وهو الذى أشرف على دفن مراكب الشمس بعد وفاة أبيه وشرع فى تشييد هرم خاص به فى أبى رواش يبلغ طول كل ضلع من اضلاعه مائة متر أما ارتفاعه فى الوقت الحاضر فلا يزيد على عشرة أمتار ، ولم يبق من مداميكه الا القليل .

وقد حكم ثمانى سنوات ، وقد نحت له الفنانون عدة تماثيل رائعة أظهروا فيها ملامح وجهه بأسلوب واقعى صارم حزين وابتدعوا فى عهــده فيما يظن أول نموذج لتماثيل ابو الهول برأس انسان وجسم اسد رابض .

٢٥٥٣ ق . م :

تولى خفرع العرش بعد أخيه ددف رع واسمه المصرى القديم حرفيا «خعفرع» وكان أول من اطلق على نفسه اسم ابن رع . وقد بنى لنفسه هرما ، وان كان أصغر من هرم خوفو (١٤٣ ارتفاع) ولكن مهندسيه وضــعه على هضبة مرتفعة ليعوض نقص ارتفاعه ، وهو لا يزال حافظا لرونقه اكثر من الهرم الأكبر ، ووجد فى معبده الجنائزى بقايا كثيرة من تماثيله ، ويرجع ذلك الى الثورة التى قامت فى أواخر الاسرة السادسة التى حطمت آثار الاسر السابقة عليها . ولكن وجد له تمثالان من حجر المديوريت فى معبد الوادى الملاصق لأبى الهول واحدهما يعتبر من القطع الثمينة التى يمتلكها المتحف المصرى .

وتتمثل ذروة ما وصل ليه فن النحت فى عهده فى تمثال أبو الهول والذى دلت آخر الكشوف على أن خفرع كان هو الآمر بنحته ، وقد نحت من صخرة واحــدة ، على صورة راس خفرع ولكن جسمد أسد ، ويرى سليم حسن انه رمز للاله آتوم (اله الشمس) وقد اطلق عليه فى العصور المتأخره اســم (حور ام أخت) وحدث ان قطن فى المنطقة قوم من الآسيويين فاعتبروا ابا الهول ، هو الههم حورون ، وسموا

المنطقة التي يقع فيها أبو الهول (يو حـول) فحرفها العـرب عندما دخلوا مصر الى (أبو الهـــول) .

٢٥٢٨ ق . م !

تولى العرش بعده الملك (منكا ورع) : وقـد لقب بالصـقر الذهبى ، وذكره هيردوت باسم مركيز نيوس وعبر عنه مانيتوف باسم منخريس وهناك بعض الشك فى كونه ابن خفرع : فقد وردت بعض دلائل فى ورقة تورين وغيرها على وجود اسم ملك يتوسط بين خفرع ومنقرع وهو الذى بنى الهرم الثالث الذى لا يزيد ارتفاعه عن ٥ر٦٦ مترا أى أقل من نصف ارتفاع هرمى (خفرع وخوفو وقد ذكر هيرودوت أن المصريين احبوا منقرع اكثر مما احبوا اباه وجده .

وقد وجد من الآثار ما يدل بالفعل على انه كان اكثر برا بالرعية ورجال حاشيته وقـد حكم عشرين سنة .

وقد كشفت الحفائر فى معبد الوادى لمنقرع عن نفائس فنية ودينية تعد انفس مجموعة وجدت فى الدولة القديمة من الاسرة الرابعة ومن بينها مجاميع السـهات القاطمات ، وتمثالان لمنقرع وزوجته فى قطعة واحدة بالحجم الطبيعى من الجرانيت وهما يعدان من أجمل قطع الفن فى هذا العصر .

٢٥٠٨ ق . م :

تقريبا ـ تولى العرش ابن منقرع الملك ((شبسكاف)) وقد خلا اسـمه من كلمة « رع » كما لم يبن لنفسه هرما وانما بنى لنفسه مصطبة كبيرة ووضع فوقها بناء على هيئة تابوت سميت مقبرته (مصـطبة فرعون) (١٠٠ متر طـولا ٧٢ عرضا ١٨ مترا ارتفاعا) .

وقد قال بعض العلماء ومن بينهم (سليم حسن) ان عدم وجود لفظ (رع) فى اسم شبسكاف وعدم بنائه هـرما ، يدل على انه رغب عن عبادة رع ، بعـد ان راى تزايد نفوذ كهنته . ولكن البعض الآخر ، لا يرون هذا الراى ، ويرجعون عدم بنائه هرما .. « الى قلة الموارد المالية .. » وان اسمه وان خلا من لفظ « رع » فقد يكون ذلك مبالغة فى التقديس فاكتفوا بالاشارة له بطريق الرمز وحرف الضمير فى آخر اسمه وهو (الفاء) خاصة وانه ظل يحتفظ باسم « سارع » أى « ابن رع » (عبد العزيز صالح) .

٢٥٠٤ ق . م :

تقريبا ـ احتلت العرش بنت منقرع أخت شبسكاف الملكة ((خنت كاوس)) وقد كتب على مقبرتها التى تشبه مقبرة اخيها على هيئة تابوت ضخم فوق قاعدة

صخرية مربعة « ملك الوجهين القبلى والبحرى » ، والأم الملكة وبنت الاله وكل شىء تأمر به ينفـذ لاجلها .

وقد تزوجت خنت كاوس شخصا من غير الدم الملكى وكذلك لم تذكر اسمه فى مقبرتها وقد يكون هو من بين كهنة الالة « رع » وانجبت « أوسركاف » الذى أسس الأسرة الخامســة ، فكان خنت كاوس هى حلقة الصـلة بين الاسرتين الرابعـة والخامسـة .

ويرى البعض أن خنت كاوس ، هى التى أشـار اليها مانتون تحت اسـم « نيتوكريس » وانها التى اتمت بناء الهرم الثالث .. كما كانت هى التى أوحت بالاسطورة الخيالية التى صاغها الاغريق عمن بنوا الهرم ، وورد ذكر « رودوبيس » وانها بانية الهرم الثالث — وقد تولى هيرودوت تفنيد هـذه الاسطورة ، ويضـع برستيد تاريخها قبل ذلك اى عام ٢٧٥٠ .

الأسرة الخامسة

٢٤٩٤ ق . م ـ تقريبا :

قيام الأسرة الخامسة ـ تسع ملوك ـ اسركاف ـ ساحورع ـ نفرابر كارع ـ (كاكاو) ـ شبسكارع ـ نفر فرع ـ نيو سيرع ـ منكاوخور ـ ديدكارع ـ أوناس . ارتفاع شأن كهنة هليوبوليس ـ العودة الى عبادة الدولة ـ أهرامات بمعابد الشمس فى ابو صير ـ اتمام لحولبات يلرم ـ معارك مع الليبيين ـ رحلات تجارية مع بونت ونوبيا ـ بدأ اللامركزيه فى السلطة ـ قيام أمراء الاقطاع .

كان تأسيس هذه الاسره غامضا بالنسبة للظروف التى بدات بها .

وهناك أسطورة عن أصلها جاءت فى بردية وستكار ونسب لأحد السحرة المسمى ديدى ، فقد تنبأ بين يدى « خوفو بولادة اطفال ثلاثة ستلدهم زوجة كبير كهنة « رع » وان كلا منهم سيكون حاكما للبلاد : وبالفعل أسس الاسرة أوسر كاف .

ونفسر هذه الاسطورة لماذا اعتبر فراعنة مصر ابناء رع منذ ذلك الحين حتى آخر التاريخ المصرى . واتخذوا ملوك هذه الاسره منف قاعدة لحكمهم ، واصبح اسم الملك يسبق دائما بأنه ابن الشمس بعد أن كان ينسب الى المعبود حوريس ـ وبنوا بجوار منف معابد للشمس ، يحتوى كل منها على مسلة ويزين جدران ممراته وقاعدته بمناظر ذات الوان زاهية تمثل مختلف صور الحياة القديمة ، وقد تهدم الهرم الذى بناه « وسركاف » ومعبداه فى منطقة أبو غراب جنوبى الجيزة ولكن بقيت له رأس ضخمة لامعة من الجرانيت ، لابد انها كانت رأسا لتمثال كامل .

وحكم أوسركاف ٧ سنوات ، كما تقول بردية تورين ، ويقرر مانتون أنه حكم ثمانى سنوات .

٢٥٦٣ ق . م :

وخلفه ساحورع الذى حكم ١٢ سنة على ما تقول بردية تورين وحيث يقول مانتون بأنه حكم ١٣ سنه وأقام معبدا للشمس بأبى صير شمال سقارة بالقرب من هرمه الذى اقامه بهذه الناحية وهو يعتبر احسن مثال لهذه المعابد المميزة لهذه الاسرة ، وقد نقش عليه بأنه أرسل أسطولا الى فينقيا وبعث بحملة بحرية أخرى الى بلاد بونت (الصومال) لاحضار البخور .

٢٥٥١ ق ٠ م :

ثم تولى الحكم اخـوه **نفرابر كارع (كاكاى)** ، وبنى له هرما ومعبدا بأبو صير ولم يبق منه سـوى كتل كثيرة منقوش عليها اسماؤه والقابه ــ وقد فقد من بردية تورين ما يدل على مدة حكمه ، ولكن حجر بلرمو ثبت به ما يدل على انه حكم على الأقل عشر سنوات .

٢٥٤١ ق ٠ م :

تولى بعـده الملك **شبسكارع** ــ وحكم مـده قصيرة بلغت سبع سـنوات على ما جاء فى بردية تورين .

٢٥٣٧ ق ٠ م :

وتولى الحكم من بعده نفراف رع واسمه الحوربس نفرخو والذى قام ببناء هرم له فى ناحية أبو صير ولكنه لم يتمه وقد جاء اسمه على مسرد أبيدوس ثم تولى الملك « نى اوسررع » وترك لنا بناحية أبى صير هرمه ومعبده الذى نقش عليه أقدم احتفال لبلوغه الثلاثين سنة فى حكمه ولكن البعض يشكون فى ذلك . وبردية تورين ممزقة فى مكان ذكر مدة حكمه وكان من بين الكهنة المخصصين لمعابد هرمه الكاهن « تى » الذى شاد لنفسه ولابنه مقبرة كبيرة بصقارة امدتنا بمعلومات غزيرة قيمة عن الحياة الاجتماعية والدينية فى هذا العصر .

٢٤٥٠ ق ٠ م :

قيام الامبراطورية الاكادية على يد سرجون الذى حكم أكادوسومير وعيلام واشور وشمال سورية وورث الحضارة السومرية .

٢٤١١ ق ٠ م :

ثم تولى ملك مصر الملك من كاوحور وذكرت بردية تورين انه حكم ٨ أعـوام . وكل ما نعرفه عنه انه أرسل حملة الى شبه جزيرة سيناء .

٢٤٠٣ ٠ م :

ثم تلاه « ددكارع » ــ « اسيسى » وكان عصره حافلا بالأعمال العظيمة ، وأرسل

بعثات الى بلاد بنت واحضر منها قزما من نوع نادر ، وعثر لهـذا الملك على اربعة نقوش فى وادى المغارة بشبه جزيرة سيناء وقد وصف على احدها بانه ابن الشمس.

كما ارسل حملة الى بلاد النوبة .

وقد كان « فتاح حوتب » صاحب التعاليم المشهورة التى تعد اقدم ما وصل الينا من حكم المصريين الآن ، مربى الملك «اسيسى» وقد أملى تعاليمه فى شيخوخته لاعداد ابنه ليتولى بعده وظيفته فى البلاط .. وكان مما قاله وصفا لشيخوخته :

« حلت الشـيخوخة ونزل هذيانها ـ وامتلأت الأعضـاء آلاما وظهرت حالة الشيخوخة كأنها شيء جديد ، وانمحت القوة امام الهزال ، وصمت الفم فلم يعـد ينطق ، وغارت العينان ، وصمت الآذان ، والقلب كثير النسيان ، والعظام تتألم من كبر السـن ، والأنف كتم وأصبح لا يتنفس ، والقيام والقعود كلاهما مؤلم والطيب اصبح خبيثا ، وكل ذوق قد ولى . وما يفعله التقدم فى السن مع الانسان هو أن يصير حاله سيئا فى كل شيء ، فمرنى أن أضع عكازا لكبر السن ، ودع ابنى يأخـذ أحاديث من يسمعون وأفكار من سلفوا » . (سليم حسن)

وكان من وصـاياه لابنه :

« لا تتعال بمعرفتك ، ولا تشغل عقلك بأنك عالم اذا ارتقيت بعد صغر شأنك ، وحزت ثراء بعد عوز تدبم فى قرية تعرفها فلا تتنكر لما حدث لك من قبل ولا تتكل على ثرائك ولا تتخلف عن غيرك ممن أوتوا حظا أقل مما أوتيت » .

ترفق حين تستمع الى حديث الشاكى ، ولا تنهره حتى يفضى بما فى جوفه ويحكى ما جاء من اجله فالمتظلم يجب أن يؤمن السامع على قوله حتى ينهى ظلامته والمهموم يفضـل أن يواسيه السـامع عن ان يقضى له حاجته ومن شأن حسن الاستماع أن يريح الفـؤاد .

واستمر فتاح حوتب يدعو ولده لتهذيب نفسه فأوصاه ان يجنبها الكبر والتعالى والجشع والنهم ، والحقد ورغبة الانتقام أوصاه ان يحمل نفسه على اداء واجباتها الضرورية . وان يتكفل بتاسيس داره ونفقـات أولاده وكماليات زوجتـه وختم وصـاياه :

« فاذا عرفت ان تحيا بالقناعة اتاك ما قدره الأرباب لك باكمله » .

« واعلم أن الرزق وفق ارادة الرب ـ والجهول هو من يعترض على ارادته » .

(عبد العزيز صالح)

وقـد حكم الملك ٢٨ سنة .

٢٢٧٥ ق ٠ م :

وخلفه احسن ملوك الأسرة وأعظمهم شهرة وهو الملك أوناس الذى حكم ثلاثين عاما على ما تقول بوردية تورين واشتهر ببناء هرمه بصقارة وقد نقش على جدران حجرة مدفنه تعاويذ وصلوات دينية باسم متون الاهرام ؛ وهى من أهم المصادر التى تمكننا من معرفة معتقدات المصريين القدماء وأساطيرهم .

وستصادفنا هذه الطقوس نفسها عبر التاريخ المصرى القديم وقد سجلت بالمداد الاسود على توابيت الموتى من علياء القوم ... كما ستراها فيما بعد فى الدولة الحديثة مكتوبة على أوراق البردى بعد أن غزرت مادتها فيما اشتهر بين علماء الآثار باسم كتاب الموتى .

وقد كشفت أجزاء من الطريق الموصل بين معبده الجنائزى ومعبد الوادى التابع لهرمه وكان هذا الطريق مسقوفا بأحجار ضخمة من الحجر الجيرى ومزينة بالنجوم لتجمل قبة السماء أما جانبا الطريق فقد نقشا بمناظر غاية فى الاتقان بعضها جنائزى ، والبعض الآخر يمثل الحياة العامة وحياة البلاط .

وبانتهاء حكم أوناس انطوت صفحة الاسرة الخامسة التى تعتبر فترة ازدهار اتسعت فيه آفاق دين الشمس وشملت أمور الدنيا والآخرة وازداد التقارب خلالها بين ملوك وكبار أفراد الشعب ؛ ومضى التطور الطبقى بخطى وئيدة وبلغ فن العمارة والنحت والتصوير والنقش ذرى عالية واستأنفت مصر خلالها صلاتها التجارية الخارجية على نطاق واسع مع فينيقيا فى شمالها الشرقى وبلاد بونت فى جنوبها الشرقى .

الأسرة السادسة

٢٣٤٥ – ٢١٨١ ق.م تقريبا

« من دائرة المعارف » :

ثمانية ملوك بما فيهم تيتى – أسركاد – بيبى الأول – مرنر – بيبى الثانى نفتكارى – ثلاثة ملوك من بينهم ملكة (نيتو كريس) . زيادة التجارة البحرية مع بابليوس وبونت – نومارخ الفينتين يسوق قوافل الى السودان – نمو قوة نومارخ – مدافن خاصة كبيرة – بيبى الثانى يحكم اكثر من تسعين سنة أطول حكم فى التاريخ .

لم تكشف الآثار حتى الآن عن أصل قيام الأسرة السادسة ، غير أنه من الراجح ان مؤسسها هو الملك تيتى واسمه الحوريسى « سحتب توى » ، ويتجه الظن الى أنه كان زوجا للاميرة « ابوة » او « ايوتم » ابنــه أوناس » وانه اكتسب شرعيــة اعتلاء العرش عن طريقها . وان كان قـد تزوج بعدها بأميرة أخرى تدعى خوية . وله هرم بصقارة نهبته اللصوص ومنقوش على جدران حجرة المدفن به جزء كبير من فنون الاهرام وقد ذكر مانيتون ان هذا الملك قد قتله الحراس .

وفى عهد تيتى بدأ « أونى » حياته وهو يعد من أكبر الموظفين المصريين فى هــذا العصر ، وقد عاش فى عهد عدة ملوك ، وقد دفن فى العرابة وترك لنا على أحد جدران مقبرته أطول نقش عن حياة شخص وهو يعتبر أهم وثيقة تاريخية وصلت الينا من الدولة القديمة .

وقد تلا حكم تيتى عصر غامض ربما كان سببه الاضطراب الذى حدث بعد قتله طبقا لرواية مانتون ، وكل ما نعلمه عن هــذه الفترة ان قائمة الملوك بالعرابة ذكرت لنا اسم ملك خلف تيتى لا نعرف عنه شيئا مطلقا وهو وسر كارع .

بيبى الأول : وظهر بعد هذا الغموض على عرش مصر فتى يدعى بيبى وقد ظـل قابضا على زمام الأمور فى البلاد بقوة وعزم نحو خمسين سنة ، وهــو يعد بحق من اكبر الفراعنة الذين قبضــوا على زمام الأمور فى مصر فى كل عصور تاريخها بحــزم ونشــاط .

وقد عثر له على تمثال آية فى دقة الصنع من النحاس ، وهو يفوق كل ما صنع

قبله من التماثيل حتى تلك التى عثر عليها لخفرع ومنقاورع ، وهو يعد عند علماء الآثار من اعظم ما عثر عليه من كنوز فنية .

وقد بنى بيبى لنفسه هرما فى سقارة وهو أكبر من هرم أوناس ومن هرم تيتى ، ويمتاز بالتفنن فى اخفاء حجرة الدفن والعناية بوضع العقبات فى طريق الوصول اليها ولكن رغم كل التحفظات التى بذلت فى هذا السبيل ، فان ذلك لم يحل بين اللصوص وبين تمزيق جثة هذا الفرعون العظيم .. وربما كان ذلك من عمل الثوار الذين ثاروا فى ختام هذه الأسرة .

(أونى) وقد حدثنا أونى الذى أشرنا اليه فيما سبق ، كيف أنه من ابناء الشعب . نشأ فى وظيفة بسيطة ، ورقى حتى وصل الى وظيفة كبيرة فى الدولة ، وحاز ثقة بيبى الاول ، حتى لقد عينه قاضيا للفصل فى قضية خاصة بزوجته الملكة .

وبلغ من حب الملك له ان أهداه بناء على طلبه تابوتا من احجار طره .. ويمضى « اونى » فى سرد أعماله بالتفصيل وكيف قاد خمس حملات ، وتلا الملك بيبى الأول ابنه الملك مرن رع ولم يمكث على العرش أكثر من سبعة أعوام ومات وهو لا يزال فى بداية العقد الثانى من عمره .

وقد بدأ بناء هرمه عند توليه الحكم مباشرة ، وكان الموظف الكبير المشرف على بناء الهرم هو « ونى » .

وقد عثر على مومياء ، هذا الملك سليمة ، وهى اول جثة عثر عليها لفرعون بقيت الى عهدنا هذا ، وقد لوحظ أن خصلة الشعر التى كان يتميز بها الفتيان حديثو السن لا تزال عالقة بجمجمتها مما يدل على أن (مرن رع) كان لا يزال صبيا عند وفاته .

وقد عين « ونى » حاكما على الوجه القبلى ولقب بحاكم الجنوب ، ولقد سجل لنا « ونى » قائمة بأعماله ، لعل من أهمها حفر قنوات خمس عند الشلال الأول لتسهيل سير السفن التى كانت تعترض صخورها ، مما مكن من تسيير التجارة بين مصر والنوبة .

ويعد « حر خوف » أحد عظماء حكام « الفنتيين » الذى لا يزال قبره محفوظا الآن على الضفة الغربية من شلال أسوان ومن أعظم ابطال هذا المضمار — وقد قام حر خوف ، بثلاث رحلات — داخل الأقطار الافريقية قبل وفاة سيده « مرن رع » وكان يحمل لقب « مدير القوافل » وقد قص علينا بنفسه المخاطرات المختلفة التى قام بها على قبره بكل دقة — حيث وصف لنا تفاصيل ثلاث رحلات ، تدل على أنه كان كاشفا عظيما فى عصره وانه يعد أول من فتح الطريق للكاشفين والرواد العظام للتوغل فى مجاهل أفريقيا ، واستجلاب مختلف الخيرات منها — وسوف نسمع عنه من جديد فى عهد الملك الصغير الذى تولى زمام الملك بعد وفاة « مرن رع » .

مات « مرن رع » وهو لا يزال فى بداية العقد الثانى وخلفه على العرش اخوه

« بيبى الثانى » وقد ذكر لنا « مانيتون » انه جلس على عرش البلاد وهو فى السادسة من عمره ، وقال انه حكم حتى بلغ المائة من عمره ، ومعنى ذلك أنه حكم ٩٤ سنة ، وقد اكدت الآثار هذا القول ، وهى أطول مدة حكمها أى ملك فى التاريخ الانسانى كله وكانت مدة حكمه مليئة بالبعثات الى البلاد الأجنبية وخاصة الفترة الأولى من حكمه — ففى السنة الثانية من حكمه قام « حر خوف » بحملته الرابعة وتعد مفخرته التى توجت حياته — وقد توغل فى داخل افريقيا حتى توصل الى اقزام أواسط افريقيا وافلح فى اقتناص قزم أو اغراء واحد منهم ليصحب القافلة الى البلاط المصرى .

وعندما بلغ خبر هذا القزم الى بيبى الثانى ، كتب لحر خوف يقول : « عد فى الحال الى البلاط نازلا فى النهر واترك كل شىء آخر ولتحضر معك هذا القزم الذى جلبته معك من بلاد الأرواح حيا وسليما معافى حتى يقوم بالرقص المقدس وليسرى عن القلب وليسر فؤاد ملك الوجه القبلى والوجه البحرى نفر كارع عاش أبديا » .

وهناك نقرش أخرى لشخصين كبيرين احدهما موظف كبير يدعى « بيبى نخت » وقد قام برحلتين احداهما الى بلاد النوبة والثانية نحو شمال البحر الأحمر .

أما الموظف الثانى الكبير فهو احد عظماء أسوان ويدعى « سبنى » وقد قام بحملة شبيهة بحملة « بيبى نخت » لاحضار جثمان والده الذى مات شهيدا فى مجاهل افريقيا فى بلاد الزنوج وهو يرتادها .

ولا عجب اذا استطال حكم بيبى الثانى ، أن يكثر فى عهده الرجال الذين ولوا الوزارة فى أيامه ، ووصلوا الى قمة السلطان ، ولعل أشهرهم زاو ، وابنه « أبى » وقد ترك كل منهما خلفه مقبرة قد سجل عليها الكثير مما كشف لنا عن روح العصر ومعتقداته ..

وكان مما جاء على مقبرة « أبى » :

« انى اعطيت خبزا للجائع ، وملابس للعريان .. وحبوبا وثيرانا وفلاحين من أوقافى » .

وخلف بيبى الثانى فرعون آخر يدعى مرنرع محتى لا نعرف شيئا عن حكمه — وقد عدت بردية تورينو ١٨١ سنة مدة حكم ملوك هذه الاسرة ، فذكرت اربعة ملوك جاءوا بعد بيبى الثانى — ولكن مانتون عندما كتب تاريخه عن مصر انهاد بحكم ملكة أطلق عليها اسم نيتوكريس وقال عنها مانيتون انها « أنبل وأحب نساء عصرها » وذكر هيرودوت قصة انتحارها حيث قام بعض المصريين بقتل أخيها .

وكيفما كان الحال فالاتفاق على أن نهاية الأسرة السادسة كانت غامضة ، ولم يعثر فى الآثار حتى الآن ما يكشف الستار عن حقيقة ما جرى .

سقوط الدولة القديمة :

والحق أن سلطة الفراعنة فى الأسرة السادسة ، كانت قد أخذت فى التدهور

شيئا فشيئا وخاصة فى عهد الفرعون « بيبى الثانى » الذى حكم البلاد اكثر من ثلاثة اجيال ، وقد راينا كيف بدا كبار الموظفين يخلدون اعمالهم ويبنون لانفسهم المقابر بعيدا عن مقبرة الملك ، ويستولون على السطلة — حتى انتهى الأمر بانهيار السلطة المركزية وانفراط عقد الوحدة الذى دام الف سنة ، فعادت كما كانت قبل الوحدة ، الى عدة ولايات وامارات متطاحنة متضاربة .

وقد اعتبر ملوك الدولة المصرية القديمة عبر التاريخ المصرى القديم كله آلهة تعبد ، وقد استمر المصريون يعبدونهم حتى الاسرة السادسة والعشرين فكانوا يثابرون على تعيين الكهنة برسم الاشراف على عباداتهم ، ولا عجب فى ذلك فقد كان هؤلاء الملوك هم الذين وطدوا اركان المملكة وحشدوا قواتها ووجهوها نحو العمل النافع المثمر ، وآثارهم من المعابد المقابر والأهرام المنتشرة على طول النظر لعدة أجيال تشهد لهم بتوقد الذهن وعظم المجهود والبراعة فى الأعمال الآلية والانظمة الداخلية ، وبناء السفن لعبور البحار وارتياد البلاد للكشف ، وكانوا هم الذين وصلوا الى أواسط افريقيا ، وحسنوا فن الحفر والنقش وقدموا فن العمارة فشيدوا اعظم العمائر ، وبرعوا فى سياسة البلاد داخليا وخارجيا فسنوا القوانين المتينة العادلة ، واعدوا الرجال المتضلعين فى القضاء .

وكانوا هم واضعى أساس الديانة المصرية العتيدة التى تؤمن ببعث بعد الموت ، وحساب يثاب فيه المرء أو يعاقب على ما قدمت يداه .

وانتشرت مدنيتهم فى العالم المعروفه فى ذلك الزمان فتأثرت بها كل المنطقة وتفاعلت معها .

ملاحظات على الدولة القديمة

كانت حياة مصر الاقتصادية تقوم على الزراعة التى تتأثر بالفيضان وقد قسمت السنة الى فصول ثلاثة كل واحد منها أربعة أشهر . وهى فصل الفيضان وفصل الانبثاق أو الازدهار حيث تكون الارض قد ظهرت بعد الفيضان وتودع فيها البذور ، ويثمر الزرع ، وأخيرا فصل الجفاف .

وهذه الصورة لم تتغير سواء قبل عهد الاسرات أو بعد الدولة القديمة . وكانت الحكومة هى التى تقوم باستصلاح الاراضى . فقام نعرمر مينا بمثل هذا العمل .

وقد سجل المصريون مقاييس النيل من أيام الاسرة الاولى .

والمحصولات الرئيسية هى الشعير والقمح ـ وكانت هناك محاصيل ثانوية كالخص والبصل واللوبيا والعدس .

وكان المساحون يأتون بعد أن تنمو الزراعة ـ الى ارتفاع معين ويقومون بتقدير الضرائب على الغلات المنتظرة .

وتحصد الحبوب بالمناجل ، وتقوم الحمير بعملية الدراس ثم تدوس الماشية على السنابل ،وتقوم النساء بعد ذلك بالتذرية ، وتخزن الغلة بعد ذلك فى أكوام أو فى مخازن وبعد ذلك يعطى المالك أو صاحب الارض نصيبه وكانت التقاوى تعار للفلاحين ، كما تعار الحمير والثيران للقيام بعمليات النقل أو الحراثة ، وهناك بعض الوثائق التى تظهر تسامح بعض كبار الملاك مع الزراع الذين لم يقوموا بأداء ما عليهم من ضريبة نتيجة عوارض طبيعية .

وكان الفرعون هو مصدر القانون ويحكم بمراسيم كأنها قرارات أوحى اليه بها .

وبتقدم الحضارة المصرية وجدت وظيفة الوزير الذى يجتمع بالملك كل صباح ومساء ليرفع له تقريرا عن حالة البلاد وكان الوزير هو القاضى الاعلى ورئيس السجلات .

وكانت الادارة التى تعمل تحت اشراف الوزير مقسمة الى ادارات مختلفة ـ ادارة الخزانة وادارة الزراعة .

وبعد هذه الفترة المبكرة سنجد التصوير الابدى لحالة الفلاح وهو اذ يصور بؤس الفلاح من ناحية ، فهو يظهر أن القلوب الرحيمة والاصوات قد ارتفعت دائما لنصرته .

الا تذكر حالة الفلاح الذى تعب أمام جامع الضريبة الذى أتاه لتحصيل ضريبة الحصاد ــ وقد حصدت الحملة نصفه وابتلع فرس النهر النصف ، ان الثيران كثيرة فى الحقول والجراد قادم ــ ان العصافير تجلب الكارثة للفلاح ، ثم يهبط الكاتب الى شاطىء النهر وهو على أهبة تحصيل ضريبة الحصاد ــ والحجاب يحملون الدفوف ورجال الشرطة يحملون العصى ويقولون سلم الحبوب مع انه لا يوجد شىء منها ــ ويضرب الفلاح فى كل انحاء جسمه ويوثق ويرمى فى بئر ويغطس ويوضع راسه الى اسفل ، ويوثق أمام زوجته بينما أولاده فى القيود (ص ٢٨٠ عبد الحميد زايد) .

هذا الحديث السابق ــ من أقوال الكتاب الذين يقومون بتعليم الاولاد فى الكتاب فى الريف .

ولكن الرسوم والنقوش على القبور تحمل صورة غير هذه فالفلاح يقوم بالغناء الجماعى أو الفردى ــ والصيادون والرعاة يقومون بعملهم فى جد ونشاط يدل على الاستمتاع والحيوية ، فهم يتحركون أو يحصدون فى صف واحد وقد لوحوا بمناجلهم بانسجام على لحن الاغانى بينما يعزف لهم حامل الناى ، وقد جاءت النسوة تحمل لهم الطعام .

واما عن مركز المراة فى الدولة القديمة كابنة اله او زوج اله أو أم اله ــ وكانت الأم تسيطر على الأسرة فى المجتمع المصرى وكان للفراعنة حق الزواج بأكثر من واحدة ــ ولكن الزوجة الاولى تعتبر أعلى الزوجات ــ وهذا هو السبب فى زواج الأخ باخته لتأكيد صفة الالوهية .

الحبوب التى كانت تزرع فى مصر :

الفول ــ العدس ــ الحمص ــ البامية ــ الفاقوس ــ البطيخ ــ الكرات ــ الكرفس ــ الخص ــ البصل ــ الثوم ــ التوابل (الكزبره ــ الكراويا ــ الكمون) ــ العنب (ويستخرج منه النبيذ ما بين أبيض واسود) .

الرمان ــ الالياف ــ الكتان ــ وهناك من يقولون ان مصر عرفت القطن .
وشجر الزيتون والبردى .

اما آلات الفلاح فهى : المحراث ــ المحشة (المنجل) والاقساط والمطارق والمجارف والمكانس والمناخل والغرابيل .

الحيوانات المقدسة (قبل الأسرات) :

الفهد ــ فرس النهر ــ الذئب ــ الفيل ــ وحيد القرن ــ الأسد واللبوءة ــ التمساح ــ الصل أو الثعبان .

(الخنزير ــ الضبع ــ الدواجن) .

النحل .

الغنم ـ الحمار ـ الثور ـ الحصان ـ الجمل .

الكلب ـ القطة ـ النمس المصرى ـ فأر فرعون ـ القرد .

كان المصرى يعامل حيواناته برفق ، ويقودها الى الحقل وهو ينشد لها الأغانى .

كانت الحيوانات تعد كل عامين (حجر بلزم) .

وأنواع السمك : البلطى ـ والبورى ـ القرموط .

وكان المصرى يعرف القوس والنشاب .

ويضع الفخاخ لصيد الغزلان .

واستعمل الخية .

الاحجار التى عرفها :

- ـ الحجر الجيرى .
- ـ الحجر الرملى .
- ـ حجر الجرانيت .
- ـ حجر المرمر .
- ـ حجر البازلت .

واستعمل فى غير البناء :

احجار البرشيا الخضراء والحمراء وحجر الديوريت والدولوميت والظران او الصوان ـ واستعمل الجبس وحجر الشست والأردواز .

وكان تقطيع الاحجار السهلة يتم بفصل الكتلة المرغوب قطعها من جهاتها الأربع عن الصخر الأصلى وذلك بخوابير من الخشب وعروق مبللة بالماء والآلات التى تستعمل فى ذلك من المعدن فكان من النحاس حتى الدولة الوسطى حيث حل البرنز . ومدقات من الخشب ومطارق من الحجر . اما بالنسبة للاحجار القاسية ، فلا يزال الامر محل تكهنات حيث قال البعض ان لابد ان يكون المصريون قد عرفوا الصلب .. وان كان الاستاذ سليم حسن كدابه فى تبسيط الامور ، يرى غير ذلك .

احجار الزينة الاحجار الكريمة :

العقيق ـ الجمشت ـ الزمرد المصرى الأخضر ـ حجر الدم (العقيق الاحمر) ـ العقيق الابيض (شمسى اللون) ـ المرجان وهو أبيض أو احمر ـ حجر الامزون (الفلسبار الاخضر) ـ حجر سيلان (أحمر قاتم) ـ حجر التملايت ـ حجر الدم

(أكسيد الحديد) ــ اليشم أو حجر الجاد ــ حجر اليشت ــ اللازورد ــ ازرق قاتم ــ حجر الدهنج (التوتيا) ــ اللؤلؤ ــ الفيروز .

المعــادن :

النحاس ــ الذهب ــ الحديد ــ) على اختلاف وعدم تأكيد (والقصدير والفضة والرصاص ــ البرنز ــ (خليط من النحاس والقصدير) ــ والالكتروم ــ (خليط من الذهب والفضة) .

الاعمال فى الدولة القديمة :

١ ــ الاعمال الحكومية ــ الادارة ــ استغلال المناجم والمحاجر .

٢ ــ الاعمال الحرة كالحرف والصناعا تـوكانوا احرارا غير تابعين لفرد معين او للحكومة وكانوا يعملون فى مقابل اجر يتفق عليه فى حرية .

٣ ــ اعمال الضــياع العظيمة .

طرق المواصلات :

الاعتماد الاكبر كان على النيل ، والذى جعلهم أمة ملاحية منذ اقدم العصور ، ففى وقت الفيضان لم يكن ثمة سبيل للانتقال من قرية الى اخرى الا فوق الماء .

وكان الحمار هو مـادة الحمل العادية .

النقــود :

والرأى على انهم عرفوا النقود ، فقد جاء فى احدى الوثائق اشارة الى الشمت الذى يعتبره المصريون معيـارا من المعدن . . وينتهى ســليم حسن من بحثــه باعتماد فكرة النقود .

تجارة مصر الخارجية :

عثر فى مقابر جبل (بابلوس) على بعض آثار من طراز صناعة ما قبل الاسرات .

وذكر حجر بلغم علاقات مصر مع آسيافىعهد سنفرو وقد عثر فى أساس معبد ببلوص على قطع اثرية منقوشة عليها اسماء ملوك من الأسرة الرابعة .

وتدل الكشوف على احتمال وجود علاقات تجارية بين مصر وجزر البحر الابيض المتوسط وخاصة كريت قبل عهد الأسرات .

والعلاقة وثيقة مع بلاد بونت .

العـــلوم :

كان المصرى ماهرا فى العلوم التطبيقية وفى المسائل الفنية ـ يقول هيرودوت أن علم الهندسة كان وليد الحاجة عند المصرى عندما أراد أن يقسم الأراضى الزراعية الى قطع منتظمة .

استعمل المصرى للمقاييس السطحية الدراع والشبر والقصبة والاصبع والقيراط . وكان المساحون الملكيون يقيسون الارض بوحدة تسمى « ستا » وتساوى ٢٧٥٦ مترا .

وكان يستعمل الارقام فى الحساب منذ فجر التاريخ قبل عهد الاسرات ـ ومنذ عهد الملك نعرمر كان يوجد فى مصر نظام الارقام بكل علاماته حتى العلامة التى تدل على الف .

وقد وجدت برديات تحتوى على عمليات حسابية ولعل من أهمها ورقة (رند) .

عـلم الفلك :

وكان فى عين شمس كاهن خاص لمراقبة سير الشمس يسمى الرائى العظيم ، وفى المعابد جماعات كهنة لمراقبة سير النجوم .

وتقسيم السنة الى اشهر قمرية كل منها ثلاثون يوما أكبر دليل على معرفة تامة بمنازل القمر . أما الأشهر القبطية ـ توت وبابة وهاتور وكيهك وتمثل فصل الفيضان .

ثم طوبة وامشير وبرمهات وبرمودة ويتألف منها فصل طلوع النبت .

ثم بشنس وبئونة وابيب ومسرى ويتألف منها فصل الصيف .

واليوم ينقسم الى اثنتى عشرة ساعة نهارا واثنتى عشرة ساعة ليلا ـ وكان الوقت يعرف « بالمزولة » واستخدام الظل والفلاح يستعملها حتى الآن .

وهناك ساعات مائية ـ أما فى الليل فيميز من النجوم .

وكان الى جوار علم الفلك ـ يوجد علم التنجيم .

الطب :

بدأ التحنيط منذ الأسرة الثانية (علم التشريح) وكان الاطباء متخصصين ـ أعين ـ باطنى ـ أسنان ـ وكانت هناك كتب طبية منذ بداية الأسرة الخامسة وهناك برديات واهمها بردية سميث ، ويظهر منها ان الطب لم يرتكز على مجرد التعاويذ السحرية وهى بحث فى الجراحة ـ وطب الجراحة ومعالجة الامراض الظاهرة والتشريح .

والمعلومات مرتبة ترتيبا علميا منطقيا حيث فحص مؤلفها الجسم الانسانى من الراس الى القدمين ورتب مادتها وقد دون بها عشر حالات عن الجمجمة وتسعا عن الانف وعشرا عن الفك والأذن والشفتين وستا عن الزور والرقبة وخمسا عن الترقوة والكتف ومشط الكتف وستا عن الصدر ومقدمته ، وواحدة عن العمود الفقرى .

نظام الأسرة فى الدولة القديمة :

المساواة فى الميراث بين الأولاد ـ الابن الاكبر كان يتولى ادارة الوقف .

كبرى البنات تقدم لوالدتها القربان .

الزوجة تمثل بحجم زوجها فى غير المناظر الرسمية .

والابن الاكبر فى مناظر تمثيل الاسرة يشعر بسيطرة على أمه الارملة .

العهد الانتقالى الأول

٢١٨١ ـ ٢٠٤٠ ق٠م

« العهد الانتقالى الأول ـ الأسرة السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة » .

« ملوك ضعاف يحكمون فى منفيس ـ الامراء فى مصر العليا يؤلفون اسرات حاكمة خاصة بهم ـ الآسيويون والليبيون فى الدلتا » .

قيام اسرة هيركلوبونيس (الاسرة التاسعة) : خيتى الأول ـ ١٢ ملكا حكموا الشمال ـ امراء طيبة احرزوا تاييدا وتغلبوا على اهناسيا » .

يعذ العصر الذى تلا الاسرة السادسة اى ظهور الاسرة الحادية عشرة من اظلم العصور فى تاريخ مصر ، وقد اختلف المؤرخون فى تقدير طول هذا العصر فيقدره ديرنر بـ ٣٤٤ سنة من بداية الاسرة السابعة الى الحادية عشرة وقدره بريستيد بنحو ٣١٥ سنة الاسرة السابعة الى العاشرة

ويظن البعض (الاستاذ بترى) ان الوجه البحرى وجزء من الوجه القبلى قد غزيا فى نهاية الأسرة لسادسة ، باقوام جاءوا من الشمال الشرقى .

وثمة شواهد دل عليها الادب الذى بقى من هذه الفترة على أن ما يشبه ان يكون اول ثورة اجتماعية عرفها التاريخ قد شبت لظاها فى مصر ، حيث قام الشعب على حكامه فقتل وحرق ونهب وخرب .

ويقول لنا مانيتون أن هذه الاسرة كانت سبعين فرعونا حكموا سبعين يوما ، وربما كانت هذه اشارة من مانيتون على ما ساد مصر من الفوضى .. أو انها انقسمت الى عديد من الامارات التى تسمى كل واحدة فيها بفرعون .

ثم ظهرت أسرة جديدة هى الاسرة الثامنة وقد ذكر مانيتون ان ملوكها كانوا ثمانية عشر دون أن يذكر اسماءهم ـ اما ورقة تورين فقد ذكرت أسماء ملوك ثمانية ـ بينما ذكرت قائمة العرابة اسماء سبعة عشر منهم ، أما قائمة سقارة فلم تذكر اسم واحد بعد بيبى الثانى الى اوائل الاسرة الحادية عشرة اى انها اهملت الاسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة .

اما الآثار فلم تذكر لنا شيئا عن هذه الحقبة يشفى الغليل .

٢١٦٠ ــ ٢٠٤٠ ق.م الاسرتان التاسعة والعاشرة :

وكان مقر حكمها مدينة هيراكليوبوليس (اهناسيا المدينة ببنى سويف) وقيل ان ملوك هاتين الاسرتين من أصل ليبى نزحوا الى مصر من ناحية الفيوم ، وتولوا الحكم بعد اغتصابه من الأسرة الثامنة المنفية .. وكان يمكن الا نعتمد شيئا عن هذه الاسرة لولا النقوش التى دونها امراء أسيوط على جدران قبورهم ، وقد كانوا معاصرين ومحالفين لحكام هاتين الاسرتين ، وساعدوهم على نشر نفوذهم (الاسمى) على البلاد .

ومؤسس هذه الاسرة هو الملك « خيتى الاول » وقد كانت له شهرة سيئة فى التاريخ حسبما جاء فى الروايات التى رواها لنا عنه مانيتون ، وكررها من بعده المؤرخ الاسكندرى رستاتونيس ، من أنه من بين الفراعنة التسعة عشر الذين حكموا فى اهناسيا نحو ٤٠٩ سنة كان خيتى الاول هذا أسوأ أسلافه وقد انزل الضرر بكل سكان مصر وانتهى أمره بأن جن جنونه واغتال حياته تمساح .

وكانت مصر فى هذه الفترة منقسمة الى ثلاثة اقسام ــ فالدلتا كانت فى قبضة الآسيويين ، بينما تمكن الاهناسيون بمساعدة امراء اسيوط من اخضاع مصر الوسيطى ــ اما الصعيد فقد التف حول امراء طيبة ، الذين شرعوا ينازعون ملوك أهناسيا السلطان بالتدريج .

وقد حكم خيتى الأول ٢٢ سنة ..

ثم حكم بعده خيتى الثانى الذى لا نعلم عنه سوى أنه مات فى سلام ودفن فى قبره .

ثم تلاه « خيتى الثالث » ومنذ اعتلائه على اريكة البلاد قام بينه وبين أحد البيوتات الكبيرة فى الجنوب نزاع كان له خطره عليه وعلى خلفائه من بعده وعلى مستقبل العالم المتحضر فى تلك الفترة . وكان مقر حكومة هذا البيت العظيم بلدة « طيبة »وكان حاكمها هو انتف العظيم (انتف عا) ابن انتف الأول مؤسس هذا البيت .

وكانت طيبة فى ذلك الوقت مدينة صغيرة لا تقارن بمدن الشمال وقد كتب خيتى الثالث وصيته لابنه خيتى الرابع ويملى عليه تجاربه ، وقد وصلت الينا هذه الوثيقة فألقت لنا ضوءا على النزاع الذى وقع بين فرعون اهناسيا وحاكم طيبة « أنتف » ، والذى بدأ بعدوان جنود الملك على العرابة المدفونة وانتهكوا حرمات القبور المقدسة ، مما جعل الرأى العام يشتعل غضبا ضد خيتى الثالث وجنوده ، وقوى نفوذ أنتف وعلى الرغم من أن بعض أمراء أسيوط حلفاء ملك أهناسيا يتحدثون عن هزيمة أنتف مرتين واغراق أسطولة النهرى فى النيل ، ولكنا نراه منتصرا فى خاتمة المطاف وعقد صلحا مع فرعون لا يدفع له بمقتضاه الجزية ويحق له استخراج ما يلزمه من حجر الجرانيت من محاجر أسوان . ومات أنتف العظيم وخلفه اثنان من الامراء حكم كل منهما فى عهد خيتى الرابع مدة قصيرة ثم خلفهما فرعون يدعى « منتحتب الثانى » وقد جاء فى نقوش له عثر عليها فى الجبلين أنه قبض على أمراء

الارضين وانه المسيطر على الجنوب والشمال وعلى الارض المرتفعة وعلى القطرين وعلى قبائل البدو التسع والارضين ــ ومعنى ذلك انه كان قد اسقط أسرة أهناسيا العاشرة مبتدئا حكم الأسرة الحادية عشرة التى يمكن اعتبارها بداية الدولة الوسطى.

الأدب فى فترة الانتقال :

ولكن اذا كان تاريخ مصر السياسى فى هذه الفترة مضطربا ومشوشا ، انحلت فيه وحدة البلاد ، فان أجمل أثرين أدبيين بين أيدينا الآن هما من هذه الحقبة .

فأما أول الأثرين ، فهو قصة الفلاح الفصيح التى لدينا منها اربع نسخ أطلق عليها علماء الآثار « سكارى » وهى تؤلف كتابا مثالا فى البلاغة والفصاحة ، وتدور حول موظف كبير اغتصب حمير فلاح بائس بحمولتها فقصد الفلاح الى مدير بيت الملك وقدم له شكوى مكتوبة وقد أعجب مدير بيت الملك بأسلوب الشكوى فعرضها على الملك الذى أعجب بها بدوره وطلب من مدير بيته ، أن يسكت عن الفلاح فى الوقت الذى يمد فيه زوجته وأهل بيته بالطعام دون أن يشعر الفلاح .. فراح الفلاح ينهال بالشكاوى واحدة اثر اخرى حتى بلغت ثمانية وهى تعطينا صورة دقيقة بما كان يجرى فى هذا العهد من المظالم .

اما الوثيقة الثانية فهى وصية خيتى الثالث لابنه .. يتحدث لاول مرة فى التاريخ حديث الندم ، فهو لم يعد الآله ، بل الانسان الذى يحس بذنوبه . حيث راح يوصى ابنه بمصانعة اهل الجنوب .. وفى حديثه ايماء لسياسة عدم العنف حيث يقول لابنه محذرا منه « ان الضربة انما تقابل بالضربة » .

ويشيد بقوة السياسة (الحوار والحجة والمنطق) « قوة المرء فى لسانه وأن الحديث الطيب أقوى من الحرب والقتال » .

« اعمل على إقامة الحق طول عمرك وخذ بيد الحزين والبائس ولا تظلم أرملة ولا تقتل ، فالقتل لا يفيد » .

لا تنظر الى الرجل العظيم على حساب الرجل الفقير بل عامل كلا على حسب اعماله وكفاءته .

واعبد الله وعظمه ــ أن الله يتقبل أعمال الصالحين وهى افضل من أى تقدمة أو قرابين ــ الله يعلم ما تسره وما تعلنه هو راعى الناس ، خالق السموات والأرض وما بها من ماء للظامىء ، وهذا الهواء ليحيا به الناس .. ثم يختم نصائحه بقوله « أرع الدنيا كلها تحبك » .

والوثيقة الثالثة ــ بردية محفوظة بمتحف برلين وهى تصور شجارا وقع بين انسان كان قد سئم لحياة وبين روحه ، فالرجل يريد أن ينتحر والروح تأبى عليه وتروح تصف له فظائع القبر حيث ترى بذور الشك فى الحياة الآخرة والثواب والعقاب ، وعدل الآلهة واضح وجلى « اذا تذكرت الدفن فانه حزن ، وذكراه تثير

الدموع وتفعم القلب حزنا ، فهو ينتزع الرجل من بيته ويلقى به على الجبل ولن تخرج قط لترى الشمس أن هؤلاء الذين بنوا بالجرانيت الأحمر وأقاموا حجبر دفن في الهرم ، وهؤلاء الجميلون الذين شيدوا هذا المبنى الجميل واصبحوا مثل الإلة ، ترى موائد قربانهم هناك خاوية كموائد أولئك المتعبين الذين يموتون على الجسر من غير خلف لهم . فيبتلع الفيضان ناحية من أجسامهم وتلفحهم حرارة الشمس كذلك ويلتهمهم سمك شاطىء النهر ويعبث بهم . اصغ الى انه جدير بالناس ان يصغوا ، تمتع بيوم سرور وانس الهموم .

وهكذا مع زوال عهـد الملوك الأقوياء .. تجلت كما هو الشأن روح الشعب ، أو ما يمكن أن نصفه فى عصرنا الحديث بالديمقراطية او الاشتراكية .. وعلو شخصية الانســان الفرد .

الفصل الرابع

الدولة الوسطى

الأسرة الحادية عشرة

٢١٣٣ ـ ١٩٩١ ق.م :

ثلاثة أو اربعـة من مصر العليـا يسمون انتف أو منتوحتب بما فيهم منتوحتب الثانى نب تاوى رع ـ منتوحتب الثالث سانخ كارع ـ منتوحتب الرابع نب تاوى رع.

منتوحتب الثانى وحد مصر ٢٠٠٠ ق.م وطرد الآسيويين من الدلتا ـ استئناف التجارة مع آسيا وبونت . أعاد فتح النوبة ثانية .

اسس هذه الأسرة انتف عا اى انتف العظيم حاكم طيبة فى بدء صراعه مع ملوك اهناسيا ، وأخذ النزاع يشتد ويزداد عدد البلاد التى كان يستولى عليها ، يوما بعد آخر ولم تكن طيبة التى اتخذت عاصمة لهذه الأسرة الجديدة الا قرية صغيرة ولم تكن عاصمة الاقليم الذى تقع فيه أقليم (واست) والكلمة تعنى الصولجان ، فقد كانت عاصمة أرمنت ، ومع ذلك فقد بدأ اسمها يظهر فى تاريخ مصر ابتداء من ذلك العصر وبدأ شأن الهها آمون يرتفع ومعبده الصغير يكبر .

وبعد وفاته تولى ابنه أنتف الثانى لواء الثورة على اهناس ، ولكنه لم يصل بها حتى نهايتها واقام لنفسه مقبرة بجوار الدير البحرى .

وتولى بعـده أنتف الثالث الذى اخذ فى استكمال القبض على ناصـية الملك ، فاستولى على البلاد من ابيدوس شمالا ، حتى نهاية الشلال .

وولى الحكم بعده ابنه أنتف الرابع ، الذى واصل نضاله ضد ملوك اهناسيا .

ثم وصل الى الحكم منتوحتب الأول ، وكان معاصرا لخيتى الثالث ملك اهناسيا ، فدارت بينهما المعارك التى اشرنا اليها .

واخيرا تربع على العرش منتوحتب الثانى الذى دام حكمه خمسين سنة ، وفى عهده كسر شوكة الملوك الاهناسيين نهائيا . ووحد القطرين فى دولة واحدة مرة أخرى ، وتسمى سنة ٢٠٠٠ ق.م بموحـد الارضين وملك الوجهين البحرى والقبلى ، وبنى ذلك المعبد الجميل على صخور طيبة الغربية والذى استوحاه من هيئة أهرام الدولة القديمة ومقابر عصره المنحوتة ذات الأبهاء التى شادها سلفه القريب للاناتفة وعدل فى هذه وتلك وخرج منهما بأسلوب مبتكر خلدته فيما بعد حتشبسوت عندما شيدت معبدها بالدير البحرى . وسجلت اعماله على كثير من آثار هذه الحقبة .

ثم تولى الملك بعده منتوحتب الثالث ، ويبدو أنه كان شارك أيام أبيه فى حرب الاهناسيين اذ سجلت الآثار منظره وهو فى لباس الحرب وعدته ، لأنه فى مدة حكمه التى استمرت اثنتى عشرة سنة ، كانت سلاما وتوفيقا ، وخلفه ابنه منتوحتب الرابع ، ثم الخامس ويظهر ان الخلاف بدأ يدب بين أفراد الأسرة حول وراثة العرش، ولذلك فقد كان هذا الملك هو آخر أفراد هذه الأسرة ، اذ استطاع وزيره امنمحات أن يستولى على الملك مؤسسا بذلك الأسرة الثانية عشرة .

ولعل أوضح ما يذكر من النشاط الاقتصادى للاسرة الحادية عشرة هو اتجاهها نحو استعادة الاستثمار الواسع لموارد الصحراء الشرقية والصحراء الغربية وما بهما من مناجم ومحاجر واستعادة الاتصـال الواسـع ببلاد النوبة وبلاد بونت وكان ذلك كله يستدعى ضربا من ضروب المخاطرة والبسالة فلدينا من الآثار الادبية عن هـذه الفترة قصة « الملاح الغريق » وان كان الاجدر بها أن تسمى « نجاة الملاح » وهى تروى قصة مغامرة احد رجالات البلاد الذى كلفه الفرعون بالقيام بمهمة فيما وراء ارض واوات .

جعلت القوائم الملكية سفنخ كارع آخر ملوك الاسرة الحادية عشرة ــ وقد ذكرت بردية تورين أن فترة حكمه دامت اثنى عشر عاما ــ واضافت بعده سبع سنوات لم تنسبها الى ملك معين .

الأسرة الثانية عشرة

١٩٩٢ — ١٧٨٠ ق . م :

ثمانية ملـوك — أمنمحمت الأول — سـنوسرت الأول — أمنمحمت الثانى — سنوسرت الثانى — سنوسرت الثالث — أمنمحمت الثالث — أمنمحمت الرابـع — الملكة سـوبيك نفروورع .

العهد الذهبى للفن — والعـ[illegible] [illegible]دوية — عودة الازدهار الى مصر — مقابر الامراء الاثرياء — نقل العاصـمة من طيبة الى الفيوم — تجـارة كثيرة مع فلسـطين وسوريا — غزو النوبة السفلى واتمامه — الرى واستصلاح الأراضى فى الفيوم .

صادفتنا أمنمحات فى أيام حكم منتوحتب الرابع ، حيث كان وزيراً له ، وترك آثار بعثاته التى قام بها لسيده ومولاه . وهو لا ينحدر من سلالة ملكية ، فقد كان والده من العامة يدعى سنوسرت ولكن مهارته وقدرته ، قد مكنته على ما يظهر أن يلى أريكة الملك .

فان مهارة ودهاء امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة هو الذى مكنه من أن يخضع حكام الاقطاع لسلطانه وان يكون له فضل كبير فى اعطاء مصر عصراً يعتبر من عصورنا الذهبية . وقد قضى على الفوضى التى عمت البلاد ونشر السلام فى اطنابها — ويشبهه دورانت مؤلف تاريخ الحضارة بشرلمان فى عصور أوروبا القديمة اذ قبض بيد من حديد على زمام الامور واعاد النظام الى البلاد .

وهـو أول من احتضن المعبود آمـون (الخفى) الذى لم يكن معـروفا بين آلهة الدولة القديمة ، فسماه « آمون رع » وجعله رب الأرباب ، ليصرف سكان المنطقة عن عبادة « منتو » الذى كان معبود امراء طيبة . ومازال يرعى آمون الذى بدأ يعلو نجمه فوق بقية الآلهة حتى وصل الذروة كما سنرى فى الدولة الحديثة .

وكان من حكمة امنمحات الأول ، أنه لم يتخذ طيبة عاصمه لملكه حتى لا يصادم عواطف القوم ، كما لم يتخذ منف عاصمة له ، أو اهناسيا ، انما اتخذ عاصمة جديدة فى اللشت وكانت تبعد ثمانية عشر كيلو الى الجنوب من منف وكانت تسمى « ايثت تاوى » أى متشأ الأرضين ليكون قريبا من الشمال .

وقد سعى لحكم البلاد حكما مطلقا ، كما فعل ملوك الدولة ، القديمة ، ولكن

تغير الاحوال الكبير الذى تم خلال الظـروف الاخيرة ، وخاصة بعد قيـام الثورة الاجتماعية ، وظهور الفردية والروح الديمقراطية ، كان يستحيل معه العـودة الى النظام القديم . فمناظر قبور بنى حسن الجميلة المنحـوته فى الصخر (فى اقليـم الوعل) يظهر لنا مدى ما وصل اليه حكام الاقاليم من قوة ونفوذ ، ما كان يمكن أن يتمتعوا به فى عهد الدولة القديمة .

ومن الرسوم التى وجدت فى هذه المقابر فى قبر « حتوم حتب » حاكم اقليم الوعل صور هذه القبيلة الكنعانية التى بلغ عدد أفرادها ٣٨ من ذكر وانثى بملابسهم المزركشة ولحى رجالهم المرسـلة ، يتقدمهم زعيم لهم يدعى « بشـاى » حاكم البـلاد الأجنبية .

وقـد قرن بعض المؤرخين بين هـذه المناظر ومـا روته التوراه عن مقـدم سيدنا ابراهيم الى مصر .

غير أن مؤرخين آخرين يجعلون مقدم ابراهيم أيام امنمحمت الثانى (١) .

ومن الواضح أن امنمحات اعتمد على حكام الاقاليم ، ولم يحاول أن يلغى سلطان الحكام الوراثيين ، بل اعاد لهم الكثير من كرامتهم وامتيازهم . وفى العام العشرين من حكمه رأى من الخير أن يشرك معه ابنه سيزويستريس أو سنوسرت (وكانت تقرأ خطأ اسرتسن) فحكما معا عشر سنوات . وقد كانت هذه سنة اتبعها كل خلفاء امنمحات فأشركوا أولادهم فى الحكم قبل وفاتهم .

وفى فترة هذه المشاركة وتحت اشراف سنوسرت احتل المصريون النوبة السفلى حربياً . وامتد الفتح فى العام التاسع والعشرين حتى كرسكو . .

وقد ترك امنمحات لولده سنوسرت الأول تعاليم تعطينا صورة واضحة صادقة عن هذا العهد ، ليس فقط فى السـياسة الخارجية ، بل وفى سـياسة امنمحات الداخلية وقد لا تكون هذه التعاليم من وضع امنمحات نفسه وأيا كان الحق فى هذه النسبة . فذلك لا يقلل من شأن أهمية هذه الوثيقة التاريخية .

ويستدل من هذه الوثيقة على أن امنمحات كان محل مؤامرة فى أخريات حياته، ولكنه اسـتطاع أن ينجو منها ، وأن كانت قـد تركت فى نفسـه مرارة شـديدة فهو يقول لابنه :

« أنت يا من ظهرت الها ، اصـغ الى ما أقوله لك لكى تكون ملكا على البلاد وحاكما على ضفاف الأنهار ، ولكى تصب الخير الوفير تمنع على مرءوسيك لئلا يقع ما لا يحسب . لا تدن منهم فى وحدتك . لا تملأ قلبك بأخ أو صديق ، ولاتجعل لك خلصاء ذلك مما لن تحمد عقباه ــ لقد أعطيت الفقير وآويت اليتيم ولكن الذى أكل زادى هو الذى قاد جنـدا ، والذين ارتدوا أفخـر ثيابى هم الذين نظـروا الى كخرقة بالية » .

(١) موكب الشمس ص ٢٤٤ الجزء الثانى .

ولعل هذه النصائح هى بذاتها بعض ما كان ماكيافللى يوصى به الأمير ، مما يدل على أن فن الحكم المطلق ، صورة تتكرر فى كل زمان ومكان .

وقد وصل نعى امنمحات الأول الى ابنه ، وهو يحارب الليبيين على الحدود الغربية فلم يخبر الجيش بالخبر واسرع من فوره الى اث توى مقر الحكم وتسلم مقاليد الحكم .

اما الوثيقة الادبية الثانية التى خلدها التاريخ فهى قصة سنوحى ، وهو أمير مصرى ، فر هاربا من مصر لسبب مجهول وأقام فى آسيا بعض سنوات ، ولكنه ظل طوال الوقت يحن للعودة الى مصر ، حتى بلغ خبره مسامع سنوسرت الأول فرعون مصر ، فكتب له يقول « انك غادرت البلاد برغبتك ، ولم تتحدث بسوء حتى تحاسب » .

واصدر فرعون رغبته لسنوحى أن يعود الى مصر معززا مكرما . وعندما وصل سنوحى الى حضرة الفرعون قال له « ها قد رجعت الينا بعد أن طويت الاقطار وأصبحت شيخا كاملا » .

١٩٧١ ق . م — سنوسرت الأول :

بدأ تولى سنوسرت الاول العرش بالاشتراك مع ابيه ، واذا كنا نعلم انه حكم عشر سنوات فى حياة أبيه ، فان انفراده بالعرش بدأ عام ١٩٦٢ ق.م .

وقد بلغ العمران فى عهده الى الاوج ، فقد وجدت آثار من عهده فى ٣٥ منطقة موزعة على الوادى من الاسكندرية حتى الجندل الأول ، ومن أهم اعماله انشاء معبد عين الشمس ، اذ جعل الفضل فى وصوله الى العرش للاله « رع » ، وقد زالت آثار هذا المعبد الكبير ولكن مسلته العظيمة لا تزال قائمة حتى اليوم (فى المطرية) ويبلغ ارتفاعها ٦٦ قدما وهى مكونة من كتلة واحدة من الجرانيت الوردى، وقد نقش عليها اسم سنوسرت الأول ، واقيمت بمناسبة عيد سد وهو العام الثلاثين لتوليه العرش .

واستتب الأمن فى عهده — ووصل سلطان مصر الى ما بين الجندل أو الشلال الرابع والثالث حيث تقع أرض كوش .

واستؤنف عمليات استغلال المناجم والمحاجر على أوسع نطاق ، حتى لقد بلغ الآمر الى ايفاد بعثة الى وادى الحمامات مؤلفة من سبعة آلاف رجل لقطع كتل حجرية خاصة لتشييد تمثال لابى الهول غير مائة وخمسين تمثالا آخر . كما استخرج الذهب بكثرة .

وساد العدل فى وقته كما يتجلى ذلك مما قاله آمنى حاكم اقليم الوعل حيث يقول « اننى لم اظلم ارملة ، ولم احتقر فلاحا ، ولا راعيا ، ولم أسخر عمالا فى أى عمل ، ولم يوجد فقير فى ارضى ولا جائع فى عهدى ، ولما أن جاءت سنى القحط قمت

بحرث كل اقليم الوعل الى الحدود الجنوبية والشـــمالية ولم يبق جائع فيها ، واكرمت الارمل والزوجة بدرجة واحدة ، ولم أخير الغنى على الفقير فى كل ما قمت ».

وسواء صدق حاكم آمتى فيما قال .. أم أن هذا الذى سجله على قبره هو من نوع التفاخر والادعاء المألوف الذى لا يتفق مع الحقيقة فى كثير من الاحوال .

(مقال عبد الحميد زايد)

فان هذا النص شاهد ، على وجود دستور للحكم الصالح يحث الحاكم أن يتصف به . ويقوم على العدل وتأمين جميع المحكومين من الجوع والمرض والخوف.

وبنى سنوسرت لنفسه هرما فى الجهة الجنوبية من المعبد الذى بناه والده . وقد نهب اللصوص هذا الهرم . ومات بعد ان حكم ٤٦ سنة . واشرك ولده معه فى اربع ســـنوات .

١٩٢٩ ق . م ــ امنمحات الثـــانى :

بدا تولى امنمحات الثانى الملك ابان حياة ابيه ، جـرى على سياسة ابيه وأشرك معه فى آخر حكمه ابنه « سنوسرت الثانى » لمدة ثلاث سنوات ، وتقدر مـدة حكم هذين الملكين بخمسين عاما ، لبست مصر خلالها حلل الرخاء والسعادة والرفاهية . حيث فتحت مناجم وتوطدت العلاقات التجارية مع بونت . وأصبح السفر الى بلاد الصومال مسألة عادية ومألوفة لدى المصريين ، ويحفظ لنا الادب من هـذه الفترة قصة بحار مصرى تشبه قصة السندباد البحرى فقد غرقت السفينة فهلك كل من كان عليها ، الا بحار واحد ، يقول عن نفسه : « ثم دفعت بى موجة الى جزيرة ، وامضيت ثلاثة أيام ، اذ لم يكن فى صـحبتى الا قلبى ثم سمعت صـوتا كالرعد واعتقدت انها موجة بحر ، ولما كشفت الغطاء عن وجهى وجدت انه ثعبان أخذ يقترب مني يبلغ طوله ثلاثين ذراعا ، واما لحيته فيبلغ طولها خمسة أذرع ، وقد طلا جسمه بالذهب ، ثم سالنى « من أحضرك الى هنا (وكرر ذلك ثلاثا) » .

وهكذا تمضى القصة ، التى يكاد يرجح الانسان انها كانت هى الوحى لقصص السندباد التى اشتهرت فى العربية بعد ذلك بألوف السنين .

وكانت علاقة مصر بآسيا فى هذه الفترة علاقة ود وصفاء .

وقد كشف فى بلدة طود فى مصر العليا عام ١٩٣٦ عن كنز فى أساس معبد يرجع الى الأسرة الثانية عشرة ومن أيام امنمحات الثانى وهو عبارة عن صناديق مصنوعة من البرونز عليها اسم امنمحات الثانى وبداخلها أوان ذهبية وفضية بلغت حوالى مائتى اناء وكذلك سبائك من الذهب والفضـــة ، وقد لاحظ البعض تأثرا واضحا فى صناعة هـذه الأوانى (بالفن الايجى والبابلى) مما ينطق بعمق تأثر المنطقـة كلهـا بحضارات ذلك العهـد .

وقد أقام هرما جنوب سقارة بناحية دهشور : وكان باطن الهرم مقاما باللبن

وكسى من الخارج بالحجر الجيرى ، وقد سلب قديما ، ومما يؤسف له اننا لم نعثر لهذا الفرعون على مبان كثيرة غير انه قام باصلاح دور العبادة التى تهدمت . وكان اداريا حازما استطاع ان يسيطر على حكام الاقاليم . وقد جاء ذكر ذلك على قبر امير اقليم الوعل . وبعد ان جلس امنمحات الثانى على عرش البلاد ٣٥ سنة اشرك ابنه « سنوسرت الثانى » ، وقد وجد ذلك منقوشا على صخر عند الجندل الأول .

١٨٩٧ ق . م :

اشترك سنوسرت الثانى فى الحكم مع والده ـ وقد جاء فيما كتبه مانتون عنه، انه كان من اطول الملوك قامة اذ بلغ اربعة اذرع وثلاثة أشبار واصبعين ـ ولم يدم حكمه طويلا فلم يجلس على العرش اكثر من تسع عشرة سنة ضمنها الفترة التى اشترك فيها مع والده .

ولم يكن بميل للخروج الى الحروب ، ومن اجل ذلك حاول النوبيون الخروج عليه . وراحوا يهددون الحدود الجنوبية ـ قام بنشاط عمرانى كاسلافه .

ووصل حسن الجوار مع البلاد الآسيوية المجاورة ، ان يرى مسجلا على جدران مقبرة « خنوم حتب الثانى » ، قدم جماعة من العامو وعددهم ٣٨ يحملون الجزية من الكحل وغزال البت وكان رئيسهم يدعى بحاكم البلاد الأجنبية ، وعلى وجوههم مسحة سامية (يقول عبد الحميد زايد ـ وليس لهذه الجماعة علاقة بدخول يعقوب وأولاده الى مصر ، او بدخول ابراهيم وأسرته) .

والجدير بالذكر ان الآسيويين كثر مجيئهم الى مصر ايام الأسرتين الثانية والثالثة عشرة . رجالاً ونساء فى اعداد كبيرة يعملون فى منازل الاغنياء .

وقد اقام سنوسرت الثانى لنفسه هرما باللاهون عند مدخل الفيوم وقد اقامه فوق صخرة واكمل بناءه بالأحجار واللبن وكساه بالحجر الجيرى .

ويرى البعض أن سنوسرت الثانى هو الذى بدأ المشروع الكبير الخاص بالتحكم فى مياه النيل عند الفيوم واستغلال المياه فى رى الأراضى ـ وقد اتم خلفاؤه من بعده هذا المشروع وخاصة حفيده امنمحات الثالث .

١٨٧٨ ق . م ـ سنوسرت الثالث :

ولى الملك سنوسرت الثالث ، الذى يعتبر من اعلام التاريخ ، حيث اثبت انه رجل حرب وادارة ممتاز فى نفس الوقت . فقد واصل جهوده فى بلاد النوبة حتى اخضعها نهائيا لسلطانه وجعلها جزءا من مصر بصفة نهائية ، واعاد شق الترعة التى كان « أونى » قد انشأها فى الدولة القديمة بين صخور الشلال الأول سميت باسم طريق سنوسرت الجميل ، وشيد عند آخر حدود النوبة بسمنة قلعة كبيرة بنيت على ربوة لا تزال باقية حتى الآن .

وقد بلغ عدد القلاع التى بناها فى بلاد النوبة أربع عشرة قلعة واقام بكل هذه القلاع معابد تقام فيها الصلوات لآلهة هذه المناطق ولما جاء « تحتمس الثالث » بعده بثلثمائة وسبعين عاما اعاد الاحتفالات التى كانت تقام فى دور العبـادة ببلاد النوبة واله سنوسرت الثالث ، كما أن عامة الشعب قدسوه .

وفى عهده بدأ على ما يبدو أول اصطدام حربى مع سكان آسيا (فلسطين) فقـد أرسل احد قواده المدعو « سبك خو » على راس حملة الى فلسطين ، وقد ذكر أنه تقدم شمالا للقضاء على البدو لآسـيويين وبلغ مدينة سكمم وكانت تقع فى قلب فلسطين ، وقضى على أهـل رتنو .

ومن أعماله العمرانية الخالدة ـ حفر قناة فى شرق الدلتا وصل بها ما بين النيل وخليج السويس عن طريق وادى طميلات والبحيرات المرة وتعد هذه القناة اقدم محاولة لربط البحرين الأبيض بالاحمر ، فقد كانت السفن الآتية من البحر الابيض تشق طريقها فى النيل ثم الى هذه القناة ومنها الى البحر الاحمر ، فتواصل طريقها الى بلاد بونت « الصـــومال »

وقد حكم سنوسرت الثالث اربعـا وثلاثين سنة ولمـا تقدم به السن اشرك ابنه امنمحات الثالث ودون ذلك على جـدار معبد مدينة أرسينو بالفيوم ـ وحـكم بالاشتراك مع ابنه بعـد ذلك أربع سنوات .

١٨٤٢ ق . م ـ امنمحات الثالث :

حكم امنمحات الثالث ، وقد سمى باسم نى ماعت رع ويعتبره المؤرخون من أعظم من حكموا مصر ، ودام حكمه خمسا واربعين سنة مرت على مصر فى هـدوء وسـلام وملئت بالمشاريع الكبرى العمرانية .

كان أعظمها بطبيعة الحال نظام الرى الذى ابتكره للوجه البحرى بأن اتخذ من منخفض أقليم الفيوم الذى ينخفض فى بعض اجزائه عن البحر بـ ١٢٩ قدما خزانا للماء حيث لا تزال بحيرة قارون آية على ذلك فشيدوا على الفتحة فى سلسلة جبال ليبيا التى تربط وادى النيل بمنخفض الفيوم ـ سدا عظيما ، فنشأت هذه البحيرة الهائلة فى التاريخ التى عرفت باسم بحيرة موريس ، والتى كانت تمد النيل بعد ذلك بالماء خلال فترة التحاريق ، اشبه بخزان اسوان أو السد العالى فى عصرنا الحديث.

وبهذا ضرب عدة عصافير بحجر واحد ، فهو قد انقذ الفيوم من الغرق الذى كانت تتعرض له كل عـام ، واستصلح اراضى زراعية قام باسـتغلالها بالفعل ومـد النيل بالمـاء أيام التحاريق .

ومن الأعمال العمـرانية العظيمة التى تنسـب الى امنمحات الثالث ، القصر العظيم الذى أطلق عليه اليونانيون اسم قصر اللابيرانت وكان طوله يبلغ ألف قـدم وعرضه ثمانمائة وقد استعمل معهدا دينيا واداريا ، وحوى مجموعة من الحجرات

بقدر عدد اقسام مصر فى كل مجموعة منها تماثيل آلهة القسم المنسوبة اليه .

وايا كانت رغبتنا فى الايجاز بقدر الامكان فلسنا نستطيع مقاومة التقل عن هيرودوت وصفا لهذين الأثرين ونعنى بهما بحيرة موريس وقصر الابيرانت ، فقد رآها راى العيان ووصف ما رأى عامة وسجل انبهاره .

« أن اللابيرانت عمل يعجز عن وصفه البيان اذ لو قدر لامرىء أن يجمع معرضا للمبانى والآثار الفنية التى شيدها اليونانيون لبدت عملا أقل من هذه اللابيرانت » .

واذا كانت الاهرام تجل عن الوصف ، فان اللابيرانت تفوق الاهرام — وبه أثنا عشر بهوا مسقوفا ، مداخلها متقابلة ستة تتجه نحو الشرق وستة نحو الغرب ، متتابعة يحيط بها سور خارجى واحد — وهناك نوعان من القاعات بعضها تحت الأرض وبعضها فوق سطح الارض وعددها ثلاثة آلاف قاعة خمسمائة والف من كل نوع ، ولقد رأينا بأنفسنا القاعات التى فوق سطح الارض وجسنا خلالها وانا لن نسمكن من التعبير عما شاهدناه باعيننا من أعمال تفوق طاقة البشر . فالممرات خلال الردهات والمتعرجات المعقدة منتهى التعقيد خلال الابهاء كانت مصدر أعجاب لا حد له . وسقف هذه الأبنية كلها من الحجر مثل الجدران — والجدران ممتلئة بأشكال محفورة ، وتحيط بكل بهو أعمدة من الحجر الابيض متداخلة باتقان فائق .

ثم ينتقل هيرودوت للتحدث عن بحيرة موريس :

« ومع أن اللابيرانت على هذه الدرجة من العظمة ، لكن البحيرة المسماة ببحيرة « موريس » والتى بنى اللابيرات بالقرب منها تثير أعجابا اشد — وراح هيرودوت يسجل أبعاد الخزان العظيم ، وكيف يصل اليها الماء من النيل لمدة ستة أشهر ، ثم يرجع منها الى النيل مدة ستة أشهر ثانية (١) كما تحدث عن تمثالين لامنمحات الثالث (٢) .

ويرى بعض أساتذة التاريخ فى العصر الحديث .. أن وصف هيرودوت لهذا القصر فيه كثير من المبالغة ، وغنى عن البيان أن هيرودوت لم يعد حجرات القصر ، وانما روى ما قيل له .. غير أن الذى لا شك فيه أن مظهر القصر كان من الروعة والضخامة بحيث جعلت رجلا كهيرودوت يتقبل ما قيل له عن عدد حجرات القصر .

وهكذا ارتفعت شهرة أقليم الفيوم واصبح من اكثر اقاليم مصر عمارا ، وارتفع بالتالى شان معبوده سبك اى التمساح ، حتى ضاهى شهرة « آمون » ، حتى لقد سمى آخر فراعنة هذه الأسرة نفسه سبك نفرو رع نسبة الى المعبود سبك وقد عرف جميع ملوك الأسرة الثالثة عشرة باسم سبك حوتب نسبة الى المعبود سبك .

وحكم امنمحات الثالث مصر خمسين سنة حل فيها النعيم والأمن والسكينة على البلاد ، حتى ترنم القوم بالفرعون قائلين :

---

(١) وهى القناة المعروفة اليوم باسم بحر يوسف .

(٢) هيرودوت يتحدث عن مصر — محمد صقر خفاجة .

« انه يكسو القطرين جنة خضراء اكبر من النيل العظيم .. لقد زاد القطرين قوة .. كيف لا وهو نفس الحياة المرطب للانوف ، هو الذى يوزع الخيرات على تابعيه ، هو المغذى لخلفائه ، هو الغذاء وفى فمه الخير » .

١٨٠٠ ق.م ــ الملك حمورابى ــ والعصر الذهبى فى بابل :

١٧٩٨ ق.م ــ امنمحات الرابــع :

حكم امنمحات الرابع بعد أبيه البلاد .. ولكنه لم يكن بقوة شخصية ابيه ــ وتقول بردية تورين انه حكم تسع سنين وثلاثة اشهر وسبعة وعشرين يوما ولعل ذلك يظهر مدى الدقة التى بدأ التاريخ يدون بها ومات فيما يبدو بغير وريث .

١٧٨٩ ق . م :

وليت « سبك نفرو » أخت امنمحات الرابع عرش البلاد ــ وقد ذكرت ورقة تورين انها حكمت ثلاث سنوات واربعة شهور واربعة وعشرين يوما وقد ذكرت فى مدونة سقارة بلغتها سبك كارع على انها خليفة امنمحات الرابع .

وهذه هى المرة الثانية فى التاريخ تحكم فيه امراة مصر العليا والسفلى ، ولكن الشىء الذى يستلفت النظر ، أن بكليهما تبدأ بذور المآسى والفوضى ، فقد انهارت الدولة الوسطى بعد حكم سبك نفرو .. كما انهارت من قبل بعد حكم نيتو كريس .

بالنسبة للنوبة ــ قضى الأمر بضمها الى مصر فأصبحت جزءا منها واقيمت سلسلة من القلاع أهمها سمنة .. كما انشئت منطقة للتجارة جنوبها عند الشلال الثالث ــ الكــرما .

وأصبحت مناجم النوبة هى المصدر الأساسى للذهب والعاج والأبنوس وجلود الفهد وريش النعام ــ وكانت الاحجار الثمينة والرفيعة تستجلب من السودان الى مركز التجارة ، حيث كانت تستبدل بالبضائع المصرية .

وفى آسيا زاد نفوذ فرعون مصر ــ وبلاط أمراء بابلوس أصبح مصريا ــ ومن المألوف العثور على المنتجات المصرية من هذه الحقبة فى المدن السورية . وقد حارب الجيش المصرى فى فلسطين وكان الرقيق الآسيوى ، سواء عن طريق التجارة أو اسرى حرب يملأون بيوت الأسر الكبيرة فى مصر .

ملاحظات عامة عن العهد الوسيط

لم تصل العمارة فى الدولة الوسطى مبلغها فى الدولة القديمة ، فسائر الأهرام التى بنيت لملوك الأسرة الثانية عشرة فى اللشت ودهشور واللاهون وهوارة بنيت كلها باللبن من الداخل وكسيت بالحجر الجيرى من الخارج فقط (ماعدا هرم امنمحات الاول) ، وقد بقيت لنا آثار واضحة عن مدينة سنوسرت الثانى بالقرب من هرم اللاهون ، حيث عثر على مساكن مؤلفة من أربع حجرات خاصة بعمال الملك — كما عثر ايضا على مساكن فاخرة لها أفنية وردهات وعدد من الغرف يلغ فى بعض الاحيان ٧٠ غرفة — ويحتفظ متحف القاهرة بنموذجين لمنزلين بهما حديقتان من أواخر الأسرة الحادية عشرة وقد صنعا من الخشب ، وعثر عليهما فى قبر حامل الختم « مكت رع » .

اما عن التصوير والزخرفة الملونة ، فاننا نستطيع ان نرى أمثلة رائعة من هذا العهد ممثلة خير تمثيل فى قبور بنى حسن ومقابر وتوابيت دير البرشا — حيث نجد مناظر تفصيلية رائعة للرقص الجماعى وأعمال المصارعة — ومناظر الصيد ولعب الداما .

ولم تعد التوابيت تصنع من الحجر - وانما من الخشب ومزدوجة اى احدها فى داخل الآخر وعلى سطحها الخارجى صورة لعينين راقيتين تمثل عينى حورس وباب تستطيع روح الميت أن تخرج منه حين تريد الخروج — ويزين دائر التابوت شريط من كتابات هيروغيليفية زرقاء اللون كثيرة الزخرفة — تتضمن أسماء والقاب صاحب المقبرة ، اما الجدران الداخلية للتابوت فأنها تمثل الأشياء التى كان الميت يستخدمها فى حياته .

أما بالنسبة للفنون الصغرى مثل الحلى ، فان الفنان فى أيام الاسرة الثانية عشرة قد بلغ الذروة فى الاتقان — والى مستوى من الامتياز لم يتجاوزه مرة أخرى فى التاريخ المصرى بعد ذلك . وأن الحلى ، والمتعلقات الخاصة بالحريم الملكى التى وجدت مدفونة فى دهشور واللاهون تعطينا فكرة طيبة عن سلامة الذوق والكمال الفنى ، وحسن الاخراج .

الأدب :

هناك اعتراف من جمهرة المؤرخين باعتبار هذه الفترة من فترات التاريخ الفرعونى العصر الذهبى فى الآداب المصرية — وقد ظلت اللغة الخاصة بالدولة الوسطى وهى لغة وجيزة وراقية تستعمل فى كل التاليف بعد ذلك .

وبقيت هى اللغة الكلاسيكية لمصر فى الدولة الحديثة وقد عاشت فى شكلها المتأخر فى بعض الاغراض الاثرية التذكارية والادبية حتى العهود اليونانية الرومانية وقد اشرنا فيما سبق الى نصائح الملك امنمحات الاول الى أبنه .

والى قصة الفلاح الفصيح ، والى مشاجرة رجل مع روحه والى قصة الملاح الغريق وقصة سنوحى .

المسرح :

بل وقد عثر على اجزاء من وثائق خاصة بمسرحيتين كانتا تمثلان داخل المعابد والهياكل وهى الدراما المنفية ودراما التتويج ، وقد وجدناهما محفوظتين فى نسخة متأخرة منقوشة على ما اصطلح على تسميته حجر شاباكو المعروض فى المتحف البريطانى — وعلى بردية مشهورة من أواخر الأسرة الثانية عشرة كشف عنها فى قبر تحت معبد الرامسيوم — وتعتمد احداهما على أسطورة أوزوريس ، ويصف « اخرنوفرت » فى سرور وابتهاج وقد عاش أيام سنوسرت الثالث على لوحة المشهور المحفوظ بمتحف برلين ، كيف قام بدوره فى تمثيل الاله هورس فى صورة اله .

العلوم :

والى هذا العهد ترجع الآثار العلمية التى لدينا عن الطب والرياضة والهندسة ، وقد تكون هذه المعارف من صنع أجيال سابقة ، ولكن النسخ المكتوبة منها فى هذه الفترة هى التى وصلت لنا .

الدين :

امتاز عصر المملكة الوسطى بتغير واضح فى عقيدة القوم الدينية . فقد أخذت عبادة الشمس شكلا رسميا كما رأينا فى مبدأ الأسرة الخامسة ، ثم كانت الاسرة السادسة وما اعقب سقوطها من اضطراب وانقسام ، ومع ذلك فقد انتشرت عبادة الشمس ، حتى اذا ما تولت الأسرة الثانية عشرة الحكم كانت هذه العقيدة بالغة اقصى درجاتها فتغلبت على سائر عقائد القطر ، واضطر كهنة المعبودات الأخرى أن يجاروا الظروف بقصد اجتذاب شرف عبادة رع الى معبودات اقسامهم فقالوا أن هذه المعبودات هى صور متنوعة للمعبود رع ، ثم ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فاعتبروا أسماء معبوداتهم مرادفة لاسم رع أيضا .

فكهنة المعبود سبك نسبوا معبودهم الى رع — وكذلك كهنة آمون فى طيبة اسموه آمون رع .

على أن عبادة الشمس لم تكن وحدها العبادة السائدة عند المصريين — بل كان يوجد الى جوارها عبادة أوزوريس باعتباره اله الموتى والذى كان مقره أبيدوس ، حيث كان كل مصرى (ابتداء من الفرعون والوزير حتى رجل الشارع) يطمع أن يدفن فى هذا المكان المقدس — فاذا تعذر ذلك اكتفى باقامة شاهد بجبانة العرابة .

وكان الاعتقاد ان كل ميت لا بد ان يمثل فى حضرة أوزوريس لمحاسبته وكانت محكمة اوزوريس تتكون من اثنين واربعين قاضـــيا يجلسون امام المعبود كالزبانية يمثل كل منهم قسـما من اقسام مصر . فاذا دخل المتوفى أمام المحكمة وانكر امام كل قاض اثما من آثامه يوزن قلبه فى ميزان مقابل ريشة العدالة للتأكد من صدق قوله — اما الاثام التى يتبرأ منها الميت أمام محكمة أوزوريس ، فهى بعينها الاثام المستهجنة فى عصرنا .

« السرقة والقتل والاختلاس (وبالأخص السلب) والكذب والخداع وشـــهادة الزور والرباء والتنابذ بالالقاب والتجسس وعـــدم الاعتدال فى الامـــور الجنســـية : وامتهان كرامة المعبودات أو الاموات كالكفر بهم وسرقة أمتعة الموتى » .

وكان الأموات الذين تحكم عليهم محكمة أوزوريس بالاجرام يعرضون للجـــوع والعطش ويحجزون فى اماكن مظلمة لا يبصرون بها ضوء الشمس .

والشخص الذى تبرئه محكمة أوزوريس تلقبه بالرجل الطاهر العادل « صادق القول » أو المنتصر ، ويتنعم بالحياة الآخرة فى جزيرة يارو التى تنبت أرضها قمحا يبلغ طوله اثنى عشر قـــدما . وقد أدى انتشار عبادة أوزوريس الى اندماج بقيـــة المعبودات الأخرى فيها كما هو الحال بالنسبة للشمس .

المرحلة الانتقالية الثانية

١٧٨٦ ق . م — بدء قيام الأسرة الثالثة عشرة :

بدأ قيام الاسرة الثالثة عشرة بتولى الملك « سـخم رع خوتاى » وكانت المملكة فى ايام حكمه ممتدة من الدلتا شمالا الى الشلال الثانى جنوبا — وقد وجدت بأقليم الشلال الثانى نقوش لمقاسات مياه النيل فى الاربع السنين الاولى لحكم هذا الملك — وان رسوم وضرائب الاملاك قد جمعت من الوجه البحرى كالمعتاد .

ثم توالى من بعده الملك بطريقة وراثية خلال اربعة ملوك ثم اغتصب الملك من يدعى يوفنى yufni على ما ورد فى بردية تورين ، ثم عم الاضطراب وطمع الكثيرون فى العرش واستعمل الكثيرون الالقاب الملكية فى اسمائهم . حتى أن مانيتون عد ستين ملكا حكموا ١٥٣ سنة ، ويرى البعض ان هذا الرقم خطأ من مانيتون فلا يمكن أن يتجاوز حكم هذه الاسرة المدة من ١٧٨٦ — ١٦٣٣ ق.م .

اما بردية تورين فقد عدت من حكام هذه الفترة ما بين خمسين وستين — وقد كان ملوك هذه الأسرة من أصل طيبى ومن عدد ملوك هذه الاسرة الطيبية وقصر مدة حكمهم يدل على انفراط عقد الوحدة من جديد فى البلاد — وكان ذلك مؤديا الى دخول الآسيويين الى مصر ، الذين كانوا من العنصر السامى . وبدأوا متسللين فى جماعات محدودة فى بادىء الامر ، لم تلبث أن تزايد عددها بالتدريج ، واستغلت التفكك الذى سرى فى أوصال الدولة ، فاستقروا فى مناطق من الدلتا ، وعلى مر السنين ، توطدت اقدامهم وأصبحت لهم قوة وسلطة فيما يحيط بهم .

ولكن التاريخ لايزال يذكر لنا قيام أسرة مصرية رابعة عشرة . يقدر مانيتون عدد ملوكها بـ ٧٦ ملكا وان مقرهم كان مدينة سخا فى غرب الدلتا ، وانهم حكموا ١٨٤ عاما ، ومعنى ذلك أن حكام هذا الاقليم قد استطاعوا أن يحافظوا على استقلال خاص بهم على الرغم من وقوع جزء من البلاد تحت الحكم الاجنبى .

١٦٧٥ ق . م :

التاريخ المطور لاحتلال الآسيويين الذين سماهم مانيتون (على ما قيل عنه جوزيفوس) بالهيكسوس ، اى ملوك الرعاة ، ولم يترك هؤلاء القوم من بعدهم فى مصر الا آثارا يسيرة . ومن هذه الآثار القليلة ، ما سجلته الملكة حتشبسوت بعد خروج

الهيكسوس بقولها حيث قالت « لقد أصلحت التلف وأكملت الناقص بعد ما كانت البلاد تئن تحت حكم الآسيويين لأهالى البلاد الشمالية فى عاصمتهم أواريس بالدلتا فقد أتلف هؤلاء القوم الآثار الجيدة عن جهل منهم بمعرفة سلطة المعبود رع (بريستيد ص ١٣٦) .

وهناك رواية عن طرد الهيكسوس انتشرت فى مصر . قد جاء فيها :

« وأصبح القطر المصرى فى أيدى قوم قذرين غاصبين فتعذر على المصريين أن يملكوا على أنفسهم واحدا منهم . وكان فى ذلك الوقت الملك سكترع يحكم قسم طيبة الجنوبى » .

والملك ابوبيس الهيكسوسى يحكم جميع القطر من أواريس ويجمع الجزية من سائر الأقسام ومن الحاصلات والخيرات التى أنتجتها أراضى الوجهين القبلى والبحرى واتخذ الملك ابوبيس المعبود سوتخ الها دون معبودات القطر كلها وشيد له معبدا جميلا ثابتا .. » .

وهذه الرواية تدل على أن الهيكسوس قوم آسيويين حكموا مصر واتخذوا أواريس عاصمة لهم .

وقد نقل جوسيفوس من مانيثون ما قاله عن هؤلاء الهيكسوس ، وهو لا يخرج فى مجموعه عما سبق .

« كان القطر المصرى محكوما فى وقت من الأوقات بملك يدعى تيمايوس ، وفى عهده غضب الاله على مصر لسبب أجهله فلم يمنحه رضاه . فأتى الى القطر على غير انتظار قوم شرقيون وضيعون ، فأجاءوا أهله بالاغارة عليهم واستولوا على الوجه البحرى بلا معارضة كبيرة لأن أهل مصر كانوا وقتئذ فى ثورة وهيجان . ولما أخضع هؤلاء الغزاة حكامنا العظام عبثوا بالبلاد وبغوا وطغوا فأحرقوا المدن وهدموا المعابد واستعملوا أفظع طرق الشدة مع الوطنيين فقتلوا منهم البعض وأسروا الأطفال والنساء . وبعد انقضاء الحرب ملكوا عليهم رئيسا يحكمهم يدعى سلاطيس اتخذ مدينة منف مقرا له ونظم الحكومة وحسن الادارة ومهد الأحكام وضرب الجزية على من بقى من المصريين تحت حكمه فى الوجه القبلى والبحرى ، ووزع القوات الحربية على البلاد حتى لا تثور عليه ، وكان هذا الملك يخشى على حكمه من الآشوريين الذين كانوا أقوى الأمم وقتئذ فخاف أن يتطلع القوم الى مصر ويضموها الى أملاكهم ولذلك شيد القلاع وأقام الحصون فى الجهات المنتظر الاغارة منها . ثم فكر فى أمره فوجد مدينة فى شرق النيل بجوار تل بسطة سماها هاوارة (أواريس) لأسباب دينية فجدد بناءها وحصنها بأسوار قوية منيعة من جهاتها وجعل فيها حامية مؤلفة من ٢٤٠ (١) ألف جندى وكان سلاطيس هذا يذهب الى المدينة المذكورة فى صيف كل سنة ليجمع الحبوب ويدفع مرتبات جنده ويمرن قواته على الحركات الحربية حتى يرهب الأجانب .

---

(١) مبالغة كبيرة من مانيثون .

وكان يقال لهؤلاء الغاصبين هيكسوس ومعناها ملوك الرعاة لأن الجزء الأول من هذه الكلمة وهو هيك معناه باللغة البربائية « ملك » أما سوس فلفظ فى اللغة الدارجة معناه الراعى (بريستيد) . ولكن هذه التسمية ليست محل اتفاق ، فهناك رأى آخر بأنها تعنى « رئيس بلد أجنبى ، ومنذ أيام الدولة الوسطى كانت تعنى مشايخ البدو » .

وقد قسم مانيثون فترة حكمهم التى استغرقت فى تقديره ٤٥٣ سنة الى أسرتين وهما الخامسة عشرة والسادسة عشرة .

فاما لأسرة الخامسة عشرة فقد ذكر ستة ملوك منها بأسمائهم ومدة حكم كل منهم .

سلاطيس ١٩ ــ نيون حكم ٤٤ سنة ــ ابشنتان حكم ٣٦ سنة وسبعة شهور ــ ايونيس لمدة ٦١ سنة واياناس (خيان) لمدة خمسين سنة وشهر وأخيرا واسيس لمدة ٤٩ سنة وشهرين .

وهذه البيانات كلها غير دقيقة ، لكل ما يتصل بهذه الحقبة من حكم الهيكسوس ، من ذلك ما ذكره افريكانوس أن عدد ملوك الهيكسوس فى الأسرتين السادسة عشرة والسابعة عشرة بلغ خمسا وسبعين ملكا . بينما لا يمكن أن يتصور هذا العدد الا باعتبارهم حكاما لعديد من الولايات والرأى الراجح أن الأسرة السادسة عشرة كانت معاصرة للاسرة الخامسة عشرة . و .. ار تسجل لنا أسماء ثلاثة ملوك يقال لهم أبو فيس وملك رابع يقال له خيان الذى وجد اسمه على آثار فى جنوب مصر وآخر يدعى خنزر يعقوب حر .

وقد انتهى الهيكسوس بأن انصهروا فى الحضارة المصرية ، وتثقفوا بالثقافة المصرية شأن مصر فى كل تاريخها . فانتحل ملوكهم الألقاب الفرعونية ، واقاموا لأنفسهم تماثيل على الطراز الفرعونى ــ وعبدوا الاله سوتخ احد اشكال المعبود ست القديم الشبيه فى نظرهم ببعل السورى .

الأسرة السابعة عشرة

١٦٥٠ ـ ١٥٦٧ ق٠م :

بدا تاريخ الأسرة السابعة عشرة التى تقسم الى مجموعتين : المجموعة الأولى من الهيكسوس وعددهم ٤٣ ملكا كانوا يحكمون فى أواريس (صا الحجر) وقسم من المصريين كانوا يحكمون فى طيبة وينتهى حكمهم بطرد الهيكسوس .

وقد ظهرت باكورة الثورة المصرية بمجرد أن ضعف حكام الهيكسوس وتناقصت قوتهم ، اذ انتهز امراء طيبة الفرصة واشعلوا نيران الثورة ، ودخلوا فى سلسلة من المصادمات مع قوى الهيكسوس ، وتسجل لنا الآثار ان اشتعال نار الثورة لاول مرة بدأ من عهد ابو فيس الثالث الذى راى ان حاكم طيبة قد بلغ من القوة الى حد أصبح يشكل خطرا على الهيكسوس فارسل اليه يثيره ويتحداه ليدفعه الى قتاله ، وكان ١٦٠٠ ق٠م الحاكم فى ذلك العهد هو « سنكرع » فقبل التحدى وخرج على راس جيش لمحاربة الهيكسوس ، ونشبت معارك بين القوتين حامية الوطيس ، سقط فيها سكننرع شهيدا وقد عثر على مومياته ضمن كنوز الدير البحرى وهى محفوظة بدار المتحف المصرى وعلى الراس اثر جرح مميت يرجح أنه سبب مصرعه .

وقد حفظ لنا التاريخ « قصة دارجة » لاكتها الألسن فى زمن الرمسيسيين وهى مرجعنا العلمى الذى يكاد يكون وحيدا عن تاريخ خروج الهيكسوس وعما حدث فى القطر بعد ذلك ، والمظنون أن هذه القصة دونت بعد خروج الهيكسوس بأربعمائة سنة . وتقول القصة (التى سبق ان اشرنا اليها) انه عندما حل عيد من أعياد المصريين المقدسة جمع ابو فيس رجال دولته وتداول معهم فى أشياء لا تزال مجهولة ، ويستدل من مضمون الرواية أن تلك المداولة كانت لتدبير مؤامرة لاغتيال الملك سكننرع الجالس بطيبة ، وتمضى لقصة فتصف لنا كيف أن أبو فيس بعث الى سكننرع وفدا يتحرش به ، ويدعى « أن فرس البحر لقاطن ببحيرة طيبة يمنع جلالته النوم نهارا وليلا نصياحه يرن فى اذن جلالته باستمرار (١) وواضح ان هذا الزعم الذى يذكرنا بقصة الذئب والحمل ، كان هو نقطة البدء للاشتباكات التى بدأت بين امراء مصر يمثلهم سكننرع وبين الهيكسوس » .

---

(١) هناك ترجمة جديدة لهذا النص تقول ان ابو فيس طلب من سكننرع ان يدع افراس البحر فى هدوء ـ حيث كان يعبد فى أوزايس (مصر الخالدة ص ٤٨٥) .

وبعد وفاة سكننرع خلفه ابنه كاموس بتشجيع من أمه زوجة سكننرع (اياح حتب) كما ورد ذلك مثبتا فى لوحة كتبت فى السنة الثالثة من حكمه وكشف عنها عام ١٩٥٤ فى معبد الكرنك . وقد اعتبر بعض المؤرخين أن الملكة « اياح حتب » هى روح ثورة الاستقلال باعتبارها زوجة بطلها الأول وأم بطليها الأخيرين . وقد كشف عن تابوت الملكة « اياح حتب » وكان يضم مجوهراتها التى تحمل اسمى كاموس وأحمس .

وقد أراد الهيكسوس فى حربهم مع كاموس (١) أن يضربوه من الخلف فألبوا عليه حكام النوبة وكانوا خاضعين لسلطانه ، فاضطر كاموسا ان يدع الحرب مع الشمال وان يتجه الى الجنوب فتغلب على النوبيين وأخمد ثورتهم واعادهم الى الطاعة ، ثم عاد يستأنف جهاده ضد الهيكسوس ، فواصل زحفه شمالا ، فاستطاع أن يخلص مصر الوسطى ، وامتد ملكه حتى الاشمونيين ، على ان المنية لم تلبث ان عاجلته .

١٥٨٠ ق.م :

فخلفه اخوه احمس الذى واصل مهمة سلفه ، فطارد الهيكسوس حتى اخرجهم من عاصمة ملكهم أواريس ، وتعقبهم فى انسحابهم خارج مصر حتى قلب فلسطين فى بلدة شاروهين ثم قفل راجعا الى طيبة متخذا منها عاصمة لحكم البلاد ، ومؤسسا الأسرة الثامنة عشرة على ما يقول مانيثون .

وقد جاءت اخبار هذه الحقبة من تاريخ مصر على صورة نقوش من قبر ضابط مصرى من جهة الكاب كان مواليا لملوك طيبة واشترك معهم فى مهاجمة الهيكسوس .

ومن المصادفات أن هذا الضابط يقال له « احمس بن ابانا » ، واليك ما قاله هذا الضابط مترجما عما وجد منقوشا على قبره : « أمضيت أيام شبابى فى مدينة الكاب وكان ابى ضابطا فى جيش جلالة ملك القطرين البحرى والقبلى سكننرع ، ولما توفى أبى وظفت مكانه فى سفينة تسمى القربان وذلك أيام المرحوم أحمس الأول ، وكنت اذ ذاك شابا لم أتزوج .. فلما تزوجت وصارت لى أسرة نقلت الى الأسطول الشمالى لما شوهد فى من الشجاعة والاقدام – وكنت أتبع الملك فى سيره حيثما أقلته عجلته . ولما حاصر الملك مدينة أواريس أظهرت له بسالة عظيمة وأنا أحارب على قدمى » وتمضى النقوش فى سردها للوقائع ، والتى انتهت بسقوط أواريس عاصمة الهيكسوس

---

(١) كاموس – وقد عثر على عدة وثائق من حرب التحرير ايام الملك كاموس يكمل بعضها بعضا .
ومن هذه الوثائق يتضح :

(ا) أن كاموس دعا مجلسا من رجال الراى والمشورة ليتباحث معهم فى حرب الهيكسوس .

(ب) أن اصحاب الراى والمشورة ، قد اشاروا بعدم الدخول فى صدام مع الهيكسوس .

(جـ) أن الملك ابدى عدم رضائه عن اجابة مجلس الاشراف واعلن عن اصراره على محاربة العدو .

(د) وأن الملك مضى فى حرب العدو حتى اخرجه من مصر الوسطى وقضى على مدنهم وحرق امكنتهم فاضحت بقايا حمراء الى الابد ، وذلك ردا على الخسارة التى سببوها لمصر .

وبعد تلك الحملات عاد كاموس الى طيبة حيث استقبل بها استقبالا حارا وطلب الملك ان ينقش كل ذلك على لوح يقام فى الكرنك – فنفذ ذلك على احسن وجه (مصر الخالدة – ص ٤٨٩) .

فى قبضة الملك ، حيث اسر احمس القائد رجلا وثلاث نسوة وهبهن الملك عبيدا له . والمعروف ان حصار أواريبس دام عدة سنوات وان مدته طالت .

ويحدثنا الضابط بعد ذلك عن تعقب أحمس للهيكسوس فى فلسطين ومحاصرته لقاعدتهم الجديدة فى شاروهين .

ويمضى حديث احمس بن ايانا ، بما يفهم منه انه بعد ان طرد احمس الهيكسوس من مصر ، وجه همه نحو بلاد النوبة والسودان فأعاد اخضاعها .

ولم تكن اقامة الهيكسوس فى مصر بغير فوائد ، فالتاريخ يسجل لهم ادخالهم أسلحة جديدة من ادوات الحرب ، فوجدت أنواع جديدة من الخناجر والسيوف والأسلحة البرنزية والأقواس المركبة الآسيوية ــ كما تطوروا بفن تحصين المدن الذى كان يفوق ما ألفه المصريون من قبل .

ولكن أثرهم الأكبر ، يتجلى فى ادخال الحصان والعربة التى تجرها الجياد ، والتى سيبرع المصريون فى استخدامها فيما بعد ويخوضون معاركهم المقبلة مزودين بها .

وقد اعتبر جوسيفس اليهودى ــ أن الهكسوس هم بنو اسرائيل ــ ولكن هذا الرأى لا يقول به علماء التاريخ . فضلا عن أن التوراة نفسها تنفيه فهى لم تزعم ان بنى اسرائيل قد حكموا مصر .

الفصل الخامس

الدولة الحديثة

الأسرة الثامنة عشرة

١٥٧٥ ق٠م ـ ((احمس الاول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة)) :

(موسوعة تاريخ العالم) .

((١٥٨٠ ـ الاسرة ١٨ ـ العاصمة طيبة ـ احمس ١٥٨٠ ـ ١٥٥٧ طرد الهيكسوس ـ غزو شمال النوبة من جديد ـ وضع حدا لسلطان الأمراء المحليين ـ أمونس الأول ـ ١٥٥٧ ـ ١٥٣٦ ـ تحتمس الأول (١٥٣٦ ـ ١٥٢٠) حاربا فى فلسطين وسوريا ووصلا الى الفرات ـ حتشبسوت هى الحاكم الحقيقى منذ عام ١٥٢٠ ـ حتى وفاتها عام ١٤٨٠ وهى اخت ليست شقيقة وزوجة لتحتمس الثانى أولا ، ثم لتحتمس الثالث .

(دائرة المعارف البريطانيسة) بدء الامبراطورية ـ الأسرة الثامنة عشرة ١٥٦٧ ـ ١٣٢٠ ق٠م :

١٤ حاكما ـ احمس الاول ـ امنحتب الاول ـ تحتمس الاول ـ تحتمس الثانى ـ تحتمس الثالث ـ امنحتب الثانى ـ تحتمس الرابع ـ أمنحتب الثالث ـ اخناتون او امنحتب الرابع ـ سمنكارع ـ توت عنخ آمون ـ آى ـ حور محب . طرد الهيكسوس واعادة فتح النوبة ـ اعادة معظم مصر ـ نمو معبد آمون بالكرنك .

عصر الاستعمار ـ فتح فلسطين وسوريا حتى الفرات والنوبة (كوش) حتى الشلال الرابع .

علاقات دبلوماسية بين القوى الكثيرة ـ عصر العمارنة .

الثروة العظمى فى عهد امنحتب الثالث (العظيم) .

١٤١٧ ـ ١٣٧٩ ق٠م .

عبادة آتون (الهرطقة) الغاء آمون بمعرفة اخناتون ـ عودة آمون الى العبادة بمعرفة توت عنخ آمون ـ حور محب يعيد النظام .

١٥٧٥ ق٠م ـ احمس الاول :

جعله مانيتون مؤسس الأسرة الثامنة عشرة وهو الرأى الجدير بالاعتبار فعلى يديه تم اخراج الهيكسوس من مصر كما رأينا ، وفى أيامه نعمت البلاد بالحرية .

وقد سجل احد كتاب الرعامسية على معبد الرمسيوم تقسيم تاريخ مصر فوضع احموس ثب بحتي رع على راس الدولة الحديثة .

وفي العام الثاني والعشرين من حكمه اقام احمس لوحة كبيرة بدار آمون بالكرنك ذكر فيها الكثير من نشساطه وما قامت به والدته « اياح حتب » واتصسالها بحكام جزيرة كريت . فبدأ اللوحة بوصف شامل لالقاب احموس وملكه العظيم الواسع — ثم ينتقل الي الدعوة لتبجيل الملكة « اياح حتب » واصفا اياها بانهسا سيدة الجزر « وان اسمها رفيع القدر في كل بلد اجنبي » وتحصى اللوحة بعد ذلك اصلاحات الملك لدور العبادة وهي تظهر لنا علاقات مصر بجيرانها .. ومقدار مكانة الملكة الام ودورها في الحيساة المصرية .

وكان من اثر العلاقات الطيبة بين مصر وجزر البحر المتوسط ان تأثرت الصناعة وخاصة صسناعة الاسلحة وظهر ذلك على سلاحين كان يحملهما احموس حيث زين هذين الخنجرين برسسوم وصسور فيهمسا تأثير الفن الايجي وهي محفوظة بمتحف القساهرة .

وبالرغم من حروب احمس الاول ، سسواء في الشمال لطرد الهيكسوس ، أو في الجنوب للقضاء على الثورات في لنوبة واسترجاع سلطان مصر الوطيد عليها .

فقد كان بطلا .. كذلك من ابطال السلام والتعمير قام ببناء دور العبادة واولهسا دار آمون — واعيد في عهده فتح المحاجر واستؤنف العمل فيها لاستخراج الاحجار اللازمة لترميم المعابد والهياكل .

وقد حظيت زوجتسه « احمس نفرتاري » على مكانة رفيعسة في التاريخ المصري القديم حيث ظلت ذكراها حية حتى الأسرة الحادية والعشرين . واقيمت لها احتفالات كتلك التي تقام للآلهة ، ولقبت على الآثار بالابنسة الملكية والاخت الملكيسة والزوجسة الملكية العظيمة والأم الملكية والحاكمة العظيمة وسيدة الأرضين وقد عثر على تابوتها وهي محفوظة بمتحف القاهرة ويضم تابوتا آخر به جثتها .

وهكذا تطالعت الأسرة الثامنة عشرة ، والدولة الحديثة كلها ببلوغ المراة المصرية في هذا العصر البعيد الى أوج سلطتها فيما سوف تعدد مظاهره حتى تصل ذروتها في حكم حتشبسوت الطويل .

وذكر مانيتون انه حسكم ٢٥ سسنة وانه مات قبسل الخمسسين . ولكن المؤرخ المعاصر احمد بدوي يرجح انه غادر الدنيا ولم يتم الحلقة الرابعة من عمره « ص ٣٨٢ الجزء الثسانى » وقد عثر بجثتسه في مقبرة الدير البحري ، وقد وجد حول عنقسه اكليل من الزهر وتبين من فحصها انه كان ربعة من الرجال ، قوي الجسم ، عظيم الكتفين ، عريض ما بينهما ، فاحم الشعر ، مجعسده بارز عظسام الخسدين رقيق الشفتين — تكاد ملامحه رغم ما كسيها من الوان العدم ومظاهر الموت ان تنطق بقوة عزيمته وشدة باسسه .

ويتبعه ابنه امنحتب الأول ـ وقد حفظ لنا التاريخ أسماء بعض الموظفين من عهده ومنهم ستى نائب بلاد كوش (النوبة) وقد عاش حتى أدرك تحتمس الثانى ـ و « نتى كى » رئيس المدينة الجنوبية (طيبة) وعلى قبره مناظر تمثل الحياة الاجتماعية فى أوائل الأسرة الثامنة عشرة .

ومن بين كبار الموظفين احمس بن ابانا وكان قد أصبح رئيس بحارة الفرعون وعاش حتى ادرك امنحتب الأول . وأحمس نبتحتب وقد عمر حتى أيام تحتمس الثالث وكان يحمل فوق القابه الحربية لقب مربى الأميرة نفرو رع ابنة حتشبسوت .

١٥٥٠ ق٠م :

ولى امنحتب الأول (امونوفيس الأول) بعد أبيه الحكم ولكنه كان لم يبلغ بعد مبلغ الرجال ـ ويبدو أن امه احموس نفرتارى هى التى أخذت بيدها زمام الأمور بمعونة كبار رجال البلاط كما فعلت من قبلها ام الملك بيبى الثانى ـ اوخنت كاوس « با امنحتب » من قبلها .

وقد اضطر الى غزو النوبة للمرة الثانية لاستتباب الأمن ، وقطع دابر الحكام العصاة ، فسحقهم وكسر شوكتهم مرة ثانية ، وعهد بحكمها الى حاكم الكاب . وكان فى معيته القائدان العظيمان احمس ابن ابانا الذى قال لنا أن الملك أسر « رئيس الأعداء وسط جنده بالنوبة كما قال لنا مفتخرا انه تمكن بذكائه ومهارته من ترحيل جلالة الملك فى سفينة من الشلال الثانى الى القطر المصرى فى يومين ـ المسافة تبلغ مائتى ميل تقريبا ـ اما القائد الثانى فهو احمس بن نخبت ، الذى استنتج البعض من حديثه ، ان امنحتب الأول ، شن حربا ثانية على الليبيين ولما ان استتب الأمن والنظام داخل البلاد ، رنا ببصره الى الغزو الخارجى ، فسارع بجيوشه الى فلسطين وسوريا حتى وصلت جيوشه الى نهر الفرات . وقد بنى الملك معبدا صغيرا فى منطقة الدير البحرى هدمه البناءون أيام حتشبسوت عندما أخذوا يعدون لها مكانا لتشييد معبدها الرائع . وقد قدسه الشعب بعد وفاته فرفعه الى درجات الآلهة . فأقيمت الأعياد له فى جبانة طيبة كما تقام للأرباب . بل ان بعض علماء المصريين (جورجى صبحى) على ما ينقل عنه الدكتور احمد بدوى يقول ان المصريين القدماء سموا باسمه احد شهور العام الذى يقع فيه عيد الاحتفال بذكره وهو شهر بره . أصله « با أمنحتب » .

وقد بقيت جثة هذا الملك رغم الحوادث وتقلبات الدهر ورغم اعتداء اللصوص ونباشى القبور ، والثورات والفتن ـ ملفوفة فى الأكفان ، مزدانة بالزهور من قمة الرأس حتى أخمص القدم داخل تابوت صنع على هيئة آدمى ، ثم كسى باللون الأبيض وظلت الحوادث تنقلها بين مناطق الجبانة المختلفة حتى وجدت طريقها أخيرا الى متحف القاهرة (ص ٣٩١ مركب الشمس) .

وفى عهد هذا الملك بدأت مظاهر الحياة الجديدة فنبلاء العصر والمترفون أصبحوا يتنقلون على عجلات تجرها جياد الخيل ، بعد أن كانوا يتنقلون فى محفات تحمل على

اكتـاف الرجال ـ فلم يكد المصريون يعرفون العجـــلات والخيل أيام الهيكسوس ويستخدمونها في القتال ، حتى استخدموها في السلم فراحوا يخرجون بها الى الصيد والرياضة والانتقال بين المزارع والحقول وعلى شواطىء النهر . واقبل الناس الكبار في ذلك العهد على تطوير حياتهم اليومية تطويرا يكاد يكون كاملا .

١٥٢٨ ق.م ـ تحتمس الأول (عاخبر كارع) :

لم يثبت اذا كان امنحتب الأول ترك ولدا وريثا . وانما الثابت أن الذى خلفه هو « تحتمس الأول » وهو ابن امرأة صلتها بالأسرة الملكية غير جلية ، وقد وصل الى عرش مصر عن طريق اقترانه بأميرة مصرية تدعى « احعموس » والمرجح انهـا اخت امنحتب الاول وبهذه الوسيلة اعلن نفسه ملكا علىمصر بمجرد وفاة « أمنحتب الأول» .

وقد ارسـل تحتمس الأول نسخة من مرسوم تتويجه الى نائب الملك المدعو تورى فى كوش (المنطقة الواقعة بين الشلال الثانى والرابع) .

ويحدد المرسوم صفات الملك بأنه توج ملكا على شطرى الوادى فجلس على عرش حورس رب الاحياء وبدا بذلك معدوم القرين وكانت القابه حـورس الفحل الظافر صعب الحق رب الناجـين الصقر الذهبى مدى السنين محيى النفوس ملك القطرين تحتمس ولد الشمس ـ والجديد فى هذه الألقـــاب هو وصفه نفسه بأنه الفحـل الظاهر ـ وهو يأمر نائبه فى كوش أن يقدم القرابين لارباب الجنوب احتفالا بهـذه الذكرى ويوصيه بأن يأمر الناس ان يجعلوا قسمهم بحياة فرعون وينبئه آخر الأمر انه موفور الصحة والعافيـة . وكان صدور المرســوم فى الشهر الثالث من فصول الشتاء من عام فرعون الاول .

على ان الأمر قد احتــاج فيما يبدو الى أن يشن « تحتمس » الحرب على اقليم النوبة ، وان يذهب بنفسه ، ويعيد حفر قناة سنوسرت ، ويعود عن طريقها بعد أن قتل اعداءه وذلك فى الثانى والعشرين من أول شـــهور الصيف من ثالث اعوام الملك على ما يروى نائبه تورى .

ثم أغار الليبيون على حدود مصر الغربية ، فحمل عليهم بجيشـه وظل يقـاتلهم حتى هزمهم وشردهم فى بطون الصحراء . ولما فرع من أمور الجنوب والغــرب ولى وجهه شطر الشرق او بالأحرى صوب فلسطين وسوريا ، حيث كان الهيكسوس قد استأنفوا نشاطهم فى مختلف اقاليم الشرق القريب . باعثين الفتن ومنظمين المؤامرات، فشن تحتمس عدة حملات انتهت بنصر عظيم مكنه من وضع الأساس لما اعتبر أول امبراطورية فى التاريخ ، فانتشرت املاكه على حد تعبير أهل زمانه بين مشرق الأرض من وراء الشلال الرابع واطراف المياه المنعكسة : ويعنون بها ميـاه الدجلة والفرات حيث تسير عكس مياه النيل من الشمال الى الجنوب .

وقد كان تحتمس الثالث هو الذى يشـير الى فتوحات سـلفه وانه بلغ منعرج الفرات بالقرب من قرقميش حيث اقام لنفسه نصبا الى جوار نصب سلفه (الذى

لم يعثر عليه) وتقع قرقميش عند اعالى الفرات على مسيرة مائة كيلو متر الى الشمال الشرقى من حلب .

وبدأ أمراء سوريا وفلسطين يقدرون قدر مصر ويعجبون بقوتها ومكانتها فأرسلوا اليها الهدايا الثمينة والجزية ، فازدهرت المالية المصرية ، وكان هذا اكبر مساعد لتحوتمس على اصلاح ما تلف من المعابد والهياكل فندب مهندسه الماهر المدعو تيتى وكلفه بتشييد صرحين كبيرين عند مدخل معبد آمون وبناء ساحة كبيرة مسقفة ذات عمد مصنوعة من خشب الأرز اللبنانى وأمره ايضا بنصب اعلام طويلة أمام مدخل المعبد رؤوسها مصنوعة من الذهب والفضة وخشبها من أرز لبنان كذلك . اما باب المعبد فكان مصنوعا من البرنز الآسيوى ونقش عليه المعبود مطعما بالذهب وأصلح الملك معبد أوزوريس بالعرابة المدفونة وزوده بالأثاث الجميل والأدوات الفضية والذهبية وتماثيل المعبودات البديعة ، كالتى فقدت أيام حكم الهيكسوس ورتب الملك أوقافا مستديمة على ذلك المعبد وترك فى آخر عمده تعليمات للكهنة ليتبعوها ، وقد فعل هذا تخليدا لذكراه على مر الدهور .

ومن أهم الآثار التى كشفت لنا عن الحياة لاجتماعية فى عهد تحوتمس الأول ، مقبرة « باحرى » وهو أحد كبار الموظفين فى عهده وقد نشأ فى مدينة الكاب ثم أصبح حاكما لها وكان المشرف على الارض الزراعية فى الجنوب وفى نقوش المقبرة ورسومها ، نجد مختلف الأعمال الزراعية وطريقة الدراس والحصاد مما لم يتغير كثيرا عما يجرى فى بعض الحقول فى عصرنا الحاضر . وأحاديث عن نكات العمال وشكاويهم من كثرة العمـل .

وقد حكم تحوتمس فترة تتراوح بين خمسة عشر عاما وثمانية عشر .

ومات بعد أن بلغ الستين ، ودفن فى قبره الذى أعده له بناء العصر « انتى » ثم نقل جثمانه الى قبر ابنته حتشبسوت ، ثم عثر عليه فى ذلك المخبأ الذى ضم رفات الفراعنة بجوار الدير البحرى ونقل اخيرا الى متحف القاهرة حيث يثوى الآن .

١٥١٠ ق.م ـ تحوتمس الثانى :

قام جدل كبير بين علماء التاريخ المصرى حول من تولى العرش بعد تحوتمس الاول ، والخلاف والمنازعات فى أسرة التحامسة ولكن الراى الاخير على أن اكبر اولاد تحتمس الأول مات فى حياته ولم يعمر من أولاده الذكور الا ولد سماه تحوتمس وهو من احدى جواريه وتدعى مرت نفرت ــ وكذلك كانت له بنت واحدة من زوجته الشرعية (أحموس) وقد سماها « حتشبسوت » وقد كانت هى المسيطرة على الموقف أيام تحوتمس الثانى ، فلم يكن فرعونا الا بالرمز لان حتشبسوت اعتبرت هى الوريثة الحقيقية للعرش . وعلى الرغم من ان اباها قد عهد لها فى اخريات حياته بالعرش فالظاهر أن بعض النيارات كانت تأبى عليها حكم مصر ، فتزوجت تحوتمس الثانى وغدا بذلك صاحب حق فى العرش .

وكان من أثر الخلافات فيمن يتولى العرش أن اشتعلت نار فى بلاد النوبة بمجرد

تولى تحوتمس الثانى الملك . ولكن تحوتمس الثانى غضب لهذه الأنباء وأقسم أن يبيدهم جميعا ، وبعث اليهم بالجيوش التى سحقت الثورة وانتصرت عليهم ، وقد وجدت هذه الثورة مسجلة على الصخور الواقعة بين اسوان والشلال الأول . وقد حدثنا احموسى الكابى عن حرب أدار رحاها فى الشرق تحت امرة تحوتمس الثانى فضرب فيها بدو الصحراء الذين يعيشون على حدود سوريا . وقال البعض انه قام بحملات فى سوريا نفسها . وقد نقش تحوتمس على جدار معبد حتشبسوت انه تسلم الجزية من أعدائه المتهورين .

واوضح من ذلك ان جهود أسلافه لم تحوجه لشن كثير من الحروب .

وقد وجدت له آثار فى واحة الفرافرة وفى أسنا وقمنة وسمنة ووادى حلفا .

وقد قيل انه بدأ فى اقامة الصرح الثامن من أبواب الكرنك ولم يقدر له أن يتمه .

وذكر مانيتون انه حكم عشرين عاما وهو تقدير لا يبعد كثيرا عن الحقيقة فقد عثر فى خرائب طيبة على أجزاء من حطام تمثال يسجل العام الثامن عشر من سنى حكمه .

ويتبين من فحص جثته انه كان مديد القامة عريض ما بين المنكبين ، ومع ذلك فلا يبدو عليه ما يشير الى قوة بدنه وكان كبير الراس ، بارز الثنايا جميل التقاسيم ولقد بالغ بعضهم فى وصف أناقته ورقته واغراقه فى التأنق والترف .

ولم تنجب له اخته وزوجته حتشبسوت غير ابنتين فلم تحقق لها الظروف ما أرادت من أن ترزق من زوجها بذكر يمهد لها الطريق الى الحكم عن طريق الوصاية .

وقد سجل انتى وفاة تحوتمس الثانى فى كلمات هذا نصها : « لما صعد الى السماء اتحد مع الآلهة ، وجاء والده مكانه كملك للارضين حاكما على عرشه من خلفه : بينما كانت أخته زوجة الاله « حتشبسوت » تحكم الأرض ، وكانت الأرضين تحت رقابتها وقد عمل الناس من اجلها وخضعت مصر .

١٥٠٤ ق.م – التاريخ الذى تربعت فيه حتشبسوت على السلطة لا ينازعها فيها منازع :

نظرا لأن تحوتمس الثالث كان لا يزال فى مطلع العقد الثانى وكانت ابنة حتشبسوت من أخيها تحوتمس الثانى صغيرة كذلك . فزوجت تحوتمس الثالث من ابنتها فعينت هى وصية على العرش فلم تلبث ان احتكرت السلطة لنفسها باعتبارها ملكة ، وقد نقشت صورها على الآثار فى صورة رجل وملابس رجل .

وفى السنوات الأولى من حكمها اكتفت بأن سمت نفسها ملكة فقط ، وبعد ذلك لم يتوقف طموحها ، ولم تمر سنون طويلة حتى اتخذت الخطوة الهامة فوضعت التاج المزدوج ، وتمثلت بالرجال وارتدت ملابس الرجال ، وهناك آثار كثيرة بالكرنك ظهرت

فيها حتشبسوت كرجل وتتقدم على تحوتمس الثالث ، وقد ظهر هو كملك شريك . وقد كانت توصف بضمائر الأنثى .

وما كان لامراة ان تصل الى ما وصلت اليه من قوة جبارة الا بمساعدة الرجال، ولذلك فان جبانة طيبة تحتفظ بقبور عظيمة لبعض كبار موظفيها ، وجميعها تتحدث عنها بأسلوب فيه تملق شديد ، ولعل من أظهرهم سنموت الذى كان لقبه الرئيسى « رئيس الاستقبال لخاص بالاله آمون » وكانت ثروة معبد الكرنك الهائلة تحت تصرفه وكان له شرف القيام على تقويم وتربية الاميرة رع نفر ابنة حتشبسوت وهى الوارثة الثانية للعرش من « تحتمس الثانى » .

وقد أكثر المؤرخون من الحديث عن ذلك الرجل وأثاروا حوله الريب والظنون ، وانتقلوا من التلميح الى التصريح فهو « صفى الملكة وخليلها » .

والأمر المقطوع به انه كان من اشد أعوان الملكة قوة ونفوذا وسلطانا ..

وانها استطاعت بمعاونته ومعاونة أمثاله ، أن تعلن نفسها الملكة الوحيدة على الوادى وان تستأثر بالسلطة المطلقة من غير منازع ابتداء من عام ١٤٩٤ ق.م ويحفظ التاريخ لنا ان « حتشبسوت » بالرغم من كل شىء أبقت على تحوتمس الثالث حيا فلم تتخلص منه — وذلك بعد أن صاغ لها أنصارها أسطورة طريفة تجعلها فى نظر الكهنة ورجال الدين وعامة الشعب المصرى — صاحبة الحق فى عرش البلاد ، وخلاصة هذه الاسطورة أن الاله آمون هو الذى أودع رحم أحموسى زوجة تحوتمس الأول . نطفة حتشبسوت ، وهو الذى أطلق عليها هذا الاسم وقضىأن تكون وارثة للعرش وان تحكم الوادى من أقصاه لأدناه وقد سجلت هذه الاسطورة بتفاصيلها على جدران معبد الدير البحرى .

وقد اتجه نشاط الملكة الى أعمال العمران فاستأنفت بناء معبدها الواقع فى صخور الدير البحرى ، وكانت تحب هذا المعبد وتعتز به وجعلت منه بستانا لآمون . وجعلت من رفافه منابت لأشجار المر والعطور لتجعلها على غرار منابت المر والعطور فى بلاد بونت التى كانت فى عقيدة آل فرعون أحب بلاد الدنيا الى الارباب جميعا وعلى رأسهم آمون .

ومن أجل ذلك بعثت بأسطول من خمس سفائن أقلعت علىمتن النيل من شواطىء طيبة ، سالكة بعد ذلك للوصول الى البحر الأحمر قناة سنوسرت وعاد الاسطول الى طيبة محملا بالبخور وأشجار العطور والمر ، التى غرست بالفعل فى ساحات المعبد ، ومختلف الجواهر والحلى والوان الأطعمة والأشربة والسلاح .

وكان سنموت هو ألذى خط المعبد ونفذه وقد اتخذ فكرته من معبد « منتوحتب» قبل عصره بستة قرون ولكنه وصل فى التنفيذ الى حد الابداع . فالمعبد يقع بالدير البحرى فى نصف الدائرة الكبيرة والمشرف عليه التلال المرتفعة ، وقد تشابه طرازه كثيرا مع معبد منتوحتب الأول الذى يقع فى الناحية الجنوبية منه . وقد استخدم

مصمم المعبد سفوح الجبل فحوله الى ثلاثة مدرجات انشــأت فوقها ثلاثة اروقة يعلو بعضها البعض الآخر . وليس يوجد بين الآثار المصرية الحاضره ما هو أعظم وأروع من معبد الدير البحرى ـ وان النقوش التى تشاهد خلف أعمدة الاروقة فريدة فى نوعها . وقد أشرنا من قبل الى ما نقش على جدران هذه الاعمدة وجدران الاروقة من أعمال الملكة وأساطيلها واسطورة ميلادها .

وقد اراد البناء أن يظهر الشعب على قوة الملكة وبأسها ـ فزين الطريق الى مدخل المعبد بتماثيل للملكة نحتها على هيئة أبى الهول .

ثم بنت لنفسها قبرا نقلت اليه رفات والدها تحوتمس الأول ، واقامت له مقصوره فى المعبد تجرى فيها الشعائر الدينية على روح ابيها ـ وبالغت حتشبسوت فى اظهار ولائها وتوكيد حبها لأبيها فأكثرت من تصويره على جدران المعبد . فى حين لم تظهر صورة أخيها وزوجها تحوتمس الثانى على الاطلاق ، والذى يبدو أنها عاشرته كارهة له ساخطة عليه باعتباره مغتصب العرش منها . ولما خشى الكهان خطر اللصوص من نباشى القبور نقلوا رفات الملكة مع ما نقلوا من رفات أسلافها وخلفائها الى تلك الحفرة المعروفة فى الدير البحرى فاستقرت هناك نحوا من ألفين وخمسمائة سنة ثم نقلت الى متحف القــاهرة فى العصر الحــديث . . ولكن رفات حتشبســوت لم تكن بين ما عثر عليه .

وقد أقامت لنفسها مسلتين عظيمتين ، بمناسبة ذكرى عيدها الثلاثينى الأول على ما قالت ولذكرى أبيها تحتمس الأول وربها آمون .

وتشير الآثار الى أنها اقامت مســلتين (١) آخريين فى الكرنك احتفالا بالذكرى الثانية لعيدها الثلاثينى ولكن لم يعرف الى الآن موضع اقامتهما فى الكرنك ، ولم يبق منهما غير قمة مسلة آلت الى المتحف المصرى .

واتاحت أيام السلم فى عهد حتشبسوت أن تنفق جهودها فى التعمير والانشاء فصرفت همها لاصلاح ما خربه الهيكسوس . ولم يقم أسلافها باصلاحه كاملا وقد ساعدها فى ذلك رجل قصرها سنموت ، الذى لم يترك فرصة للدعاية لمليكته دون أن ينتهزها أرضاء لها وتفانيا فى حبها وحب نفسه أيضا .

ويحدثنا تاريخ هذه الفترة أن سنموت أفل نجمه وســقط من عليائه قبل انتهاء حياة سيدته حتشبسوت ويرى البعض أن ذلك قد يكون بفعل الملكة نفســها التى خشيت من قوة نفوذه ، أو التى تكون قد زهدت فيه .

وهكذا تسبق هذه الصورة ، بثلاثين قرنا على الأقل ، حياة الملكة اليزابيث ، ورجالها الاقوياء الذين كانت تسقطهم من أعلى عليين ، خوفا منهم ، وزهدا فيهم ، وتعلقا بغيرهم .

---

(١) وطول كل منهما ٢٩٫٥ مترا وقد بلغ وزن كل منهما ما يزيد على ٣٠٠ طن وقد اقتضى نقلهما بناء سفينة بلغ طولها ٨٢ مترا وقد نقشت قصة هاتين المسلتين وسفن نقلهما على جدار معبد الدير البحرى .

واعادت حتشبسوت فتح المناجم فى طور سينا ، وقد عثر هناك على بعض الفخار الملون الذى يحمل اسمها واسم ابن أخيها تحوتمس .

ويعتبر عصر حتشبسوت بصفة عامة عصر سلام وبناء وانشاء وتعمير وقد قالت يوما ما متفاخرة « لقد بلغت حدود مملكتى الجنوبية أرض الصومال (بونت) وحدودها الشرقية مستقعات آسيا . فصار الآسيويون فى قبضتى ، أما حدودى الغربية فوصلت الى جبال مانو اى مغرب الشمس وذاع صيتى بين البدو وقد احضر الى مر بلاد الصومال وخيرات تلك البلاد العجيبة أحضرت الى قصرى كتلة واحدة .. لقد احضرت الى أجود الخيرات .. من أرز وعرعر وخشب مرو وأخشاب الأراضى المقدسة الجميلة جميعها . لقد احضرت لى جزية (تحنو) الليبيين من عاج ، علاوة على سبعمائة ناب من أنياب الفيلة وعدد كبير من جلود الكنأعم وقد حكمت سبعة عشر عاما ولم يعرف كيف ماتت ، وهل كان موتها طبيعيا ، أم نتيجة مؤامرة ، ولكن الامر المحقق أن حزبها اختفى فجأة ، وحطم تحوتمس اسمها واسم سنموت ، ولم يعد يذكر لها اسم بعد موتها ـ وفى مدونة الملوك فى مقبرة سيتى الأول ورمسيس الثانى لا يوجد لها ذكر » .

١٤٩٠ ق.م ـ حكم تحوتمس الثالث :

وقد حدث خلط من بعض المؤرخين (بريستيد) ، فيصوره أخا لحتشبسوت وزوجا لها ، وتصوروه قد حكم معها ، ثم أقصته عن الحكم ، ثم عاد بعد موتها ، ولكن الحقائق التى اكتشفت أخيرا ، أكدت انه ابن زوجها تحوتمس الثانى من احدى جواريه ، وقد اعتلى العرش صبيا بزواجه من ابنة حتشبسوت الكبرى التى كانت تدعى نفرو رع . وقد حالت حتشبسوت بينه وبين ممارسة سلطاته ، فلما ماتت انفرد بالسلطان غير منازع ، فانكر عهدها وجعل تاريخ حكمه من وراء موت أبيه مباشرة أى حوالى ١٥٠٤ ق.م .

وفى السنة الثانية والعشرين من حكم تحوتمس والسنة الثانية من انفراده بالسلطة .

١٤٦٨ ق.م :

ولم يكد يصبح حاكم البلاد ، حتى اضطربت احوال البلاد الآسيوية ، فكون الآسيويون حلفا تحت زعامة أمير قادش ، فزحف تحوتمس الثالث بجيوشه وانتصر على أعدائه فى معركة « مجدو » الخالدة ، التى تحفظ لنا الآثار تفاصيلها الكاملة . مبتدئا بذلك هذه السلسلة من المعارك التى بلغت سبع عشرة حملة ، استولى فى بعضها على الساحل الفنيقى كله ، جعلت منه أشبه بنابليون مصر فى ذلك التاريخ

البعيد ، واعظم هذه الحملات تلك التى قام بها فى السنة الثانية والثلاثين من حكمه والتى بلغ فيها الفرات ودونت وقائع تلك الحملة على جدران معبد الكرنك وعلى لوح (جبل بركل) فهابته الملوك والأمراء والدول فى هذه الانحاء ، وراحوا يخطبون وده بالهـــدايا والجـــزية .

وقد اتبع تحوتمس ســياسة حكيمة ، فلم يمس عقائد الشعوب أو قوانينهم وترك لحكامهم الأصليين مباشرة سلطانهم شريطة أن يدفعوا لمصر الجزية فى مواعيد مقررة ، وعمل على أن يتعلم انجالهم بمصر ليغرس فى قلوبهم حب مصر وليعودوا الى بلادهم وكلهم عطف ومحبة على البلد الذى علمهم (وليكونوا من ناحية أخرى أشبه بالرهـــائن) .

وقد صاغ كهان آمون ملحمة شعرية رائعة يتغنون فيها بأمجاد فرعون الظاهر ، وفيها تلخيص لكل معاركه وحروبه وفى هذا النشـــيد يخاطب آمون فرعون ولده تحوتمس الثالث« الى الى لتحيطنى بنورى ، اى بنى ونصيرى — رزقتك القوة والنصر على أمم الارض جميعا — وبسطت سلطانك ورهبتك على الناس ، ويروعهم بأســك فى الارض من أدناها لأقصاها . وحشدت لك امراء الارض فجعلتهم فى قبضة يمينكـ لقد قيدتهم جميعا من اجلك — صفدت لك الألوف وعشرات الالوف من عصـــاة الجنوب ، ومئات الألوف من اهل الشـمال — وطرحت أعداءك تحت قدميك لتهلك منهم العصاة والثائرين . فدان لك أهل المشرق والمغرب فى طول البلاد وعرضها — تضرب فيها مغتبط القلب حيث تشاء ، ودون أن تجد فى ربوعها من يعصيك — ثم سقتك عليهم واعتبرتك الفرات قويا ظافرا بتأييد من عندى — يســـمعون صيحتك فيلوذون بالكهوف والمخابىء ، على حين كنت أسلب أنوفهم نسيم الحياة ، والقى فى قلوبهم الرعب من بأسك — وجعلت على جبينك ناشرا (اى حية) ياكلهم ، ويحرق بناره أهل المستنقعات ، ثم تأتى على الخوارج من آسيا فيما يبقى وما يذر ، وهيأت لك النصر تتغلغل به فى الأرض ، جاعلا كل من يشرق عليه نورى من رعيتك وعبيدك — يحملون اليك ما فى بلادهم من رزق — واتيت اليك بالخوارج صاغرين تلتاع نفوسهم وترتعش أبدانهم » .

« واتيتك مؤيدا لتسحق امراء فينيقيا فجعلتهم تحت قدميك ، ثم القيت عليك من نورى ما جعلهم يرونك فى صورتى » .

« واتيتك لتســحق الشرق ، ثم ســقتك فى الأرض المقدســة فاريتهم اياك شـــهابا رصــدا » .

« وأتيتك لتسحق الغرب ، وجعلت أهل كريت وآسيا الصغرى يرون فيك فحلا ظافرا فتيا حديد القرنين ، شديد النطاح لا يغلبه غالب » .

واتيتك لتسحق أهل المستنقعات والاخوار ، فبات أصحاب « النهرين » يهتزون أمامك رعبا وفرقا ، واريتهم اياك فى صورة تمساح يملأ الماء رعبا فلا يدنو منه أحد .

واتيك لترهب أهل الجزائر فى قلب اليم فروعتهم صيحتك فى ساحة الوغى ، واريتهم أياك كالظافر (حورس) يصول فوق ظهر غريمه (ست) .

واتيتك لتهلك الليبيين ، فصرعتهم قوتك ، وأريتهم أياك فى صورة سبع ضار ، فملأ الأودية باجداث صرعاهم واتيتك لتسحق من فى أقصى الارض ، وجعلت ما تحت الشمس فى يمينك واريت الدنيا أياك فى صورة صقر ينقض عليها فيأخذ منها ما يشاء .

واتيتك لتسحق النوبة ، وجعلت بقاعها فى يمينك حتى « شط » واريتهم أياك فى صورة أخويك اللذين ألفت بينهما ضمانا لنصرك (حورس ست) .

ويختتم الشاعر تلك القصيدة الرائعة بحديث يبارك فيه آمون ولده فرعون ويدعو له بالنصر ، ويمجد ما شاد من عمائر وآثار وما قدم له من خير يفوق ما قدم كل السلف من آبائه .

وقد حفظ لنا تاريخ هذه الفترة مخلفات وأسماء مائة من كبار الموظفين ، الذين ملأوا حوائط قبورهم بأنباء نشاطهم فى مختلف الميادين .

ولكننا لا نستطيع الا ان نختص بالذكر واحدا منهم وهو تحوتى الذى كان يعمل مشرفا على الميادين الشمالية ، والذى حفظ لنا التاريخ نفسه ، ولعها كانت مصدر الوحى والالهام لكل ما جاء على غرارها من قصص فتح طروادة أو قصة الزباء أو القصة الأحدث عهدا قصة على بابا والاربعين حرامى .

فعندما استعصت مدينة يافا الحصينة على جيوش تحوتمس ، عمد حوتى الى مائتين من رجال الجيش المصرى فخبأهم فى الفرائر وأمر بهم فحملوا الى المدينة يتقدمهم سائس خيل أمير المدينة برسالة الى زوجته ، فلم تكد تفتح أبواب المدينة لهم حتى خرجوا من الفرائر وقبضوا على رجالها وهكذا تم الاستيلاء على يافا بهذه الحيلة (مصر الخالدة ـ وموكب الشمس) .

وكان تحوتمس الثالث قائدا حربيا ممتازا ، لم يكلف أحدا من رجاله القيام بعمل صعب ، فكان يتقدم هو الصفوف ، كما فعل حين ترجل على قدميه فى ممر (عيرونا) .

وكان اداريا ممتازا فقد وصفه وزيره رخمى رع أنه كالصقر الذى يرى مالا يبصره البشر العادى ، ولم يكن نهازا للفرص فعامل اعداءه باللين والمحبة مع الحيطة وقربهم اليه ووثق فيهم بعد ان ادوا له يمين الطاعة .

وهو أول من فكر فى ان يأخذ أولادهم الى مصر ، ليتعلموا فى مصر وينشأوا نشأة مصرية ـ حتى اذا ما عادوا الى بلادهم وحكموها لم ينسوا ذلك .

واتصفت حملاته بلون آخر ، فالى جوار الكتاب العسكريين والفنانين والرسامين الذين كان يصطحبهم معه ، فقد أخذ فى ركابه بعض علماء الحيوان والنبات الذين احضروا بعضها الى مصر كالدجاج والريحان (مصر الخالدة) .

واحتفل تحوتمس الثالث بعيده الثلاثين (عيد سـد) أكثر من مرة ، فأقيمت الاحتفالات التى لم تشهد لها طيبة مثيلا من قبل ، وأقام تحوتمس المسلات التذكارية لهذه الأعياد الخالدة فشاد اثنتين منها فى معبد الكرنك واثنتين فى مدينة الشمس وكان القدر شـاء أن يخلد تحوتمس الثالث كما لم يخلد انسـان من قبله أو من بعده كملك عظيم ظافر ، فتوزعت مسلاته الأربع فى أرجاء المعمورة تختال بها بلاد العالم العظمى ، وتقف فى أعظم ميادينها ناطقة بعظمة تحوتمس .

تقف احدى مسلاته فى مدينة القسطنطينية وتقف الثانية فى مدينة روما أمـام قصر لتران وتقف مسلة ثالثة أهداها محمد على لحكومة انجلترا فى مدينة لنـدن على شاطىء التيمس . كما أهدى الخديوى اسماعيل المسـلة الرابعة الى حـكومة الولايات المتحدة ، حيث تقوم فى حديقة السنترال أعظم حدائق نيويورك .

ومات تحوتمس الثالث بعـد أن حـكم أربعا وخمسـين سـنة وتجاوز عمره السبعين عاما .

١٤٣٦ ق.م :

تولى ملك مصر « امنحتب الثانى » ابن تحوتمس الثالث من زوجته مرية رع حتشبسوت ابنة حتشبسوت . وقد ولد فى منف ونشـأ فيها وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره على ما سجل ذلك اللوح الكبير الذى كشف عنه بالقرب من أبو الهول وقد حدثنا القائد (آمو نمحت) كيف اعتلى ذلك الامير عرش مصر فى صبيحة اليوم الذى مات فيه أبوه العظيم ، وحدثنا كبير وزراء أبيه « رخموع » كيف ركب الفلك على متن النيل لمقابلة العاهل الجديد الذى جاء فى السفن من شمال الوادى .

وقد صور لنا حائط مقبرته مظاهر العظمة التى أحيط بها ركبه ، وكيف قدم لمليكه باقة من الزهر المقدس ابتهاجا للقائه ، ثم وصف لنا بالصور التفصيلية عودته فى ركاب فرعون الى طيبة ، وخروج الشعب لاستقباله .

وتقول لنا اللوحة التى كشف عنها عند أبو الهول ، أنه كان عندما ولى العرش رفيع القوام ، قوى الذراع ، يجيد صناعة الحرب ، وليس بين جنـود الأرض من يدانيه فى شدة بأسه وقوة يمينه وليس فيهم من يقوى على شد قوسه ، وهو بعد ذلك عداء لا يسـبقه سابق ، وهو يحسن التجديف أن ركب الشراع وكان راميـا بارعا ، وفارسا أحب الخيل منذ نعومة أظفاره فقد عهد اليه أبوه بالاسطبل الملكى فى منف وجعله قيما عليه ولم يكد يلى الملك ، حتى اندلعت الفتنة فى امارات آسـيا فامتنعوا عن تقـديم الجـزية .

فأسرع الملك الى الولايات الثائرة واخمد الفتنـة ، بعد أن لقن الثائرين درسـا قاسيا ، فسجلت الآثار مظاهر تنكيله بالثائرين وغنى عن البيان أن الرجل فى ذلك لم يتجاوز المألوف فى ذلك العصر .

وقد انمحت هذه الشدة فى اطفاء نيران الفتنة لبضع سنوات ولكنها لم تلبث أن اندلعت من جديد ، فعاد فرعون لهم مرتين مرة فى عامه السابع وثانية فى عامه التاسع ، ونكل بالمتمردين من جديد . وقد عثر فى عام ١٠٤٢ (١) على سجل كامل لمعارك امنحتب الثانى ، بكل تفصيلات هــذه المعارك وما أظهره فيها الملك من بطولة ، وأحــرزه من نصر .

وفى جبانة الشيخ عبد القرنة قبر لعظيم من عظماء عصره صــور صــاحبه ، امنحتب جالســا فوق عرشه وســجل عند أقدام العرش ، أســماء شــعوب الامبراطورية التى دانت لســلطانه ومن بينها واحات الصحراء الليبية وبلاد كوش وبلاد الساحل الفينيقى ، والنهرين وسوريا وبلاد مالوص (كليكيا الحالية) : وقد أمر فرعون باقامة لوحين من حجر ، سجل عليهما حــدود امبراطوريته نصــب الاول عند « أقصى حدوده فى نهرين » ،والثانى عند أقصى حدوده الجنوبية » حول « كاروى » الى الجنوب من جبل بركل عند منحنى النيل بجهة أبو حمد ــ أما فيما بعــد ذلك الاقليم فكان النفوذ المصرى مبســوطا على الطرق التجارية فقط وقد ذكر مانيتون أن امنوفيس الثانى (امنحتب الثانى) توفى بعــد أن ظل على عرش البلاد خمســة وعشرين عاما وهو تقدير يقرب من الحقيقة .

ولما مات دفن فى قبره المشهور فى صخور وادى الملوك وهو يعد من أجمل ما نحت من قبور ، وقد جعل سقفه على هيئة السماء ملونا بلونها ، ثم زين بما يمثل النجوم تلمع فيها باونها الذهبى الرائق .

ولا يزال امنحتب الثانى ثاويا فى قبره ، الذى عثر فيه على قوسه الشهيرة التى فاخر بها أمراء الفرسان فى مصر وغير مصر .

ولعل أظهر ما يميز « امنحوتب الثانى » عن سائر الفراعنة ، هو ولعه الشديد بالرياضة البدنية بكافة أشكالها وتشجيع كل من يبرز فيها .

وقد سار فى أعمال البناء والتعمير مسلك والده العظيم فأقام المنشآت الكثيرة وخاصــة فى الكــرنك . وله فى مختلف أقاليم مصر آثار تدل على أنه اهتم بالبنــاء والتعمــير .

وأهم الموظفين الذين عاشوا فى حياته « قن آمون » وهو أخ « لامنحتب الثانى » فى الرضاعة ، وقد جعله قيما على قصوره وعهد اليه بادارة أملاكه ثم رقاه فجعله الملك عينا له فى الوجه القبلى وما فى الوجه البحرى .

وقد ترك الرجل مقبرة فى جبانة « شيخ عبد لقــرنة » تمثل الحياة فى هــذا العصر بتفصيل دقيق رائع .

(١) عثر على اللوحة فى ميت رهينة الدكتور أحمد بدوى ونشر نصوصها وعلق عليها .

١٤١٣ ق٠م :

تربع على العرش « تحوتمس » الرابع وهو أحد أبناء امنحتب الثانى الذين كان عددهم يتراوح بين خمسة وسبعة على اختلاف بين المؤرخين ، فتشير بعض الدلائل الى أن تحوتمس الرابع لم يكن هو صاحب الحق فى وراثة العرش ، فقد احتاج الى أن يصطنع شأن من سبقه من الملوك الذين رأوا أن يقووا حقهم فى العرش ، قصة نقشت على لوح من الجرانيت عثر عليه بين ذراعى أبو الهول وفحوى هذه القصة أن تحوتمس الرابع خرج ذات يوم عندما كان لا يزال أميرا للصيد ، فاشتد به الهجير والقيظ فآوى الى الظل فى جدران أبو الهول ليستريح ، فأخذته سنة من النوم ، فى ظل الاله العظيم (حور أم اخت) وهو اسم أبو الهول فى الدولة الحديثة ، فرأى فى المنام ربه الذى ناداه قائلا :

« يابنى تحتمس اننى والدك (حور أم اخت رع اتوم) اننى سأعطيك ملكى على الأرض على الاحياء وستضع التاج الابيض والتاج الاحمر على عرش الاله « جب » وطلب منه ازاحة الرمال التى غطته . ولما استيقظ ابن الملك من قيلولته وضع هذا الكلام فى قلبه .

ويرى كثير من المؤرخين أن لو كان تحوتمس صاحب الحق فى العرش لما فكر فى هذه القصة ، ولما رأى نفسه مضطرا الى بعث عبادة رع ، مما تحيط عليه كهنة آمون، فلا بد أن كهنة آمون كانوا ضالعين مع غيره من أخوته الاحق منه بالعرش فلجأ هو الى كهنة رع الذين اصطنعوا له هذه القصة .

والحق أن أيام تحوتمس الرابع ، قد شهدت ، عودة الحيوية الى عبادة الشمس التى ستزدهر فيما بعد حتى تصل الى ذروتها على يد اخناتون .

وفى مبدأ حكم تحوتمس الرابع ، شبت فى آسيا ثورة استدعت ذهابه ، وقد كان مجرد شخوصه كافيا لاخضاع الأمراء الثائرين ، وقدلقب نفسه « فاتح سوريا » وكانت جزية هذه البلاد ترسل له كل سنة وتسلم الى رئيس المالية وفى هذه الفترة كانت حيثا ونعنى بها دولة الحيثيين قد بدأت تصبح قوة ذات خطر تهدد سلطان مصر فى سوريا وفلسطين ، فوجد تحوتمس الرابع من مصلحته أن يحالف ملك ميتانى ، وليس أقوى من المصاهرة على ربط الأواصر بين الملوك فى ذلك العهد ، فتزوج تحوتمس الرابع أخت ملك ميتانى ، مخالفا بذلك سنة السلف ، فقد كانت شريعة الملك تحتم عليهم أن يتزوجوا بأقرب النساء ، من ذوى الارحام ليشقوا بذلك طريقهم الى العرش ، حتى كانوا يتزوجون من اخواتهم كما رأينا . وعقد تحوتمس الرابع محالفة صداقة مع بابل . وفى السنة الثامنة من حكمه وصلت اليه انباء بحدوث ثورة فى النوبة فسار اليها على جيشه مارا بالمعابد العظيمة محييا الهتها حتى بلغ الشلال الأول ثم زحف على بلاد الواوات ، وهزم الجيوش التى تصدت له ، وغنم الكثير من الغنائم والاسرى . ولشدة حبه لجده تحوتمس الثالث أتم عمل جده فأقام المسلة التى تركها بمدخل الكرنك الجنوبى ودون عليها أعمال جده ، وهى أكبر مسلة باقية

للآن وهى الموجودة فى روما ، ومات « تحوتمس الرابع » ولم يتجاوز سنه ستة وعشرين عاما ولم يزد حكمه عن تسعة أعوام وبضع شهور على ما يقول مانيتون وقد كان قبره أول حلقة من سلسلة قبور الفراعنة التى كشفت فى العصر الحديث ، وقد وجد منهوبا كبقية قبور الملوك التى نهبت فى زمن الرعامسة . ولكن جثته قد عثر عليها ، وتبين من فحصها أنها لشاب صغير لا يتجاوز عمره ٢٨ سنة .

١٤٠٥ ق.م ـ « امنحتب الثالث » :

وصلت البلاد فى عهده الى أعلى درجات الحضارة ، ولكنه لطول المدة التى حكمها وقدرها ٣٦ سنة ابتدأ دبيب الضعف يسرى اليها شيئا فشيئا وأصبح للملكة « تى » زوجة الملك نفوذ كبير . وقد أمكنه أن يخضع عصيانا بالنوبة ، وقد حفظ له الود كل أمراء آسيا .

امنوفيس الثالث (١٤١١ ق.م ـ ١٣٧٥ ق.م) :

حفظ سلامة الامبراطورية فى آسيا بالطرق الدبلوماسية وتحفظ لنا خطابات تل العمارنة ـ المكتوبة بالأشورية على لوحات مسمارية ـ كثيرا من المراسلات الدولية أيام حكمه وحكم ابنه ـ ويمتاز حكم امنوفيس الثالث بأنه عصر رخاء عظيم وتقدم ثقافى .

حكم امنحوتب (أمنوفيس) الثالث ابن تحوتمس الرابع (١) كما سجل ذلك بنفسه على آثار معبده الخالد الذى أقامه « معبد الأقصر » حيث تسجل الآثار قصة أشبه بقصة حتشبسوت عندما ادعت أن آمون هو وادع نطفتها فى رحم أمها .

فكذلك نروى قصة امنحتب الثالث ، فقد تمثل آمون على صورة تحوتمس الرابع ثم غشى زوجته « مدنمويا » فحملت منه بامنحتب الثالث .

وكان الملك ولوعا بالنساء منذ كان وليا للعهد ، فلما ولى الملك ازداد غرامه

(١) تشكك الدكتور احمد بدوى فى تاريخه « موكب الشمس » وتابعه الدكتور عبد الحميد زايد فى ان يكون امنحتب الثالث هو ابن تحوتمس الرابع ورجحوا أن يكون احد ابناء أمنحتب الثانى واستدلا فى رأيهما على ان الكشف الجديد على مومياء تحوتمس الرابع قد جعل البعض يقدر عمره بست وعشرين سنة ، ومن هنا فقد استبعد أن يكون أمنحتب الثالث ، الذى يقطع الآثار فانه تزوج فى العام الثانى لحكمه ابنة لتحوتمس الرابع . والحق أن الادلة التى ساقاها فى كتابيهما الجليلين لم تقنعنى على متابعتهما ولا يمكنى دحض اثر مكتوب ومسجل فى عصره ، بمجرد استنتاجات تبنى كلها على رأى طبيب معاصر من أن عمر تحوتمس الرابع عندما مات كان ٢٦ سنة . فالاقرب الى الاحتمال ، أن يكون الطبيب والاطباء المعاصرون قد أخطأوا تقدير السن . خصوصا وأن المعروف ان امنحتب الثالث مات عن سن لا يتجاوز الخمسين . مع انه حكم ستا وثلاثين سنة ويعنى ذلك انه ولى الحكم وعمره ١٤ سنة فلو أن الخطأ فى تشخيص عمر تحوتمس الرابع لا يزيد عن عامين أو ثلاثة لما كانت هناك أى صعوبة فى أن يكون امنحتب الثالث هو ابن تحوتمس الرابع . وهكذا تسقط هذه القرينة على دحض نسبه الى تحوتمس الرابع .

بهن ، وقد تزوج بملكة مجهولة الأصل تدعى « تى » وقد أمر امنحتب الثالث بصنع جعل حجرى كبير لينقش عليـه تاريخ هذا القران ، حيث ذكر اسمى والدى هـذه الزوجة بما يفهم منـه انهما مجردان من كل صلة بالبيت المالك . وعلى الرغم من أن امنحتب الثالث قد تزوج بعد ذلك كثيرا واسرف فى الزواج ، فقد ظلت الملكة « تى » صاحبة المكان الاول . وأظهر امنحتب مقدره عظيمة فى ادارة شـئون الامبراطورية فلم يتجاسر سكان المستعمرات الامبراطورية على القيام بثورة ولكن بلاد النوبة قامت بثورة فى العـام الرابع من حكمه فزحف بجيشـه على الثوار وهزمهم ، ثم سار مع النيل حتى توغل الى نقطة بعيدة جدا لا يعرف مداها الآن .

ووصل الأمر الى حـد أن تنافست بابل واشـور وميتانى وقبرص لاكتسـاب محبة مصر . ويعتبر ذلك أول مظهر سـياسى دولى عام فى تاريخ الممالك المعـروفة حتى الآن ــ وصار قصر فرعون مصر مركزا للتخاطب مع كبـار حـكام ذلك العصر ، وترجع معظم معلوماتنـا عن المداولات بين فرعون مصر وحـكام آسـيا الى المجموعة الرائعـة من الرسائل التى وجدت فى تل العمارنة وهى هذه الخطابات التى تبودلت بين حـكام ذلك العصر وفرعون مصر وبلغ عدد هذه الرسائل ٣٠٠ رسالة وكل منهـا عبارة عن قالب من الطين منقوش عليه بالخط المسمارى البـابلى ، وقد تم اكتشـاف هذه الرسـائل عام ١٨٨٨ م بتل العمـارنة التى ستصبح كما سوف نرى عاصـمة للبلاد أيام اخناتون (١) . أتاحت له أيام السلام فى حياته وكثرة ما أفاء الله عليه من الرزق الذى كان يتدفق على خزائن القصر أن يطلق يده فى أعمال التعمير والانشاء .

الآثـــار :

فبنى على ضفة النيل اليسرى جنوب دار الكرنك دار الأقصر الذى يعتبر أجمل وأبدع الآثار المصرية على الاطلاق ، والذى أريد به أن يكون مسـكنا خاصا لآمون ، حيث كان الكرنك هو داره الرسمى ــ ثم انشـأ بين هذه الدار وبين الكرنك طريق الكباش ، حيث زين جانبا الطريق بتماثيل أبو الهول غير أن راسه جعلت راس كبش لا رأس انسـان . واقام فى أوله مسلتين عظيمتين وشـيد فرعون لنفسـه بعد ذلك قصرا رائعا عن يمين النيـل فى المكان المعروف باسم مدينة حابو . وقد ذهبت آثار هذا القصر ولكن التاريخ حفظ لنا وصفه بالتفصيل ، وكيف كانت حوائطه وجدرانه مزدانة بأجمل الرسوم والصور والحق بالقصر بركة أريد بها تلطيف جو القصر وكان طولها ٣٧٠٠ ذراع وعرضها ٧٠٠ ذراع وقد فرح بها فرعون فرحا عظيما حتى لقـد خلد قصة انشائها على كثير من الجعارين التذكارية .

وله بعد ذلك آثار فى منف وفى بلاد النوبة (صوليب) حيث أقام معبدا لأبيه وربه « آمون » ــ كما عثر له فى سيناء على لوحين يؤرخ أحدهما عامه السادس والثلاثين ،

---

(١) كانت فلاحة مصرية هى صاحبة هذا الكشف الذى زود العالم بتاريخ تفصيلى عن هـذه الفترة ولكن العلماء فى ذلك الوقت لم يقدروه قدره فلم تكن أسرار اللغة المسمارية قد كشفت بعد .

وكيف انه بعث واحـدا من أبرز رجـاله لاستخراج الفيروز ـ كما عثر له فى خرائب منف على آنية تحمل اسم ذلك الفرعون .

وامتدت شهرته الى بحر ايجه ، فوجد المنقبون بين خرائبها طائفة من آثار صغيرة تحمل اسمه واسم زوجته الأولى « تى » منها ما وجد فى قبرص وما وجد فى رودس .

وقد احتفل بعيده الثلاثين ثلاث مرات ، فى السنة الثلاثين وفى الرابعة والثلاثين وفى السادسة والثلاثين .

وبلغت هذه الأعياد مبلغا من العظمة والبهجة لم تعرفه من قبل حيث كان الفرعون يستقبل الاشراف والكبراء ، فيوزع عليهم العطايا من الذهب والملابس الثمينة ، ثم يفتح لهم أبواب القصر ليتناولوا الطعام على المآدب الملكية المترفة ، ثم يخرجون الى بحيرة فرعون ليحظوا بشرف مشاهدة الزورقين المقدسين .

ومن أشهر بناته « نبفرتيتى » ، ثم ساة آمون الذى يزعم بعض المؤرخين ان أباها قد تزوجها وأنجب منهـا توت عنخ آمون ولكن آخرين يشكون فى ذلك (عبد الحميد زايد واحمد بدوى) .

وكان لاسراف امنوفيس الثالث فى حيـاة اللهو والعربدة أثره عليـه فشاب قبل الأوان وادركه الضعف ، وذوى ولما بلغ الخمسين من عمره نجـده فى بعض صـوره وقد هده المرض ذاهلا عن أحداث الدنيا وما يجرى فيها .

ويمكن تشبيه عصره ، بعصر الملك لويس الرابع عشر فى فرنسا أو عصر الرشيد والمعتصم فى العهد الاسلامى أو خمارويه أو اسماعيل .

وقد ازدهرت الفنون فى عصره فبلغت من الرقى مبلغـا لم تعرفه (شـواطىء) مصر من عهد الأهرام ، وانقشعت عن سماء البلاد سحب الحرب التى تغشـتها من قيام هـذه الأسرة .

ويعتبره بريستيد آخر اباطرة مصر العظـام ، حيث وصلت الدولة فى عهده ، الى اعظم درجات الرقى والحضارة ومات بعد أن حكم ستا وثلاثين سنة .

١٣٦٧ ق.م :

تولى **اخناتون** ابن أمنحتب الثالث عرش مصر وهو لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، وتزوج من أختـه نفرتيتى والتى يحتمل أنهـا كانت من أم أخرى ، وان كان ليس من المقطوع به انها أخته (ف . لولين جريفث : تاريخ العالم ، المجلد الثانى) وقد كان مقدرا له أن تصل عقيـدة التوحيد على يديه ذروتهـا بحيث يعتبره البعض من الأنبيـاء والرسل ، على أن فضل اخناتون فى اصلاحـه الدينى لا يبدو فى توحيـده الألوهية بقدر ما كان فى تغييره صفات هذه الألوهية وتحويل الاله من اله محلى اقليمى

ومولى غاضب منتقم الى اله عالى محب عطوف جميل يحب الجمال ،ويشمل ببره بنى البشر جميعا . وهناك راى يقول ، ان فكرة توحيد الألوهية فى اله الشمس هى فكرة آسيوية ، وفدت الى مصر مع زوجة امنحتب الثالث وحاشيتها من النساء والرجال الآسيويين ، الذين بدأوا يغشون البلاط المصرى منذ ايام تحوتمس الرابع ، وزاد أمرهم فشوا فى عهد امنحتب الثالث ، الذى طال واستفاض . ولكن فكرة التوحيد لم تكن بعيدة عن أذهان المصريين وخاصة رجال الدين منهم ، بل انها كانت فى تطور مستمر منذ توحدت البلاد .. كما أن عبادة اله الشمس سواء فى صورة حوريس ، أو رع هى من أوسع العبادات انتشارا وأقدمها فى حياة المصريين كما رأينا ... بل ان آمون نفسه لم يأخذ قوته وسلطانه الا بعد أن اعتبر صورة أخرى من صور رع فأصبح يطلق عليه اسم آمون رع . وكذلك سائر الآلهة كسبك الذى أصبح سبك رع والحق أن اتجاه الوجدان البشرى والعقلى نحو توحيد الألوهية هو احدى الظواهر الانسانية التى تفرض نفسها على الانسان فرضا .

فقديما عندما كان لكل قبيلة استقلالها ، فقد كان لها معبودها الخاص بها . وذلك طبيعى ومفهوم فقد كانت كل قبيلة تعتبر نفسها هى الجنس الانسانى فى مجموعه والأرض التى تعيش عليها هى الدنيا بطولها وعرضها ولكن مع اتساع معارف البشر واختلاطهم ببعضهم واكتشافهم أراضى جديدة ومعبودات جديدة فقد بدأت عملية تزويج المعبودات الى بعضها ونسبة بعضها الى البعض الآخر باعتبارها أبناء وآباء ثم ارتقى العقل البشرى فراح يرى فى المعبودات المختلفة صورا متفرقة لحقيقة واحدة . وقد كان كهنة كل معبود اذا واتاهم السلطان يرتفعون بالههم فوق باقى الآلهة ويجعلون منه الاله الواحد المسيطر على الكون .

فهؤلاء كهنة منف عندما كانت منف مستقر السلطان جعلوا من بتاح خالق الكون وقوته المحركة وعقله المدبر يقول للشىء كن فيكون . « بتاح العظيم » (فؤاد ولسان المعبودات) .

« بتاح المعبود الذى يبدأ منه الحب والمنطق فكل ما يصدر من ذهن أو فهم المعبودات أو الأهالى أو الحيوانات أو الأفاعى أو جميع المخلوقات المفكرة والامر هو نتيجة ارادة هذا المعبود بتاح » .

وهكذا جعلوا « بتاح » هو خالق الكون وارادته . وكهنة عين شمس كلما واتتهم الفرصة جعلوا « رع »هو اله الآلهة خالق الكون الذى أورث أبناءه ، ملوك الفراعنة حكم الأرض ، فما جاء به « اخناتون » من توحيد الألوهية بالنسبة للبشرية كان هو النتيجة الطبيعية لتحول مصر الى امبراطورية تشرق الشمس على كل شعوبها ويمتد سلطانها شمالا وجنوبا على شعوب ومعبودات متفرقة فأصبح لا مناص من أن يكون معبود مصر هو رب كل هذه الشعوب والكائنات خاصة وقد رآه الجميع بأبصارهم يبزغ فى السماء . والجديد بالنسبة لاخناتون هو انه لم يستعمل الاسم المألوف لاله الشمس وهو « رع » وانما استعمل الاسم الذى كان يدل على قرص الشمس وهو

« آتون » ليكون رمزا على الألوهية المطلقة فلم يعد المعبود آتون هو قرص الشمس المادى ولكنه حرارة الشمس ثم أصبح شيئا فوق ذلك كله انه سيد آتون واصبح يصور على الآثار فى شكل قرص الشمس تمتد منه الأشعة وفى نهايتها أيدى ترمز لعناية الله بخلقه ويمد يده اليهم . على أن ثورة اخناتون فى العقيدة الدينية لا تبدأ عند هذا الحد بقدر ما تبدأ من محاربته للمعبودات القديمة خاصة آمون باعتباره كان اشدها نفوذا حيث راح يحطم تماثيله ونصبه ويمحو اسمه حيث استطاع الى ذلك سبيلا حتى لو اضطر الى محو اسمه والى محو اسم أبيه نفسه منحتب الثالث وتغيير اسمه هو من امنحتب الرابع الى اخناتون (أى التابع لآتون) ولو أن خناتون اكتفى بالدعوة الى الهه الجديد معتبرا اياه صورة من صور آمون كما هو صورة من صور رع واوزوريس لى حد ما ، لما أثار على نفسه كل هذا العداء الذى انتهى بتحطيمه وتحطيم دعواه . ولذلك فلا عجب أن بدأ كهنة آمون يناصبونه العداء ويجهرون بهذا العداء وكانوا قد بلغوا من القوة والنفوذ بحيث لا يقوى الفرعون الجديد على سحقهم وان استطاع أن لا يأبه بمعارضتهم ولذلك فقد غادر طيبة فى العام السادس من حكمه بعد أن أصبحت غير صالحة للاقامة بها ، وضرب نحو الشمال بحثا عن مكان لم يظله آتون أو اله آخر من قبل فعثر على هذا المكان فى بقعة من اقليم الاشمونين تقع على الضفة الشرقية للنيل فيما يعرف الآن بتل العمارنة « محافظة المنيا » وبدأ فى انشاء مدينته الجديدة التى أطلق عليها اسم (اخت آتون) أى سماء آتون . وجعل ما يحيط بها حرما مقدسا ، يبلغ عرضه من الشمال الى الجنوب ثمانية أميال ويتراوح طوله بين جبال الشرق والغرب بين اثنى عشر وسبعة عشر ميلا ، وأحاط هذا الحرم بأحجار لتحدده وقد عثرنا على أحد هذه الاحجار وقد نقش عليها « رفع جلالته يده الى السماء نحو خالقه آتون قائلا هذا قسمى الأزلى ، وهذا شاهدى الأبدى . هذا الحجر يعين حدود الأرض ... لقد شيدت أخت آتون لتكون سكنا ل الذى واظهرت حدود أخت آتون الجنوبية والشمالية والغربية والشرقية ... » .

لقد صنع الاله دائرته هذه لنفسه وجعل فى وسطها ضريحه الذى تقدم عليه القرابين من أجله (برستيد) . وعهد اخناتون الى المهندس بك باحضار الأحجار من اقليم الشلال لبناء معابد اخناتون الثلاثة ، وقصرا للملك وقصورا للأمراء حول هذه المعابد .

وقد وصف أحد الأمراء مدينة أخت آتون بقوله :

« اخت آتون بلدة جميلة جدا فهى سيدة المدن فى الاحتفالات وافرة الثروة وفى وسطها الهدايا للمعبود رع . اذا رآها القلب سارع اليه الفرح كيف لا وهى مدينة بديعة حتى ليخيل الى ناظرها انها الجنة كثيرة الأهالى . اذا أشرق عليها آتون أغدق عليها أشعته محتضنا بأشعته ابنه المحبوب سليل آتون ، واقف الأقاليم على الذى أجلسه على العرش ومرجع الأراضى لخالقها » .

وتتجلى روعة الانقلاب فى تصور المعبود الجديد ، فى الكيفية التى أقام بها معبد آتون ، فبدلا من هذه المعابد التى أقيمت لآمون والتى يغشاها الظلام والظلال

والغموض .. لتخلع قلوب العابدين من الروع والخشية ، بدلا من دماء الأضاحى التى تذبح لآمون .. فقد أقام معبدا لالهه الجديد مشرقا مشمسا يبعث الدفء فى الأجساد والقلوب والأرواح .

ولقد دمر الهيكل بعد وفاة اخناتون وعودة الملوك من بعده الى عبادة آمون ، ولكن صورة الهيكل ظلت مصورة ومحفورة على الجدران ، فكانت أروقته كلها مكشوفة لتتخللها اشعة الشمس ، لتفيض على العابدين والمصلين وتحيط الأشجار بالأروقة لتقى بظلالها من وهج الشمس الساطعة وبهرة اضوائها .

وكانت القرابين فى الأغلب والأعم من الكعك والخضر والزهور والرياحين ، وكانت مجامر البخور تعطر المكان بالعطر المقدس ، بينما تتدفق انغام الموسيقى والنراتيل الشجية فى حنان .

وكانت الصلوات تقام عند الشروق وعند الغروب .

وقد حفظت لنا مقبرة أى ترتيلة اخناتون الكبرى لآتون والتى يقارنها علماء أوربا المسيحيون بمزامير داود ، ويرون أن الأخيرة مأخوذة من هذه الترتيلة (برستيد) :

« بزوغك جليل فى افق السماء يا آتون يا حى يا مبدىء الحياة ، اذا ما صعدت فى افق السماء الشرقى أفضت على الأراضى جمالك » .

ماذلك الا لأنك جميل عظيم ، تضىء فى السموات العليا ، تسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك بأشعتك أنت رع . انت الذى أسرتهم وقيدتهم بحبك . أنت بعيد عن الأرض لكنك على اتصال بها بأشعتك انت عال لكن آثارك واضحة فى ضوء النهار اذا ما ظهرت فى الأفق واشرقت فى النهار كآتون اضاءت الأرض ، اذا ما بزغت أشعتك اضىء الظلام وشمل الفرح قطرى مصر كيف لا وقد ايقظتهم فيغتسلون ويكتسون ويبتهلون بأذرعتهم اليك وقت شروقك ثم يشرع سكان العالم يؤدون اعمالهم .

البهائم كلها مستريحة فى مراعيها . والأشجار والنباتات جميعها يانعة ، والعصافير تخفق فوق المياه ناشرة أجنحتها ابتهالا اليك ، والأغنام ترقص على أرجلها . والطيور تحلق فى الجو اذا ما اشرقت عليها .

خلق الانســـان :

انت خالق الجنين فى أمه ، انت خالق نطفة الانسان . انت واهب الحياة للجنين فى رحم أمه ، وملاطفه حتى لا يتكدر فيبكى .. كيف لا وانت المربى فى الرحم . انت معطى نفس الحياة كل مخلوقاتك .

خلق الحيـــوان :

انت الذى تهب الحياة للفرخ فى البيضة .. فاذا اتممت خلقه نقب بيضته وخرج منها صائحا جهده واثبا بقدميه .

الخلق عمـوما :

ما اكثر مخلوقاتك التى نجهلها ــ انت الاله الاحد لا شريك لك فى الملك . خلقت الأرض بارادتك . ولما كنت وحيــدا فى هذا الكون خلقت الانســان والحيوان الكبير والصغير والمخلوقات التى تدب على الأرض أو تطير بأجنحتهــا .

انت الذى احللت كل انسان فى سوريا والنوبة ومصر فى موضعه وانعمت عليــه بحاجاته ، فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المعدودة .

لقد اختلفت السنتهم واجسامهم وجلودهم فسبحانك من مميز لخلقك . ما ابدع مشروعاتك ايها السيد الأزلى فنيل السماء مخصص للغرباء وللدواب من كل البلاد . والنيل الذى ياتى مصر خاصة يأتيها من الدار الآخرة اشعتك تغذى الجنان . فاذا ما اشرقت أينعت وانبتت بتأثيرك .

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك .

فالشتاء يعطيهم البرودة والصيف يهب لهم الحرارة انت الذى رفعت الســماء عالية لتنظر ما خلقت فى وحدتك شارقا حيا كآتون ساطعا متلئلئا ثم راجعا ثانية الى حيث ابتدائه .

جمـال الضـوء :

انت مبدع الجمال من نفسك .

فالمدن والبلاد والقرى والطرق والأنهر كلها عيون تبصرك امامها . . كيف لا وانت اكثر من النهار فوق الأرض .

تضرعات الملك :

انت فى قلبى ، لا يعرفك سوى ابنك اخناتون الذى جعلته عاقلا بآرائك وقوتك . العالم كله فى قبضتك كما خلقته .

اذا ما اشرقت عليه حيى واذا ما افلت مات. انت الوجود وسبب الحياة للانسان . اعين الخلق تبصر محاسنك كل يوم حتى تغرب .

لقد وهبت العالم منذ خلقته لابنك وسليلك الملك العائش فى الحق سيد الأرضين نفر ــ خبرو ــ رع وان رع (ابن رع) العائش فى الحق سيد التيجان اخناتون طال اجله . وايضا للزوجــة الملكية العظيمة خليلته ســيدة القطرين نفر ــ نفرو ــ آتون (نفرتيتى) العائشة اليانعة الى الأبد » .

وكان اخناتون يتمسك فى الدرجة الاولى بضرورة اتبــاع الحق وكان لقبه الابن الملك العائش فى الحق .

ولا شك أن مصريى ذلك الزمان قد اعتبروا اخنــاتون مجـدفا وملحدا ومنحرفا

ولسان حالهم يردد قول كفار قريش « أجعل الآلهة الها واحدا ؟ .. ان هـذا لشيء عجـــاب » .

وكان يصدمهم كما صدم كفار قريش كذلك ، انه لم يقف عند حد الدعوة لاله ، بل تحدى باقى الآلهـة وقرر ان يحطم أصنامهم ويمحو أسماءهم وكان يفزعهم أكثر واكثر وهم الذين كانوا سكرى بعظمة الامبراطورية والذين كانوا يعتبرون انفســهم هم وحدهم الناس وغيرهم ليسوا من الناس الا فى الدرجة الثانية أغضبهم واحنقهم أن يسوى بينهم وبين النوبيين وبين السوريين بل أن يذكر أســماء هـؤلاء قبل ذكر المصريين وان الله يرعى الجميع على السواء ويجعل كل انسان مكانه ويعطيــه الرزق ويقرر مصيره . على أن ما يروعنا نحن ، فى العصر الحديث من هذه الأنشودة انها لم تنسب الى آتون اى وصف من أوصاف الغضب والنقمة والتعذيب فضلا عن الدعوة الى الحرب وقتال المخالفين ولم تنسب البــــه الا آيات الرحمة رحمته على عبـاده وحنانه وبره بهم .

وهذا الذى يجعل اخناتون فى نظرنا هو نبى الدعوة الى الحب والسلام وشجب العنف بين البشر ويضاعف من قيمة هـذه الدعوة ويظهر مـــدى ايمان اخناتون العميق بها ، انه دعا اليها وتمسك بها رغم أنه كان ملك امبراطورية يجلس على عرش دولة لا تقوم الا على السـلطان والقمع والردع وتجييش الجيوش ولم يغير موقفه عندما بدأ منافسو مصر فى ذلك الزمن من امثال الحيثيين الذين ازدهر ملكهم فى هذه الحقبة ، يمدون أبصارهم الى دويلات آسـيا ويســعون الى فرض سـلطانهم على هـذه الدويلات .

ولم يكن اخناتون يحرص على وصف نفسه بوصف يعلو وصفه بالحق وأنه عاش فى الحق ، ويدعو دائما لاحترام الحق .

وعندما عمد بعض الأمراء يعلنون استقلالهم ويغيرون على جيرانهم مستغلين فرصة غياب ابن امنحتب الثالث عن الظهور فى آسيا . كل ذلك لم يخرج اخناتون عن الخط الذى رسمه لنفسه : وهو أن يكون داعية سلام وهداية للبشر .

وتسجل لنا رسائل تل العمارنة الصرخات والاستغاثات التى بعث بها أمراء آسيا الموالون لفرعون مصر ، يحذرونه وينذرونه من عاقبة المصير اذا لم يبادر بأرســال جيوشه ، واذا لم يعالج الأمور .

فهذه احدى رسائل تل العمارنة تقول على لسان أعيان مدينة (تونب) بعلبك :

« الى ملك مصر سيدنا . من أهالى تونب (بعلبك) خدمك لعلك تكون بصـحة وعافية . نحن كلنا نسجد تحت قدميك سيدى . مدينة تونب تتساءل الآن قائلة : لم يجرؤ أحد على سلب تونب فى عهد تحوتمس الثالث دون أن يسلبه ذلك الملك . الا يعلم سيدنا ملك مصر ان معبودات مصر لا تزال نتوتب ويمكن لجلالتك ان تتأكد من صدق ذلك من كبار قومك . ولكنا اوشكنا ان ننفصل من مملكة سيدنا ملك مصر ،

اذا ما تأخر وصول الجنود والسجلات من مصر . أن أزيرو (أحد أمراء دويلات آسيا) سيعاملنا كما عامل مدينة نى وحينئذ يعمنا الكدر كما يصيب جلالة ملك مصر الأسى لما يأتيه « أزيرو » .

أن هذا الاخير سيرفع يده فى المستقبل ليقاتل قوات جلالة سيدنا . اذا دخل ازيرو بلدة صوميرو (بطران) يفعل بنا ما يشاء . ونحن فى بلادجلالة الملك سيدنا حينئذ يندم الملك على ذلك كثيرا .

أن تونب (بعلبك) تبكى يا سيدى بكاء مرا . ولا تعتب لها ، لقد ثابرنا على ارسال الخطابات لسيدنا ملك مصر مدة عشرين سنة فلم نصل الينا منه كلمة واحدة. ولم يظهرنا التاريخ على رد اخناتون على هذه الرسائل .. لكن الذى نعرفه أن سوريا ولبنان ، سرعان ما سقطتا فى يد الحيثيين .

وهاجمت قبائل الخابيرو مدن فلسطين الجنوبية وأرسل الوالى المصرى ببيت المقدس الحصن المنيع آخر صرخة لاخناتون لانقاذ آخر ما بقى لمصر من ولايات فى آسيا .

« ستضيع جميع ارض جلالتك التى ثارت على . أما اقليم شيرى الواصل الى جنتى ــ كرمل فقد شق عصا الطاعة على وكذلك امراؤه . لقد كانت سفن جلالتك الساعد القوى فى بسط سلطتك على بلاد النهرين وكدش ، اما الآن فقد احتل بدو الخابيرو بلاد فرعون . ولم يبق لسيدى وال يطيع فالكل عصاه .. ليحترس الملك على قطائعه وبلاده وليرسل المدد .. لانه اذا لم تصل جنود هذه السنة ذهبت ممتلكات جلالة فرعون سدى .. واذا تعسر أرسال جنود هذه السنة فليرسل جلالة الملك ضابطا يلازمنى للحضور انا وأخوانى كى نموت مع سيدنا الملك » .

فلا عجب واجزاء الدولة تنفصل عن آسيا ، أن يزداد مقت الشعب الذى لم يفهم فى اى وقت هذه الدعوه الجديدة التى جاء بها اخناتون والتى خالف بها كل تقليد ومألوف ومعروف .. وكانت هذه فرصة كهنة آمون ، لكى يؤججوا نيران الثورة ضد اخناتون وضد الهه فأجتمعت عناصر السخط الوطنية والدينية ، ضد اخناتون . فاندلعت نيران الثورة ضد اخناتون ، فلم يلبث أن عزل بعد حكم دام سبعة عشر عاما اى عام ١٣٥٠ ق.م. ولم يلبث أن مات : ولا يعرف كيف مات . فقد عبث بجثته على ما يبدو اذ لم يعثر لها على اثر ، فقد وجدت بعض التوابيت التى قيل أنها لاخناتون أو خصصت له .. ولم تكن جثته فيها على كل حال .

وقد استمر كره الناس له بعد موته لعدة أجيال حاولوا فيها أن يطمسوا كل ذكر له ، وكل أثر مكتوب . ولقبوه أحيانا « بمجرم أخت آتون » فقد حملوه ضياع الامبراطورية المصرية فى آسيا ، التى تعب اسلافه ملوك الأسرة الثامنة عشرة طوال مائتى عام لتثبيت قواعدها وتوسيع رقعتها .

ولكن الحقائق التاريخية كما تكشفت عنها رسائل تل العمارنة ، تثبت ان امنحتب

الثالث وليس اخناتون هو المسئول عن تفكك هـذه الامبراطورية فقد حكم ستة وثلاثين عاما لم يذهب مرة واحدة الى سوريا أو يظهر فى أرض فلسطين وفنيقيا..

وقد بدأت الفتن ، وبدأت مناوشات الحبشيين فى عهده فلم يبذل جهدا لمعالجة الموقف .. ولا يمكن ان نعتذر لامنحتب الثالث بأنه كان صـاحب دين وعقيـدة يدعو السـلام ..

وقد اعاد ملوك الأسرة التاسـعة عشره كما سنرى نفوذ مصر فى آسيا ، ولكن فتوحاتهم لا تلبث الا ان تبدد من جديد ولكن دعوه اخناتون ، هى وحدها التى كان مقدرا لها أن تبعث من جديد فى عصرنا الحديث .. فقد شاء القدر أن تكون المقبرة الفرعونية الوحيده التى سلمت من يد أسرته لتصل الى أيدينا كاملة هى مقبرة صهر اخناتون وزوج ابنته « توت عنخ آمون » لتهتز الدنيا كلها بروعـة ما فيها من آثار وتنشر من جديد صـفحه اخناتون وتعاليمه ، ليجـد ملايين المعجبين والمقـدرين للملك النبى .

الثورة الفنيـــة :

على أن الشيء المتفق عليه : هو ايمان اخناتون المطلق بالحق ، وتحرى الحقيقة دائما ، فقد أحدث ثوره فى الفن ، حيث خرج فيها على أصـوله التقليدية القديمة المعترف بها . وهو الا يصور فرعون الا فى صوره متناهية فى القوه والصحة والشباب، وان لا يظهر معه الا من يليق بقداسته أما فنانو « اخناتون » ، فقد صدعوا بأوامر اخناتون وتعليماته ، أن يكون فنهم طبق الأصل من الحقيقة .

ولذلك فقد صـوروا لنا اخناتون فى بساطة وبعيـدا عن كل كلفة محبا لأولاده وزوجه حتى ليظهرون معه فى كل موقف وفى كل حفلة ، فى المعبد وخارج المعبد وعلى شرفات القصر .

ووصل الأمر فى تحرى الفنان للحقيقة ، حتى صور فرعون نفسه فى صورة تبدو معها بطنه وكأنها منتفخة حتى قال بعض الباحثين أنه كان مريضا بالاستسقاء .. كما رسمت ملامح وجهه ورأسه بطريقة فيها الكثير من المبالغه بحيث ظهر دميما جدا.

فلا عجب اذا رأينا لأول مرة الحيوانات مرسومة بحالتها الطبيعية فالكلب عاو ، والطير محلق فى الجو والثور الوحشى عائم فى المستنقعات .

ومن آثار فنانى هذا العهد الخالدة . تمثال نفرتيتى زوجته الموجود الآن بمتحف برلين ، والذى يعتبر اجمل قطعة من النحت فى العالم على الاطلاق .

بين موسى واخناتون :

وقد قامت محاولات الربط بين حركة اخناتون ودعوته للتوحيـد ، وبين رسالة موسى عليه السلام ، فقد تلت دعوة موسى للتوحيد حركة اخناتون ومن أشهر من

حاض هذا الموضوع وأكده وتحمس له « فرويد » العالم المتهور وعنده أن موسى ولد فى مصر وتربى فيها ونشأ فى كنف الوحدانية التى أعلن أمرها فى زمان اخناتون وان موسى قد تأثر بها فى دعوته . والمسلم الذى يتلقى عن القرآن الكريم ، الذى يقول أن موسى عليه السلام قد دعا الى عبادة الاله الواحد المنزه . لا يرى بأسا فى أن تكون ثمة صلة بين دعوة اخناتون للتوحيد ودعوة موسى عليه السلام ، فالتوحيد هو دين الفطرة ، وهو الذى ترتد اليه النفس كلما ضعفت .

ولكن المطالع للعهد القديم والذى يصور يهوة اله اليهود كما دعا اليه موسى . لا يمكن الا ان يجد فارقا كبيرا بين اله اليهود وبين آتون كما دعا اليه اخناتون ، فحبت آتون كما رأينا ، اله بنى الانسان جميعا عطوف شفوق ، يحب السلام ، ويكره الحرب ويسوى بين الناس . ويهوه اله اليهود ، هو اله خاص باليهود قد ميزهم على سائر العالمين ، وهو رب الجنود الذى يحب القتل والقتال وسفك الدماء ، وهو الاله العاجز الضعيف الذى يخطىء ويندم والذى يؤنبه موسى من حين لآخر .

ولذلك فقد ارتد بنو اسرائيل اكثر من مره حتى فى حياة موسى نفسه الى عبادة اربابهم القديمة كعباده العجل . وظلوا طول حياتهم على ما يروى عنهم العهد القديم .. يرتدون الى عبادة الأصنام وآلهة الشعوب المجاورة .

١٣٥٠ ق . م :

تربع **سمنخ كارع** على العرش وهو زوج ابنة اخناتون « مرية آتون ـ حبيبة آتون » وهو أخ لتوت عنخ آمون الذى سيلى الحكم بعده ، وكلاهما اخوان لاخناتون من أبيه امنحتب الثالث . ولكن البعض يشك فى ذلك ، ويعتبرهما من أبناء اخناتون نفسه . (الدكتور احمد بدوى ـ موكب الشمس) .

ويدل اسـم اسـمنخ كارع ، على أنه لم يلذ بآتون فلم يلحق باسـمه ، ولذلك فلا عجب اذا كان أول أعماله على العرش أن عاد أدراجه الى طيبة .

على أنه لم يلبث أن مات بعد سنوات لم تزد على الثلاث .

١٣٤٧ ق . م :

توت عنخ آتون ، والذى لم يلبث أن غير اسمه الى **توت عنخ آمون** ، وهـو أخ سمنخ كارع الأصغر ، وهو مثله قد تزوج باحدى بنات اخناتون ونفرتيتى (عنحس ـ أن ـ با آتون) .

وقد كان يوم أن رفع على العرش صبيا ، وكان الى جواره قطبان من أقطـاب السياسة والحرب .. فأما أولهما فهو الكاهن آى الذى رفعه اخناتون مكانا عليا ..

ثم ظل متربصا ليلعب دوره ، حتى اذا مات اخناتون تولى قيادة سفينة الأسرة التى اوشكت ان تغرق بمساعدة القطب الآخر القائد حور محب والذى كان اخناتون قد سلمه قيادة الجيش لما اضطربت الأمور .

وبدات الامور تستقر فى عهد الملك الشاب ، وخاصة بعد أن استقر به المقام فى طيبة ، محا من اسمه أسم « آتون » فأصبح يعرف باسم توت عنخ آمون .

وقد عثر على لوح كبير فى الكرنك يصور الملك وهو يقدم قربانا للاله آمون والاله توت .

وبدأ دور حور محب القائد العسكرى فى توطيد أركان الدولة .. فقام على راس جيش أصطدم به فى سوريا مع الحيثيين وقد خرج كل من الطرفين يدعى النصر لنفسه ... ولكن نجاح حور محب الاكبر كان فى اخماد فتنة الأمراء الثائرين ، واعادتهم الى الولاء لعرش مصر وهكذا استقرت الامور فى عهد الملك الشاب بينما كان حور محب يوطد اركان الدولة بقوة السلاح فى الخارج ، كان « آى » يوطد بالانشاء والتعمير فى الداخل فى اصلاح ما تهدم من دور العبادة أيام اخناتون فأصلح معابد آمون فى طيبة ومعابد بتاح فى منف ، وغيرها من دور العبادة ، وأجرى عليها الخير والأرزاق .

ولم يلبث الملك الشاب أن مات فى ريعان الصبا بعلة ذات الرئة على ما يقول الاطباء الذين كشفوا على مومياه بعد اكتشافها بعد حكم لم يطل اكثر من ثمانى سنوات ، ومات وعمره ثمانى عشرة سنة ولم يكن قد اتم لنفسه بناء قبره ، فدفن فى قبر كان آى قد أنشاه لنفسه ، ولذلك فهو أصغر قبر دفن فيه أحد الملوك ، وقد كان فى الأصل حجرة واحدة ثم قسم عند الدفن الى حجرتين ، جعلت احداهما مدفنا ، بينما كدست فى الثانية بقية ما حمل مع رفات الملك من زاد وأثاثات جنائزية حشرت فى الحجرة الضيقة حشرا وعلى خلاف المعهود نرى على جدران المقبرة رسما يمثل تشييع جنازة فرعون لمقره الأخير .

كما نرى صورة آى يتقدم ركب الجنازة ويقوم ببعض الطقوس الجنائزية الخاصة بسفله ، ليسجل لنفسه حقه فى تولى العرش . على أساس ان توت عنخ آمون كان آخر سلالة أسرته .

وقد قدر لاسم توث عنخ آمون فى العشرينات من القرن العشرين ان يدوى فى سمع الدنيا كلها ، عندما اكتشف أمريكى يدعى كارتر يعمل لحساب انجليزى يدعى اللورد كارنرفون فى عام ١٩٢٢ قبر توت عنخ آمون ، وعثر فيه لأول مرة فى التاريخ على الأثاث الجنائزى الذى لم يمس والذى بهر العالمين ولا يزال يبهرهم حتى الآن ، بالقدر الكبير من الذهب الذى يحلى الاثاث ومركبة الفرعون ، وتابوته .

وخاصة القناع الذهبى الذى يحجب رأسه ووجهه والذى يأخذ بالباب بنى البشر اجمعين ، بعد ان أصبح يطاف عليهم به ، ليس فقط من ناحية معدن الذهب المصنوع

منه كبقية تحف توت عنخ آمون ولكن من حيث الوانه والدقة الفنية ، التى تخيل معها للرائى كما لو كان القناع صورة لانسان حى .

وغمرت العالم يوم اكتشاف قبر توت عنخ آمون موجة من الحماس له وللفن الفرعونى .. فاتشحت الفنون التشكيلية كلها بالصفة الفرعونية ، ونسجت الاقمشة بوحى من الوان آثار توت عنخ آمون واطلق عليها اسمه ، واصبح اسمه يتردد فى كل مصنع ومكان باعثا معه تاريخ حميه العظيم اخناتون .. ولا زال توت عنخ آمون يهز الناس هزا كلما شاهدوا آثاره المنعدمة المثال ، والتى لا تزال تعتبر اعظم كشف عرفته الدنيا فى عالم الآثار حتى اليوم .

١٣٣٩ ق . م – ولى العرش ((آى)) :

وهو على النقيض من سلفه ، فاذا كان توت عنخ آمون قد مات فى صباه ، فقد ولى هذا العرش وهو فى خريف العمر او ارذله . ويرجح الكثير من المؤرخين ، انه عمل طويلا وفى صبر وداب للوصول الى هذا العرش . وقد صادفناه على الآثار باعتباره زوجا لمرضعه اخناتون المدعوة تى وقد قربه اليه اخناتون وعهد اليه بأكبر الوظائف وقد بلغ فى الجيش اعلى رتبة وهو قائد فرقة الفرسان فلما مات اخناتون وقف الى جانب سمنخ كارع يناصره فرفعه الى العرش ، ولما مات سمنخ كارع ، اجلس اخاه توت عنخ آمون من بعده وكان هو المدبر لانتقال توت عنخ آمون الى طيبة كما راينا .

فلما أن مات ((توت عنخ آمون)) دون أن يخلف عقبا ، ولى آى الملك ونراه فى كل الآثار مع زوجه تى .

وحكم اربع سنوات ولا نعرف له خبرا عن هذه الفترة الا انه زار منف فى عامه الثالث ، ولا نعرف مصيره بعد ذلك .

وقيل كان القبر الذى انشأه لنفسه فى اخت آتون ، هو الذى نقلنا عنه النشيد لاخناتون لآتون .

١٣٣٥ ق . م الميلاد :

تولى ((حور محب)) عرش الفراعنة ولأول مرة نرى انفسنا أمام تاريخ مفصل متصل لواحد من أبناء الشعب استطاع بجده واجتهاده أن يخرج من صفوف الشعب ليرقى السلم خطوة خطوة حتى يصل الى اوج المجد فيصبح فرعونا ، بل وفرعونا مرموقا ، قضى على الفوضى التى أوشكت أن تغمر البلاد بعد الفتنة التى عمت البلاد فى آخريات عهد اخناتون وخلفائه .

والفراعنة بطبيعة الحال لم يخرجوا فى أغلب الاحوال عن كونهم سلالة أشخاص ممتازين وابطال خرجوا من صفوف هذا الشعب كما راينا . ولكن كل واحد منهم لا يكاد يؤسس اسرة جديدة حتى يصبح الحكم ارثا لاولادهم من بعدهم . الذين يعتبرون اسرة حاكمة يجرى فى عروقهم الدم الملكى وأصحاب الحق الشرعى .

ولكن حور محب ينفرد بأن تاريخه معروف ومبسوط ومسجل من البداية حتى النهاية . فهو قد ولد فى عهد امنحتب الثالث ما بين عامى ١٤١١ ق.م – ١٣٧٥ ق.م. فى زمن كانت فيه العسكرية هى سبيل الرقى والتقدم ، فالتحق به حور محب ، ولكن شاء الظروف ان تكون الفترة التى التحق فيها بالجيش ، كانت هى الفترة التى عم فيها السلام البلاد . على أن حور محب فيما يبدو لم يتصل بالجيش الا بعد ان كان قد تعلم وثقف نفسه . اذ نراه يفخر بانتسابه الى رب المعرفة « تحوت » ويعلن اغتباطه بما أوتى من معرفة وكفاية .

وقد ظل حور محب ايام امنحتب الثالث يعمل فى الجيش الذى كان مقره مدينة منف . حتى وصل الى وظيفة ما يساوى منصب « مدير الفرقة » . وركن اخناتون الى حور محب مطمئنا الى علم الرجل وكفاءته فترك له امر الجيش يدبره ، راضيا عنه بأن يكف اذى الجيش عنه ليتفرغ هو الى دعوته الدينية وقام حور محب بماعهد اليه خير قيام فلا هو تورط فى مجاراة اخناتون فى دعوته ، ولا هو فى ذات الوقت حرض عليه او اخل بولائه نحوه .

وبفضل هذه السياسة الرشيدة ظل حور محب هو رجل الدولة الأول ، فاستطاع ان يدبر الامر لخلفاء اخناتون فيلوا العرش واحدا بعد آخر ، وقد حفظوا له ذلك ، فأفاض عليه توت عنخ آمون من مظاهر التكريم ما لم يحظ به موظف فى الدولة من قبله حتى سمح له أن يقيم لنفسه تمثالا فى معبد « توحوت » يمثله جالسا ناشرا بين يديه قرطاسا من أوراق البردى وقد وضع محبرته على ركبته وقد أخذ فى الكتابة . ويحمل التمثال القابه ، فهو الذى « يحمل المروحة على يمين فرعون » وهو « امير قواد الجيش » وهو ولى عهد فرعون .

أما قاعدة التمثال فقد ملئت بالنصوص التى يضرع فيها حور محب الى تحوت ليشهد له عند الآلهة انه كان مستقيما فلم يعمل مكروها ، ثم يذكر « اننى قمت بتصحيح قوانين القصر وجرى ذلك بتدبيرى ، ولم يكن هناك أحد غاب عنى . كذلك كنت مرشدا لكل فرد حريصا على أن يعرف كل انسان ما هو عليه . ومع ذلك لم انس ما يجب على . وكنت ارفع آرائى للملك وانبه الى كل ما خفى ولم اترك شيئا من آراء فرعون ، كنت أصدر تعاليمى الى مجلس البلاط مؤيدة بآراء الملك » .

وتصل عظمة شخصية حور محب الى ذروتها فى أعقاب موت «توت عنخ آمون» ، فقد كان هو الرجل الأول فى الدولة بلا منازع ، وكان الجيش لا يعرف سيدا غيره ، وكان كهنة آمون أصحاب النفوذ الاعلى فى البلاد ، يؤثرونه على أى انسان آخر حيث لم يكن من شيعة اخناتون ، وكان مخلصا لآمون ، واذ لم يكن لتوت عنخ آمون من

وارث لعرشه ، وكان حور محب هو ولى العهد كما رأينا ، فقد كان ذلك كله يؤهله لأن يكون فرعون مصر غير منازع ، ولكنه اثر أن يترك هذا المنصب لآى الرجل الشيخ كما راينا حتى استوفى اى مدته القصيره ، فلم يعد فى مصر كلها الا رجل واحد ليؤول له الملك عن جدارة واستحقاق .

وهكذا عندما جاءت ساعته ركب الى طيبه على راس كتيبه من رجال جيشه فاستقبله الشعب فى طريقه اليها استقبالا رائعا وبلغ المدينه فى يوم عيد آمون . واذاع على الشعب من اهل طيبه ان اباه ورب اقليمه « حورس » قد جاء به الى رب طيبه لينوجه ملكا على الوادى ، وتهلل امون وهو يستقبل حورس ضيفه الكريم وفى ركابه ولده العظيم « حور محب » الذى جاء ليتقبل الملك والتاج والعرش .

ولما تمت مراسيم التتويج ، غادر حور محب طيبه الى مدينته التى عاش فيها طول حياته ، الى منف ليتخذ منها لتجهيز الجيوش لاعاده الأمن والسلام الى بلاد آسيا . بينما اخذت الحكومه تعمل على تطهير البلاد من آثار اخناتون وخلفائه الثلاثة فمحت أسماءهم من اثار البلاد الرسميه وحل محلها اسم حور محب ، بل لقد ذهبت الحكومة الى ابعد من ذلك فانكرت أيام حكمهم وجعلوا عهد حور محب يبدا فى أعقاب حكم اخناتون .

واصلحت دور العبادة التى خربها اخناتون وأعيدت لها اوقافها وأموالها .

وليس لدينا ما يؤكد ذهابه فعلا الى سوريا أو فلسطين ، وكل ما بقى من آثار ورسوم تمثل حور محب يقود ثلاثة صفوف من الأسرى يقدمها الى ثالوث طيبة (آمون وموت وخنسو) وتثبيت اسماء بلاد من بينها خينا كما يرجح انهم جماعة من الحيثيين ، وانما شك فى أنه ذهب الى هناك .

ولكن الأمر المؤكد انه ذهب الى جنوب الوادى على راس جيش ضرب به الثوار وحارب العصاة .

كما انه استرد كل ما كان لمصر من نفوذ وحقوق فى بلاد بونت (الصومال) وفى رسوم الكرنك ما يشير الى ذلك .

أما عن أعماله العمرانية فقد وضع اللبنات الأولى لردهة الاعمدة الكبرى بالكرنك والتى أتبعها بعد ذلك رمسيس الثانى ، وكذلك بدأ البوابة التاسعة والعاشرة بالكرنك. ومن اجل ذلك هدم مبانى اخناتون التى اعترضت البوابة التاسعة . والظاهر ان جزءاً من طريق الكباش الذى يبدأ من الكرنك الى الاقصر من عمله .

على أن حور محب لم يستحق التخليد باعتباره من اعظم ملوك هذه البلاد ، بحيث ظل محبوبا وممجدا على مدى التاريخ ، الا بمقدار ما عمله من اجل سعادة هذا الشعب ورفاهيته بالقضاء على الفساد والرشوة ، والضرب على أيدى الموظفين الذين يستبدون بأفراد الشعب ، وأعلاء سلطان القانون ولن تجد فى تاريخ مصر القديم ، من صاغ القانون بكل هذا الوضوح والصرامة فى محاربة الفساد .. وليس سوى حمورابى فى أرض بابل من سبقه الى مثل هذا التنظيم القانونى الرائع المحكم .

ولم يكد حور محب يتولى الملك حتى دعا كاتبه الخاص وأملى عليه مواد قانونية للعمل بمقتضاها فى كل ما ظهر له قبل ولايته من نقص فى الأحكام وفساد فى الادارة .

وقد وقعت هذه المواد فى سبعة أقسام :

اضطهاد الموظفين الماليين والاداريين للفقراء ، وهددهم بالعقوبات الصارمة . حتى لقد ذكر ان احد الصيارفه اضطهد فقيرا متجاوزا فى معاملته حدود القانون فحكم عليه بجدع الانف ، والنفى الى مدينة ثارو ، وحسبنا ان نطالع هذا النص القانونى لندرك عمق هذه الثوره الاصلاحية لحماية الشعب :

كل شرطى علم عنه انه دخل المساكن لأجل سرقة الجلود يحكم عليه ابتداء من هذا اليوم بمائة جلدة ويجرح فى خمسة مواضع ثم تسترجع منه الجلود المسروقة .

« كل موظف أو كاهن يقال عنه انه عين فى القضاء ليحكم بين القضاة وهو يجنى على القانون يحاكم بتهمة الخيانة العظمى اى أن جزاءه الموت ارادة جلالتى بغرض تحسين القانون المصرى .

وثمة مواد تنص بعقاب كل من تسول له نفسه من موظفى الحكومة فى تسخير الرقيق لمصلحته الشخصية .

وعقاب كل من يستولى بغير وجه حق على كتان أو خضر او حيوانات .

ولكى يبطل الملك الرشوة بين القضاة والمواطنين ، زاد مرتباتهم واعفاهم من دفع الضرائب ، حتى لا يكون لهم عذر فى اتباع الوسائل غير الشريفة .

ونظم مرفق العدالة التى كانت مفقودة فى البلاط فانشأ مجالس قضائية فى كل البلاد لتفصل فى الخصومات التى تحدث بين الناس وأوصى القضاة بالتزام العدل ثم وضع على رأسهم واختار وزيرين اعجب بهما كثيرا وعهد اليهما بمهمة القضاء العالى والاشراف على باقى القضاة ، جاعلا مركز احدهما بمدينة طيبة والثانى بعين شمس أو منف ثم وصفهما بقوله :

« أن هذين القاضيين صادقان كريما الأخلاق شريفا الذمة مطيعان لاوامر القصر الملكى وقانون المحكمة ، لقد عينتهما قاضيين على وجهى مصر (القبلى والبحرى) وجعلت مركزهما المدينتين العظيمتين » . ثم حذرهما من اخذ الرشوة قائلا :

« لا تأخذا الرشوة من احد والا فكيف يمكنكما أن تحكما بالعدل اذا كنتما أنفسكما جناة على القانون » .

وفى القانون ما يشير الى البر بالعبيد والجوارى والحض على معاملتهم بالحسنى .

وكل هذه المعلومات وما هو اكثر تفصيلا منها قد نقشها حور محب على شاهد حجرى عظيم يبلغ طوله ستة عشر قدما وعرضه عشرة أقدام نصبه امام الصرح الذى شيده بالكرنك من احجار معبد آتون وقد ذكر جلالته ملاحظة على الاثر هى :

لقد سنت جلالتى هــذا القــانون لضمان رفاهية اهــل مصر ، وختم نقوش الاثر مخاطبا قومه :

استمعوا لأوامرى التى سننتها لاول مرة فى التاريخ لاحكم بهــا جميع الاراضى نظرا لمــا شاهدته من الظلم الصارخ بهذه البلاد .

وهكذا لم تذهب دعوة اخناتون الى عبادة الله الحق هباء .. فهذا هو حور محب على الرغم من أنه ساعد على محو دعوة اخناتون وآثاره ، الا أنه هو نفسه قد تحول الى اعظم مصلح انسانى عرفته هذه البلاد ، خفق قلبه بروح العدل ، وحب الشعب وسيادة القانون . وهى الغاية النهائية لأى دين من الاديان .

وقد مات حور محب بعد ان وصل الى سن الشيخوخة وقد فهم من سجلات احدى القضايا التى حصلت فى عهد رمسيس الثانى ، ما يشير الى السنة التاسعة والخمسين من حكم حور محب وهــذا تاريخ مبالغ فيه ، الا اذا ادمجنا فيه حكم اخناتون وخلفائه ، والرأى الراجح انه حكم مدة تتراوح بين ٢٥ و٣٠ سنة .

وقد عاش حور محب الجزء الأكبر من حياته فى مدينة منف فقــد بنى لنفســه مقبرة فى جبانتها ، ولكن الاقدار جعلت منه ملكا على عرش مصر ، فأصبح مكانه بين أقرانه من الملوك السابقين فى صخور طيبة .

ولكن اللصوص اعتدوا على قبره فنبشوه كما فعلوا مع بقية الملوك ، فلم يعثر على جثمانه ، ولكن تابوته المصنوع من صخر الجرانيت الأحمر لا زال فى مكانه .

الأسرة التاسعة عشرة

١٣٠٨ ق . م ـ بدء الأسرة التاسعة عشرة :

يعتبر بعض المؤرخين « حور محب » هو ختام الاسرة الثامنة عشرة ، ويقول عنه مانيتون ان حور محب هو الذى اصلح احوال المملكة المصرية التى ساءت فى أواخر الأسرة الثامنة عشرة . وهو من ناحيته لم يحاول أن يكون لنفسه أسرة لتحكم البلاد من بعده تاركا العرش لمن يستطيع من افراد الشعب أن يواصل حركة الاصلاح التى بداها .

وكان رمسيس تلميذه الأول ووفيه الامين فجعله وليا للعهد ومنحه من الالقاب ما يثبت ذلك ، جعله وزيرا له .

واذ كان الناس قد الفوا فى هذه الفترة حكم العسكريين فقد تقبلوا حكم خلفه رمسيس الأول الذى كان قائد الجيش بقبول حسن .

ولم يكن رمسيس كسلفه ممن يجرى الدم الملكى فى عروقهم ، فوالده سيتى كان احد قواد الجيش ، فأدخل ابنه فى سلك الجندية ، وراح يترقى فى سلمها حتى أصبح قائد فرقة الفرسان وهو ذات المنصب الذى وصل اليه حور محب . حتى اذا مات حور محب ، ولى رمسيس الأول الملك ، واذ كان شيخا فلم يدم حكمه طويلا ويقول مانيتون انه حكم سنة واحدة واربعة شهور .. ولكن هذه الفترة القصيرة كانت كافية لكى يجعل من ولده الأكبر سيتى قائدا لفرقة الرماة ، ثم قائد فيلق الفرسان ثم وليا للعهد وكبيرا لوزرائه ، مخالفا بذلك سنة من سبقوه . ولذلك فلم يكد رمسيس الأول يموت حتى ولى ابنه سيتى الاول عرش مصر ، مبتدئا بذلك عهد الاسرة التاسعة عشرة المجيد .

١٣٠٩ ق . م :

تربع سيتى الأول على العرش .. واذ كانت سنه وقتئذ اربعين سنة وهى سن الرجولة والحيوية والعزم ، فقد استهل عهده بما حالت شيخوخة ابيه وقصر

مدة حكمه دون القيام به ، وهو اعادة سلطان مصر على سوريا وفلسطين ، واقرار الأمن بها . وصد عادية المعتدين عليها .

واذ كان حور محب قد اعاد تنظيم البلاد فى الداخل ، واعلى بها حكم القانون وسيادته ، مما اعاد للشعب حيويته فى ظل الاستقرار ، فقد كان طبيعيا أن تكون الخطوة الثانية نشر هذا الأمن والرخاء فى سائر انحاء الدولة شمالا وجنوبا . ولذلك فقد قاد « سيتى » جيشه فى السنة الاولى من حكمه وزحف به على آسيا مبتدئا من بلده تاروا (موقع القنطرة حاليا) ومتبعا طريق سيناء ، الذى يبدو أنه أصلحه ابان ولايته للعهد فى زمن أبيه ، تمهيدا لتحقيق هذا الغرض ، ولذلك فقد مر الطريق الممهد ، وتوقف عند قلاعه وحصونه التى رممها على طول الطريق حتى بلغ جنوبى فلسطين الذى كان معروفا فى ذلك الوقت باسم نجب (١) . فاصطدم أول ما اصطدم ببدو تلك المنطقة الذين عرفوا باسم الشاسو أو الشوسى فبدد شملهم ، ثم بلغ حدود كنعان (وهو الاسم الذى اطلقه المصريون على غربى فلسطين وسوريا) واستولى على سهل مجدو وعبر نهر الاردن ونصب هناك حجرا ذكر فيه انتصاراته التى احرزها فى حوران ، ثم زحف غربا حتى بلغ جنوب لبنان ، فاستولى على ما فيه من مدن ومواقع ، وبدا أمراء هذه المناطق وحكامها يفدون عليه معلنين خضوعهم له ومقدمين له كل الذى يطلبه من خدمات حتى كلفهم بأن يقطعوا أشجار الأرز ليقدموا اليه الخشب الذى طلبه .

وكان سيتى هو أول فرعون مصرى يرونه منذ خمسين سنة . وقدم له ملك قبرص هدايا جزيلة على عادة حكام تلك الجزيرة نحو حكام مصر .

واصبح ساحل فلسطين آمنا والطريق البحرى بين مصر وفلسطين، مفتوحا آمنا.

ولم يكد سيتى يعود الى مصر ويقابل باحتفالات النصر التى نراها مسجلة بكل عظمتها على جدران الكرنك حتى شرع يعد حملة جديدة لضرب الليبيين القاطنين غرب مصب النيل والذين كانوا قد استولوا على غرب الدلتا فاستطاع أن يكسر شوكتهم ، وأن يعيد سلطان القانون والنظام ثم عاد من جديد الى آسيا ليواجه جيوش هذه الدولة الصاعده دولة الحيثيين والتى بدات تهدد شمال سوريا ومن المحقق انه استولى فى هذه الحملة على مدينة قادش ودارت بينه وبينهم معركة لم تكن فاصلة ، وان كانت كافية للمحافظة على هيبة ملوك مصر فى هذه الارجاء ، ورأى سيتى برجاحة عقله أن يبرم معاهدة ودية مع ملك الحيثيين المدعو متيللا ، كانت أشبه بهدنة منها الى معاهدة صداقة حقيقية .

وعاد سيتى الى مصر ليستأنف حملة البناء والانشاء والتعمير واصلاح المعابد التى بدأها « حور محب » ، والتى لم يستع والده أن يسهم فيها . بحيث توجد على كل معابد آمون المنتشرة على النيل من بلاد النوبة جنوبا الى بسطة بالدلتا شمالا ، نقوش

(١) صحراء نقب فى الوقت الحاضر .

تشير الى الاصلاحات التى قام بها سيتى الأول بهذه الاماكن المقدسة .. وتعتبر مقبرة سيتى فى وادى الملوك أكبر وافخر مقبرة أقيمت لملك ، حيث نشاهد فى جوف الجبل حجرات وطرقا متشعبة تأخذ فى الانحدار بما يزيد على ٤٧٠ قدما ومن عماراته القاعة ذات العمد العظمى التى أسسها رمسيس الأول امام صرح امنحتب الثالث بمعبد الكرنك وقد فاقت هذه القاعة فى العظم قاعة امنحتب الثالث ذات العمد التى لم يتم بناؤها فى معبد الاقصر .

كما شيد معبدا جميلا بالعرابة المدفونة لمعبودات مصر العظمى (أوزوريس — ايزيس — حوريس) ونقش على جدران معبده هذا قائمة بأسماء ملوك مصر الاقدمين ابتداء من مينا الى عهده ، ولا تزال هذه القائمة معتبرة من اهم المستندات التاريخية التى نستمد منها معلوماتنا عن تواريخ هؤلاء الملوك وقد تلف صرحا هذا المعبد ، ومع ذلك فان البقيـة التى لا تزال باقية منه تعتبر من انفس الآثار التى ابدعتها ايدى المصريين المهـرة .

وكان لا بد لسيتى للقيام بهذه الاعمال الضخمة من مورد للمال .. فأستأنف استخراج الذهب من مناجمه فى جبل زيدا على ساحل البحر الاحمر ، واذ كان الطريق المؤدى اليها وعرا وقفرا ، فأمر بتجديد معالمه وحفر الآبار لسقيا السائرين فيه ، حتى لنجد نقوشا تقول انا :

ايتها المعبودات الساكنات هذه البئر ، امنحن سيتى العمر الأزلى . شق لنا الطريق لنسير فيه بعد ما كان مهجورا ، فاصبحنا نسير سالمين ونصل أحياء ، واضحى الطريق الصعب سهلا جميلا .

ولما تم مشروع المناجم أوقف سيتى ايراد هذا المشروع على معبد العرابة المدفـونة .

وقد حافظت الفنون الجميلة فى عهد سيتى على درجتها التى حازتها أيام الأسرة الثامنة عشرة من حيث التأثير والدقة والجمال . ويعتبر معظم الاثريين ان قاعةالكرنك العظمى التى أنشئت فى هذا العهد ، من أعظم الآثار المصرية بناء وضخامة وروعة .

وتعتبر مجموعة رسوم ونقوش عهد سيتى من أعظم امثلة الاجتهاد والدقة اللذين اشتهرت بهما الأسرة الثامنة عشرة على أن أجمل الرسوم البارزة المصنوعة فى عهد سيتى فهى التى بمعبد العرابة حيث يجتمع الذوق والدقة مع معالم الحياة والشجاعة والمهـارة .

ومن الوثائق الهامة التى عثر عليها من عهـد سيتى الأول ورقـة من البردى محفوظة بمتحف تورين عليها اقدم مصور جغرافى فى العالم . فقـد صورت بعض مناطق تعدين الذهب ، فرسمت الجبال وطرق الوصول الى المناجم ومناطق التعدين والمبانى التى يأوى اليها العمال .

ومات سيتى قبل أن يحتفل بمرور ثلاثين سنة على توليته ولاية عهد مصر ،

فلم يتمكن من قامة المسلتين اللتين عملهما لذكرى هذا الحادث . ولكن من المحقق انه حكم أكثر من عشرين سنة مستقلا بالملك ودفن فى تابوت مرمرى بديع داخل قبره الفخم ــ وقد حفظت الاقدار جثة هذا الملك حتى يومنا هذا اذ عثر عليها فى خبيئة الدير البحرى ، حيث تبدو على وجهه كل ملامح العظمة والابهة والجلال .

١٢٩٠ ق٠م :

اعتلى العرش **رمسيس الثانى** ابن سيتى الأول بعد وفاة أخيه الأكبر ولى العهد فى حياة أبيه ، وقد ذكر رمسيس انه شارك أباه سيتى فى الحكم فى أخريات حياته ، ولكن بعض المؤرخين وعلى رأسهم بريستيد (١) يرفضون هذه المشاركة ويرون انهـا من مزاعم رمسيس الثانى . ولكنا لا نستطيع أن نهدر ما سجل على الآثار وما يقوله رمسيس ، لاعتراضات وتكهنات ففى معبـد سيتى الأول الذى أتمه رمسيس نرى هذه العبارات منقوشة ومسجلة .

« عظمنى سيد العالم نفسـه (سيتى الأول) عندما كنت طفـلا الى أن أصبحت حاكما . منحنى الأرض حيثما كنت فى البيضة . سجد عظمـاء الأرض أمامى . بعـد ذلك وليت لأننى لابن الأكبر ولاصبح اميرا ووراثيـا على عرش جب (الـه الارض) وكتبت تقريرا عن حالة الأرض ، وكنت قائدا للمشاة ولمركبات الحرب . ولمـا ظهر والدى فى عظمة أمام الناس كنت طفلا فى حجره ، قال شيئا عنى : فوجده ملكا حتى يمكننى أن ارى جماله حين أكون على قيد الحياة : ثم نادى رئيس الحجاب ليعقـد التيجان على مفرقى . قال ذلك فيما يخصنى حينما كان على الأرض حيا » .

وأن يكون رمسيس قد شارك أباه فى الحكم ، أو لم يشاركه مسألة ثانوية جـدا بجانب الحقيقة الكبرى التى تتصل برمسيس وهو انه أشهر الفراعنة على الاطلاق ، والذى يعتبر اسـمه علما على مصر القديمة تكملة للأهرام وأبو الهول ، وقد تسمى باسمه ، فراعنة من بعده .

وكان أول من أدرك أن عاصمة الملك السياسية يجب أن تنقل من طيبة الى شمال الدلتا ، ليمكن لفرعون مصر أن يخف لحماية أراضى الدولة فى آسيا . وهكذا أصبحت طيبة مركزا دينيا لا يؤمها فرعون الا وقت الاحتفالات الكبرى . بينما أقام رمسيس فى مدينة تانيس ، حيث أقيم بها معبد شامخ نصب على صرحه تمثال عظيم لرمسيس مصنوع من حجر واحـد ويزيد ارتفاعه على تسعين قدما ، وتبلغ زنتـه ٩٠٠ طن ــ وقد اعتنى كثيرا بوادى طميـلات .وهو فى طريق القنـاة التى كانت توصل النيل بالبحيرات المرة فالبحر الأحمر -باعتباره الطريق العـام بين مصر وآسيا ، فشـيد فى منتصفه مدينة بينوم ومعناها معبد آتون ــ وأنشأ مدينة بر رمسيس (التى ورد ذكرها فى التوراة) (أى بيت رمسيس) ويظن البعض انهـا هى ليست مدينة تانيس

(١) ناقش الدكتور احمد بدوي اعتراضات بريستيد وردها ومال الى القول بالمشاركة ..

وقد أصبحت بر رمسيس هى مقر الحكومة وعاصمة البلاد فحفظت بها المكاتبات الرسمية وعبد فيها رمسيس كأحد آلهتها .

ويقال ان رمسيس سخر بنى اسرائيل فى بنايتها على ما تقول التوراة .

وقد اختار بعض المؤرخين أن يغضوا من شأن عظمته بالقياس الى غيره من الفراعنة الذين سبقوه ، كما اتهموه بأنه كان محبا للعظمة والدعاية لنفسه ، وأن حقيقته العسكرية والعمرانية تقل كثيرا عما ادعاه لنفسه . ولكن الحقائق التى تثبت على مر العصور لا يمكن أن تزعزعها التحليلات والمدونات . . ان اسم رمسيس يدوى الآن فى سمع الدنيا كما لم يدو اسم فرعون آخر الا أن يكون توت عنخ آمون يوم اكتشاف مقبرته . . . اما لماذا يدوى اسم رمسيس فبسبب تكاتف العالم المتحضر كله لانقاذ معبديه اللذين انشأهما فى أبو سنبل من الغرق باعتبارهما من تراث الانسانية . . . وباعتبارهما أفخر وأروع الآثار المصرية . . وتكاتف العلم والتكنولوجيا لنقل معبدى ابو سنبل من مستقرهما فى بلاد النوبة التى ستغمر بالمياه ، ليعاد تركيبهما فوق هضبة عالية ، تعلو على بحيرة ناصر ، وسيظل المئات والالوف يتوافدون كل عام الى موطن ابو سنبل الجديد ، ليشهدوا معجزة رمسيس فى انشائهما ، ومعجزة العلم الحديث فى نقلهما .

وليس معبدا ابو سنبل اللذان تكاتفت البشرية لانقاذهما الا بعض مابنى رمسيس وانشأ من عشرات المعابد . بل ان تمثالا من تماثيله العملاقة ، هو الذى يزين احد مبادين القاهرة حيث لم يستطع أى فرعون آخر أن يحظى بهذا السبق وليس هذا التمثال الجبار الا واحدا من مئات التماثيل والذى يبلغ زنة احداها الف طن . ناهيك بالمسلات التى نعدها بالعشرات ، والتى تملأ بدورها عواصم العالم الحديث .

وقد أتم القاعة الكبرى ذات العمد العظمى بالكرنك التى بدأ بها أبوه والتى وصفناها بأنها أعظم عمارات العالم قديما وحديثا .

وبنى لنفسه معبدا فى طيبة اشتهر باسم (الرمسيوم) كما انشأ حوشا عظيما وصرحا شامخا بمعبد الأقصر .

ولا يزال اسم رمسيس الثانى منقوشا على جميع معابد مصر العظيمة فوق الحجرات والأحواش والعمد والصروح الى يومنا هذا ، ويقولون انه كتب اسمه على كثير من آثار سلفه ونحلها لنفسه زورا وبهتانا فى رأى البعض ومع ذلك فان برستيد الذى نسب اليه هذه التهمة ، لا يتمالك نفسه من القول « ومع ذلك فقد شيد آثارا فاقت عمارات سلفه حجما وشكلا وملأ معابده بتماثيله وبالمسلات الشامخة المنقوشة وغير ذلك من الاحجار والرأى السائد الآن ان تماثيل هذا الملك هى اضخم التماثيل المصرية » .

حروب رمسيس :

ما ان ولى رمسيس الحكم واشتغل به ، حتى اراد أن يؤكد النجاح الذى احرزه

والده في شمال سوريا ، وان يضاعف فيه. فعاد رمسيس في السنة الرابعة من حكمه، وحدات جيشه وسار بها على شاطئ فلسطين الى الشمال حتى نهر الكلب على بعد قريب من بيروت ، حيث أقام لوحا تذكاريا . وقام بالاستيلاء على الموانى ليؤمن المواصلات عن طريق البحر بين مصر والشام متبعا فى ذلك خطة تحتمس الثالث .

الحملة الثانيـة :

على أن حملة رمسيس الكبرى ، التى لا يكاد يخلو معبد من ذكر تفاصيلها . هى معركته فى العام الخامس من حكمه مع الحيثيين حول مدينة قادش ، فنراها منقوشة بكل تفاصيلها فى معبد الكرنك وفى معبد الأقصر وفى الرمسيوم . وكأن التاريخ يأبى الا أن يسجل هذا الحادث بما لم يسبقه اليه حادث سابق ، فحفظ لنا قصيدة نسبت خطأ الى ناسخها فى عصر متأخر وهو بنتاور .

وهكذا اصبح لدينا تفاصيل معركة رمسيس الحربية حول قادش كما لو كانت مسجلة بأقلام مراسلين حربيين من العصر الحديث . فقد قسم رمسيس جيشه الى أربعة اقسام أطلق عليها أسماء الآلهة الأربعة لمدن مصر الكبرى (آمون — رع — سوتخ — بتاح) وقد استطاع الحيثيون أن يخدعوه اذ دسوا عليه من أنباه بمعلومات خاطئة عن مركز لجيوش الحيثية .. فأسرع بكتيبته الخاصة ليلحق بهم ، فانفصل عن بقية جيوشه الأربعة ، وأحاط به الحيثيون ، وقد ابدى رمسيس فى هذه اللحظة فيما يبدو شجاعة خارقة فلم يطر قلبه شعاعا ، ولا انهارت قواه ، بل مضى يحارب فى قوة وصلابة ، وفدائية حتى لحقت به جيوشه المتخلفة فأنقذته من الموت المحقق .. ولقد جسم رمسيس فى وصف هول هذا الموقف ، وما فعله فيه ، ولندع رمسيس يتكلم .

« فتقدم جلالته مسرعا ودخل فى صفوف الحيثيين ، وكان وحده وحيدا ولم يكن أحد معه . وتقدم جلالته ليبصره فوجد انهم احاطوه من الجانب الخارجى ب ٢٥٠٠ مركبة حربية وكذلك كل أبطال عظماء الحيثيين . وكان يوجد ثلاثة رجال على زوج من الخيول بينما لم يكن معى قائد ولا خادم للعربة ولا جندى من الجيش ولا حامل درع . وقد فر مشاتى ومركباتى امامهم ولم يقف أحد منهم ثابتا ليقاتلهم » .

ويمضى رمسيس بعد ذلك يناجى ربه ووالده آمون . ويتضرع اليه أن لا يتخلى عنه ، ويعدد ما قدمه رمسيس من خيرات لآمون وما شاده له من معابد . وانه ما خطا خطوة ولا تحرك حركة الا لاعلاء شأنه ، وهو لا يخوض هذه الحرب الا لتقديس إسمه . وتمضى الملحمة فى سردها فتقول ان آمون هتف به :

« الى الأمام يامرى آمون رمسيس اننى معك ، اننى اكثر نفعا من مائة الف رجل مجتمعين معا فى مكان واحد » . وعندما سمع رمسيس ربه يناديه هدأت نفسه واحس بقدرته على الجهاد اذ يقول لنا :

فوجدت عقلى ثابتا وقلبى مبتهجا وكان النجاح نصيب كل ما فعلته لانى كنت

مثل مونت عندما اشد قوسي بيميني وعندما كنت احارب بيدي اليسرى لأنني كنت مثل الاله بعل . وقد وجدت الـ ٢٥٠٠ عربة التي أحاطت بي كومة أمام خيلي وأضحى أعدائي عاجزين ، سقطت قلوبهم في جوفهم خوفا مني ، وشلت اذرعهم فلم يستطيعوا الرمي ، ولم يحركوا رمحا والقيت بهم الى الماء فسقطوا كالتماسيح ، بعد أن وقعوا على وجوههم وذبحت منهم من أردت .

ولما اقبل جنود فرعون اخذ يعنفهم لأنهم انفضوا من حوله في ساعة العسرة والضيق : « لم يقف رجل واحد منكم ليمد يده لي وأنا أحارب » .

« لقد حاربت وحدي ملايين البشر لا أملك غير فرسي هذين والجاعل علفهما بين يدي وتحت عيني عندما اعود الى طيبة ، وسأظل اذكر منا سائق عجلتي لانه بقي الى جانبي مع خدام قصري » .

استؤنف القتال في الأيام التالية بعد ان تكاملت جيوش فرعون ، وكبدت الحيثيين خسائر فادحة . .

ولذلك فان الاثر التاريخي يقول لنا أن الحيثيين بعثوا بخطاب الى رمسيس يعجبون فيه من قوته التي فاقت كل قوة ويطلبون منه وضع حد لهذه الحرب الضروس التي لا يفيد منها أحد .

على ان المطالع لتفاصيل هذه الموقعة ، سرعان ما يدرك وقائع المعركة الحقيقية وأسباب الهزيمة ، ثم اسباب النصر فقد كان رمسيس على رأس فرقة آمون عندما انقض الحيثيون على فرقة رع على غير توقع ، فاستولى الفزع على جنودها ، فأقبلوا على رمسيس شراذم ممزقة مذعورة ، وكان لذلك تأثيره على فرقة رمسيس نفسها ، اذ فرت بدورها مذعورة تاركة رمسيس في عدد قليل من اتباعه المخلصين ، ولو أن الجيش الحيثي تابع انقضاضه على الفارين لاستطاع ان يفني الجيش المصري وأن يقبض على رمسيس نفسه . . . ولكن جنود الحيثيين شغلوا بنهب الغنائم والاسلاب التي رأوها في معسكر المصريين الفارين . . . وفي هذه الاثناء كانت فرقة بتاح قد وصلت ، فاستطاعت أن تنقض على الحيثيين المشغولين بالنهب وان تبطش بهم . . .
وهكذا استطاع رمسيس أن يعيد تنظيم صفوفه وان يواصل معركته .

ثورة فلسطين :

على أن حرب قادش لم تضع نهاية للحروب في آسيا فقد رأينا رمسيس يعود ثانية ليخمد ثورة فلسطين ، قامت بتحريض من الحيثيين في العام الثامن من حكمه . حيث راح يستولي على مدن فلسطين الساحلية والداخلية واحدة بعد اخرى .

على ان مواتلي ملك خيتينا لم يلبث ان مات وخلفه أخوه خاتوسيل وكان من المشهود لهم بالحنكة السياسية .

واذ كانت مملكة آشور قد كشفت عن قوتها العسكرية واستولت تحت قيادة

شالمنصر على دولة ميتانى ، فقد أدرك أن بلاده ستكون محل هجوم من مملكة أشور فآثر أن يضع حدا للحرب مع مصر ، وأن يبرم معاهدة تحالف وصداقة مع ملكها .

وقد ابرمت المعاهدة بالفعل ، وكتبت على لوح من الفضة وقد انتهت الينا المعاهدة بكل موادها ونصوصها من مصدريها المصرى والحيثى ، وهى تشتمل على ثمانى عشرة مادة وهى اكثر ما تكون شبها بأى معاهدة حديثة تعقد بين دولتين « لحفظ السلام والأخاء واستتباب السكينة بين الطرفين المتعاقدين » .

وقد أمر رمسيس بنقش صورتين من هذه المعاهدة على جدر معبدين .

ولم يرد بهذه المعاهدة بيـان حـدود المملكتين الحيثية والمصرية بآسيا ، ويبدو انها كانت محددة بمعاهدة سابقة .

وتعتبر هذه المعاهدة خاتمة الحروب بالفعل بين الدولتين وبدء عهد السـلام . فلم تقع حروب بين الدولتين بعدها أبدا .

وقد عاش رمسيس بعدها سـتا واربعين سـنة لم يقع فيها ما يعكر السـلام ولم تجسر دولة على الاعتداء على حقوق مصر .

وقد زار ملك الحيثيين مصر بعد ابرامها بثلاثة عشر عاما ليحضر الاحتفال بزواج ابنته الكبرى برمسيس ، وقد استدعى مقدم ملك الحيثيين الى مصر اقامة احتفال عظيم بالقصر الملكى سارت فى مقدمته كريمة ملك الحيثيين متبوعه بالهـدايا الجزيلة ثم جلالة خيتا سار نفسه ثم ملك كرد واختلط يومئـذ حرس الحيثيين بالجنود المصريين بعد ما كانوا الد أعداء .

ونشاهد رسوم هذه الزيارة على مدخل معبد ابو سنبل .

وقد أغرم رمسيس بالفتاة الحيثية ورفع مكانتها حتى أصبحت تلقب بالزوجة الملكية العظيمة .

ولم تكن الأميرة الحيثية هى وحدها زوجة رمسيس ، بل سبقتها زوجتان وهما (نفرتارى) التى تزوجها فى السنة الأولى من حكمه « وايزيس نفر » ، بالاضافة الى عدد لا نعرفه من النسـاء الآخريات اللواتى تزوجهن خلال حكمه الطويل الذى اربى على ٦٧ عاما ، واذ كان هذا شأن رمسيس فلا عجب اذا علمنا انه أنجب ثلاثة وثلاثين ولدا واثنين وثلاثين بنتا ـ (برستيد) يضاعف هـذا العدد ـ فلا عجب اذا كان رمسيس قد اعقب ذرية حافظت على اسمه بين احفـاده نحو أربعمائة سنة . حتى اصبح اسم رمسيس مرادفا لألقاب الامارة وعلو الشأن ، وأن ظل الناس يتحدثون عن رمسيس فى حكاياتهم لالف سنة تالية . ولبس هنـاك ما يصـور الحياة فى أيام رمسيس ، ومدى ما وصلت اليه البلاد من مجالى الحضارة ومظاهرها ، وتشـابك العالم القديم ، واتساع نطاق التبادل التجارى والفنى والثقافى بين ارجائه ، من أن ننقل لك ما قاله بريستيد وصفا لها :

« ان مائدة فرعون حوت أندر الزينات وأدوات الترف من قبرص وخيتا وآشور وبابل والنهرين . وكان فى حوزته كثير من العجلات الثمينة وعدد وافر من الاسلحة والسياط والسوارى ذات الرؤوس الذهبية من صناعة فلسطين وسوريا . وقد حوت الاصطبلات الملكية جياد الخيل الواردة من بابل وأحسن الغنم الواردة من مملكة الحيثيين . وصار لكل وجيه مصرى سفينة شراعية بالبحر الأبيض المتوسط تحضر له حاجاته من آسيا كما أضحى لمعبد سيتى الأول بالعرابة سفن خاصة وهبها له رمسيس لجلب دخله من البلاد المشرقية . وما أكثر الاثاث الآسيوى الجميل الذى اشتملت عليه قصور اعيان مصر ، ويلاحظ ان هذه المصنوعات الآسيوية أثرت كثيرا فى الصناعة المصرية فأكسبتها رونقا آسيويا . وكثر بالقطر العبيد الآسيويون من شاميين وغيرهم . وغصت البلاد بالتجار الفينيقيين والأجانب فصار لهم حى مخصوص بمنف تعبد فيه معبوداتهم مثل بعل واشتارته . ومنذ ذلك الوقت أخذت تلك المعبودات تندمج تدريجيا ضمن المعبودات المصرية .

وعظم الاختلاط الدموى بين المصريين والآسيويين فى هذه العصور وقد كان فى بدايته أيام الاسرة الثامنة عشرة فأقترن أهالى تلك البلاد بعضهم ببعض واصبح للعنصر الآسيوى مقام عظيم بالقصر الملكى والحكومة المصرية .

وقد ازدهر الأدب كما لم يزدهر من قبل ، وقد أشرنا الى قصيدة بنتاؤور والى جوار هذه القصة التاريخية ، عشرات من القصص الأخرى التى حكت لنا الكثير من أحداث التاريخ المصرى كقصة النزاع بين الهكسوس وملكهم أبو فيس وأمير طيبة الذى انتهى باجلاء الهكسوس عن مصر ، وقصة تحوتى القائد المصرى أيام تحوتمس والذى فتح مدينة يافا عن طريق اخفاء الجند فى زلع .

وثمة قصص أخرى تناولت أمور الفلاحين ونعرف واحدة منها بقصة الأخوين ، تتلخص فى أن أخوين عاشا معا فى كوخ باحدى الحدائق وكان اكبرهما متزوجا وقابضا على زمام البيت أما الاصغر فكان عائشا معه كأبن له ، فصبت نفس زوجة الكبير الى الصغير فرفض طلبها . وعندئذ أرادت أن تكيد له فوشت فى حقه عند اخيه فصمم على الاقتصاص من أخيه وأراد قتله خلسة فتحفز له وراء الباب ، وفى مساء اليوم عاد الأخ الأصغر بالبهائم ليدخلها اصطبلاتها فلحظت احدى الحيوانات الامر وأسرت الى راعيها بما يضمر له أخوه الكبير ، فلما علم ذلك فر هاربا خوفا من القتل ... والناظر الى هذه القصة يرى فيها طرفا من قصة يوسف عليه السلام (١) .

وكثرت روايات الحب والغرام عند اهل هذا العصر كما عثر على كثير من القصائد الدينية والأغانى والدعوات ووجدت كذلك عدة خطابات لكتاب وموظفين ، وعدة تمرينات مدرسية قام بها تلاميذ المدارس وعدة صكوك ومستندات ومذكرات عن المعابد وحساباتها مما اهتم به الأثريون كثيرا .

---

(١) ذكرنا أن يوسف كان فى عهد الهكسوس ، وليس هناك ما يمنع أن تكون محنته قد اشتهرت واستفاضت نصاغ بعض الأدباء هذه القصة مستلهما اياها .

وقد مات رمسيس الثانى بعد أن حكم سبعا وستين سنة وكان عمره عند وفاته ٩٣ سـنة .

وتظهر مومياؤه علامات العز والبذخ وقريبة الشبه بتمثال صباه المحفوظ بدار المتحف بتورين .

وقد سعى عشرة من الفراعنة بعده انفسهم باسم رمسيس .

١٢٢٤ ق.م :

تولى **مرنبتاح** ابن رمسيس الملك ، وقد اشتهر باسم منفتاح فى كتبنـا القديمة . وهو الابن الثالث عشر ذلك أن طول عمر الملك قد جعل أبناءه الكبار يموتون فى حياته، وقد كان كهلا عندما ولى الملك ، فى وقت كانت الظروف والأحوال العامة تتطلب ملكا فى شرخ الشباب ، ليعالج الأزمات التى خلفها حـكم رمسيس الطويل ، فقد أقعده الهرم عن مواصـلة النهضة العسكرية التى بدأها ، كما أرهق ماليـة البلاد ، هذه المنشآت العامة التى ملأ بها الوادى .

ولذلك فقد جوبه ابنه مرنبتاح بمجرد توليه الملك بانتشـار الفوضى والمنـازعات المستمرة على حدود المملكة المصرية ، وظهر عنصر جديد على مسرح التاريخ . وهو عنصر شعب جزر البحر الأبيض المتوسط ، الذى تحالف مع الليبيين ، وشرعوا فى الضغط على حدود الامبراطورية المصرية من الغرب حتى وصلوا الى غرب الدلتا .

وبدأ مرنبتاح بمواجهة الموقف على الحدود الشرقية فسـافر على رأس حملة فى السنة الثالثة من حكمه ، وبطش بالثوار بطشـه عنيفة ، ويبدو أن احدى البـلاد فى جنوب فلسطين وهى « جازر » قد قاومته طويلا فلم يلبث أن انتصر عليها وفتحها ، فقد وجدناه يصف نفسه على الآثار بأنه حاصر « جازر » وقد سجل مونبتاح نصره فى هذه المعركة وغيرها على حجر كبير فأشار الى حروبه فى فلسطين بقوله :

اما عقلون فأخذت وكذا جازر استولى عليها جلالته . وقد انعدم أثر مدينـة ينوام .

لقد ابيدت اسرائيل واستؤصلت ، وأصبحت فلسطين أرملة (ضعيفة) لمصر .

وتعتبر هذه أول اشارة فى الآثار المصرية الى اسرائيل والرأى الذى تردد بين علماء التاريخ المصرى والآثار أن هذه الاشارة الى اسرائيل ترجح أن يكون مرنبتاح هو فرعون موسى الذى خرج بنو اسرائيل فى أيامه .

ويقول كتاب العهد القديم ، أن فرعون موسى قد غرق فى البحر أثنـاء مطاردته لاسرائيل ، ولذلك فقد وجد بعض المؤرخين فى العثور على جثـة مرنبتاح ما يدحض هذه الرواية ولكن القرآن الكريم ذكر حقيقة « فاليوم ننجيك ببدنك » وعندما انتهى مرنبتاح من اخماد الثورة فى فلسطين . . عاد ليواجه الليبيين الذين كان ساعدهم قد

اشتد وامروا عليهم ملكا (مريبى) واجبروا بدو التحنو (بدو لصحراء الغربية) على الانضمام اليهم كما تحالفوا مع سكان جزر البحر الأبيض (صقلبة وسردينبا) .

وشرعوا يزحفون على مصر فى العام الخامس من حكم مرنبتاح ولكنه تصدى لهم وهزمهم هزيمة منكرة وترك مريبى جميع أفراد أسرته واثاث منزله فى ايدى المصريين الذين غنموه وتسجل الآثار ان عدد القتلى والأسرى قد ناهز عشرات الألوف .

وقد غمر مصر فرح شديد ، سجلوه فى أنشودة وصلت الينا مسجلة على الآثار .

« شمل مصر فرح عظيم وصعدت من بلاد مصر اصوات السرور واصبح الكل يتحدثون بنصر مرنبتاح على التحنو قائلين : ما احب هذا الملك المنتصر وما اعظمه بين المعبودات وما اسعد هذا القائد الحاكم ، اجلس مسرورا ولكنهم فروا بعيدا حينما اردت فلا خوف الآن فى قلوب الخلق » .

وتمضى الانشودة بعد ذلك تسجل انتصارات مرنبتاح على الملوك والامراء .

وعلى الرغم من ذلك . فقد كانت صفحة الامبراطورية المصرية التى جاوزت حدودها ، غازية فاتحة ، قد وصلت الى نهايتها وارتدت مصر مدافعة بعد أن كانت مهاجمة .

آثار مرنبتاح :

ولم تدع الحروب التى خاضها مرنبتاح ، فرصة له لاقامة ما اعتاده سابقوه من منشآت ومعابد خاصة له . فسطا على آثار من سبقه ولم يعف من ذلك آثار أبيه نفسه .. ووصل الامر به الى هدم معبد امنحتب الثالث فى السهل الغربى لطيبة وحطم جداره وكسر تماثيله ليستعمل من اجزائها احجارا لبنائه الجديد .

ومن هذه الأحجار الجرانيتية التى اقتلعها وأعاد استعمالها شاهد جرانيتى يزيد طوله على عشرة اقدام مكتوب عليه مبانى العمارات التى شيدها أمنحتب الثالث. فأمر مرنبتاح بوضع هذا الحجر فى عمارته الجديدة على ان تدار نقوش امنحتب الى الحائط ، وينقش على الوجه الآخر انشودة الانتصار على الليبيين التى مر ذكرها ، والتى تعتبر ذات قيمة عظيمة ... لاحتوائها كما قدمنا على اول ذكر لاسرائيل .

وتوفى مرنبتاح بعد أن حكم عشر سنوات عام ١٢١٥ ق.م ودفن بطيبة بالوادى الذى دفن فيه اجداده وقد عثر على جثته فيمن عثر على جثته من الفراعنة ، فظهر بذلك خطأ الرأى القائل بغرقه بالبحر الاحمر على ما يقول بنو اسرائيل .

١٢١٤ ق.م ـ ١٢٠٠ ق.م :

قام حول ولاية العرش عقب موت مرنبتاح نزاع دام عدة سنوات حكم فيها

حكام ثلاثة دفنوا فى وادى الملوك ، بلغ اثنان منهم العرش عن طريق غير مشروع فلما جاء الثالث محا اسميهما من أكثر ما تركا من آثار .

وأولهما هو ((امنمس)) أو ((آمون موسى)) ويبدو انه كان مغتصبا للحكم ولذلك فلم يدم حكمه طويلا ، وخرب قبره فى وادى الملوك تخريبا منظما .

ثم ظهر على مسرح النضال شخصية أخرى هى ((مرنبتاح سيتاح)) والمعروف انه ذهب الى بلاد النوبة فى السنة الاولى من حكمه لقمع ثورة هناك .. وعين مندوبا ساميا لبلاد النوبة ثم اقترن بالأميرة تاوسرت التى يغلب انها من أصل فرعونى عريق ، وبهذا تمكن من الحكم ستة أعوام .

ثم خلفه حاكم ثالث هو سيتى الثانى ، وقد اعتبره القوم الشخص الوحيد صاحب الحق الشرعى فى العرش ويبدو انه كان قويا ناجحا نوعا ما فى بادىء الأمر فقد شيد معبدا صغيرا بالكرنك وآخر بالأشمونين (هرمبوليس) .

ولكن امراء البلاد وحكامها بدأوا ينازعونه السلطان ، ويظهرون الاستقلال فى أعمالهم وادارتهم لاقاليمهم ولما لم يكن سيتى الثانى قوى الشكيمة فقد سقط من الحكم .

ولكن مسقطيه عجزوا عن أن يستولوا على الحكم ، فشبت فى البلاد حرب أهلية جزأت القطر و نقسم تحت تأثيرها الى عدة أجزاء مستقلة فعم البؤس وسوء النظام سائر أنحاء المملكة .

وقد سجلت لنا الآثار الباقية وصفا دقيقا لهذه الفترة فى تاريخ مصر :

((لقد قعد كل انسان مكانه ، اذ لم يبق هناك حاكم برد الحق الى نصابه عدة سنوات ، وسقطت مصر فى يد أمرائها وحكام مدنها - وصار لجار يقتل جاره قويا كان أو ضعيفا)) (برستيد ص ٣٢٩) وتسجل الآثار اسم قائد سورى يظن انه اغتصب الملك فترة من الزمان وساس القطر بالقسوة والجبروت . وقد ورد ذكره على لسان رمسيس الثالث اذ يقول :

((ثم جاء بعد ذلك عصر خلو من السنين وظهر بين الناس سورى يقال له ((أرسو)) أستطاع أن يضع نفسه فى مكان الرئاسة واجبر البلاد كلها على تأدية الخراج اليه واستعان بقبيلته على نهب أرزاق الناس وكان ينظر هو وشيعته الى الارباب كما ينظرون الى الناس ، فلم يفكروا فى شىء من خير أو أضحية يتقربون بها الى أرباب الوادى)) .

١٢٠٠ ق.م :

كان من الطبيعى أن يخرج المجتمع من أبنائه من يرد اليه الأمن والنظام والوحدة واحترام الدين وشعائره ، فظهر حاكم يقال له ((ست نخت)) انتهت بظهوره فترة الظلام من تاريخ هذا العصر وهى فترة التنازع على العرش يرجح انه من سلالة

سيتى الاول ورمسيس الثانى ، فنجح فى الاستيلاء على العرش الفرعونى ، واعـادة الوحدة الى البلاد فى ظله .

ولم يدم حكم ست نخت طويلا ، فالآثار لا تتحدث الا عن السنة الأولى من حكمه ويبدو انه أشرك معه فى الحكم ابنه الذى أطلق عليه اسم رمسيس تيمنا باسم الفرعون العظيم وقد اعتبره مانيتون « رمسيس الثالث » مؤسس الاسرة العشرين ، ولكن من الحق أن ينسب تأسيس الأسرة الى أبيه ، فهو الأصل الذى انحدر منه رمسيس وهو الذى وضع حدا للفوضى التى سادت البلاد ، وسلمها لابنه من بعده موحدة ، خالية من الغاصبين والثائرين من الداخل والمعتدين من الخارج .

الأسرة العشرون

١٢٠٠ ق٠م :

بدا حكم الأسرة العشرين فى راى مانيتون الذى استمر حكمها مدة اربت على قرن من الزمان .. حكم فيهـا **رمسيس الثالث** وحده ٣٢ عاما تعتبر آخر عهـد مصر فى هذه الفترة من تاريخها من الفراعنة العظام : حيث تشير مخلفات ملكه فيما بقى له من عمائر كبرى ، الى درجة عظيمة من الأبهـة والعـز واتسـاع السلطان ، وما أفاء على البلاد من لأمن والطمأنينة والرخاء .

على ان ذلك لم يتحقق الا بعد معارك ضـارية قادها اول ما قادها ضد الليبيين وحلفائهم من شعوب البحر الأبيض الذين لم تكن هزيمة مرنبتاح لهم صادة لهم عن معاودة الهجوم مرة ثانية وثالثة ، فى السنتين الخامسة والثالثة عشرة من حـكم رمسيس الثالث وقد تصدى لهم فى كلتا الغزوتين وهزمهم هزيمة منكرة وساق منهم عشرات الألوف من الأسرى ، الذين فكر فى أن يتخذ منهم جيشا تحت أمرة الضباط المصريين ، وسنرى فيما بعد أن هذه الجيوش المرتزقة سوف تستولى على العرش .

وخاض رمسيس الثالث ما يمكن أعتباره أول معركة بحرية فاصلة فى تاريخ مصر القديمة اذ انقذتها من الوقوع بين هذه الشعوب الجديدة التى عرفت فى هذه الفترة بشعوب البحر الأبيض والذين استطاعوا أن يستولوا على مدن الحيثيين شـمالى سوريا ، وأن يستولوا على ساحل فينيقيا وجزيرة قبرص ثم طمعوا بعـد ذلك فى الاستيلاء على مصر .

وقد تصدى لهم رمسيس الثالث فى البر والبحر ، فهزمهم فى البر هزيمة منكرة ، كما تصدى لهم بأسطوله من البحر ، فأغرق وأسر كل وحدات العدو البحرية ، كما قتل العدد الأكبر من جنود الأعداء وأسر الباقى حيا منهم .. وقد سجلت لنا جدران معبد مدينة « حابو » هذه المعركة البحرية الواسعة النطاق .

وكانت هذه الانتصارات المدوية فى دنيا الحرب كفيلة أن تجعل « رمسيس » يهنأ بالحكم فى جلال ومهابة بقية سنى حياته ، وأن يستأنف عمليـة البناء والانشاء التى كانت مظهر عظمة القوم فأنشأ معبد مدينة حابو الذى يعتبر آخر المبانى الشامخة التى شيدها فراعنة مصر الكبار من حيث الموقع والأهمية . وقد بناه ليكون معبدا

لآمون رب طيبة ، ولكى يكون معبده الجنائزى ، وقد حاول أن يبنى فى عمارته معبـ
الرمسيوم ولم يكن معبد مدينة « حابو » هو البناء الوحيد الذى أقامه بل انه أنشـ
معبدا صغيرا لآمون فى الكرنك ، ويعتبر رغم صغره أكمل بناء وصـل الينا فى الوقـ
الحاضر ، وبنى الكثير من الهياكل الصغيرة فى منف وعين شمس وباقى جهات القطر

وقد حدثنا رمسيس الثالث عن حى جميل شـيده لآمون بالدلتا وصف بأ
كان محلى بالحدائق العظيمة والماشى الكثيرة وأنواع النخيل كافة غير الطريق المقد
الذى أنشأه وحلاه بالأزهار من جهات القطر .

ومن جديد بعث بالأسطول الى بلاد الصومال لاحضار البخور والعطور الى معا
الوادى — وقد عادت هذه الاساطيل وعليها أمراء كثيرون من البـلاد جاءوا يقدمو
فروض الطاعة لفرعون .

وتمتاز السنوات العشرون من حياة رمسيس الثالث بتوطيد أركان السلام فتر
يقول لنا وهو يفتخر بالسلام :

« لقد جعلت المرأة المصرية تذهب كما تشاء مكشوفة الأذنين فلا يتعرض لها أجنب
أو غيره . لقد جعلت مشاتى ورجال عجلاتى الحربية يعيشون بمنازلهم مدة حكمى
وصار جنودى السردينيون والكحاكيون يسكنون مدنهم نائمين على ظهورهم بلا وجل
ولم يعد يبدو عدو من بلاد كوش ومن سوريا ، ولذلك كانت أقواس واسلحة هـ
القوات مكدسة فى مخازنهم . أما هم فكانوا مزودين بالمأكولات والمشروبات وقلوبـ
طافحة بالسرور ، وكانت زوجاتهم وأولادهم عائشين معهم فلم ينظروا خلفهم لا
قلوبهم كانت مطمئنة ، لأننى كنت أحميهم وادافع عن اعضائهم . ولقد أحببت سـكـ
الأراضى كلها ، أجانب ووطنيين ذكورا واناثا . لقد فرجت هم البائس وأرجعت
الأمل والحياة ونجيته من ظالمه القوى . لذلك صار كل انسان آمنا ببلده ، و
شخص فى المحاكم انابته حقه كاملا . ولقد أصلحت الاراضى التالفة وساد الانس أثـ
حكمى » (برستيد ٣٢٧) .

ولدينا من أيام رمسيس الثالث اكبر بردية من التاريخ المصرى القديم يبلغ طو
١٣٠ قدما وهى تحوى مائة وتسـعة عشر نهرا من الكتابة طـول كل نهر اثنتا عشـ
بوصة تقريبا ويعرف الدرج باسم قرطاس هريس وهو موجود بالمتحف البريطانى
وقد حوى هذا الدرج تفاصيل الهيئات والأوقاف التى أوقفها رمسيس الثالث ع
معابد آمون وغيره من الآلهة .. ولقد أصبح باستطاعتنا أن نأخذ صورة عن عدد سـكـ
مصر وأراضيها الزراعية فى ذلك الوقت .. ومدى ما أصبح كهنة آمون يسيطر
عليه من اموال وبالتالى من نفوذ فقد كان يقوم على خدمة المعابد حوالى مائة أ
وسـبعة آلاف عـبد ، أى ما ينـاهز ١/٥ أهالى القطـر المصرى . أما الأر
الموقوفة على المعابد فكانت حوالى ٣/٤ مليون فدان أو ١/٧ الأراضى المصرية المزر
وكان عدد الأغنام والبهائم الموقوفة على المعابد يبلغ ١/٢ مليون وعدد السفن ٨٨ ما
صغيرة وكبيرة والمصانع ٥٣ مصنعا تستهلك المواد الخام الواردة الى المعـابد لتصـ
منها المصـنوعات .

اما المدن المحبوسة على معابد مصر فكانت تبلغ ١٦٩ مدينة فى سوريا وكوش ومصر .

فاذا علمنا ان تعداد مصر فى ذلك الوقت كان حوالى ٥ او ٦ ملايين نسمة والأرض المزروعة لا تتجاوز عشره آلاف ميل مربع استطعنا ان ندرك كيف ان الجزء الاكبر من ثروة البلاد قد آل الى المعابد واصبح تحت سلطان الكهنة .. فلا عجب اذا كانوا سيطمحون بعد قليل الى الملك والسيادة ، ويسهمون بذلك فى تفتيت الوحدة المصرية .

فقد كان من اثر نفوذهم ، أن حاول رمسيس الثالث أن يتخذ جيوشه وجنوده من الاجانب المرتزقة ويقلل اعتماده على الوطنيين الذين كانوا يخضعون لنفوذ الكهنة بالدرجة الاولى .

وثمة عنصر ثالث تتسم به الفترة الاخيرة من حياة رمسيس الثالث ، وذلك هو اغراقه فى الشهوات والملذات الجنسية فقد كان قصره يغص بالعشرات والمئات من الزوجات والجوارى حيث تمتلئ الاثار تحيط به حشود من النسوة لا اسماء لهن .

ويبدو أن هذه العوامل كلها ، من ازدياد تطلع كهنة آمون الى الملك ، ووجود الجنود والثوار المرتزقة .. وكثرة النساء المتطلعات الى تمليك أولادهن .. قد انتهى الى قيام مؤامرة فى البلاط الملكى على حياة رمسيس الثالث ... حيث يسجل التاريخ اكتشاف مؤامرة دبرتها احدى حريم الملك لقتل رمسيس الثالث بواسطة السحر ولتجعل ابنها « نبنا رع » ملكا بدلا من ابن ضرتها الذى كان معينا وليا للعهد وقتئذ .

ويسجل لنا التاريخ موقفا رائعا من هذه المواقف التى تحبها الشعوب من ملوكها وقادتها ، وهو أن يتمسكوا بالعدالة وحكم القانون ، فنراه يقول لهؤلاء القضاة الذين عينهم للتحقيق فى هذه المؤامرة والكشف عن المتآمرين والحكم عليهم :

« أنا آمر القضاة قائلا أما من خصوص الكلام الذى يدور على السنة الناس فلا علم لى به ، فاذهبوا وافحصوا الأمر ، فاذا حققتم وتبينتم المتهمين فأمروهم أن ينتحروا بأيديهم بدون اخطارى. ووقعوا العقاب على كل من يستحق بدون استشارتى أيضا ، احترسوا من عقاب البرىء . ها انا ذا أكرر لكم أن كل شخص ارتكب او اشترك فى هذه الجناية يجب أن ينال نصيبه من العقاب . أنا أمين ومحروس الى الأبد ، لاننى ضمن الملوك العادلين أمام آمون رع ملك العبودات امام ازوريس حاكم الازلية » . ولدينا سجلات مفصلة لتحقيق هذه الجريمة الكبرى وملابساتها وفى هذا الوقت حل ميعاد الاحتفال بمرور اثنين وثلاثين عاما على جلوس رمسيس الثالث ، فاقيمت الزينات والأفراح عشرين يوما جريا على عادة جلالته ، ومات بعد ذلك بعشرين عاما حوالى عام ١١٦٧ ق.م . قبل أن يعدم المتهمون فى مؤامرة اغتياله .

ويرى بعض المؤرخين (أحمد بدوى) أن وصية الملك السابقة الذكر للقضاة ، تمت وهو على فراش الموت أثر اصابته اصابة قاتلة نتيجة للمؤامرة . ويقول بعض آخر أنها من كتابة ابنه رمسيس الرابع الذى خلفه وانه نقل هذه الوصية عن لسان أبيه الى القضاة .

وشيعت جنازة رمسيس الثالث فى طيبة وأودع فى قبره فى وادى الملوك .

١١٦٧ ق . م :

تربع **رمسيس الرابع** على عرش والده رمسيس الثالث وكانت عوامل الضعف والانحلال التى غشيت مصر فى أواخر عهد أبيه ، قد ازدادت قوة واستفحالا فلم يكن لرمسيس الرابع من عمل سوى ارضاء المعبودات أو بالأحرى ارضاء كهنة آمون ، بل أن هذا السجل الكبير الذى أشرنا اليه فيما سبق باسم بردية هاريس والذى حوى أوقاف المعابد أيام رمسيس الثالث هو من كتابة رمسيس الرابع اراد أن يتقرب به الى الآلهة بتعداد أعمال أبيه .

ولا يحفظ له التاريخ الا انه توجه شخصيا فى العام لثانى من حكمه الى محاجر وادى الحمامات مع بعثة كبيرة للبحث عن أحجار لتشييد معبده ثم أرسل تجريده أخرى بعد ذلك بسنوات للغرض نفسه وكانت التجريدة مؤلفة من تسعة آلاف . وقد هلك منها عدد كبير ، وكل ما بقى من آثار رمسيس الرابع هو امتداد الحجرة الخلفية لمعبد خونسو بطيبة وكذلك القاعات الصغيرة ذات العمد التى بدأ والده بناءها قبل ذلك بمدة يسيرة . ولم يدم حكمه اكثر من ست سنوات .

١١٦١ ق . م :

تولى سبعة يحملون اسم رمسيس من الخامس حتى الثانى عشر وتولى **رمسيس الخامس** بعد **رمسيس الرابع** (على الأرجح) وتوفى بعد حكم قصير فتبعه **رمسيس السادس** الذى يغلب على الظن انه حفيد **رمسيس الثالث** من ابن آخر وقد اغتصب الملك من **رمسيس الخامس** ، ولكنه بدوره لم يعش طويلا فتبعه **رمسيس سابع وثامن** ولسنا نعلم من أمرهم شيئا الا أنهم حفروا قبورا لهم بوادى الملوك بطيبة حتى جاء **رمسيس التاسع** ، بدأ نجم امنحتب أو أمنوفيس رئيس كهنة آمون يرتفع عاليا ، بحيث راح ينفق على اصلاح آثار الفراعنة ، مما زاد فى نفوذه ، وتسجل لنا الآثار **رمسيس التاسع** وهو يقدم لأمنوفيس رئيس الكهنة فى حفل ملكى رائع هدايا واعطيات .. وراح يخاطبه بحديث لا يصدر الا من خادم الى سيده .. وقد رسم رئيس الكهنة صورته على جدران الكرنك بحجم كبير كالملك الذى ينعم عليه بالهدايا وهو أول رسم من نوعه فى تاريخ مصر فقد جرت العادة على أن ترسم صور من عدا الملك أصغر حجما .

وقد بلغ ضعف الحكومة فى هذه الفترة الى حد أن تجرأ اللصوص فراحوا يسرقون المقابر الملكية ، وقد قبض على اللصوص وحوكموا ولكن يتضح من المحاكمة أن المحققين لم يكونوا نزيهين ، مما زاد فى جراة اللصوص فانتهبوا قبرى سيتى الأول ورمسيس الثانى . بحيث لم تمض عشرون سنة حتى كانت جميع المقابر الملكية بطيبة ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة الى آخر الاسرة العشرين منهوبة ولم يعثر على جثة واحدة نجت من هذه الجرائم الا جثة امنحتب الثانى التى وجدت فى تابوتها رغم نهب قبرها .

ولم تصل الينا معلومات عن تاريخ رمسيس العاشر سوى ما تعلق بسرقة المقابر سالفة الذكر . أما رمسيس الحادى عشر فنجهل اخباره كلية .

ولما تولى رمسيس الثانى عشر الملك هوى العرش الفرعونى وحصل فى البلاد انقلاب حكومى اذ استقل بالوجه البحرى أحد أعيان تانيس المدعو (نسوبا نبدد) المعروف عند اليونانيين باسم بسمنديس . فلم يستطع رمسيس الثانى عشر أن يقضى على ثورته ، فانسحب الى طيبة مكتفيا بالاحتفاظ بالوجه القبلى ، واذ كان نفوذ الكهنة بطيبة قويا ، فقد اصبح الحكم مشتركا بين فرعون ورئيس كهنته ، فتعاونا على توطيد سلطانهما على الوجه القبلى وبلاد النوبة .

ولدينا قصة من هذا العهد لمن يسمى ويناموت وهى تقطع بمدى ما وصل اليه النفوذ المصرى من اضمحلال فى فينيقيا وفى قبرص ، حيث رفضوا أن يزودوه بما جاء فى طلبه من خشب لبنان لصنع سفينة آمون بناء على طلب حريحور رئيس كهنة آمون الا اذا دفع الثمن ، ورفضوا أن يعترفوا بأى ولاء لفرعون مصر ، وقد تعرض ويناموت فى عودته الى النهب والسلب اكثر من مرة . كما تظهر القصة انقسام مصر فى هذه الفترة الى دولتين .

كما يوجد لدينا على باب خونسو ما يشير الى انتهاء حكم رمسيس الحادى عشر باستيلاء حريحور رئيس كهنة آمون على الحكم وبدئه بذلك أسرة جديدة . فبعد أن كان حريحور رئيس كهنة آمون هو قائد جيوش الوجه القبلى والبحرى . وانه مدير مخازن غلال الوجه القبلى والبحرى ــ وواليا على كوش ورئيسا الخزانة ومشرفا على عمارات المعبودات بحيث لم يبق عليه بعد أن وضع يده على كل الامور الادارية والدينية الا أن يلبس تاج مصر ، وهو ما حدث بالفعل فى احدى الحفلات الدينية اعترف المعبود خونسو بتولية حريحور ملكا على مصر ثم أيده آمون فى ذلك فأصبح هذا القرار أمرا واقعا .

الأسرة الحادية والعشرون

١٠٩٠ ـ ٩٤٥ ق ٠ م :

فى هذا العصر انقسمت البلاد الى قسمين يحكم احدهما (طيبة) كهنة آمون العظام باسم الاله آمون وقد أسسها الملك حريحور الذى كان رئيسا لكهنة آمون وضم اليه وظيفة قائد الجنود ورئيس المالية ونائب فرعون بالنوبة فسيطر على عواطف الشعب الدينية وكان رجلا طموحا عصاميا ، وقد قام بالقضاء على الفوضى التى انتشرت لضعف الرعامسة ، وقضى على الأجانب الذين كانوا يجتاحون البلاد وتولى الحكم فى الوجه القبلى تاركا الوجه البحرى للملك سمندس الذى أنشأ اسرة مالكة فى تانيس وجعلها عاصمة لملكه وهكذا عادت مصر سيرتها الاولى من التقسيم قبل عهد مينا فصارت مملكة الجنوب ومملكة الشمال .

وقد حكم فى طيبة « حريحور » لمدة خمس سنوات ، وحكم الكهنة من خلفائه باسم آمون الذى أصبح الحاكم المباشر لحكم مصر عن طريق الوحى الذى كان الكهنة يدعون انه يوحى من خلال تماثيله التى تحرك راسها باشارات مختلفة .

ولا عجب وقد انقسمت البلاد أن تعمها الفوضى ، وان تفقد سلطانها على البلاد الأخرى .

وكان من أهم أعمال أسرة الكهنة فى طيبة جمع مومياوات ملوك الاسرة الحديثة خوفا من حالة النهب والسلب التى عمت المقابر الملكية ، فأودعوها فى مخبأ لا يعرفه اللصوص ، بعد ان جددوا أكفانها وكتبوا ما فعلوه على الاكفان . وقد ظلت هذه المومياوات فى مخبئها ، حتى كشف عنها فى الدير البحرى .

وكان لهذا الكشف أعظم أثر فى المساعدة على ترتيب الملوك وتاريخهم من عهد الدولة الحديثة حتى الاسرة الواحدة والعشرين .

أما أسرة سمندس فى الوجه البحرى فقد اخذت تتصاهر مع اسرة الكهنة فى طيبة واصبح الاتصال بينهم وطيدا بطريق المصاهرة .

واستمرت الأمور هكذا . حتى زاد تعداد الجنود المرتزقة الليبية ممن استوطنوا مصر وأخذ يعظم شأنهم شيئا فشيئا ، حتى قامت حروب داخلية انتهت بزوال الأسرة الحادية والعشرين مما سهل تسنم الحكم على الأسرة الليبية الاصل والتى كانت تسكن اهناس .

وبالنسبة للاسرة الواحدة والعشرين جرى تطور فى فن التحنيط ليجعل مظهر المومياء يفيض بالحيوية وحسن الشكل وقد دفعهم الى ذلك ما راوه فى المومياوات القديمة من منظر مخيب للامال (راجع مصر القديمة الجزء التاسع) .

الأسرة الثانية والعشرون

٩٤٥ ق ٠ م :

تسعة ملوك وخمسة او اكثر على التعاقب من سلالة الشواش رؤساء الليبيين منهم شيشنق الاول — اسركن الاول — تاكلوت الاول اسركون الثاني وآخرون يحملون اسماء مماثلة ليبية .

مركز الحكومة بتانيس وبوباسطة — سيطرة الأسرة على طيبة ٨٢٠ ق ٠ م — ثم انقسمت المملكة بعد ذلك ثانية .

اقامت الجيوش الليبية المرتزقة طويلا فى مصر نتيجة استخدامهم فى الجيش . وقد استقر رؤساؤهم فى المدن الكبرى واحرزوا كثيرا من الثروة والقوة ، بينما كان الحكام المحليون يضعفون بالتدريج اكثر واكثر .

وحكام الاسرة الثانية والعشرين كما يتضح من اسمائهم يمتون الى الجنس الليبى .

٩٥٠ — ٩٢٩ ق ٠ م :

ويعتبر **شيشنق الأول** هو مؤسس الاسرة ٩٤٥ ق٠م ويقول مانيتون ان عاصمة ملكهم هى بوباسطة بينما يتحدث عنهم مؤرخو اليونان كفراعنة تانيس — « وهو الارجح » . قد جعل مقره مدينة بوباسطة فى الدلتا ، وزوج ابنه الى ابنة آخر ملوك الاسرة التانيسية — كما بسط نفوذه على طيبة بأن عين ابنه الاخر كاهنا أعظم لآمون.

وبينما تظهر الآثار التاريخية ان سليمان قد تعامل مع ملوك الاسرة الحادية والعشرين على قدم المساواة باعتباره ندا .. فقد اعاد شيشنق سيادة مصر على فلسطين .

ويبدو ان حملته التى ارسلها فى العام الخامس من حكم راحوبيم (ابن سليمان) قد اخضعت دولتى اسرائيل ويهوذا كما يستدل على ذلك من قائمة المدن التى ساد عليها المنقوشة على جدران الكرنك . وكان الامر فى حاجة الى يد قوية لقمع مختلف الرؤساء الليبيين فقد بدأت الانقسامات تظهر فى انحاء المملكة .

استمرت الأسرة الثانية والعشرون عدة اجيال ، ولكن كان هناك اكثر من ملك يتنافس على السلطة ، ويبدو أن ملوك الاسرة الثالثة والعشرين حكموا فى ذات الوقت الذى كان ملوك الاسرة الثانية والعشرين يحكمون .

وكان هؤلاء الملوك لا يفرضون سلطانهم على أمراء الاقاليم وحكامها الذين كانوا ينفقون موارد الدولة على المنازعات والحروب فيما بينهم .

وكان شيشنق حاكما قويا شجاعا ، لم يكد يستتب له أمر الملك حتى نهض فى قوة وعـزم ، لاعادة وحـدة البلاد ، واسترجاع مجـدها وعزها ونشر الرفاهية بين ارجائها .

ولكن كان يحول دون ذلك .. أن باقى الرؤساء الليبيين ممن يسمون (الشواش) بدأوا بدورهم يطمحون الى الملك كما فعل « شيشنق » الذى حكم ٢١ سنة وقد عين أبنه « أوبوت » كاهنا اكبر على طيبة مما احنق الكهنة وجعلهم يلجأون الى نباتا .

وراح يبسط نفوذه على فلسطين ، وبعد أن كانت سيادة ملك مصر اسمية بحتة حولها الى سيادة فعلية ، حتى أن برستيد يرى أن سليمان كان واليا تحت النفوذ المصرى ، وأنه تزوج بابنة فرعون ، فأوسع الاقاليم تحت اشرافه .

٩٢٦ ق . م :

ولما انقسمت مملكة اليهود بعد موت سليمان أيام رحبعام قرر « شيشنق » أن يضـع فلسطين تحت سـلطانه فتوجه فى العـــام الخامس لحـكم رحبعام الى فلســطين وغـزاها .

وكانت الجيوش المصرية قد مضى عليها اكثر من ٢٧٠ سنة لم تطأ هذه البقاع .. على أن آخر ما وصلت اليه جيوش شيشنق المصرية شـاطىء الجليل (جنـوب فلسطين) (١) وعاد شيشنق بعد غزوته بغنائم عظيمة فجدد عهد فراعنة مصر الاقدمين ونقش على جدران الكرنك بطيبة الجزية التى تقاضاها من فلسطين والنوبة بالقرب من نقوش حكام مصر العظام .

وعين شيشنق حاكما ليبيا على الواحة الكبرى وعهد الى حاكم آخر فى الاشراف على غرب الوجه البحرى وطرق مواصلاته مع الواحات .

وشرع شيشنق يشيد العمارات الشامخة كما فعـل فراعنة مصر من قبله ،

---

(١) جاء فى كتاب الملوك الاول الاصحاح ١٤ ــ الآية ٢٥ : وفى السنة الخامسة للملك رحبعام أن شيشنق ملك مصر صعد الى أورشليم واخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك واخذ كل شىء واخذ جميع اتراس الذهب التى عملها سليمان .

وفى أخبار الايام الثانى الاصحاح ١٢ سطر ٢ ــ ٤ .

وفى السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشنق ملك مصر على أورشليم لانهم خانوا الرب بألفى ومائتى مركبة وستين الف فارس ، ولم يكن عدوا للشعب الذى جاء معه من مصر . واخذ المدن المحصنة التى ليهـوذا .

٢

فاختط تل بسطة مقره ووسع الكرنك بطيبة بواسطة ابنه (أوبوت) الذى عينه رئيسا لكهنة آمون بطيبة .. فأنشأ اكبر صروح الكرنك مساحة وحجما ـ اذ يبلغ طول الحوش ٣١٤ قدما وعرضه ٣٦٩ قدما اما الصرح العام فى وجه هذا الحوش فيبلغ سمكه ٣٦ قدما وارتفاعه ١٥٠ قدما وتبلغ طول واجهته ٣٥٧ قدما .. وهو أكبر صرح واوسع فناء فى معابد مصر كلها .

وقد اراد شيشنق أن يحتفل ببناء هذا الصرح بمناسبة مرور ثلاثين سنة على حكمه ولكنا لا نعرف اذا كان حقق ذلك أو لا .

وقد خلف لنا شيشنق فيما خلف من آثار قائمة بأسماء البلاد التى فتحها والتى يتجاوز عددها ١٥٠ بلدا ، ولوحة بالكرنك دون بها تقريرا هاما عن حملته فى آسيا كما عثرنا له على لوحة فى واحة الداخلة ، تعتبر وثيقة فذة من تاريخ مصر فى هذه الفترة تبحث الاحوال الطبيعية والادارية والطوبوغرافية لهذا الاقليم كما عثرنا على لوحة اخرى وجدت فى اهناسيا المدينة وهى تتضمن الضرائب التصاعدية وكيفية توزيعها وذلك الى عديد من الآثار التى تراها فى كتب التاريخ بنصوصها وشروحها المستفيضة (مصر القديمة الجزء التاسع) .

٩٢٤ ق . م :

مات شيشنق الأول بعد أن حكم ٢٢ سنة وتولى بعده ابنه **أسركون الاول** زوج ابنة الملك بسيب خنو آخر ملوك الاسرة الحادية والعشرين ولذلك فقد كان اعتلاؤه العرش طبقا للقوانين والعادات المرعية وكانت المملكة التى انتقلت اليه عن أبيه ، وطيدة الأركان واسعة غنية حتى استطاع أن يتبرع فى العام الثالث من حكمه جريا على سنة فراعنة مصر بما يزيد على ٤٨٧ ألف رطل من الفضة و٩٣ ألف رطل من الذهب . ولعل هذا يكشف عن مدى ما كانت عليه البلاد حينئذ من الاستقرار والغنى والثروة وحكم ٣٦ سنة ثم مات .

٨٨٨ ق . م :

مات اوسركون بتل بسطة فورثه فى الملك ابنه ((**تاكلوت الاول**)) فدخل فى نزاع مع اخيه رئيس الكهنة فى طيبة مما ترتب عليه انتشار الفوضى فى البلاد ثم توفى بعد قليل فتبعه ((**أسركون الثانى**)) .

٨٦٥ ق . م :

ويقول مانيتون انه حكم ١٥ سنة ولكننا وجدنا بعض الآثار من عهده تشير الى السنة السادسة والثلاثين من حكمه وحفظ لنا التاريخ اسمى زوجتيه

« ماعت كارع » والتى أنجبت له ابنه شيشنق الذى أصبح رئيسا للجيش والكاهن الأول لآمون ، أما زوجته الثانية « تلشـــد خنشو » فهى التى أنجبت تاكيلوت الذى تولى الملك بعد أبيه الى عدد آخر من الأبناء ولوا منصب رئيس الكهنة بعد شيشنق ويظهر من الآثار الباقية من عهده أن حالة البـــلاد عادت الى الاضطراب وعاد نفوذ الكهنة وسلطانهم الى الظهور فى طيبة كما بدأ رؤساء الليبيين (الشواش) يستبدون فى مقاطعاتهم بسير الأمور ويتضح ذلك من النقوش التى وجدت بتنيس حيث يدعو الملك قائلا : « اجعل أولادى فى الوظائف التى عينتهم بها . ولا تجعل قلب اخ يكبر ويعظم على قلب أخيه » .

وقد أشرك أوسركون الثانى ابنه شيشنق الثانى فى الحكم ولكنه لم يعش طويلا ، وقد اكتشفت مقبرته مع مقبرة بسوسنس الأول — وقـــد وجدت مومياؤه سليمة والوجه مغطى بوجه مستعار من الذهب غاية فى الروعة والبهاء ووجدت معه خواتم وقلائد واساور . فأشرك معه ابنه الآخر تاكلوت لمدة سبع سنوات ومات الملك أسركون الثانى بعد أن حكم ٢٥ سنة ويقول مانيتون انه حكم ١٣ سنة ولكنا عثرنا على آثار تتحدث عن السنة الخامسة والعشرين من حكمه .

٨٣٥ ق٠م :

وانفرد تاكلوت الثانى بحـــكم البلاد بعد وفاة أبيـــه وعين ابنه أوسركون كاهنـــا فى طيبة .

واخذ شأن الأسرة الثانية والعشرين يضمحل ... وتبدو أحوال مصر فى هذه الفترة متبوشة مضطربة ... فنرى أسماء ثلاثة ملوك ليبية من هذه الأسرة وقد انقسمت البلاد فى عهدهم وسعى كل أمير للاستقلال باقليمه .

٨١٨ ق٠م :

وتولى « شيشنق الثالث » وقد وجدنا على الآثار ما يدل على السنة التاسعة والثلاثين من حكمه وان كان مانيتون قد جعل حكم الثلاثة الملوك الذين خلفوا تاكيلوت الثانى ٤١ سنة والمؤرخون يرون انه حكم ٢٥ سنة وآخر سنة عرفت على الآثار هى السنة السابعة والثلاثون وقد عاصر فيما يبـــدو شيشنق الرابع آخر ملوك هـــذه الأسرة الثانية والعشرين حكمى فرعونين من الأسرة الثالثة والعشرين وهما أوسركون وتاكيلوت الثالث كما تدل على ذلك الآثار التى كشفت فى الكرنك .

وقد عثر له على بقايا معبد فى تانيس ، ويعتبر بعض النقوش على صخور هذا المعبد مما يمكن مقارنته بأحسن نقوش فى أزهى عصور التاريخ المصرى من حيث دقة الصنع وجمـــال النقش .

الأسرة الثالثة والعشرون

٨٤٥ ق.م :

وتقام الأسرة الثالثـة والعشرون التى اعتبر مانيتون أن مؤسسها هو ((**بدبست**))
الذى انتزع الحكم من ملوك تل بسطة ويقول مانيتون أن هذه الأسرة حكمت من تانيس
ولكن اسم بدبست يشير على ما يقول المؤرخون الى تل بسطة ــ وقد بسط بدبست
سلطانه على طيبة وظل حاكما للبلاد مدة ٢٧ سنة وهناك اشارات تدل على أن ملكا
يدعى ((أوبوت)) قد خلفه لمدة قصيرة جدا .

وتولى الملك بعد بدبست الملك **اوسركون الثالث** وذكر مانيتون انه حكم تسع
سنوات ورواية أخرى عنه تقول انه حكم سبع سنوات ولدينا اشارة فى الآثار تدل
على السنة السادسة من حكمه .

وقد حدث فى عهده فيضان فى معبد الأقصر فأصبحت كل معابد طيبة كالمستنقعات
وقد وجدت نقوش تدل على انه جدد واصلح بعض معابد الأسرة الثامنة عشرة .

وساءت الأحوال فى داخلية القطر وانقسمت البلاد الى عدة امارات مستقلة من
الوجه البحرى شمالا الى الاشمونين جنوبا ... وقد عرفنا من أسماء هذه الفترة
ثمانية عشر اميرا .

٧٣٤ ق.م :

اقتربت جنود آشور تجلات بليسر الثالث من حدود مصر بعد أن غزت فلسطين
وهددت حدود مصر وكان انقسام الامراء فى مصر حائلا دون تدبر هـذا الخطر وعمل
شىء لدرئه .

الأسرة الرابعة والعشرون

٧٢١ ق.م :

كان المصريون يحكمون النوبة على ما رأينا مدة تزيد على ١٨٠٠ سنة . اما القسم بين الشلال الأول والثانى فكان تحت الادارة المصرية المباشرة مدة تزيد على الف سنة .

ومنذ الأسرة الحادية والعشرين أصبح رؤساء الكهنة فى طيبة هم حكام النوبة ، فلما كان الفراعنة يضغطون على الكهنة أو يعزلونهم ، كانوا يفرون الى بلاد النوبة ، ويقيمون بها ، وسرعان ما أصبحت بلاد النوبة صورة طبق الأصل من امارة آمون الطبيعية ، وفى القرن الثامن قبل الميلاد ظهرت فى افق التاريخ بالنوبة مملكة كاملة عاصمتها مدينة نباتا الواقعة أسفل الشلال الرابع (١) . وكان آمون معبود هذه المملكة الرسمى شديد التدخل فى شئون حكومتها بدرجة فاقت تدخله فى مصر فكان يعزل الملوك ويولى غيرهم .

وأول من عرف من ملوك هذه المملكة هو كاشتا ولايعرف شىء عن حكمه ولا مدى نفوذه شمالا ، ولكن ابن هذا الملك المدعى « بعنخى » تولى الملك حوالى ٧٤١ ق.م . واخذ يستعمر مصر ولكن الثابت انه فى عام ٧٢١ أو ٧٢٢ ق.م استولى بعنخى على صعيد مصر حتى مدينة اهناس جنوب الفيوم .

وفى هذا الوقت كانت سلطة أوسركون الثالث المستوطن بتل بسطة منحصرة فى مارته ومحاطة بأعداء كثيرين من أمراء الوجه البحرى اهمهم « تفنخت » أمير صا الحجر غربى الدلتا . الذى استطاع فى وقت من الأوقات أن يحكم الدلتا كلها مؤسسا بذلك فى بعض الأقوال الأسرة الرابعة والعشرين وان كان البعض يعزون انشاء الاسرة الى ابنه .

ولكن « بعنخى » استطاع أن يزحف بجيوشه نحو الدلتا .. وأن يهزم القوات التى تعرضت له ، حتى اعترف له « أسركن الثالث » بسيادة النوبة على مصر .

---

(١) بالقرب من مروى فى الوقت الحاضر .

وكان بعنخى لم يكد يرجع الى نباتا عاصـــمة ملكه ، حتى تمرد عليه تفنخت أمير صا الحجر وانشأ اسرة ملكية جديدة واحل لنفسه الألقاب الفرعونية .

٧١٨ ق٠م :

توفى تفنخت وتولى ابنـــه بوكوريس الملك مؤسسا الاسرة الرابعـــة والعشرين الصاوية . وان كان البعض يعزون تأسيس الأسرة الى أبيه تفنخت .

وليس لدينا من الآثار المصرية ما يفيدنا عن حكم الملك بوكوريس الا لوح حجرى وجد بالسرابيوم يرجع تاريخه الى السنة السادسة من حكمه ، أقيم وقت الاحتفال بدفن ثور ابيس بتلك المقبرة وقد اخبرنا مانيتون أن بوكوريس كان مشرعا كبيرا وذكر ديودور انه من بين السنة الكبار فى مصر .

وقد جاء فى رواية يونانية لا شـــك فى صحتها أن بوكوريس كان عادلا مجتهدا فى تنقيح القـــانون ســـاهرا على الحق بكل قواه . وكانت خاتمـــة بوكوريس على ما يقوله مانيتون مفزعة اذ حرقه « شباكا » والمؤرخـــون لا يستطيعون التثبت من هـــذه الرواية .

الأسرة الخامسة والعشرون

٧١٢ ق.م :

أسس « شباكا » الأسرة الخامسة والعشرين .. « وشباكا » هو اخ بعنخى الذى اقترن بابنته فأصبح بذلك صاحب الحق الشرعى فى الملك ، فأعاد فيما يبدو غزو مصر وليس لدينا أى أخبار تاريخية تثبت هذا الغزو ، وان كان مانيتون يقول فى تاريخه أن شبكا أحرق بوكوريس حيا وبسط سلطانه على الوجه البحرى فاجتمع له حكم مصر بأكملها .

على أن دولة أشور فى هذه الفترة كان قد علا نجمها واستطاع تجلت بليسر الثالث ملكها أن يخضع سوريا وفلسطين لحكمه .

ورأى شباكا أن ليس بقدرته مواجهة جيوش اشور فاكتفى بأن أرسل الى سوريا وفلسطين من يوقد النار ضد أشور ويعد ولاية سوريا بالمساعدة اذاهم ثاروا على ملك أشور . وقد استجابت البلاد الفلسطينية الى نداء شباكا الذى أرسل طهراقه ابن بعنخى على رأس جيش ليقف الى جوارهم ضد جيوش أشور ولكن المعركة التى دارت انتهت بهزيمة المصريين واعقب هزيمتهم حصار بيت المقدس وتخريب مقاطعة يهوذا . ولكن آشور لم تجن ثمار نصرها ، اذ انسحبت من جديد لنينوى لظروف طارئة (١) .

وقد حكم شباكا مصر كفرعون مصرى فاظهر عطفه ومساعدته لطائفة الكهنة كما سار على نهجهم فى تعمير المعابد المتداعية وترميمها ، وقد وجدت نقوش دينية قديمة على جدار معبد بتاح مرممة من ذلك العهد ، وهى تعتبر أهم القطع الأدبية المعروفة .

وقد أرجع أخته امنارديس الى وظيفتها السابقة بمعبد آمون بعد ان طردها أوسركن الثالث لمدة قصيرة . ثم اتحد مع أخته وشيد معبدا بالكرنك .

وقد حكمت امنارديس فى طيبة حكما مستقلا . اما شباكا فقد حكم اثنتى عشرة سنة تقريبا : ويرجح أنه حكم أطول من ذلك فى بلاد النوبة .

(١) تحققت نبوءة اشعيا النبى بنجاة بيت المقدس فى هذه الحقبة .

٧٠ ــ ٦٨٩ ق٠م :

توفى شباكا وخلفه على ما يقول مانيتون ابنه **شاباتاكا** وقد سماه مانينون فى تاريخه « سبيكوس » وحكم شاباتاكا فى هدوء وسكينة لان اقاليم آسيا بقيت ساكنة لا تتحرك ضد اشور ولم نعثر على اسم شاباتاكا على الآثار المصرية الا نادرا .

وانما يستدل من الحوادث التالية انه كان ضعيفا لم يستطع أن يستعيد القوة الى السلطة المركزية ليهىء مصر لمواجهة الغزو الاشورى الذى كان يبدو وشيكا بعد أن وصلت جيوش آشور المنتصرة اكثر من مرة على حدود مصر ولا يرجعها عنها الا ظروف خاصة بها .

وبعد اثنتى عشرة سنة من الحكم مات شاباتاكا تاركا حكم البلاد ومشكلة مواجهة الآشوريين الى خلفه الملك طهراقه بن بعنخى .

٦٨٨ ق٠م ــ تربع طهراقه على عرش مصر :

فيقول لنا مانيتون ان طهراقه بن بعنخى قاد جيشا جرارا من اثيوبيا وقتل شاباتاكا ثم اغتصب العرش الفرعونى ولا تسجل لنا الآثار المصرية ما يشير لمثل هذا الانقلاب وكل ما وجد على آثار تنيس أن الملك طهراقه طلب من أمه أن تحضر الى مصر من نباتا بعد ما غاب عنها عدة سنوات ودعاها لتسلم مركزها السامى بمصر كالأم الملكية .

وقد استمر طهراقه يحكم بلا منازع من جهة آسيا لمدة ثلاث عشرة سنة شيد فيها بضع عمارات صغيرة بتنيس ومنف واخرى اكبر حجما فى طيبة .

٦٧٣ ق٠م :

دارت المعركة على حدود مصر بين جيوش اشور التى قدمت الى مصر لغزوها وبين الجيوش المصرية بزعامة طهراقه فاستطاعت أن تهزم الجيوش الاشورية كما سجل ذلك على الآثار .

٦٧٠ ق٠م :

استانف اسرحدون ملك اشور هجومه على مصر معتمدا على بدو الصحراء الذين دلوه على الطريق الى مصر عبر الصحراء وامدوه بجمالهم تحمل مياه الشرب خلال الطريق والتقى بجنود طهراقه مرة اخرى الذى لم يكن مستعدا لهذا الكفاح فانتهت المعركة هذه المرة بفوز آشور وتمزيق شمل المصريين ــ وعلى اثر ذلك تقهقر

طهراقه نحو منف لكن (آسر حدون) تعقبه واستولى على منف وسلبها كل ثمين بها . ففر طهراقه جنوبا تاركا الوجه البحرى فى يد آشور حدون الذى نظمه وضمه الى أملاكه وقد ذكر آشور حدون اسماء عشرين أميرا مصريا قال عنهم أنهم اتوا اليه وحلفوا له يمين الطاعة فسمح لهم بالبقاء فى مراكزهم شريطة أن يعطوا أموالهم له وقد جاء من بين هده الأسماء اسم الأمير بننخاو تفنخت وقد وصف بانه أمير صا الحجر ومنف .

ويمكن ان نعتبر حكم الأشوريين للوجه البحرى ، حكما أجنبيا على خلاف الحكم السابق عليه سواء أكان حكما ليبيا أم أثيوبيا ... فالحكام الليبيون و لاثيوبيون حكموا كحكام مصريين وقد كانوا يدينون بآلهة مصر ، ويتثقفون بثقافتها .

ويعتبرون أنفسهم استمرارا لحضارتها . أما الأشوريون فحكموا الدلتا دون مراعاة شفقة أو عطف نحو المصريين وعاداتهم وتقاليدهم ودينهم وحاولوا أن يحكموا مصر من خارجها .

ولذلك فلم يكد آشور حدون يغادر مصر ، حتى اتصل امراء الوجه البحرى بطهراقه الذى جاء الى الوجه البحرى مستأنفا حكمه كملك مصرى .

ولكن آشور بانيبال الذى ولى الملك بعد وفاة ابيه استطاع أن يرسل جيشا جديدا الى مصر هزم طهراقه مرة أخرى عند منف ، ففر من جديد الى طيبة ، حيث ظل حاكما فعليا على الوجه القبلى وخاصة بعد ان عين أخته « شب توبت » بدل الأميرة امندريس ، رئيسة لكهنة آمون .

ويعزى الى طهراقه انه شيد او اصلح معبدين عظيمين بنباتا عاصمة أثيوبيا .

وأشرك طهراقه معه فى الملك بعد خمس وعشرين سنة من حكمه ابن شباكا « بدى تانوت آمون » فعينه حاكما على صعيد مصر بينما استقر هو فى نباتا متعبا ، ولم يلبث ان مات بعد عام واحد من اشراكه تانوت آمون معه فى الملك .

٦٦٣ ق٠م :

تربع **تانوت آمون** على عرش نباتا وصعيد مصر ، وحاول ان يستعيد سلطانه على الوجه البحرى ، ونجح بالفعل فى هزيمة الحامية الاشورية واستولى على منف وقد سقط فى هذه المعركة نخاو اميرها وفر ابنه ابساماتيك الى سوريا .

٦٦١ ق٠م :

جاءت جيوش اشور الى مصر واستطاعت ان تهزم من جديد تانوت آمون الذى فر الى طيبة فتعقبه الاشوريون واستولوا على عاصمة القطر هذه المرة وسلبوا ما بها

، نفائس وكان من بين ما استولوا عليه مسلتان فضيتان زنة كل واحدة منهما ٢٥ تالنت (التالنت يقرب من ٧٥ رطلا) كانتا منصوبتين على مداخل أحد المعابد نقلوهما الى نينوى .

ومنذ ذلك الوقت أخذت طيبة تضمحل وتندثر بعد ما كانت مضرب الأمثال فى الغنى والجاه .

وكان رجوع تانوت آمون الى نباتا نهاية الحكم الاثيوبى فى مصر (١) .

---

(١) انطوى ملوك اثيوبيا بعد هذا الحادث على انفسهم فى مدينتهم نباتا وبذلك انقطعت صلتهم بالتدريج مع حضارة الشمال ولم يلبثوا أن امتنعوا عن اللغة المصرية والخط المصرى واستعملوا خطا لم تحل رموزه للان ولما غزا الرومان تلك البلاد تحطمت أركان المملكة الاثيوبية وقد انتقل هذا الاسم فى القرن الرابع بعد الميلاد الى مملكة الحبش المسيحية التى نشأت حول منابع النيل الازرق .

الأسرة السادسة والعشرون

٦٥٤ ق.م :

ذكرنا فى حوادث عام ٦٦٣ ق.م وفاه نخاو امير صا الحجر فى معركة ضد طهراقا . وفر ابنه ابساماتيك الى سوريا ، وعاد الاشوريون الى مصر كما رأينا واعادوا تنصبب ابساماتيك اميرا تابعا لهم على منف وصا الحجر ولكنه ظل يتحين الفرصة للتحرر من الاشوريين والاستقلال بمصر وهكذا قدر له أن يكون رأسا للاسرة السادسة والعشرين ابتداء من سنة ٦٦٣ ق.م ولكن استقلاله بمصر لم يتحقق بالفعل الا عام ٦٥٤ ق.م. اذ انتهز فرصة اشتباك اشور فى حرب دامية مع شقيقتها بابل فى هذا التاريخ والسنوات اللاحقة ، فطرد الحامية الاشورية حتى مدينة أسدود فى فلسطين وظل محاصرا لها وان كان لم يستطع أن ينتزع المدينة الا بعد ٢٩ سنة فى قول هيرودوت ، وأخضع أمراء الوجه البحرى لسلطانه ودخل طيبة بغير مقاومة وعين أخته نيتقريس بدل « شب نويت » سيدة كهنة طيبة واعلن نفسه فرعونا على مصر كلها . وبدات البلاد على يديه تدخل فى فترة من ازهى فترات تاريخها منذ عدة قرون. اعتبرها كثير من المؤرخين بمثابة حركة بعث لمجد مصر القديم وعلومها وحضارتها .

واذ كان الليبيين المستوطنين فى مصر قوة ونفوذ عسكرى كما رأينا فقد جعل ابساماتيك اعتماده من الناحية العسكرية على الجنود المرتزقة من الاغريق الذين كانوا قد بدأوا يتوافدون بكثرة على مصر فى هذه الأيام ، ليكونوا نواة له فى مواجهة الليبيين ، وهكذا نجح فى توطيد الامن والنظام من جديد فى مصر واعادة السلطة المركزية الى قوتها .

وقد حافظ على ولائه للاشوريين ، فأرسل الى نجدتهم قوة عسكرية لمعاونتهم على صد هجوم البابليين والميديين عليهم .

ولكن ذلك لم يحل دون سقوط نينوى عاصمة الاشوريين أخيرا عام ٦١٢ ق.م .

وبهذا انحلت نهائيا قوة اشور العسكرية وان كان قد ظهر على الأفق هذه القوة الجديدة التى نجحت فى تحطيم قوة اشور الرهيبة ، وهى قوة الميديين والبابليين التى سينبثق منها قوة الفرس فيما بعد .

على أية حال ، لقد هيأ سقوط أشور لمصر فرصة الاستقلال بشئونها نهائيـا ، وتطورها فى حركة البعث والاصلاح التى بدأها ابساماتيك .

وقد توفى ابساماتيك عام ٦٠٩ ق.م بعد أن حكم ٥٤ سنة كما جاء مبينا فى أحد الواح العجل ابيس ، استعادت مصر خلالها مكانتها ودورها فى التاريخ كمعقل للحضارة الانسانية كما تتمثل فى مجتمع يسوده الأمن والرخاء والازدهار التجـارى ، والتفوق الفنى ، ومهيأ بذلك الطريق لابنه نخاو أن يخطو خطوة جديدة فى سبيل التقـدم والعرفان .

٦٠٩ ق.م :

تولى **نخاو** ابن ابساماتيك عرش مصر بعده فشرع فى حفر القناة التى تؤدى الى بحر « اروترى » (أى الأحمر) .

وسبقه الى حفرها كثير من فراعنة مصر ، ولكن هيرودوت يقـول لنا أنه توقف عن اتمامها ، وان دارا الفارسى هو الذى اتمها من بعده ، كما يقول لنا هيرودوت أيضا أن نخاو أرسل بعثة للطواف حول القارة الافريقية ، وقـد استغرقت الرحلة ثلاث سنوات ونجحت لأن هيرودوت يقول ان البحارة زعموا انهم رأوا الشمس تشرق من جهة يدهم اليمنى ، وقد أبى هيرودوت ان يصدق الرسالة ولكن نعلم الآن صدقها ــ وقد كان بحارة السفن من الفينيقيين .

واذ كانت السكينة تخيم على ربوع البلاد وكانت تنعم بالرخاء وكان جيشـها المؤلف من اليونانيين قويا كما كان أسطولها كذلك ، فقد قرر « نخاو » أن يحقق آمال أبيه فى استعادة سلطان مصر على الامارات الآسيوية يشجعه على ذلك انشغال أشور فى هـذه الفترة بنفسها .

فقد قام بحملة على جنوب فلسطين فى العام الأول من حكمه وأحرز انتصارا فى سهول مجدو حيث أحرزت الجيوش المصرية امجادها فى هذا السهل لأول مرة منذ ٩٠٠ سنة سابقة . وهزم يوشيا ملك يهوذا هزيمة منكرة قتل فيها وعين أبنه الياكيم محله بعد أن غير اسمه الى « يهوياقيم » ، وفرض الجزية على أورشليم ثم انطلق نخاو بجيوشه شمالا ليقضى على أشور ولكن جيوش أشور لم تتعرض له فى زحفه الذى اقترب فيه من نهر الفرات . ورأى نخاو أن الشقة قد بعدت بينه وبين مصر ، فعاد ادراجه قبل ان يهاجم نينوى ، وهكذا استطاع نخاو بحملة واحدة أن يعيد لمصر كل هيبتها فى هذا القطاع وان يسترد سلطانها .

ولكن ذلك لم يستمر الا لمدة يسيرة ، فقد استطاع نابوبلاصر ملك بابل أن يقضى على أشور نهائيا فاعتبر املاكها ميراثا له ، فأرسل ابنه نبوخذ ناصر للاستيلاء على سوريا فخرج نخاو على رأس جيش كبير لمواجهته ، والتحم الجيشـان عند قرقميش

فانهزم الجيش المصرى وتقهقر نخاو الى مصر يلاحقه « نيوخد ناصر » ، ولكن نيوخد ناصر اضطر للعودة الى بابل لوفاة أبيه عام ٦٠٥ ق٠م ٠

ولكن سوريا وفلسطين أصبحتا تحت سلطان بابل واستؤنف الصراع بين القوتين مرة ثانية فأضرم نخاو نار العصيان فى سوريا وفلسطين ضد نيوخد ناصر وكان على ملك أورشليم يهوياقيم الذى كان قد رفعه الى العرش ٠

فقاوم هذا الملك نيوخد ناصر ، ولكن هذا الاخير انتصر عليه وقاده أسيرا الى بابل وعين ملكا جديدا أسماه صدقيا ليكون تابعا له ٠

٦٠١ ق ٠ م :

ولكن نيوخد ناصر لم يستطع ان يخترق حدود مصر ٠٠٠ اذ تقول لنا الاخبار البابلية ذاتها أنه عاد الى بلاده بعد أن فقد الكثير من رجاله وذلك فى عام ٦٠١ ق ٠ م ٠

وقد أتاح ذلك الفرصة لنخاو لكى يعكف من جديد على تقوية الجبهة الداخلية بالاصلاح والتطهير ، وتدعيم قوات الجيش والاسطول ، فبنى بمساعدة الكورنثيين أسطولا لحماية شواطىء مصر فى البحرين الأبيض والاحمر ٠

وبعد حكم دام خمس عشرة سنة مات نخاو تاركا الحكم لابنه ابسامتيك الثانى ٠

٥٩٥ ــ ٥٨٠ ق٠م ــ ابسامتيك الثانى :

مضت مصر فى ظل ابسامتيك الثانى رغم شبح الحرب الذى كان يهددها ، فى أعمال البناء والانشاء ٠٠٠ واستأنف ابسامتيك الثانى أعمال الفراعنة العظام عندما يعمدون الى ترميم المعابد واصلاحها ليثبتوا اخلاصهم وبنوتهم للآلهة فأعاد بناء معبد نيت فى سايس وأقام فى بهوه أهرامات ومسلات ليثبت احترامه للآلهة ٠

ولما كانت نبتوكريس ابنه ابسامتيك الأول التى عينت زوجة الهية لآمون قد كبرت وهرمت اذ بلغت الثمانين من عمرها مما كان لذلك أثره على توقف ريح الاصلاح والرعاية لمعابد طيبة فقد طلب منها أن تتخلى عن منصبها لابنته ٠

وتسجل لوحة من المرمر فى متحف القاهرة وصولها الى طيبة وقد كانت آخر الزوجات الالهيات وكان مقدرا لها ان تظل شاغلة لهذه الوظيفة حتى أيام قمبيز بعد ٦٨ سنة من هذا التاريخ ٠

وقد سجل التاريخ فيما سجل لابسامتيك الثانى ــ رحلة ودية قام بها الى مدينة ببلوس (جبيل) فى فينيقيا ، حيث ذهب اليها مصحوبا بحاشية كبيرة وبعدد من الكهان ، ولكنه عاد منها عندما سمع بتحرك قوى عدوانية جديدة من اثيوبيا ٠

واوفد جيشا استطاع ان يحمل القوات الزاحفة من الجنوب على الفرار والعودة نباتا .

ووصلت العلاقات بين الاغريق ومصر فى هذه الفترة الى الذروة فقد روى لنا ودوت انهم ارسلوا الى ابسامتيك وفدا يستفتيه فى خير طريقة نزيهة يديرون ا الألعاب الاولمبية .

على ان مدة حكمه لم تطل لاكثر من ست سنوات فترك الحكم من بعده ه (ابريس) .

ه ـ ٥٧٠ ق.م ـ حكم ((ابريس)) :

ويقول عنه هيرودوت انه كان بعد جده الثانى ابسامتيك أسعد الملوك السابقين حكم خمسا وعشرين سنة سير أثناءها جيشا الى صيدا ، وحارب ملك صور ا ، مما يدلنا على حيوية الجيش والاسطول المصرى فى هذه الفترة ، واغلب الظن سير هذه الحملات البرية والبحرية ، ليلتف حول جيش نبوخذ ناصر الذى كان صر اورشليم ، وتفاصيل ما انتهت اليه الحملة غامضة .. ولكن من المحقق انها تؤد الأغراض المقصودة منها .

فقد سقطت أورشليم فى خاتمة المطاف وقتل ملكها صدقيا وضرب الهيكل . أن نهب وحرقت المدينة .

وكان من اثر ذلك أن هاجر العديد من اليهود ، فأقاموا فى تانيس ومنف ، وبصفة صة فى مدينة الفنتين فى جنوب مصر حيث تكونت لهم جالية ضخمة .

وتعتبر هذه الفترة قمة مجد مصر فى عصرها الهادى فلم يعد شبح ـرب يهددها .

ولذلك فقد عمد ابريس على ان يخلد ذكراه باشادة المبانى ، فأقام المسلات عابد والقصور ، مما ينطق بما وصلت اليه البلاد فى عهده من استقرار دهار . على أن كثرة الاعتماد على الجنود المرتزقة من الاغريق وكثرة الوافدين من جانب الذين بداوا يزاحمون المصريين فى مراكزهم وارزاقهم . قد احفظت المصريين ، ابريس .

وتصورت بعض فرق الجنود المصرية انه قد جربهم فى معركة فاشلة فى ليبيا خلص منهم ، فثاروا عليه .. فبعث اليهم ابريس القائد امازيس ليهدىء الافكار ، ن امازيس لم يلبث ان انضم هو نفسه للثوار ونودى به ملكا والتف حوله ـريون مؤلفين جيشا وطنيا .

فساق ابريس جيشا من اليونانيين المحترفين بلغ عدده على ما يقول هيرودوت ثين الفا ليحاربوا المصريين .

واشتبك الطرفان عند مدينة ممفيس ، ويقول هيرودوت أنه رغم استبسال الاجانب فى القتال فأنهم هزموا لان عددهم كان يقل عن خصومهم .

وقد قبض امازيس على ابريس ، وعامله على ما يقول هيرودوت فى بادىء الامر معاملة طيبة ، ولكن المصريين احتجوا وطلبوا تسليمه اليهم لاعدامه ففعل ذلك .

ولكن المؤرخين الحديثين يشكون فى هذا الجزء الاخير من رواية هيرودوت ويرون نهاية ابريس على غير هذا الوجه .

٥٧٠ – ٥٢٦ ق . م – أمازيس على عرش مصر :

ولست اجد ما أكرم به هيرودوت باعتباره أول من ترك لنا كتابا مفصلا نعرفه متداولا عن تاريخ مصر القديمة الا ان أنقل عنه مباشرة فقرات مما قاله فى تاريخ امازيس .

هذا التاريخ الذى لم يعد يفصله عنه الا أقل من قرن واحد من الزمان

وهكذا لما هزم ابريس وقضى عليه صار امازيس ملكا وهو من مقاطعة نسايس (صا [illegible]) وكان أصله من مدينة سيون (تسمى اليوم الضفة) وقد احتقره [illegible] الامر ولم يقدروه على الاطلاق ، لانه كان فيما مضى من العامة و[illegible] أسرة ذائعة الصيت – ولكن امازيس استطاع بعد ذلك أن يخدمهم بفضل [illegible] ولينه .

وفى مدينة سايس شيد هذا الملك رواقا رائعا لآلهتها بز به كل من شيدوا من أسلافه من حيث ارتفاعه وحجمه كما فاقها بضخامة أحجاره المستعملة ونوعها . واقام أيضا التسوامخ من التماثيل وتماثيل كباش بالغة الطول .

واحضر حجارة اخرى للترميم هائلة الحجم جلب بعضها من مقاطع الاحجار التى فى ممفيس وبعضها الآخر – وهو ذو ضخامة منقطعة النظير – من مدينة اليفانتين وهى على مسافة ابحار عشرين يوما من سايس على أن اكثر ما اثار فى نفسى ابلغ العجب من بين كل ذلك ما يأتى : امر باحضار محراب شيد من صخرة واحدة من اليفانتين واستغرق احضاره ثلاث سنوات وكلف عشرين الف رجل بنقله وكلهم كانوا من الملاحين – وطول هذا المحراب من الخارج احدى وعشرون ذراعا وعرضه اربعة عشر ذراعا وارتفاعه ثمانية اذرع .

وأقام امازيس كذلك فى سائر المعابد العظيمة أعمالا تستحق المشاهدة لضخامتها وبخاصة التمثال الشامخ الملقى على ظهره فى ممفيس وطول هذا التمثال خمسة وسبعون قدما .

ويقال أن مصر كانت تحت حكم امازيس على درجة عظيمة جدا من الازدهار . وذلك نتيجة لما جاء به النيل على الأرض من طمى ، وما جادت به الارض على الناس

من خير ... وكان بمصر على الجملة فى ذلك العهد الف مدينة آهلة بالسكان كما كأن امازيس هو واضع القانون الذى يفرض على كل مصرى أن يبين سنويا موارد عيشه لحاكم الولاية ومن لا يفعل ذلك ، ولم يثبت أنه يعيش عيشة مشروعة كان عقابه الموت . ولقد نقل صولون الأثينى هذا القانون عن المصريين وضعه للاثينيين وهؤلاء يطبقونه للآن اذ لم يوجه اليه أى طعن .

وكان أمازيس محبا لليونانيين وعبر لهم عن عاطفته تلك بأن وهب للذين جاءوا الى مصر مدينة نوفراطيس ليسكنوها ، أما الذين لم يرغبوا فى استيطانها وكانوا يعدون للسياحة وحسب فقد أعطاهم اراضى ليقيموا عليها هياكل ومعابد لآلهتهم .

وقد أرسل امازيس الهدايا أيضا الى بلاد اليونان ثم راح هيرودوت يعدد الهدايا رختم الكتاب الثانى عن تاريخ مصر بقوله فى الحديث عن « امازيس » .

وهو أول رجل استولى على قبرص وفرض عليها دفع الجزية وقد ظل امازيس على عرش مصر ٤٤ سنة وطول هذه المدة كاف فى الدلالة على أن عصره كان عصر نهضة وتقدم وسلام بل أن البعض يشبه عصر امازيس بأنه مثيل لعصر امنحتب الثالث (امونوفيس الذى عاشه المصريون قبل عصر أمازيس بثمانية قرون) .

ولكن قوى جديدة كانت قد ظهرت فى ذلك الوقت فى الشرق وكان مقدرا لها أن ترث ملك كل من سبقها فى الشرق الأوسط ابتداء من المصريين وانتهاء بالاشوريين والبابليين والحيثيين والكلدانيين والعبرانيين ، وتلك هى قوة فارس تحت زعامة ملكها قورش ومن بعده قمبيز .

٥٢٦ — ٥٢٥ ق.م :

ابسامتيك الثالث — والذى كان مقدرا له أن يكون دخول جيش قمبيز الى مصر فى أيامه .

لقد استطاع قورش بعد أن استولى على مدينة بابل عام ٥٣٩ ق.م . أن يكون سيد آسيا الغربية غير منازع ثم عاش بعد ذلك عشر سنوات ليموت فى سنة ٥٣٩ ق.م . فى ظروف غامضة على ما يروى لنا هيرودوت فتولى حكم فارس من بعده ابنه « قمبيز » الذى وجه نشاطه لفتح مصر .. ولم يقف أمازيس مكتوف اليدين ضد الخطر الفارسى ، فقد احتل قبرص كما رأينا ودخل فى محالفة عسكرية مع ملك ليديا وطاغية سامدس ، ولكن قمبيز لم يلبث أن سحق ملك ليديا ، وانحاز اليه طاغية سامدس ، فلم يبق أمامه الا مصر .. فساق جيوشه التى كانت تتألف فى جزئها الاكبر من الاغريق المرتزقة ، وسرعان ما خان فانيس الاغريقى ابسامتيك الثالث فانحاز الى جانب قمبيز ودله على الطريق الى مصر وهو الذى طالما اجتازته الجيوش المصرية نحو جنوب فلسطين وسوريا .

وزحفت الجيوش الفارسية نحو تخوم مصر الشرقية ، حيث دارت معركة حربية فى بلدة بلوزيوم (الفرما) وتراجع الجيش الى مدينة منف فضرب الحصار عليها وفى اثناء الحصار ارسل اهل برقة وفدا الى قمبيز يعلن خضوعهم له ففت ذلك فى عضد المدافعين عن المدينة ، فلم تلبث المدينة ان سلمت واستولى عليها قمبيز وسقط فى يده ابسامتيك الثالث ، ويقال أن قمبيز عامله فى بادىء الأمر معاملة طيبة ، ولكنه اتهم بعد ذلك بتأليب المصريين على الحكم الفارسى ، فقتله قمبيز .

وسار قمبيز بعد ذلك فى النيل على متن السفن فوصل الى طيبة واحتلها ، ومن هناك عبر الصحراء حتى وصل الى الواحة الخارجية ولكنه لم يستطع الاستيلاء على واحة آمون بل وهلك معظم جيشه فى الصحراء ويعزو هيرودوت الى قمبيز أنه كان جبارا قاسيا ملحدا وانه اصيب بالجنون ، فقام بقتل العجل ابيس ولكن بعض علماء الآثار الذين كشفوا عن توابيت العجل ابيس ، يدحضون هذه الرواية .. اذ يرون موميات بعض هذه العجول ، وقد حنطت وكرمت بأمر قمبيز نفسه (زايد ص ٩٣٨) ولدينا امثال لاحد كبار موظفى ذلك العصر (ودجا حورس نيت) فيقول لنا صاحبه أنه قد اتبع قمبيز بديانة مصر وجعله يبنى معبد سايس ومكث فى مصر ثلاث سنوات . ولكن رواية هيرودوت التى تلقاها من الكهنة المصريين هى الاقرب الى الصحة لقرب العهد من الحادث .

٥٢٥ ق . م :

وهكذا قامت فى مصر اسرة حاكمة فارسية هى **الأسرة السابعة والعشرون :** ولاول مرة فى التاريخ تحكم مصر من خارج حدودها .

٥٢٢ ق . م :

غادر قمبيز مصر عائدا نحو فارس بعد أن خلف عليها واليا من قبله هو « اريانديس » فاقام فى مدينة منف ، ولكن قمبيز مات فى اثناء عودته .

٥١٨ ق . م :

وصل « دارا الاول » الى مصر وكان قد استطاع أن يستولى على الحكم فى فارس ، واذ كانت نقمة الشعب المصرى كبيرة جدا على الحكم الاجنبى ، وما لاقوه على يد قمبيز وواليه على مصر اريانديس ، فقد عمل دارا على استرضاء الشعب المصرى فقتل هذا الوالى للاخذ آخذة عليها .

ولما صادف حضوره وفاة العجل ابيس ، فقد اصدر دارا امره بمنح جائزة كبيرة لكل من يكتشف عجل ابيس جديدا ، وبذلك استمال الناس اليه .

على ان من اعظم الأعمال التى تدل على حكمته وبراعته السياسية والادارية أنه جعل اهتمامه بالعدل وسيادة القانون فقد أصدر فى بلاده تشريعا على غرار تشريع حمورابى فتراه يقول فى ديباجة التشريع .

« تحت رعاية أهدر فردا (اله النور الفارسى) انى احب الحق واكره ما ليس بحق . فلن يحدث أن يسىء عبد لأى مواطن . وكذلك لن يسىء مواطن لعبد . اننى احب الحق واكره كل من يقر الكذب . اننى لا اغضب واكظم غضبى واننى لا اثق فى كل من يتحدث ضد العدالة » .

واراد ان تنعم مصر بدورها فى ظـــل حكم القانون والعـــدالة فكتب لواليه على مصر يقـــول له :

« دعهم يحضروا الى حكماء الرجال من بين المحاربين والكهنة وكتاب مصر الذين اجتمعوا فى دور العبادة ودعهم يكتبوا الشرائع الأولى لمصر حتى العام الرابع والاربعين لحكم الفـــرعون امازيس ، دعهم يحضروا لى هنا شريعة فرعون وشرائع المعبد والناس ». وامر دارا باعادة بناء معبد للآلة آمون فى الواحة الخارجة حيث ترى رسوم دارا على جدران هذا المعبد بملابس فرعون وهو يقدم القرابين للآلهة المصرية.

واهتم داريوس باعادة فتح القناة التى توصل البحر الاحمر بالنيل والتى شقها من قبله نيخاو الثانى قبل ان يتوقف فى الطريق ، وتقول لنا النصوص المسمارية التى عثر عليها على لسان دارا .

« اننى (دارا) الفارسى أستوليت على مصر من بارسيا (فارس) وقد أمرت بأن تحفر هذه القناة من نهر النيل الذى يجرى فى مصر الى البحر الذى يصل فارس . وقد حفرت تلك القناة كما أمرت . ومرت السفن من مصر عبر هـــذه القناة الى فارس بمقتضى رغبتى » .

« وقد حدثتنا اللوحة عن كيفية شق القناة وكيفية تنفيذها ولم يقف اهتمام دارا على شئون مصر الاقتصادية والعمرانية والدينية بل امتد الى شئونها العلمية فلدينا وثيقة تدل على اهتمامه بعلم الطب ورعاية مدرسة الطب فيباهى المشرف على هذا المعبد « لقد جعلتهم مشرفين عن كل رجل متعلم ، حتى يتعلموا كل المهن وامر جلالته أن يعطى لهم كل شيء حسن ويتدربوا على كل مهنهم . وقد قدمت لهم كل شيء مفيدا وكل الأدوات التى أشير اليها فى الكتابات ، كما كان العمل يجرى من قبل، وقد فعل جلالته ذلك لانه يعرف فضل هذا العلم لانقاذ الرجل المريض . وكذلك ليعمل على خلود اسم كل الآلهة ، ومعابدهم وقرابينهم والاحتفال باعيادهم الى الابد، واذ استقر الأمن والنظام بمصر ، فسرعان ما عادت الى الازدهار فى كل ميادين حياتها.

فلا عجب وهـــذه خطة دارا واسلوب حكمه فى مصر ، أن يتوجه الكهنة فرعونا على مصر .

٤٠٠ ق ٠ م :

انزل الاغريق هزيمة فادحة بجيوش دارا فى موقعة ماراتون جعلته ينشغل بتجهيز حملة انتقامية لمدة ثلاث سنوات .

واذ كان المصريون لم يألفوا ارسال الجزية الى حاكم أجنبى خارج بلادهم ، فقد بدأوا سلسلة من الثورات المحدودة على الحكم الفارسى .

٤٨٦ ق ٠ م :

وفاة دارا بعد أن قد بلغ من العمر ٦٤ سنة حكم منها ٣٦ عاما ، وتولى بعده ابنه اكسركسيس وانتهز المصريون هذه الفرصة ، فاندلع بركان الثورة ، وامتد لهيبها الى يهود بيت المقدس .

٤٨٤ ق ٠ م :

ولكن جيوش أكسركسيس استطاعت أن تخمد ثورة اليهود وان تعيد مصر الى حظيرة الحكم الفارسى بعد أشهر من ثورتها وعمد الفرس فى هذه المرحلة الى ضروب من العنف وعومل الوطنيون بقسوة .

وبدأوا يعتمدون على اليهود الذين أصبحت لهم جالية كبيرة فى مصر وخاصة فى بلدة الفينتين حيث عثر على مجموعة من وثائق أوراق البردى التى تسجل منازعاتهم العقارية والمالية ، وهى مكتوبة باللغة الارامية وقد انشأوا لانفسهم منظمات عسكرية كان يرأسها ضباط من الفرس .

٤٦٥ ق ٠ م :

اغتيال أكسركسيس - وتولى الملك من بعده ابنه الثانى ارتاكسركيس وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة بعد أن قضى على اخيه الأكبر .

٤٦٠ ق ٠ م :

قام اماروس ابن اسماتيك من سلالة أسرة سايس بثورة ضد الحكم الفارسى واستنجد بأثينا التى بعثت اليه بعض السفن : فأستطاع الثوار ان يقضوا على الوالى الفارسى اخمنيس ، وأن يستولوا على ممفيس عاصمة الملك .

ولكن فارس ارسلت واليا جديدا ومعه قوات كبيرة ومراكب فينيقية فحارب الثوار واستطاع ان يقبض على امادوس وأن يرسله الى سوسه عاصمة ملك فارس فأعدم هو ومعاونوه .وقد صور ارتاكسركسيس على خاتم أسـطوانى يذبح الثوار ويظهر مرتديا التاج المصرى المزدوج بينما ينتظر قادة اليونان مصيرهم ، ومع ذلك فقد سلم امير مصرى هو اميرتى وظل يحتفظ باستقلال الدلتا حتى عام ٤٤٩ ق.م. وقد ذكر اسمه على معابد طيبة والخارجة ، مما يرجح انه أصبح سيدا على الجانب الأكبر من مصر ان لم يكن كلها .

وفى هذه الفترة زار مصر عدد من اعلام اليونانيين وعلى رأسهم اناكسا جوراس الطبيب ومعلم بركليس ثم هيرودوت الذى تجول فى مصر وقيد ما راى وما سمع والذى اتفق على تسميته أبو التاريخ .

٤٢٤ ق . م :

ارتقى دارا الثانى عرش الفرس وقامت ثورة فى مصر ضد الاسرائيليين المقيمين فى الفنتين بلغت ذروتها عام ٤١٠ ق.م. حيث قام المصريون بهدم معبد اليهود فى الفنتين هدما تاما .وكسروا حجارته وحرقوا أبوابه وسقفه وأخذوا أثاثه الذهبى والفضى غنيمة لهم وذلك انتقاما من اليهود الذين كانوا يحالفون الفرس .

الأسرة الثامنة والعشرون

٤٠٤ ق . م :

نهاية الأسرة السابعة والعشرين الفارسية بوفاة دارا الثانى ، واستقلال الامير الوطنى بمصر عن الحكم الفارسى مؤسسا بذلك الاسرة الثامنة والعشرين . على أن مانيتون لا يزيد حكم أمرتى على أكثر من ست سنوات تنتهى عام ٣٩٩ ق.م. وكالعادة لا يتعدى هذا التقدير الصواب ، فقد وجدنا فى وثائق الفنتين الارامية واحدة مؤرخة بالسنة الخامسة من حكمه .

الأسرة التاسعة والعشرون

٣٩٩ ق ٠ م :

قامت على يد مؤسسها القائد المصرى نفرتيس الذى لايعرف مدى علاقته بالملك السابق والذى لا يعرف كيف انتهى حكمه كذلك .

على ان السياسة العامة لكليهما واضحة محققة وهى مدافعة الفرس عن استقلال مصر ، والتحالف مع الاغريق أعداء الفرس لصيانة هذا الإستقلال .

ولكن المنازعات بين عائلات الأمراء وحكام الاقاليم حالت دون أن تصل حركة التحرير الى ذروتها فيستقر ملوك مصر الوطنيين الجدد .

وكيفما كان الامر فالتاريخ يسجل لنا أن نفرتيس قد ارسل عونا ومددا لاسبرطة فى حربها ضد الفرس فبعث اليها بمائة سفينة عليها ٨٠٠ر٠٠٠ مكيال من القمح والذخيرة ، ولكن هذه المعونة لم تصل الى غايتها ، اذ اعترضها كوندى (اليونانى) قائد الاسطول الفارسى عند رودس .

وفى خلال الحرب التى وقعت بعد ذلك بين فارس واسبرطة تقدمت الجيوش المصرية الى الحدود السورية واحتلت مراكز دفاعية ولكن ملك اسبرطة اضطر أن ينسحب بجنوده لحلول فصل الشتاء فانسحبت القوات المصرية كذلك .

وعكف نفرتيس على العناية بمصالح مصر : حيث سكتت الآثار عن الاشارة اليه بعد ذلك .

٣٩٢ ق ٠ م :

تولى اخوريس (هكر) وقد قال عنه مانيتون انه حكم اثنى عشر عاما . وقد وجد أن لا فائدة من التحالف مع اسبرطة فعقد حلفا جديدا مع اثينا يحدثنا عنه أرسطو فانيس فى روايته (بلوتس) كما تحالف مع ملك قبرص .

وقد استطاع ان يصد هجوما شنه الفرس على مصر .

وامتد سلطان اخوريس التجارى وربما السياسى أيضا على فلسطين وجنوبى فنيقية ، فقد وجدت له نصوص فى معبد أشمون شمالى صيدا ومائدة من الجرانيت.

٣٨٠ ق ٠ م :

ولى بسماتيس بعد خوريس ولم يحكم سوى عام واحد وقد عثر على بردية تورد قائمة تجعل بسماتيس قبل أخوريس مما جعل بعض المؤرخين الحديثين يضعونه قبل اخوريس .

ونحن نعرف أن نفرتيس الثانى الذى ورد اسمه فى قائمة البردى لم يحكم سوى أربعة شهور ، ثم خلفه نخت نب نف (نقطانب الأول) الذى الف الاسرة الثلاثين السمنودية على ما يقول مانيتون .

الأسرة الثلاثون

٣٧٨ ـ ٣٦٠ حكم نقطانب الأول :

وكان عليه بمجرد ان ولى الحكم أن يواجه غزوة جديدة شنها الفرس على مصر فقد عزم ارتاخشات (ارتكساركيسيس) أن ينتقم من مصر ، فانتهز فرصة سحب اثينا لمرتزقة الاغريق الذين كانوا قد دخلوا فى خدمة هكر ورئيسهم خابرياس فاعدت فارس جيشا جبارا قوامه ٢٠٠,٠٠٠ الف و ٢٠ الفا من مرتزقة الاغريق ، وبعد جهود طويلة تمكن الجيش من التوغل فى الدلتا . ولكن نقطانب جمع قواه للدفاع عن مصر ، وساعده ارتفاع النهر على مطاردة العدو وطرده .

وهكذا احرز نقطانب نصرا مجيدا .. منح مصر ثلاثين عاما من السلم والازدهار : فتقدمت فيها التجارة الخارجية وبدأت المعابد من فيلة الى سمنود وهى التى تمثل الترمومتر الحساس لما تنعم به البلد من رخاء : وتحصل على نصيب وافر من الخيرات .

بل أن أول عمل قام به نقطانب كان أن اوقف على معبد (نيت) الضرائب التى فرضها على نقراطيس وقدرها ١٠٪ من قيمة كل ما يرد اليها من تجارة أو تنتجه من مصنوعات .

ويرى نشاط نقطانب ووزيره حورسا ايزيس كاهن بهبيت على كثير من المعابد المصرية . واستأنفت البعثات ـ لقطع الاحجار ـ ارتيادها لمراكز الانتاج .

واقام فى السنة السادسة عشرة سورا بناحية قفط وبوابة كبيرة . وشيد من اجل الاله (من) صاحب قفط مقصورة ووسع واضافه وبنى كثيرا من المعابد الصغيرة التى مازالت تؤكد صدق الفنان المصرى .

وبدأ السياح اليونانيون فى عهده يترددون على مصر : ولعل أعظمهم هو افلاطون وكريسبوس الطبيب ويودوكسوس الفلكى الذى مكث عدة شهور يدرس على ايدى كهنة المعابد المصرية .

ويروى أن افلاطون قدم الى الملك عن طريق خطاب من اجيلادس الاسبرطى وأنه احضر حمولة زيت ـ بدل المال ـ لتغطية نفقات الطريق ـ وأن يوربيدس كان يصحبه وأنه مرض وان الكهنة كانوا يعالجونه بماء البحر (١) .

(١) مصر والشرق الادنى القديم : الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم .

قرب نهاية حكمه (حوالى عام ٣٦٦ ق.م) نرى جدحر (تيدس) يشترك معه فى العرش وكان من الذين يميلون الى اليونان وكان يقربهم اليه .

ومات نقطانب عـام ٣٦٣ ق.م . ودفن فى ممفيس فى تابوت من حجر البرشيا الاخضر وهو من أجمل الصناعات فى هذه الاسرة .

٣٦١ — ٣٥٩ ق.م :

تولى **جدحر** (تيدس) حكم مصر والامن والسلام يرفرفان عليها ، ولكنه كان طموحا فعقد حلفا مع بعض الاسيويين ضد فارس فحشد جيشا لم يسبق تكوينه منذ أيام الدولة الحديثة : يتألف من ثمانين الف جندى مصرى وليبى وعشرة آلاف اثينى والف اسبرطى واسطول مؤلف من ثلثمائة سفينة ذوات الثلاثة صفوف من المجاديف وترأس الملك هذا الجيش ، وسار به نحو سوريا لمواجهة الفرس ... واستطاع أن يحرز بعض الانتصارات ، ولاح على الافق أن مصر توشك أن تسترد سلطانها على امبراطوريتها الممتدة فى الشرق ، ولكن نائب الملك فى مصر : الذى لم يكن الا أخا شقيقا لجدحر : استغل سخط المصريين فى هذه الفترة لما فرضه عليهم جدحر من ضرائب لاعداد هذا الجيش : فأرسل ابنه (نخت حرحب) نقطانب الذى كان يعمل ضابطا فى جيش جدحر ليكون ملكا على مصر : فعاد ومعه قسم كبير من الجيش وفى نفس الوقت استدعت اثينا خبرياس ليعين بها قائدا فوجد جدحر نفسه وحيدا فى خاتمة المطاف .. فلجأ الى عدوه ملك فارس الذى أرسله ملكا مواليا له على مصر ، ولكنه مات فى الطريق .

٣٥٩ — ٣٤١ ق.م — نخت حرحب — نقطانب الثانى :

كان من الطبيعى وهذه هى الظروف التى عاد فيها نقطانب الثانى الى مصر ليتولى الحكم فيها : أن يواجه بثورات وفتن من جراء هذا الصنيع الذى وقع منه ومن أبيه فى حق ملك مصر فقد قام منديس ، أحد أمراء سمنود باعتباره وريث ملوك الاسرة التاسعة والعشرين بمحاولة لانتزاع السلطة لنفسه وسجل لنا التاريخ ان نقطانب قد حوصر حصارا شديدا فى احدى المدن ولم ينج الا بمهارة اجيسيلاوس الاغريقى الذى جاء بقواته الى مصر فاستطاع نقطانب أن يخمد الثورة ولكنه لم يكد يفرغ من الثورة الداخلية حتى واجهته محاولة (ارتاحشاشا الثالث) (اوخوس) لغزو مصر ، ولكن نقطانب استطاع أن يهزم جيوش أوخوس ويردها على أعقابها وكان من نتيجة ذلك أن ثارت فينيقيا على حكم ملك فارس : فشغل بها (أوخوس) عن مصر ...

وهكذا استطاع نقطانب ان يتفرغ بعد ذلك لتنظيم الحياة فى مصر .. فحظيت البلاد خلال ثلاثة عشر عاما ابان الفترة من ٣٥٧ – ٣٤٤ ق.م بفترة جديدة من الازدهار سجلتها آثار المعابد التى بدات المنح تنهال عليها .

ولكن ملك فارس (ارتاخشاتا الثالث) الملقب بـ أوخوس لم يكف عن العمل والتدبير للقضاء على قوة مصر واحتلالها ادراكا منه : ان لا سلام لامبراطوريته أو طمأنينة الا باحتلال مصر : ولذلك فقد جهز جيشا من أكثر من ٣٠٠ الف مقاتل يعاضدهم فى البحر أسطول مؤلف من ٣٠٠ سفينة من ذوات الثلاثة صفوف حيث لم يكن جيش نقطانب يتجاوز ١٠٠٫٠٠٠ رجل منهم ٦٠٫٠٠٠ مصرى و ٢٠٫٠٠٠ اغريقى و ٢٠٫٠٠٠ ليبى وهوجمت مصر بحرا وبرا .

ولم يستطع نقطانب المقاومة طويلا .. ففر الى الوجه القبلى وليس الى اثيوبيا كما يروى ديودورس حيث استطاع أن يظل ملكا مدة عامين آخرين ، حيث نجد آثاراً له فى ادفو فى السنة الثامنة عشرة من حكمه .

ولكن الفرس استطاعوا بعد ذلك أن ينفذوا الى الوجه القبلى وأن يستكملوا احتلال مصر . وأن تشهد مصر مأساة انتقام الفرس منها .

فيروى لنا ديودور الصقلى فى تاريخه عن هذه الحقبة « بعد ما أستولى ارتاكسر كسيس على مصر ودمر حوائط اهم المدن ونهب القاصر وجمع كميات كبيرة من الذهب : وحمل السجلات المكتوبة فى المعابد القديمة وقد اعادها فيما بعد الى الكهنة المصريين نظير دفع غرامة كبيرة . وبعد ذلك كافأ كبار اليونانيين الذين رافقوه فى الحملة كل على حسب رغبته فسرحهم الى بلادهم الاصلية . وأقام واليا على مصر شرابا وعاد ومعه جيشه الى بابل وفى ركابه أغراقيس كثيرة ونال شهرة فى عصره لنجاحه .

ولكن مصر شأنها دائما لم تستكن للحكم الظالم الطاغى فقد وجدنا فى منطقة حفائر تونا الجبل قبرا يسجل لنا ما كان يجرى فى مصر فى هذه الفترة : لقد قضيت سبع سنوات مشرفا على أعمال الإله تحوت : ولو أن ملكا من بلاد أجنبية كان يتمتع بالسلطة فى مصر .. وكانت هناك معارك فى مصر الوسطى وكان الجنوب مضطربا والشمال فى ثورة وينتقل الناس من مكان الى مكان فى ذعر ..

لكنى فعلت كل خير فى معبده (أى تحوت) حينما حكم الأجانب مصر ولم تتم أعمال فى المعبد منذ أتى الاجانب وغزوا مصر .

٣٣٨ ق . م :

دس الخصى باجوس السم لأوخس ملك فارس فمات وعين مكانه ابنه الصغير ارسيس .

الذى ظل على العرش سنوات ثلاث ولكن بأخوس سرعان ما الحقه بأبيه اذ دس له السم فقتله .

٣٣٨ ق . م :

قهر فليب ملك مقدونيا جيوش الاغريق المتحالفة فى موقعة خايروديتا والف الحلف الهيلينى من الدويلات الاغريقية وجعل مركزه مدينة كورنثينه .

٣٣٦ ق . م :

مات فليب ملك مقدونيا وخلفه على العرش ابنه الاسكندر الشاب وهو فى العشرين من عمره وبعد أن تقدمت الاغريق بولائها له شاعت اشاعة موته فثارت ولكنه استطاع أن يخضعها من جديد واثبت عبقريته العسكرية والقيادية وبعد أن اخضع المدن الاغريقية الثائرة عبر الهلسبونت عام ٣٣٤ ق.م ليحارب الفرس الذين كان عليهم أن يحشدوا مليون مقاتل حيث لم تكن جيوشه تزيد على ثلاثين الفا من المشاة وخمسة آلاف من العربات .

٣٣٤ ق.م :

ولى الملك دارا الثالث . الذى اذاق باخوس الكأس التى سقاها للملكين السابقين من قبله فدس له السم وقتله بعد أن تحكم فى مصير مصر والشرق امدا طويلا وكان مقدرا لدارا الثالث هذا الذى لم يحكم سوى عام واحد ان يكون خاتمة الامبراطورية الفارسية على يديه فقد حاول أن يجهز جيشا ضخما لاحتلال اليونان . ولكن الهزائم انهالت عليه تحت ضربات الاسكندر المقدونى الذى أطل على العالم فى هذه المرحلة وكانت الهزيمة الكبرى فى موقعة سوس عام ٣٣٣ ..

ولم يلبث بعدها دارا الثالث أن ذبح على يد انتهازى من أتباعه .

واذ يقف مانيتون فى تاريخه عند الاسرة الثلاثين ، فان بعض المؤرخين القدامى قد حاولوا ان يجعلوا من حكم الفرس فى هذه المرحلة الأخيرة ٣٤١ ــ ٣٣٣ ق.م والتى لم تتجاوز ثمانى سنوات : أسرة تضم الاسرات السابقة وجعلوا ترتيبها الحادية والثلاثين .

ولكن حكم الفرس لمصر خلال هذه الفترة على قصرها ، لم يكن مستقرا ، ولم يعترف به المصريون ، وكان عبارة عن ثورة متصلة . بل لقد وصلت الى أيدينا وثيقة تدل على أن شخصية مصرية فى هذه الفترة قد انتحلت لنفسها عرش مصر ، وذلك

هو خاباش وقد ظهر فى الجنوب فى ٥ نوفمبر سنة ٣٣٧ ق.م وارخ فى السنة الأولى من حكمه (١٤ يناير عام ٣٣٦) ق.م عقد زواج أحد صغار كهنة آمون فى غرب طيبة .

وقد قام خاباش بزيارة الدلتا ليدفع عنها غارة الاسيويين ويسود الغموض حياة هذه الشخصية والدور الذى قامت به فى البلاد .

ولكنها دليل جديد يضاف الى الادلة التى لا تجعل حكم الفرس فى مصر فى هذه الفترة القصيرة يرقى الى مستوى أن يكون من أسرة حاكمة .. ومن المحقق ان يصير الحكم الفارسى وكان فى طريقه الى الزوال المؤكد باعتباره حكما أجنبيا .

مراجع القسم الخاص مصر الفرعونية

موسوعة تاريخ العالم ـ وليم لانجر — الدكتور محمد مصطفى زيادة

هيرودوت يتحدث عن مصر — الدكتور محمد صقر خفاجة ـ قدم لها وشرحها د. احمد بدوى

قصة الحضارة — ول دورانت

مصر — الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم

مصر — اتيين دربوثون ـ جال فانديه ـ تعريب عباس بيومى

مصر الخالدة — الدكتور عبد الحميد زايد

مصر القديمة — هنرى بريستيد ـ ترجمة حسن كمال

مصر القديمة — تأليف سليم حسن

موكب الشمس — الدكتور أحمد بدوى

الحضارة القديمة — احمد كمال

حضارة مصر القديمة واثرها — عبد العزيز صالح

تاريخ الشرق العربى القديم — محمد عبد القادر محمد

آثار العالم القديم — الدكتور أحمد فخرى

الفصل السادس

مصر فى عهد الاسكندر وخلفائه البطالمة

حكم الاسكندر فى مصر

٣٣٢ ق٠م :

وصل الاسكندر على حدود مصر تتوجه هالة من انتصاراته الرائعة على جيوش فارسية تفوق جيوشه عددا وعدة وسحقه لدارا الثالث فى موقعة اسـوس والتى كانت جيوش الفرس تبلغ ٦٠٠٫٠٠٠ مقاتل .

واستيلاؤه على كل من سوريا وفنيقيا ، وخاصة صـور وصيدا وبذلك وقعت قواعد الأسطول الفارسي فى شرق البحر الأبيض فى يده .

استولى على مدينة بلوزيون (الفرما) واذ كان المصريون يرون فيه حليفا لهم فى ثورتهم وقتالهم ضد الفرس فقد استقبلوه استقبال الصديق ، مما جعل الوالى الفارسى يستسلم بدون مقاومة .

٣٣١ ق٠م :

وصل الاسكندر الى مدينة منف ، حيث اظهر احترامه وولاءه للديانة المصرية ، فقدم القرابين فى معبد الاله بتاح والعجل المقدس أبيس . ورسم نفسه فرعونا فى معبد بتاح طبقا للطقوس الدينية المصرية .

سار الاسكندر بعد ذلك فى فرع النيل الجنوبى حتى وصل الى شاطىء البحر حيث أنشأ مدينة الاسكندرية عند القرية المصرية القديمة راكوتيس وهى التى كان مقدرا لها أن تصبح خلال القرون الثلاثة التالية هى عروس البحر الأبيض واعظم حواضره الثقافية على الاطلاق .

وأبى الاسكندر الا أن يدمج نفسه فى الديانة المصرية وكان آمـون فى سيوه يعتبر الها عالميا يحج اليه ابناء العالم القديم كله ويعرفه الاغريق ليسألوه بصـفة خاصة عن حاجاتهم .

فاخترق الصحراء من الاسكندرية حيث وصل الى معبد آمون فى واحة سيوة فى رحلة شاقة مليئة بالأخطار واعتبر وصوله فى خاتمة المطاف احدى المعجزات ومظهر حفظ الآلهة له ... وفى معبد آمون نودى بالاسكندر أبنا لآمون . مؤكدا بذلك قصة أمه أوليمباس من انه ابن زيوس اله اليونان .

وقد حرص الاسكندر ما عاش بعـد ذلك على أن يحمل ابن آمون وقضى بأن تزين صورته على النقود حتى سكها بقرني الكبش المقدس آمون ، ولعل ذلك كان هو مصدر تسميته « بذى القرنين » ـ كما لم يلبث أن طالب اليونانيين بتأليهه باعتباره ابن زيوس .

وعاد الاسكندر الى منف وعكف على تنظيم ادارة البلاد قبل أن يبارحها لمتابعة الحرب ضد دارا الثالث فجعلها شبه مستقلة استقلالا داخليا .

وعين حاكمين لمصر أحدهما مصرى والثانى اغريقى كما عين ثالثا للصحراء الغربية ورابعا للصحراء الشرقية وعهد الى الأخير الذى كان يدعى كليومنيس باتمام انشاء مدينة الاسكندرية وعهد اليه بمهمة وزير المالية وجبى الضرائب وسنرى كيف سيثرى ثراء فاحشـــا .

وبارح الاسكندر مصر فى ربيع ٣٣١ ق.م قاصدا بابل ليواجه الجيش الفارسى مرة أخرى ويحرز عليه انتصارا حاسما ومات دارا عام ٣٣٠ ق.م وهكذا استـــولى الاسكندر على الامبراطورية الفارسية كلها ، وأصـــبح ســـيد أواسط آسيا حتى الهند التى اجتاحها حتى نهر السند بعد أن اخترق جبال الهيملايا واعلن انه سيواصل زحفه حتى نهر الكنج لولا أن رفض جنوده التقـدم .

٣٢٣ ق.م :

مات الاسكندر فى بابل على أثر انخراطه فى شرب الخمر بصورة غير طبيعية ليبدد همومه وأحزانه ويخفف هموم الملك وهو فى شرخ الشباب حيث لم يتجاوز سنه الثالثة والثلاثين ، وقد ملأ عليه حياته ان يجعل من العالم كله أمة واحدة وان يخرج الحضارات والثقافات والنظم : وقد ضرب بنفسه القدوة لقواده وجنوده ومواطنيه فتزوج ستاتيزا ابنة دارا وأقام فرحا لم يشهد له التاريخ مثيلا حيث تزوج ثمانون من قواده وعشرة آلاف من جنوده بزوجات فارسيات بعد أن دفع لكل جندى مهره وسدد عنه ديونه تشجيعا للاقدام على هذه الخطوة ، ولبس الاسكندر الملابس الفارســية واستعمل الأساليب الفارسية الادارية التى وجدها أرقى من الأساليب الاغريقية . واذا كانت حياة الاسكندر القصـــيرة لم تمكنه من تحقيق حلمه ، ولكنــه يعتبر بحق مؤسس الحضارة الهليتية التى سادت دول شرق البحر الأبيض المتوسط والتى تجلت فى الحضارة السلوقية وحضارة برجيوم حيث فرضت الفلسفة الاغريقية بالتجـارب والروحانيات الشرقية واختلط الاغريق بالفرس بشعوب منطقة شرق البحر الأبيض .

وحيث سادت لغة عالمية مشتركة وارتفع مركز المرأة الى ذروة لم تصلها من قبل ، وانتشر التعليم العـام وازدهر الاقتصاد لتوسيع التبادل التجارى ، ولقد بلغ عدد المدن التى انشأها الاسكندر فى زحفه الحضارى القاهر نحو الشرق خمسا وعشرين مدينة ، ولكن واحدة منها .. واحدة فقط هى التى كان مقدرا لها أن تخلد اسمه وأن تخلد حضارته الفلسفية وهى مدينة الاسكندرية .

حكم البطالمة

٣٢٢ ق٠م :

قرر قواد الاسكندر في مؤتمر بابل بعد موته الفجائي تولية أخيـه غير الشقيق (فليب ارهيدايوس) ملكا على أن يشاركه الملك ابن الاسكندر من زوجته الفارسية روكسانا والذى كان لا يزال جنينا فى بطنها فى أشهر السادس تحت وصاية قائد الجيش بريديكاس . وبهذا الوضع أمكن الإحتفاظ بوحدة الامبراطورية ولم انها لم تكن سوى وحدة فى المظهر وذلك أن قواده قسموا ولايات الامبراطورية وعين لكل ولاية من ولايات الامبراطورية واليا يحكمها باسم ملكى مقدونيا تحت اشراف بريديكاس .

واختار بطليموس بن لاجوس ــ احد كبار قواد الاسكندر ــ مصر ، وقد نسجت القصص الخرافية حول أصل بطليموس بعد أن أسس دولة البطالسة فى مصر ، ولكن المعروف انه سليل لاجوس وارسنيوس ــ من احدى الأسر الاغريقية النبيلة ،وانه تربى فى قصر فيليب الثانى « والد الاسكندر » ونشأت بينه وبين الاسكندر صداقة كبيرة ، وكان كغيره من قواد الاغريق الذى يعتزون اشد الاعتزاز بأصولهم ولا يرضون بغير معاملة الند للند ، ولذلك فلا عجب أن استمرت المنازعات بين هؤلاء القواد وبعضهم خلال السنوات القادمة ، وقد اختار بطليموس لاجوس ــ أحد كبار قواد الاسكندر ــ مصر ، وهي التى كان يرنو اليها منذ دخلها مع الاسكندر وأحاط بما هى عليه من غنى وحضارة يجعلها قاعدة لدولة عظمى ترث امبراطورية الاسكندر كما كشف عن ذلك فى مذكراته المستفيضة التى كتبها فى شيخوخته ، وكان أول عمل أقدم عليه بمجرد ولايته مصر أن استمع الى شكاوى المصريين من سوء تصرفات كليومتيس الذى كان قد أصبح صاحب الأمر والنهى فى مصر منذ بارحها الاسكندر ، وكيف اغتنى من أعمـال النهب والسلب ، فأصدر بطليموس حكمه باعدام كليومتيس وصادر أمواله وراح يستغلها فى تأليف القلوب من حوله وتأليف جيش وأسطول بحرى يحققان أغراضه ومطامعه .

وفى أواخر هذا العام قام بطليموس بحركته الثانية البارعة التى تكشف عن خططه للمستقبل ، فقد نجح فى احضار جثمان الاسكندر رئيسه ليدفن فى مصر ، بدعوى أن الاسكندر المقدونى رئيسه أوصى بذلك قبل موته باعتباره ابن آمون .

ودفن الاسكندر فى مدينة منف ، ريثما أعد له بطليموس مقبرة تليق بمقامه فى مدينة الاسكندرية .

ولا تزال هذه المقبرة مجهولة حتى الآن لم يكشف عنها رغم العديد من المحاولات .

واذا كان هدف بطليموس منذ اللحظة الأولى انشاء دولة قوية غنية فى مصر تستطيع أن تكون مستقلة ويكون قادرا على الدفاع عنها ، فقد وضع خطته لانشاء أسطول بحرى ضخم ، واذا كانت الأخشاب اللازمة لذلك غير موجودة فى مصر ، وقوة الأسطول تعتمد على مقدار ما له من قواعد ، فقد شرع يعمل على ضم سوريا وقبرص وضم بعض الاقاليم فى آسيا الصغرى .

وبدأ بطليموس بعد ذلك يمد نشاطه الى البلاد المحيطة بمصر فاستولى على ليبيا (فوربتنيا) وراح يعمل حثيثا للفوز بالسيادة على بحر ايجه .

٣١٩ ق.م :

شرع بطليموس فى غزو فينيقيا وفلسطين وجنوب سوريا مما أصبح يطلق عليه اسم « جنوب سوريا » واستولى فيما استولى عليه على أورشليم بيت المقدس مركز اليهودية .

وقد جعله ذلك يصطدم اصطداما مباشرا مع بريديكاس فدخل فى سلسلة من المحالفات والمعارك سقط خلالها بريدبكاس قتيلا بيد اتباعه وعلى رأسهم سلوتس ، وبدأ بطليموس يتغير .

وانخرط بطليموس فى المعارك التى دارت بين خلفاء الاسكندر وحكام الولايات الافريقية المختلفة وخاصة ضد انتوجونوس الذى حاول أن يستعيد امبراطورية الاسكندر .

وتاريخ حظ بطليموس بين المد والجزر ، واضطر فى احدى المرات أن يجلو عن جنوب سوريا وفينيقيا وأن ينسحب داخل مصر (٢١٥ ق.م) .

وتارة يعود للظهور بمظهر السيد فى شرق البحر الأبيض المتوسط حتى ليستولى على قبرص (٣١٣ ق.م) ويساعد رودس ويحتضن المدن المتحالفة للاستقلال عن مقدونية نفسها حيث يرفعونه الى مصاف الآلهة ويعبدونه باسم الاله المنقذ (سوتر) ويوشك أن يتزوج كليوباترا أخت الاسكندر ، لولا أن منافسيه من قادة الاغريق قتلوها ليحولوا دون ذلك . ثم يسترد ليبيا التى كانت قد ضاعت منه ليفقد قبرص من جديد ويفقد نفوذه البحرى بالتالى فى شرق البحر الأبيض (٣٠٦) .

٣٠٥ ق.م :

أعلن انتوجونوس وابنه ديمتريوس انهما ملكين فانتهز بطليموس هذه الفرصة للخطوة التى كان يرنو اليها منذ أمد بعيد فأعلن نفسه ملكا على مصر واستطاع أن يصمد

غزوا دبره ضد مصر انتجونوس بعد ان كانت امبراطورية الاسكندر قد انحلت واعلن كل وال استقلاله بما يحكم بحيث أصبح فيها خمس شخصيات عظيمة وهى كاساندروس فى مقدونيا ، وليسيما خوس فى تراقيا وآسيا الصغرى وسلوتس فى بابل وانتيجونوس وابنه ديمتريوس (فاتح المدن) يرأس عصبة كورنته ويسيطر على قبرص وكثير من المدن الاغريقية فى بلاد الاغريق وآسيا الصغرى .

٣٠٠ ق٠م :

الف اقليدس الذى انشأ مدرسة للهندسة فى الاسكندرية كتابه الشهير العناصر الذى لخص فيه اعمال فيثاغورس وكل من سبقه من علماء الرياضية واضاف الى ذلك كله الرياضيات اليها .

٢٩٠ ق٠م :

واخيرا بطليموس فى مصر .

٢٨٥ ق٠م :

لم يكد ديمتريوس ابن انتيجونوس الذى كان قد مات من قبل بعد أن طحنته المعارك مع سلوتس ، حتى أنتهز بطليموس هذه الفرصة واستعاد سيادته على شرق البحر الأبيض المتوسط بالاستيلاء على موانى فينيقيا وصيدا وحور وكاونوس، وكذلك اسطول ديمتريوس واستولى على جوف سوريا للمرة الرابعة ، حيث كان حلفاؤه قد جعلوها من نصيب سلوتس الامر الذى سيجعل هذا الامر مثار نزاع بين مصر وسوريا طوال المائة سنة التالية .

وفى هذه السنة أشرك بطليموس معه فى الملك ابنه من زوجته المحبوبة برينيكى ، وذلك ليحول بين ابنه الأكبر من زوجته يوريديكى المعروف باسم (بطليموس الصاعقة) وولاية الحكم .

ولذلك تولى هذا الاخير الى ليسماخوس ثم الى سلوتس للحصول على عون يمكنه من الحصول على ارثه .

٢٨٣ ق٠م :

مات بطليموس الأول وكان قد بلغ من العمر ٨٤ سنة ــ وكان ككل مؤسسى الدول يتسم بالتعقل والحكمة والحذر ، فوق كونه جنديا محاربا فخلف لابنه من بعده دولة

متكاملة مستقرة بعد خمسين سنة من حروب متصلة . وقد كان لشخصيته المحببة أثر في هروع الاغريق لخدمته .. كما انه لم يهمل لحظة واحدة شأن الشعب المصرى. ولقد كان رجل علم وأدب ولذلك فقد وضع أساس مكتبة الاسكندرية التي ستكون موضع عزها وفخارها وكتب بنفسه تاريخا لمعارك الاسكندر ، ويتصف بالاستقامة والأمانة .

٢٨٢ ق.م :

انفرد بعرش مصر بطليموس الثانى (فيلاديفوس) (المحب لأخته) وعلى الرغم من انه اشتهر بهذا اللقب فيلاديفوس فالرأى على أن هـذا اللقب وصفت به اخته وزوجته ارسينوى بعد وفاتها .

وانتشرت في ايامه التجارة وكثر وفود الأجانب على مصر ولا سيما اليونانيين باعتبارهم من جنس الأسرة المالكة وأصبحت اللغة اليونانية هى لغة البلاط وان ظلت اللغة المصرية القديمة هى لغة الأمة وظلت الاوامر الملكية تصدر بها مشفوعة باليونانية.

وتشبه ملامحه ملامح أبيه ولكنه لم ينعم بمواهب أبيه الحربية ولم يشغف بالقتال، حتى انه لم ير على رأس جيشه اطلاقا ، ومع ذلك فقد خلد اسمه بأكثر من خلود اسم أبيه لثقافته الواسعة وشغفه وولعه بالجغرافيا والتاريخ الطبيعى مما جعله يحول النواة التى وضعها أبوه المكتبة الى عمل عظيم وان كان استغراقه في الشهوات والملذات الدنيوية لا يقل وضوحا في حياته عن هذه الناحية .

والى جوار شخصه تقوم شخصية أخته أرسنيوى والتى تزوجته بعد أن كان قد سبق الزواج لها مرتين من قبل وذلك لتحقق طموحها وسيطرتها حتى استطاعت بالفعل فترة حياتها ان تحكم الامبراطورية وصرفت شئونها الحربية ، وقد كان زواج الأخ من أخته الشقيقة يعتبر فسقا في نظر الاغريق ، ولكن بطليموس أخذ بسنة الفراعنة من قبله .

وفى نفس الوقت كان أخوه غير الشقيق بطليموس الصاعقة قد أصبح ملكا على مقدونيا بعد أن قتل سلوقس أعظم حلفاء الاسكندر، وأسرع يمد يد الصداقة والتحالف لأخيه بطليموس فيلاديفوس ضد عدويهما المشتركين ــ انطيوخس ملك سلوقيا وانتيجونوس المطالب بعرش مقدونيا ولكنه لم يلبث أن جرح ومات عام ٢٧٩ في غزوة القتال ضد مقدونيا .

وقد أدى ذلك كله الى جعل مصر أقوى دولة في العالم الهليني تليها دولة السلوقيين التى ولى عرشها انطيوخوس ابن سلوقس وكانت تشمل ولايات امبراطورية الاسكندر في بلاد ما بين النهرين وأغلب الولايات الشرقية البعيدة وجانبا كبيرا من آسيا الصغرى وسوريا (فيما عدا جوفه سوريا) والدولة الثالثة مقدونيا وكانت تعتبر نفسها سيدة المدن الاغريقية في شبه جزيرة اليونان .

على أن لا بطليموس الأول ولا ابنه من بعده ، فكرا كما فعل غيرهما من خلفاء الاسكندر في اعادة تكوين امبراطورية الاسكندر وقصرا همهما على الحفاظ على استقلال مصر الكامل ولعب الدور الأول في العالم الهليني وكانت أفضل وسيلة لذلك هي احراز السيطرة على بحر ايجة ـ ولاستكمال هذه السيطرة حاول فلاديفوس الاستيلاء على شواطيء آسيا الصغرى الجنوبية والغربية بالاضافة الى استيلائهم على مواني فينيقية وصور وصيدا وغيرها وكان طبيعيا الا يسلم السلوقيون للبطالسة بهذا الحق الذي يحرمهم من موارد ضخمة وانشاء اسطول كبير والاحتفاظ به في موانيهم السورية ويتيح للبطالسة أن يسدوا في وجوههم الاتصال بالبحر الأبيض المتوسط .

كما لم يكن في وسع ملوك مقدونيا أن يسلموا لسيطرة البطالسة بحر ايجة لان ذلك يؤدى الى سيطرة مصر على بلاد الاغريق .

وهكذا نشبت الحرب بين هاتين الدولتين ومصر .

٢٨٠ ق . م :

بدأ النضال العنيف بين انطيوخوس الأول وفيلادلفوس بنشوب حرب غامضة سميت (الحرب الكارية) فقد أحرزت مصر من ورائها فتوحات في كاريا ودمشق لأن فيلادلفوس أستولى على دمشق وشاطيء فينيقيا الشمالى حتى ارادوس ، ولانشغال كل منهما بخطر يهدده عقد صلح بين الطرفين عام ٢٧٠ ولكن لم يكن الا صلحا مؤقتا . فقد كان كل من الطرفين يستغل انشغال الآخر لكى يهاجمه .. ولذلك فقد استرد انطيوخوس دمشق فيما يطلق عليه اسم الحرب السورية الأولى عام ٢٧٥ ويقال أن هزيمة بطليموس في سوريا هى التى حدت به الى زواج أخته ارسينوى لمواجهة المجهود الحربي وأن كان البعض يرون أن الزواج تم من قبل ذلك .

وكان انطيوخوس قد حالف ماجاس والى مصر على توزمانية فزوجه ابنته فأسرع ماجاس باعلان استقلاله والزحف على مصر ، وأن يصل بجيوشه الى الاسكندرية ولكن أرسينوى استطاعت أن تنقذ الاسكندرية بأساليبها ودسائسها في جيش ماجاس

٢٧٦ ق . م :

وجه فيلادلفوس حملة الى أثيوبيا على ما يقول ديودوروس لتوطيد حدود مصر الجنوبية وما بين اعالى النيل .

٢٧٣ ق . م :

عقد فيلادلفوس معاهدة تجارية مع هذه القوة النامية التى بدأت تظهر في غرب البحر الأبيض وهى قوة روما .

٢٧٢ ق ٠ م :

اضطر انطيوخوس الى عقد صلح جديد مع مصر بعد أن عادت حيويتها فاستولت على كل شواطىء فينيقيا وردته على أعقابه داخل سوريا وأصبحت مصر بموجب هذا الصلح تشمل نصف كليكيا الغربى وساحل بامنيليا الشرقى وأغلب ليديا وعدة أماكن فى كاريا وايونيا ــ وفى بحر أيجة كان فيلادلفوس يملك ساموترافيا وايناوس الى جانب ساموس التى أصبحت قاعدة الاسطول البطلمى فى بحر ايجه .

ولم يبق فى قبضة انطيوخوس فى سوريا سوى دمشق وعلى حدود مصر الغربية دان له ماجاس بالطاعة .

٢٧٠ ق ٠ م :

ماتت ارسينوى الثانية وبالأحرى صعدت الى السماء والتى عزى اليها وسميا كل هذه الانتصارات الباهرة .

وقد توفيت دون أن تنجب ابنا من فيلادلفوس ويذكر مصدر قديم آخر انها تبنت أولاد فيلادلفوس من زوجته السابقة وأن اكبرهم سنا كان بطليموس الثالث .

٢٦٢ ق ٠ م :

توفى انطيوخوس وخلفه ابنه الأصغر انطيوخوس الثانى الذى سرعان ما أشعل نيران الحرب من جديد مع فيلادلفوس ويطلق عليها اسم الحرب السورية الثانية مع أن غرب آسيا الصغرى كان مسرحها الرئيسى . وفى هذه الحرب خسر فيلادلفوس سيادته على بحر أيجه وخسر ممتلكاته فى قراقياتانية واستولى انطيوخوس على كل فينيقيا شمال صيدا .

٢٥٥ ق ٠ م :

تم دمج تورنيتائية الى الدولة المصرية عن طريق زواج برنيكى ابنة ماجاس الذى كان قد مات ، من ولى عهد مصر بطليموس الثالث (بورخيس) .

٢٥٢ ق ٠ م :

توصل فيلادلفوس الى كسب انطيوخس الى جانبه بالمصاهرة حيث زوجه بابنته (برينيكى) وأصدقه مهرا أصبح مضرب الأمثال بحيث أصبح يطلق على برينيكى لقب

(مرنفوروس) أى صاحبة الصداق العظيم ـ والرأى الراجح أن هذا الصداق كان هو ارجاع كيلكيا الغـربية وبافيليا لانطيوخوس فى مقـابل تنازل السلوقيين عن المطالبة بجـوف سـوريا .

٢٥٠ ق . م :

بعد أن اطمأن فيلادلفوس على حـدودة الشرقيـة الغربية اسـتطاع ان يثأر لنفسـه من جوناناس وان يستعيد سيادته على بحر أيجه .

وهكذا تابع فيلادلفوس سياسة أبيه فعمل على تدعيم حدود مصر الغـربية والشرقية والجنوبية ودعم سيادة مصر فى بحر أيجه وعنى بالتجارة الجنوبية ووجه اهتماما الى التجارة الشرقية ويستدل على ذلك من حملته على البنط وتوطيد سلطان مصر فى فلسطين وشرق الأردن وفينيقيا ومن الاستيلاء على أجزاء من أيونيا .

وعلى الرغم من المبالغ الطائلة التى انفقتها مصر على مجهود مصر الحربى فى سبيل سياستها الخارجية فان الخزائن الملكية بقيت مكتظة بالاموال .

وليس أدل على الغنى الوافر الذى وصلت اليه البلاد من أن بطليموس الاول حين اراد ان يولم وليمة لاصـــدقائه اضـطر الى ان يقترض آنيتهم الفضـية وطنافسـهم . أما بطليمـوس الثانى فقد انفق فى احـدى حفلات تتويجه ما قيمته ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ ريال .

وقد اعاد تطهير القناة الموصلة للنيــل بالبحر الاحمر التى كان نخاو قـــد اصلحها وكذلك دارا الثالث .

وقد استقدم فيلادلفوس الى بلاطه مشهورى السفراء والعلماء والنقاد والمتبحرين فى العلوم الطبيعية والفلسفة والفنانين واستضافهم عنده وزين مدينة الاسكندرية بالمبانى الفخمة على الطراز اليونانى ، حتى اصبحت الاسكندرية فى أثناء حكمه الطويل عاصمة بلاد البحر الابيض المتوسط الادبية والعلمية وازدهرت آدابها ازدهارا لم تر مثله ووسع المتحف والمكتبة وانفق عليهما من المال ما جعل المؤرخين الذين جاءوا بعده ينسبون اليه انشاءها وكان رئيس المكتبة (المعهد) فى عهده يعتبر من الناحية الرسمية كاهنا دينيا لأنه كان مخصصا لآلهات الفن بوصفها معبودات بحق .

وكان يعيش فى المتحف اربع طوائف من العلماء : فلكيين وكتاب وعلماء فى الطبيعة واطباء ، وكانوا يتقاضون مرتبات من الخزانة العامة ، ولم تكن مهمتهم أن يعلموا الطلاب بل أن يتوفروا على البحوث والدراسات واجراء التجارب ولما تضاعف عـدد الطلاب فى المتحف فى العصور التالية قام أعضاؤه بالقاء المحاضرات .

وتعتبر هذه المكتبة وهذا المعهد والجامعة هو أول مؤسسة فى التاريخ اقامتها

دولة للعمل على تقدم الاداب والعلوم — والاجماع على أن ذلك ذروة ما استفادته الحضارة الانسانية من حكم البطالسة ومدينة الاسكندرية .

وفى عهد بطليموس فيلادلفوس كتب مؤرخنا الخالد مانيتون تاريخ مصر الذى رأينا مدى اعتماد المؤرخين على تقسيماته وفى عهده أيضا تمت على ارجح الآراء ترجمة التوراة اليونانية هذه الترجمة المشهورة بالسبعينية وهو الذى أوعز لمانيتون بوضع تاريخ مصر — وشيد منارة الاسكندرية لتهتدى بها السفن .

وشيد هيكل انس الوجـود .

٢٤٦ ق ٠ م :

مات بطليموس فيلادلفوس بعد أن حكم ٣٩ سنة وارتقى العرش ابنه بطليموس الثالث — وقد أشـاد الشعراء بوادعة الملك الجـديد وهى صفة يؤيدها لقبه الالهى يورجتيس او الخـير .

وقد كان ملكا مثقفا مثل ابيه ، فكان تلميذا للشـاعر ليولوتيوس الرودسى وصديق العالم الفذ اراتوستيس ، وقد اصلح التقويم الذى اقتبسه يوليوس قيصر فيما بعد ، وهذا الاصلاح ينطوى على اضافة يوم كل أربعة أعوام الى العام المصرى الذى كان يتألف من ٣٦٥ يوما .

على انه لم يكد يعتلى العرش حتى كان مقدرا له ان ينخرط فى الحرب السورية الثالثة ، والتى جعلته يستعيد فى ذاكرة المصريين فتوح تحوتمس الثالث من قبل ، فقد وصل بجيوشه حتى تخوم الهند ، وسقطت فى يده بابل وايران .

وكان سبب هذه الحرب السورية الثالثة أن انطيوخوس الثانى الذى كان قد تزوج بيرنيكى المصرية ، كان قد مات ، وقيل أن زوجته الأولى هى التى دست له السم بعد أن حملته على اعلان ابنها منه خلفا له على العرش وبالفعل نودى عليـه ملكا لسلوكيا باسـم سلوتس الثانى .

وكان طبيعيا ان تتمسك بيرنيكى التى كانت تقيم فى انطاكية بالعرش لحساب ابنها فنادت به ملكا واستنجدت بأخيها الذى هب لنجدتها بالفعل ، وسرعان ما وجدنا جيوش بطليموس فى مدينة سلوقية على نهر الدجلة عام ٢٤٥ ق٠م٠ وأوفد الرسل الى حكام كل الولايات الشرقية يطالبهم بالطاعة فأذعنوا وعين حاكما على هذه الولايات التى كانت تقع عند تخوم الهند . وأخضع الجزيرة والعراق وتوغل فى فارس حتى وصل الى همذان وبلخ واسترد معبودات المصريين التى كان قمبيز قد اخذها معه.

وقد عبرت برتيس زوجة بطليموس الشابة عن شكرها لانتصاراته المذهلة فقد وهبت خصلة من شعرها للالهة : وتغنى الشعراء بهذه القصـة : ورفع الفلكيون عقيرتهم بها الى السماء فسموا احدى المجموعات النجمية باسم كومانسيز أى شعر

برنيس (دورانت ٦٣) . ولكن هذه الحملة المظفرة لم تجد اخته او ابنها فتيلا فقد اغتيلت فى هـذه المدة هى وابنها .

كما ان احداثا طرأت فى مصر جعلت بطليموس يسرع بالعودة الى مصر ، مما مكن سلوتس الثانى أن يسترد بعض ما فقد ، ويدخل فى محالفات مع القوى الاغريقية المعاصرة ليعاودا الهجوم على مصر بحرا ، ولكن اساطيل مصر استطاعت ان تحبط هذا الهجوم خلال عامى ٢٤٣ ، ٢٤٢ ق.م .

٢٤١ ق . م :

عقد سلوقس الثانى مع بطليموس صلحا ، جعل مركز مصر على شواطىء بحر ايجه الشمالية والشرقية أقوى من مركزها عام ٢٧٢ ق.م .

ويعتبر ذلك ذروة ما كانت عليه من قوة عسكرية فى ظل حكم البطالسة .

ونعمت مصر بعد ذلك بعشرين سنة من السلم ، فلم يحاول بطليموس الثالث : ان يتدخل فى النازعات والحركات التى قامت بين سلوتس الثانى وأخوته ، أو فى الحركات التى قامت لاستعادة مقدونيا سلطانها على بلاد الاغريق .. وكل ما بذله بطليموس من نشاط كان من خلال المناورات السياسية والمعاونات المالية .

ولم يغيره انحلال الدولة السلوقية الكبيرة ان يعاود احتلالها ، قانعا بتأمين حدود مصر ، وسيادتها على شرق البحـر الابيض وبحر ايجه مما يجعـل امبراطورية البطالسة اقرب الى أن تكون امبراطورية بحرية منها ان تكون برية ، وقد حرص البطالسة الثلاثة حتى ذلك التاريخ على أن يحتفظوا بقوريناتيه وجنوب سـوريا وقبرص كأجنحة وخطوط دفاعية امامية عن مصر لسـلامتها ، وتدعيم نشاطها التجـارى والاقتصادى .

٢٢١ ق . م :

خلف بطليموس الرابع وقد اخذ لنفسه لقب (فيلوباتر) اى المحب لأبيه فى يوم بين الخامس والسادس والعشرين من فبراير من هذا العام وكان شابا فى الثانية والعشرين من عمره لاهيا عابثا انحدرت مصر على يديه من ذروة القـوة التى كانت قـد وصلت اليها .

لقد بدأ حياته بسلسلة من الجرائم التى قتلت فيها أم الملك وأخوه وعمه على يد وزيره سوسيبيوس الذى اوغر صدر بطليموس ضد هذه الشخصيات الثورية ليخلو له الجو وينفرد بالسلطان وقد ساعده على ذلك انخراط بطليموس الرابع فى العبث والمجون واللهو اذ احاط نفسه بمجموعة من الافاقين حثالة الاسكندرية وقد اطلق اسكندريو ذلك العهد على هذه المجموعة « أخوان الأنس » وكان أظهر ما فى

هذه الجماعة الماجنة التى لم تلبث أن جعلت من بطليموس العوبة فى يدها نديمه اجاتوكس واخته التى اصبحت محظية بطليموس والمسماه (اجاتوكليا) .

وكرد فعل لما كان يعيش فيه بطليموس من لهو وعبث ، تعلق فى نفس الوقت ببعض اسرار العبادات الغامضة ، حتى أصبح الناس ورجال بلاطه يدعونه باسم الاله ديونيسوس اله الخمر عند الاغريق .

كما اشتهر بتعلقه بالآداب فكتب قصة شعرية تدعى أودنيس .

٢١٧ ق ٠ م :

التاريخ الذى يعتبر بمثابة نقطة التحول فى حكم البطالسة فى مصر أيام بطليموس الرابع ، حيث ظهر الشعب المصرى لأول مرة كقوة حربية قادرة على الاصطدام بجيوش الاغريق المحترفة والانتصار عليها .. فى معركة رفح وما ترتب على ذلك من انقلاب فى موقف المصريين من الأسرة الحاكمة .

وقد بدأت الامور التى انتهت بهذه الذروة ، عقب تولى بطليموس الرابع .. حيث وصل الى علم انطيوخس الثالث (الكبير) ما آلت اليه أمور الدولة المصرية على يد الملك الطائش من ضعف ووهن ..

فشن ما يسمى بالحرب السورية الرابعة .

وكان طبيعيا أن ينتهز انطيوخوس الثالث ملك سلوقيا ، تدهور موقف العرش فى مصر وما يتبعه ذلك من انحلال قوات الدولة .. فأستأنف غزوه من جديد لمنطقة جوف سوريا عام ٢١٩ ق.م ، واستطاع بالفعل أن يستولى على هذه المنطقة وموانيها صور وعكا واربعين سفينة حربية ومعدات هائلة ، وكان باستطاعة انطيوخوس أن يجتاح مصر ، ولكن سوسبيوس وزير بطليموس استطاع أن يوقفه بحجة التفاوض ، فى الوقت الذى كان يجهز فيه جيشا اعتمد على المصريين لأول مرة بحيث كانوا يؤلفون الجزء الاكبر من قوة الجيش ، وحدث الاصطدام عندما تخطى انطيوخوس رفح فوجد الجيش البطلمى الجديد على بعد تسعة كيلو مترات جنوبى هذه المدينة .

وكان جيش انطيوخوس يتألف من ٦٢٠٠٠ راجل و٦٠٠٠ فارس و١٠٢ من الفيلة الهندية القوية ، وكان قلب جيشه (الفالافكس) يتألف من ٢٠٠٠٠ جندى مقدونى واغريقى يؤيدهم ١٠٠٠٠ جندى من حملة الدروع المختارين ينتمون الى مختلف الجنسيات وذلك فى الوقت الذى كان الجيش البطلمى يتألف من ٥٠٠٠٠ راجل و٥٠٠٠ فارس و٧٣ فيلا افريقيا وكان قلب الجيش (الفالافكس) الذى حقق النصر يتألف من ٢٠٠٠٠ مصرى و٥٠٠٠ فارس اغريقى

وعندما التقى قلبا الجيشين انهزم قلب انطيوخوس الذى كان يتألف من خيرة جنود العصر الذين ملأتهم الانتصارات السابقة زهوا وقوة وثقة بالنفس .

ويقول لنا الكهنة المصريون الذين اجتمعوا فى منف بعد عودة فيلوباتر منتصرا ، ان انطيوخوس لقى على يد المصريين هزيمة فادحة فر بعدها هاربا فى هلع شديد الى حد انه القى عن نفسه شارات الملك بينما فاز بطليموس بغنائم وفيرة .

وكان باستطاعة بطليموس أن يستثمر هذه الهزيمة المروعة فيلاحق خصمه ، ولكنه اكتفى بهذا النصر الساحق غير المتوقع فقد كان الأغريق يشكون فى قدرة المصريين على الثبات فضلا عن الانتصار ... ولذلك فلم يكن انطيوخوس يعرض الصلح على فيلوباتر على أن يعين له جوف سوريا ،حتى بادر فيلوباتر بقبول العرض.

ويقول لنا بوليبيوس المؤرخ القديم الذى روى لنا هذه الأحداث أن معركة رفح لم تكن انتصارا باهرا لفيلوباتر ووزيره سوسيبيوس الذى كان يقود الجنود المصريين فحسب ، بل أنها كانت انتصارا رائعا للمصريين الذين كان البطالسة يعاملونهم حتى هذه المعركة معاملة المغلوبين على امرهم .

٢٠٩ ق ٠ م :

انجبت ارسينوى الثالثة أخت بطليموس الرابع والتى كان قد تزوجها عقب معركة رفح وليا للعهد اشرك مع أبيه فى الملك وهو لا يزال فى المهد (٦ يونيو عام ٢٠٨ ق٠م٠) ولكن ذلك لم يكن له كبير الاثر فى انقاذ زوجها من قوى الشر التى تحيط بهممثلة فى الحاشية البغيضة السالف الاشارة اليها .

٢٠٣ ق ٠ م :

انتصار روما الساحق على قرطاجنة فى معركة زاما وسيادتها بالتالى على غرب البحر الأبيض المتوسط واتجاهها نحو شرق البحر لتأكيد سلطانها فيه .

٢٠٣ ق ٠ م :

فى ٢٨ نوفمبر من هذا العام دعا اجانوكلس وسوسبيوس رجال الحرس الملكى وافراد الحاشية وضباط المشاة والفرسان وأعلنوا وفاة الملك والملكة ونادبا بالطفل الصغير بطليموس الخامس (ايفانس الطاهر) ملكا كان سنه لا يتجاوز خمس سنوات .

أوصياء الملك الجديد :

والقول على أن بطليموس الرابع مات قبل ذلك التاريخ بمدة كبيرة يحددها

البعض بعام كامل .. حيث وقع خلاف بين ارسينوى الثالثة الملكة الزوجة والام وبين هذه العصابة المحيطة بالملك على من يتولى الوصاية .. وقد قتلت العصابة ارسينوى ، ثم أعلنت هذا الذى اعلنته . وقد غضب أهالى الاسكندرية لهذه المؤامرة اشد الغضب ، فبدأت مراحل الثورة ضد هذه العصبة ولم يلبث سبيوس الوزير أن مات فانفرد اجاتوكلس بالوصاية .

٢٠٣/٢٠٢ ق ٠ م :

انتهز فيليب الخامس ملك مقدونيا ، وانطيوخوس الثالث تدهور الاحوال فى مصر ليعقدا فيما بينهما اتفاقا لتقسيم ممتلكات مصر الخارجية بينهما ، ولم يلبث أن شرع كل منهما فى الاستيلاء على ما هو من حصته ولكن فيليب تجاوز الاتفاق ، مما أحنق عليه انطيوخوس وعاد الخلاف بينهما .

٢٠٢ ق ٠ م :

تأججت نار الثورة فى مصر ، ضد أجاتوكليس وعائلته .. واستغل تلبولمس قائد بلزيون هذه الثورة فانضم الى الثوار وتحدثنا كتب التاريخ بادق تفاصيل هذه الثورة حتى ليروى بوليبيوس ، كيف اخذت المقاومة أول ما ظهرت بنشر الاقاويل فى المقاصف والاماكن العامة على سبيل التعريض فى بادىء الامر ثم الحملات الصريحة على مزخرف الجدران وعازفة القيثارة ومصففة الشعر : وذلك الخليع الذى كان فى شبابه يعير نفسه لكل طالب بعد الشراب . وانتهت الثورة الجارفة بعد انتزاع الملك من يد الوصى عليه بجر أجاتوكليس واخته اجاتوكليا وامهما واقاربهما وخدمهما فى الشوارع وتسليمهم الى الجماهير الغاضبة المتعطشة لدمائهم فقطعت أجسادهم اربا وهجمت الجماهير على بيت قاتل ارسينوى وقتلته هو وابنه وجرت زوجته عارية الى الميدان الكبير حيث ذبحت ، وعين تليبولمس وصيا على الملك ، ولكنه لم يلبث بدوره ان عزل وسط سخط الجماهير وخلفه فى منصبه ارشيونيس بينما اسندت قيادة الجيوش الى سكوباس .

٢٠٠ ق ٠ م :

بعد انتهاء الحرب اليونانية الثانية ، أرسل الرومان الى ملك مصر (بطليموس ابيفانس) سفارة من ثلاثة أعضاء ليعلنوا له نبأ هزيمة هانيبال وليشكروه على ولائه الذى لم يتزعزع فى الوقت العصيب الذى تخلى فيه عن الرومان أوثق حلفائهم ، راجين منه أن يظل على ولائه القديم للشعب الرومانى اذا ما حدث أن أعلن الرومان الحرب على فيليب الخامس ملك مقدونيا مدفوعين بالاساءات التى لحقتهم على يديه.

١٩٨ ق ٠ م :

بعد سلسلة من المعارك فى جوف سوريا فيما يسمى بالحرب السورية الخامسة تأرجح فيها جيش مصر تحت قيادة سكوباس بين الانتصار على انطيوخوس والانهزام امامه .. استولى انطيوخوس على كل جوف سوريا ــ فى الوقت الذى كان يستولى على آخر مواقع مصر فى بحر ايجه وشرق البحر الأبيض المتوسط (بحيث لم يبق لمصر من أملاكها فى البحر سوى جزيرة قبرص) .

١٩٧ ق ٠ م :

رأى ايستومتس الوصى على ملك مصر ، انه من الحكمة ان ينهى الوصاية على الملك الذى كان قد بلغ من العمر ثلاثة عشر عاما ، وذلك بعد أن اعدم سكوباس قائد الجيش الذى دبر مؤامرة لقلب الحكومة هو وافراد أسرته وأعوانه .

وفى ٢٨ نوفمبر عام ١٩٧ ق.م. على ما سجل لنا حجر رشيد المشهور الذى كان مفتاح حل رموز اللغة الهيروغليفية ففيه سجل الكهنة حفل تتويج الملك وفقا للتقاليد المصرية القــديمة .

١٩٥ ق ٠ م :

عقد انطيوخوس الكبير صلحا مع مصر ، ليتقوى أمام عدوته الجديدة « روما » التى كانت قد بدأت تمد ببصرها صوب الشرق ، وتلعب دورا رئيسيا فى أحداثه ، بالايقاع بين فيليب وانطيوخوس حينا ومحاربة فيليب وقهره حينا آخر لتتفرغ لانطيوخوس الذى كانت توجه له الانذارات .

وكان من نتائج الصلح بين انطيوخوس ومصر ، أن تزوج بطليموس الخامس « كليوبترا » ابنة انطيوخوس على أن تكون هدية عرسها لبطليموس هى « جوف سوريا » وقد جرى الخلاف فيما بعد حــول طبيعة الهدية وهل هى ملكية الاقليم ام مجرد دخله ..

١٨٩ ق ٠ م :

انهزام انطيوخوس الثالث امام روما فى معــركة ماجاخسيا التى ترتب عليها رسوخ قدم روما فى بلاد الافريق وفى آسيا الصغرى وزيادة سلطاتها ونفوذها فى السياسة المصرية .

١٨٧ ق ٠ م :

مات انطيوخوس الكبير وخلفه على العرش ابنه الضعيف سلوتس الرابع فقرر بطليموس الخامس ان يسترد جوف سوريا ، ولما كان يعرف أن روما لن توافق على مثل هذا العمل ، فقد قرر أن ينهج سياسة مستقلة عن روما ودخل فى مفاوضات مع العصبة الآخية الاغريقية عامى ١٨٥ — ١٨٣ ق.م. لتحقيق هذا المشروع .

ولكن لم يلبث أن مات قبل أن يحقق أمنيته .

١٨٠ ق ٠ م :

مات بطليموس الخامس وهو لا يزال شابا غضا ، ويقول لنا بوليبيوس انه كان بارعا فى ركوب الخيل ماهرا فى الصيد واستخدام الاسلحة .. وقد كان لقسوته ضد المصريين وغدره بزعماء الثورة منهم بعد أن أمنهم .. أكبر الاثر فى اضعاف الدولة من الداخل وايقاع الفتن والشقاق بين أفراد الأسرة الحاكمة ، الامر الذى تسبب فى ضياع ممتلكات مصر الخارجية .

بطليموس السادس فيلوماتر (المحب لأمه) .

وللمرة الثانية فى خلال اربعة قرون ارتقى عرش مصر جيل صغير فقد ترك بطليموس الخامس وراءه ولديه بينما كان أكبرهم بطليموس السادس — فيلوماتر وكان عمره سبع سنوات فتولت الوصاية عليه امه كليوباترا الأولى ابنة انطيوخوس ولذلك فقد استمرت علاقات مصر مع سوريا ودية خلال مدة وصايتها .

١٧٦ ق ٠ م :

ماتت كليوباترا مخلفة بطليموس السادس لرجال الحاشية فوقع تحت وصاية مربيه الخصى بولايوس والعبد السورى لنايوس .

وقدساير هذان الوصيان الحزب الذى ينادى بضرورة استرداد سوريا لاعادة الانتعاش الاقتصادى الى مصر — وبدأت المناورات السياسية مع احد احزاب اليهود فى مملكة يهوديا .

١٧٤/١٧٥ ق ٠ م :

احتفل ببلوغ بطليموس السادس سن الرشد (الثالثة أو الرابعة عشرة من عمره) وتزوج من اخته كليوباترا الثانية ، واحتفل بتنصيبه فرعونا فى منف .

١٧١ ق ٠ م :

استغل انطيوخوس الرابع فرصة انشغال روما فى الحرب المقدونية الثانية لكى يشن الحرب السورية السادسة على مصر ، واستطاع أن ينجح فيما فشل فيه من قبله بريدكاس وانطيوخوس الكبير فهزم الجيش البلطمى عند تل كاسيون واستولى على بلوزيون وتقدم الى منف ، وهنا نصح الوصيان على بطليموس السادس أن يأخذ كنوزه ويهجر مملكته ويفر الى ساموترافيا ، مما جعل الاسكندريين يغضبون على بطليموس والأوصياء عليه حتى انهما قتلا هذين الاخيرين ..

ويقول بعض المؤرخين ان بطليموس قبض عليه اثناء فراره ، وأعيد الى بلزيون، ولكن بعض المؤرخين الآخرين يقولون أنه انما استدعى من ساموترافيا ليعقد معاهدة صلح مع خاله انطيوخوس ، فرضت عليه بقبول حمايته .

وقد رفض الاسكندريون هـذا الوضع فنادوا بأخ فيلومنور الاصغر ملكا وهـو الذى عرف فيما بعد باسم بطليموس الثامن بورجيتس الثانى .

ومن منف زحف انطيوخوس على الاسـكندرية بحجة انه يؤيد حقـوق الملك الشرعى فيلومنور .

على أن انطيوخوس لم يلبث أن عـاد الى سـوريا تاركا حاميته فى بلوزيون ، وبطليموس فيلومنور فى منف وبطليموس الصـغير فى الاسكندرية ، معتمدا على أن منافسة الأخوين ستمهد له السبيل لغزو مصر ثانية .

١٧٠ ق ٠ م :

لم يكد ينسحب حتى اتفق فيلومنور وبطليموس الصغير وأختهما كليوباترا الثانية على أن يحكموا مصر بالاشتراك .

١٦٨ ق ٠ م :

غزا انطيوخوس الرابع مصر ثانية بعد ان زالت الأسباب التى أدت الى انسحابه منها ، وبعد أن خاب أمله فى وقوع الخلاف بين الأخوين . وسقطت قبرص لاول مرة فى يد اسطول انطيوخوس ، وارسل انذاره الى بطليموس يطلب منه الاعتراف بملكيته لقبرص ، وان ينزل له عن مدينة بلوزيون والاقليم المجاور لفرع النيل البليوزى ، وحدد مهلة للاستجابة الى طلبه .. ورفض بطليموس هذه المطالب وبعث يستنجد بروما بعد انتصارها فى الحرب المقدونية ، فأرسل السناتو (مجلس الشيوخ) بعثة سياسية على رأسها جاموس يوبليوس ، لتملى ارادتها على انطيوخوس ، فطلب منه الانسحاب من مصر وقبرص .

ويصف المؤرخ الرومانى ليفيوس المشهد الكبير بين انطيوخوس والسفير الرومانى وبعد ان عبر انطيوخوس النهر (الفرع الكانوبى) عند اليوسيس (النزهة) وهو مكان يبعد عن الاسكندرية أربعة أميال — اعترض طريق السفراء الرومان فلما اقتربوا منه حياهم الملك ومد يده لمصافحة يوبليوس غير أن يوبليوس سلمه لوحا مدونا عليه قرار السناتو ، وأمره أن يقرأه قبل أى شيء آخر فلما فرغ الملك من قراءته قال انه سوف يدعو اصحابه ليستشيرهم فيما ينبغى عمله . وعندئذ رسم يوبليوس بما جبل عليه من قسوة فى الطبع بعصاه التى كان يحملها فى يده ، دائرة حول الملك قائلا أعطنى ردا أبلغه للسناتو قبل أن تخطو خارج هذه الدائرة . وذهل الملك من لهجة الأمر العنيفة وتردد لحظة قصيرة قال بعدها : سأفعل ما يقرره السناتو . عندئذ فقط مد يوبليوس يده مصافحا الملك كما يمدها الى حليف وصديق . ولعل هذه القصة تظهر لنا كيف اصبحت روما مرهوبة الجانب ، صاحبة الأمر والنهى فى بلاد الشرق الاوسط .

وقد استجاب انطيوخوس لكلا المطلبين وبعث الى روما على ما يحدثنا ليفيوس المؤرخ الرومانى ، يبلغها فى ذلة انه اطاع أوامر سفرائها كما لو كانت صادرة من الآلهة — على عكس بطليموس السادس الذى أوفد بعثة ليشكر روما دون أن يجيب طلبها الذى طلبته منه وهو أن يسلم اليها عدوها بوليا رانوس الرودسى الذى كان ملتجئا الى مصر مكتفيا باعادته الى وطنه .

١٦٥ ق ٠ م :

أشعل ديونسيوس المصرى ثورة عارمة ضد بطليموس متهما اياه بانه يحاول قتل اخيه الصغير .

وجمع حوله العناصر المصرية فى الجيش ، واضطر بطليموس أن يلاحقه فى أنحاء البلاد ، وأن يلقى الكثير من العناء والتضحيات قبل أن ينجح فى اخماد الثورة .

١٦٤ ق ٠ م :

انتهت فترة الحكم المشترك فاندمج بطليموس الصغير فى ان يثير الاسكندريين ضد اخيه الكبير ، فأضطره الى الفرار من مصر : حيث اتجه صوب روما ، والتى انتهزت هذه الفرصة لتحكم بسط يدها وسلطانها ونفوذها على مصر فنصح له السناتو بأن يتوجه للاقامة فى قبرص ، ريثما يرسلون بعثة الى مصر لدراسة الموضوع .

١٦٣ ق ٠ م :

اكتشف الاسكندريون خطأهم فى مظاهرة بطليموس الصغير اذ وجدوه سفاكا

محبا للدماء طاغية بعكس أخيه الكبير الذى كان يتمتع بأخلاق كريمة لم ينعم بمثلها احد من أفراد أسره البطالمة على ما يقول المؤرخ المعاصر يوليبيوس — ولذلك فقد استدعوا فيلومنور من قبرص ليتولى العرش فلبى وعاد الى الاسكندرية .

ولكن البعثة الرومانية التى جاءت بناء على طلبه . . ساءها هذا الانتصار ، فقررت ان تبدأ خطوتها الاولى فى تقسيم الدولة المصرية بين الاخوين . فعقدت اتفاقا يأخذ بمقتضاه بطليموس الصغير فورنياتيه ، ويحتفظ بطليموس فيلومنور بمصر وقبرص

وقد ارتضى بطليموس فيلومنور هذا الاتفاق واستقل هو وزوجته بحكم مصر حتى مات ، وبدأ عهده الجديد باصدار عفو عن كل الجرائم التى ارتكبت منذ تولى العرش حتى هذا التاريخ .

١٦٠ ق . م :

انشأ اليهود فى مدينة ليونتوبوليس معبدا ينافسون به معبد أورشليم العظيم .

١٥٤ ق . م :

لم يرض بطليموس الصغير عن هذا الاتفاق من اللحظة التى تم فيها ، وما فتىء يستصرخ روما أن تساعده على احتلال قبرص وضمها الى مملكته ويتهم أخاه بأنه يدبر المؤامرات له . . وهذا مدى ارتباطه بروما ، وبالاضافة الى رغبتها فى استمرار النزاع بين الأخوين بل وذهب الى أبعد من ذلك اكسب ود روما اذ أوصى لها بدولته بعد موته عن غير وارث . . فكان من الطبيعى أن يلقى آذانا صاغية فى روما التى كان يهمها أضعاف مصر ، فأشارت على بطليموس السادس أن ينزل له عن قبرص ، ولكنه رفض ، فشجعت بطليموس الصغير على غزو قبرص وطالبت حلفاءها فى شرق البحر الأبيض بمساعدته ، ولكن بطليموس السادس استطاع أن يهزمه ويدحره ووقع فى يده أسيرا ، ولكنه عفا عنه وسمح له أن يعود الى مملكته فى ثوريتانية . . ووعده بتزويجه من ابنته .

١٥٢ ق . م :

اشترك فيلومنور فى حلف ضد ديمتريوس الاول ملك سلوقيا للانتقام لنفسه من الاهانات التى تلقاها فى بداية حكمه ، واذ كان يعرف أن روما لن تسمح له باستعادة امتلاك جوف سوريا فقد اكتفى بتأليب اليهود ضد ديمتريوس . . كما أيد ادعاء شخص يدعى بالاس فى عرش سوريا اتخذ اسم الاسكندر ، ولقى ديمتريوس حتفه فى ميدان القتال فى صيف ١٥٠ على يد جيش بطلمى .

١٥٠ ق ٠ م :

اصبح بالاس ملكا على سوريا وبابل وتزوج بالاس من ابنة فيلومنور المسماة كليوبترا (نيا) .

ولكن الحوادث اثبتت أن بالاس لم يكن بالرجل الجدير بالملك فكرهه شعبه ، ونحداه ديمتريوس الثانى ابن ديمتريوس الاول .

١٤٧ ق ٠ م :

دخل بطليموس فيلومنور بجيشه الى بلاد سوريا وفلسطين لمساعدة بالاس زوج ابنته بادىء الأمر ، ولكنه لم يلبث أن انحاز الى ديمتريوس الثانى .

وقد استقبلته مدن فلسطين اليهودية ومدن فينقيا استقبالا رائعا حتى لقد عرضت عليه انطاكية العرش ، ولكن فيلومنور ادرك ان ذلك يزج به فى صراع مع روما التى كانت تقف له بالمرصاد ولذلك فقد اقنع الاهالى بقبول ديمتريوس الثانى ملكا عليهم وزاد على ذلك أن زوجه ابنته كليوبترا ثيا وذلك مقابل النزول عن جوف سوريا لمصر .

١٤٦ ق ٠ م :

انتهاء الحرب اليونانية الثالثة بتدمير قرطاجنة وابادتها على يد سكيبيو آيماليانوس .

نجح بالاس فى اعداد جيش جديد زحف به على شمال سوريا فتصدى له فيلومنور على ضفاف نهر أونيو باراس حيث هزمه نهائيا ولقى حتفه ، ولكن فيلومنور بدوره أصيب بجرح قاتل ، اسلم الروح على أثره بعد اربعة ايام .

١٤٥ ق ٠ م :

وقد كتب يوليبوس عن فيلومنور يقول : انه كان اكثر كافة الملوك الذين عاشوا قبله وداعة وطيبة ، واليك دليلا بينا : فهو لم يقض بموت احد من أصدقائه بسبب اى تهمة وجهت اليه ، واعتقد تماما انه لم يمت بأمر منه أى اسكندرى .

وقد اعتبر ديمتريوس ان نزوله لمصر عن جوف سوريا كان لم يكن .. وانتهز فرصة موته وطالب جيوش بطليموس اما ان تنضم اليه أو ان تنسحب الى مصر .

اغسطس ١٤٥ ق٠م : بطليموس السابع : ثيوس فيلوماثور :

كان بطليموس السادس (فيلوماثور) قد انجب من زوجته كليوبترا الثانية ولدين اكبرهما يوباثور وقد اشركه معه فى الحكم عام ١٥٢ ولكنه لم يلبث ان مات بعد عامين . فبقى ابنه الأصغر تيوس فيلوماثور تحت وصاية امه كليوبترا الثانية .

سبتمبر ١٤٥ ق٠م :

ارتقاء بطليموس ملك قوريتانية عرش مصر ، اذ لم يكد يسمع عن موت فيلوماثور حتى عرفت اطماعه وزحف بجيشه صوب الاسكندرية ، وارسل الى روما يذكرها بانه رجلها الذى يجب ان تعتمد عليه . ووجدت روما مصلحتها المحققة فى أن يكون هو وليس ابن فيلوماثور ملكا على مصر ، فسوف يكون مدينا بعرشه لمساعدتها بعكس الآخر .

واقنع الرومان كليوبترا الثانية ان تتزوجه وبهذا تصبح شريكة له واذ وجدت ان لا سبيل امامها غير ذلك ، خاصة وقد ناهضها فريق كبير من سكان الاسكندرية لعطفها على اليهود ، فقد انصاعت للنصيحة وارتقى بطليموس ملك قوريتانية عرش مصر واتخذ اللقب الالهى الذى كان يحمله بطليموس الثالث فأصبح يطلق عليه اسم يورجتس الثانى .. الذى بدأ حكمه الدموى بذبح ابن اخيه ثيوس فيلوماثور ويؤكد يوسبتوس المؤرخ انه ذبحه فى حضن امه ليلة الزفاف . وعلى اية حال فلم يكن قتل ثيوس فيلوماثور الا اول حلقة من سلسلة المآسى التى خضبت حكم يورجتس الثانى المخيف بالدماء .

فقد اطلق لنفسه العنان فى قتل كل من يتشكك فى اخلاصهم له .. وقسا على علماء الاسكندرية وفنانيها فقد كانوا يعطفون على فيلوماثور مما جعلهم يفرون الى أنحاء العالم الاغريقى فبعثوا نهضة فى كل الاماكن التى فروا اليها .

ونال اليهود الذين كانوا محل عطف فيلوماثور من اضطهاده .

١٤٤ ق ٠ م :

رسم يورجيتس الثانى فى منف فرعونا وكان يسمى فبسكون اى البطين لترهل جسده وافراطه فى سمنته ، وانجبت له كليوباترا الثانية ابنا سمى ممفيتس .

١٤٢ ق ٠ م :

ورغبة فى أن يحد يورجيتس من اطماع زوجته كليوباترا الثانية ، تزوج ابنتها

كليوباترا الثالثة التى لم تكن تقل عن امها طموحا وقسوة ــ وتذكر الوثائق التاريخية من ذلك العهد فى ديباجتها عبارة : الملك والاخت والملكة الزوجة .

١٤٠ ق . م :

وصول وفد رومانى على راسه سكيبو الذى دمر قرطاجنة فاستقبله يورجيتس بحفاوة بالغة ، ومشى مع الوفد من الميناء الى القصر الملكى وهو يلهث لفرط بدانته ــ وتقول القصة ان سكيبو اسر فى اذن بتلماتوس العسقلونى الذى كان يصاحبه فى الوفد ــ ان مواطنى الاسكندرية مدينون لنا بشىء واحد هو انهم شاهدوا ملكهم يسير على قدميه وقد سافر سكيبو فى النيـل حتى وصل الى ممفيس وشاهد فى الطريق الحقول الخصبة والقرى الاهلة بالسكان .

١٣١/١٣٠ ق.م :

اندلع لهيب الثورة الذى كان متوقعا منذ أمد بعيـد نتيجة تصرفات يورجيتس الدموية وحنق كليوبترا الثانيـة وسخط الاسكندريين عليه لتبعيته لروما وقد أراد ان يخمد الثورة بعمل يلقى الرعب فى القلوب فحاصر الجيمنازيوم وكان غاصا بالسكان واشعلوا النار فى المبنى وقتلوا كل من حاول الفرار ، ولكن ذلك أدى الى استفحال نار الثورة ففرر الاسكندريون حرق القصر الملكى واشعلوا النيران فيه : ولكنـه كان قد تمكن من الفرار الى قبرص مع كليوبترا الثالثـة واولاده منها وكذلك ممفيس ابنـه من كليوبترا الثانية ، التى انفردت بالحكم على العرش وتحدثنا المصادر التاريخية المعاصرة أن يورجيتس قتل ابنه فى ثورة غضبه وقطعه اربا وارسل اشـلاءه الى أمه كليوبترا الثانية هدية فى يوم عيد ميلادها .

١٢٧ ق.م :

سقوط الاسكندرية من جديد فى يد يورجيتس الذى كان قد عاد الى مصر بعـد أن أعقبت مغادرته لها ثورات وفتن قامت فى انحاء البلاد ، حيث كان الاغريق واليهود وجانب من الجيش يؤيد كليوبترا الثانيـة بينمـا كان باقى الجيش وفريق كبير من الشعب المصرى يؤيد يورجيتس ، ذلك أن يورجيتس بكل وحشيته ودمويته بالنسبة للاغريق واليهود وسـكان الاسكندرية ، فقد كان يحسن معاملة المصريين . وعنـدما دخل يورجيتس الاسكندرية كانت كليوبترا الثانية قد لحقت بزوج ابنتها ديمتريوس الثانى الذى كان قد تصالح مع زوجته كليوبترا ثيا واستأنفا الحكم سويا .

وكان ديمتريوس قد خف فى بادىء الأمر عام ١٢٨ لنجدة كليوبترا الثانية ظنـا

منه أن الفرصة قد حانت لتحقيق الأطماع التى راودت أنطيوخوس الثالث والرابع . غير انه لم يستطع التقـدم وراء بليزيون حيث وجد بورجيتس فى انتظـاره : وقد استغل بورجيتس كراهية الجيش لديمتريوس وعمل على تأليب جيشه ورعيته عليه ولذلك فقد رفض الجيش الاشنباك مما اضطره للانسحاب .

فما كان من كليوبترا الا أن ولت الى سوريا حاملة معهـا كنوز الدولة معـللة نفسها بتكوين جيش يساعدها على استعادة عرشها .

« بطليموس الثامن » يورجيتس الثانى ـ اصدر قرار عام ١١٨ ق٠م :

جاء فيـه قيـام الخزانة الملكية بدفع نفقات دفن العجول المقدسـة وتأمين حق المعابد التى تتمتع بهذا الحق فى حماية اللاجئين . وحظر حرمان المعابد من هـذا الحق والاعتداء وبلغ ما يملكه معبد ادفو فى عهده من الأراضى ما يبلغ ١٤ ميلا مربعا .

١٢٤ ق٠م :

تصالح بورجيتس مع كليوبترا الثانية ، وذلك لاسترداد الكنوز التى هربت بها ، ولأنه كان لا يزال لها انصار كثيرون يصطدمون مع انصاره .

١١٨ ق٠م :

أصدر يورجيتس وكليوباترا الثانية قرارا بالعفو العام عن كل ما وقع من جرائم خلال الفترة الماضية . والاعتراف للجميع بحقهم فى الإحتفاظ بما كانوا يملكونه آنذاك وهكذا اعترف كل من بطليموس وكليوباترا بما كان الآخر قد منحه لانصاره ليطمئن الناس جميعا على ممتلكاتهم وتهدأ نفوسهم ويخلدوا جميعا الى السكينة .

١١٦ ق٠م :

فى ٢٨ يونيو من هذا العام مات يورجيتس فى الخامسة والستين بعد أن خلع عليه جنونه الدموى أسوأ سمعة لصقت بأى ملك من ملوك البطالمة ، على الرغم من محاولاته التى بذلها فى شيخوخته للتصالح مع اهل الاسكندرية والاغداق على العلماء والأدباء والفنانين ، ويرى اسـترابون ان يورجيتس تحمل نفقات بعثـة خرجت لاستكشاف الهند تحت اشراف الجغرافى يودكسوس .

وقد اتخذت المراكب المصرية تجوب البحر الأحمر ، وبعد أن كانت لا تتخطى بوغاز ٠

باب المندب ، اجتازت هذا البوغاز ووصلت الى حضرموت في جنوب بلاد العرب وبلاد بونت على شاطىء الصومال حيث كانت تستجلب العطور .

كما ابحر بودكسوس فى رفقة بحار هندى الى الهند — وقد ساعد على رواج تجارة مصر الشرقية انهيار مملكة سبأ فى عام ١١٥ ق.م وبمساعدة روما لمصر على حساب سوريا وفلسطين — واستكشاف هينالوس طرق الاستفادة من الرياح الموسمية عام ١٠٠ ق.م .

وكان يضمر حقدا دفينا لليهود لانهم شدوا أزر أخيه بطليموس السادس ضده ونشطت الرسائل المعادية لليهود .

اخذت ثورة المصريين فى الوجه البحرى شكل الاضراب العام وفى القبلى الحرب .

اصدر قرار العفو فى ١٤٥ ق.م . ثم فى عام ١٤٠ ، ١٣٩ — ثم عام ١١٨ ق.م .

وقد حرص يورجيتس قبل وفاته على ارضاء زوجته كليوباترا الثالثة على حساب امها فأوصى لها بالعرش من بعده ومن تختاره شريكا لها من بين ابنيها منه كما أوصى بمملكة قوريتانية لابنه غير الشرعى ايبون ، ولكن الاسكندريين فيما يبدو لم ينفذوا هذه الوصية ليحتفظوا بوحدة الدولة وجعلوا منه نائبا للملك . ويبدو أن أول ما فعلته كليوباترا الثالثة هو التخلص من امها كليوباترا الثانية بطريقة ما ، فقد اختفى ذكرها من الوثائق الادارية بعد عام ١١٦ ، ولم يعد يسمع عنها شىء .

١١٦ ق.م :

ارتقى بطليموس التاسع — سوثر الثانى (لانيروس) ابن يورجيتس الأكبر العرش على الرغم من معارضة أمه كليوباترا الثالثة لذلك حيث كانت تفضل أخاه الأصغر (الاسكندر) ولكن الاسكندريين أرغموها على تولية الأكبر ، فحكم الى جوارها باسم بطليموس التاسع واتخذ اللقب الالهى سوثر الثانى — وأطلق الأهالى عليه اسم (لاثيروس) ومعناه حمص .

واقامت كليوباترا ابنها الثانى (الاسكندر) نائبا للملك فى قبرص .

١١٥ ق.م :

طلق بطليموس التاسع اخته كليوباترا الرابعة التى كان يحبها حبا جما وذلك تلبية لارادة أمه التى لم يستطع أن يقاومها وتزوج بناء على طلب أمه كذلك اخته الصغرى كليوباترا الخامسة (سيلمى اى القمر) .

فنقمت كليوباترا الرابعة على أمها هذا العمل ،وحاولت ان تكيد لها وتثأر لنفسها،

فهاجرت الى قبرص ، وبعد ذلك الى سوريا ، حيث كانت تعرض يدها وأموالها على من يمكنها من العودة الى الاشتراك فى حكم مصر ، ولكن ذلك انتهى بمصرعها ، ولكن هذه الخلافات الدموية كانت تفرى فى جسد الدولتين السلوقية والمصرية وتعجل ساعة وقوعهما فى يد روما لقمة سائغة .

١٠٧ ق.م :

دبرت كليوباترا الثالثة خطة لحمل الشعب السكندرى على خلع ابنها بطليموس التاسع وقد نجحت الخطة بحيث اضطر للهرب بحرا للنجاة بنفسه تاركا وراءه زوجه وابنيه ، وقد استقر بعد حين فى جزيرة قبرص .

وكانت كليوباترا قد استدعت ابنها الاسكندر بطليموس العاشر وأشركته معها فى الحكم وقد أسرع الرومان فاعترفوا بالملك الجديد ، فقدكان يسرهم أن تسرى الخلافات فى دولة البطالسة . كما أسرع أبيون باعلان استقلاله فى قوريتانية ولكى يؤمن هذا الاستقلال ويفوز بتأمين روما أوصى بقوريتانية لروما بعد موته .

١٠٤ ق.م :

استغاثت مدينة عكا ببطليموس التاسع الذى كان يقيم فى قبرص لانقاذها من حصار يانايوس إسكندر ملك اليهود ، حيث كانت مملكة يهودية قد استردت قوتها بتحالفها مع دولة الرومان ، ووسعت رقعتها على حساب جاراتها ، وبلغ الأمر بأن نادى بانايوس اسكندر بنفسه ملكا ، وراح يعمل على استعادة مجد اليهود كما بلغوه أيام داود .

وقد رأى بطليموس التاسع فى هذه الاستغاثة فرصة لأن يعود الى الأراضى أيام داود .

وقد دارت بينه وبين ملك اليهود معارك على الأرض السورية انتصر فيها على اليهود وناصرته مدينة غزة التى كانت خصما لليهود ولكل من يحالفهم ، وأسرعت أمه كليوباترا الثالثة بجيوشها وأساطيلها لتواجه وتحبط مساعيه فوقفت الى جوار ملك اليهود .

وانتهت هذه الحروب والمعارك التى لم يستفد منها سوى اليهود بعودة بطليموس التاسع الى قبرص وعودة أمه الى الاسكندرية .

١٠١ ق.م :

وفاة كليوباترا الثالثة كوكى ، وانفرد الاسكندر الأول بملك مصر اسما وفعلا ، وقيل أن وفاة كليوباترا لم تكن طبيعية وان ابنها هو الذى قضى عليها .

واذ انفرد بطليموس العاشر بالملك ففسد انخرط فى شهواته ، قبل انه كان منتفخا من الشحم كأبيه الى حد انه كان يعجز عن المشى الا اذا سنده خادم من جانب ويقول المؤرخون المعاصرون ولكنه كان اذا شرب حتى ثمل اظهر رشاقة فا فى اداء الرقصات الخليعة .

٨٩ ق٠م :

كان طبيعيا أن يؤدى انفصال كوريناتيه عن مصر وسوء الأحوال الداخلية : انفجار الشعب السكندرى ، وأسرع الجيش بالانضمام الى الشعب ففر بطلي العاشر الى سوريا ولما حاول أن يسترد الاسكندرية بمساعدة جيش من المر طردوه مرة ثانية .. وانتهى الأمر بهلاكه فى معركة بحرية .

٨٨ ق٠م :

خلا الجو بوفاة بطليموس العاشر لبطليموس التاسع الذى استدعاه الاسكند من قبرص ليتولى حكم مصر ..

واذ كانت التقاليد تحتم وجود زوجين على العرش وكان بطليموس التاسع قا من العمر ٥٤ سنة فقد استدعى ابنته براتيكى الثالثة التى كانت زوجة بطلي العاشر واشركها معه فى الملك وعرفا معا باسم الالهين فيلادلفوى فيلومصو سوثيرس .

وكان المصريون فى داخل البلاد قد ضاقوا بهذه المنازعات التى لا تنقطع بين ا الأسرة الحاكمة .. وما يؤدى اليه ذلك من ضياع مصالح الشعب .. فقامت فى ا القبلى ثورة عارمة تزعمتها مدينة طيبة استمرت ثلاث سنوات : ولكنها انتهت بتخ طيبة عام ٨٥ ق٠م .

واذ كانت روما فى هذه الفترة مشتركة فى بعض الحروب فى آسيا الصغر وتمردت عليها آتينا ومدن الاغريق وكانت الفتن قد ثارت فى روما نفسها ضد ن الذين يقودون جيوشها فى الخارج وعلى رأسهم صلا ، فقد آثر بطليموس التاسع يقف على الحياد من هذه الأحداث .. فى الوقت الذى ساعد الاثينيين فيه على ا بناء مدينتهم التى خربها صلا حتى لقد اقاموا له ولابنته برنيكى الثالثة تمثالين مدخل الأورين اعترافا بجميلهما .

٨١ ق.م :

مات بطليموس التاسع عن اثنتين وستين سنة تقريبا .. تاركا وراءه على العرش ابنته برنيكى الثالثة ، باعتبارها الوارثة الوحيدة للعرش ، وقد رضى بها الاسكندريون ملكة حتى لا يثيروا الخلافات الأسرية ولأنهم كانوا يحبونها من ناحية أخرى .

ولكن بطليموس التاسع كان قد انجب ولدين من كليوبترا سلينى .. وكانت كليوبترا الثالثة قد أرسلتهما الى كوش حوالى ١٠٣ ق.م . محافظة على سلامتهما كما أرسلت ابنا لبطليموس العاشر .

وقد فر هذا الأخير وانضم الى صلا القائد الرومانى الذى أخذه معه الى روما ، فلما أن مات بطليموس التاسع ، وكان صلا قد أصبح فى ذلك الوقت ديكتاتور روما وسيد العالم الرومانى — رأى أن ليس هناك ما يخدم مصالح روما اكثر من أن يقيم على عرش مصر صنيعة له — فأرسله الى الاسكندرية بأوامر منه أن يكون ملكا .

فنودى به ملكا باسم بطليموس الحادى عشر اسكندر الثانى وتزوج برنيكى الثالثة ابنة عمه . وكانت زوجة أبيه فيما مضى .

ويبدو أن برنيكى لم تعبأ بهذا التعيين لاعتقادها أنها ستستطيع السيطرة على زوجها الصغير واستبقاء كل السلطة الفعلية فى قبضتها ولكن بطليموس الحادى عشر كان مصمما فيما يبدو على أن يكون اسما وفعلا ولذلك فقد قتل زوجته فى اليوم التاسع عشر من زواجه منها .

فأهاجت هذه الجريمة الاسكندريين الذين انقضوا عليه فى القصر وجروه منه وقتلوه فى الجيمنازيوم .. وهكذا لم يدم حكمه اكثر من تسعة عشر يوما .

بطليموس الثانى عشر (الزمار) :

وقد أسرع الاسكندريون لاستدعاء ولدى بطليموس التاسع اللذين كانا فى سوريا ، وجعلوا من أكبرهما ملكا على مصر واصغرهما ملكا على قبرص . وقد اتخذ ملك مصر الجديد بطليموس الثانى عشر لقب فيلاباتور فيلادلفوس — لكنه لم يلبث أن أضاف الى ذلك لقب « نيوس ديونسيسيوس » .

ولكن اكثر القابه شيوعا كان هو لقب أولينس أى « الزمار » حيث كان يهوى عزف الناى واذ كان ارتقاء هذا الملك الجديد قد تم بارادة الشعب الاسكندرى وبغير استشارة روما فقد رفضت الاعتراف بالملك الجديد ، وزعمت أن بطليموس الحادى عشر كان قد أوصى بمصر لروما ، ولا تفسير لذلك الا أن يكون صلا قد أرغمه قبل ارساله الى مصر على كتابة هذه الوصية . ولكن انهماك روما فى خلافاتها الداخلية وحروبها المتعددة من ناحية ، ومبادرة بطليموس الزمار لرشوة نبلاء روما واعضاء مجلس

شيوخهـا .. ابقـاه على العرش على انه أصبح فى روما منـذ ذلك الوقت ما يعرف « بالمسألة المصرية » والتى اختلفت حولها الأطراف ما بين داع الى ضمها الى ممتلكات روما ، وما بين معارض لذلك لمجرد النكاية فى الحزب الآخر لاضعافه .

وقد اتم بناء وزخرفة معبد ادفو ــ وهو من أروع ما انتجه فن العمـارة المصرية فى عهـد البطالسـة .

وقد قامت ثورة فى عهد سوتر الثانى .

٧٤ ق.م :

ضمت روما قوريتاتنية الى مملكاتها فحولتها الى ولاية رومانية بناء على الوصية التى أوصاها بطليموس آبيون عام عام ٩٦ ق.م . مما زاد فى ازعاج بطليموس الزمار ، وجعله يضاعف فى خضوعه لروما وتزلفه لها ، ورشوته لكبار رجالها ، حتى لا تنفـذ الوصية المقول بان بطليموس الحادى عشر تركها لها .

٦٥ ق.م :

قدم الحزب المناوىء لبومبى وعلى رأسـه كراسوس ويوليوس قيصر ، لمجلس الشيوخ الرومانى مشروعا لضم مصر للامبراطورية وتكليف يوليوس قيصر بالقيـام بهذه المهمة ، بحجة تنفيذ وصية بطليموس الحادى عشر ولأن مصر كانت أغنى دولة فى البحر الأبيض المتوسط ، وان قمح مصر الفائض عنهـا سوف يتدفق على أسواق الامبراطورية الرومانية ــ ولكن هذا المشروع رفض بفضل معارضة شيشرون صديق بومبى ــ ومعارضة النبلاء حتى لا تذهب خيرات مصر الى خصومهم من رجال حزب الشـعب .

وتوالت المشروعات السافرة والمقنعـة لضم مصر ولكن انصـار بومبى استطاعوا ان يحبطـوها .

٦٤ ق.م :

نجاح بومبى لتحويل سوريا الى ولاية رومانية .

٦٣ ق.م :

نجاح بومبى فى ضم فلسطين وتحويلها الى ولاية رومانية واذ كان الفزع قد استبد

ببطليموس الثانى عشر فقد أمطر بومبى وجيشه بالهدايا ودعاه لزيارة مصر . وقد قبل بومبى الهـدايا ولكنـه رفض الدعوة ـ وعاد الى روما ليـدخل فى تحالف مع خصميـه القديمين كراسوس وقيصر ، مؤلفـين بذلك ما يعرف فى التـاريخ باسم « الحكومة الثلاثية الأولى » .

٦٠ ق٠م :

زار ديودورس الصقلى المؤرخ مصر فى هذا العام ، ووصف لنا كيف كان المصريون من شدة فزعهم من روما يستقبلون أى وافد من ايطاليـا بحفاوة بالغـة . وخرجوا مدفوعين بالخوف على الا يهيئوا للرومان سـببا للشـكوى منهم أو اشـهار الحرب عليهـم .

ويروى حادثا يقول انه رآه بعينه وذلك أنه عندما قتل احد الرومان قطا تدفقت الجماهير الغفيرة على بيته ولم يستطع الموظفون الذين أرسلهم الملك للمطالبة بالرجل ولا شعور بالخوف العـام من روما أن ينقذه من العقـاب مع أن ما فعله كان عن غير قصـد .

٥٩ ق ٠ م :

فقد نجح بطليموس الثانى عشر من ابتياع تأييد يوليوس قيصر ـ الذى عين قنصلا عاما وكان فى مسيس الحاجـة الى النقـود ـ بمبلغ كبير قدره ٦٠٠٠ تالنت أى ما يعادل ١ر٣٢٠ر٠٠٠ جنيه تقريبا .

وصدر قانون خاص بملك الاسـكندرية اعترف فيـه ببطليموس الزمار ملكا ـ وفى الوقت نفسه صديقا وحليفا الشعب الرومانى جزاء لمـا قدمه من الخـدمات للجيش الرومانى فى آسـيا .

وتنفيذا لهذا القانون عقدت معـاهدة تحالف مع مصر ووضعت نسخة منهـا فى سجلات الكابتول .

٥٨ ق٠م :

ضمت روما جزيرة قبرص وصادرت أملاك التاج بها لصالح الخزانة الرومانية . وقد انتحر ملك قبرص بتناول السم رافضا ان ينفذ هذا القانون طواعية واختيارا . وقد كانت هذه عملية سطو سافرة لم تعوزها كما هى العـادة الحجج فقد اتهم ملك قبرص بأنه كان يعادى روما ، كما اثيرت من جديد مسـألة الوصـية التى أوصـاها

بطليموس الحادي عشر ... ولكن كانت روما باعترافها ببطليموس الثـانى عشر ملكا على مصر وحليفا ، قد ابطلتها .

وهكذا لم يبق لدولة البطالسة سوى مصر فقط .

وغضب الاسكندريون لضياع قبرص وطالبوا بطليموس اما ان يعمل على استرداد قبرص أو أن يقطع علاقتـه بالرومان ، واذ بلغت ثائرة الاسكندريين الى الحد الذى ينذر بالخطر فقد فر بطليموس الزمار نجاة بنفسـه حيث ذهب الى روما يستعدبها على شعبه ، حيث استقبله بومبى .

وعلى الفور أقام الاسكندريون ابنته برنيكى الثالثة مكان ابيها على العـرش .

٥٦ ق.م :

تزوجت برنيكى الثالثة ارخلاوس احد امراء سوريا ، ليكون شريكا لها فى العرش ويدافع عن مصر ضد الاخطار التى اصبحت تتهددها .

٥٥ ق.م :

لجأ بطليموس (الزمار) الى حاكم سوريا الرومانى ليساعده على استرداد عرشه بعد أن فشل فى حمل مجلس الشيوخ الرومانى على اعادته بالقوة .

وقد استطاعت جيوش جابينوس حاكم سوريا التى كان بطليموس على راسـها أن تدخل الاسكندرية .

وفى هذا الجيش الرومانى ظهـر ماركوس انطيوس لأول مرة على الأرض المصرية التى سيعلب عليها دورا كبيرا فى المستقبل ، وكان قائد الفرسان .

ولم يكن لبطليموس بعد عودته من هم الا ان ينتقم من ابنته وانصارها باعدامهم وهو ما أقدم عليه بالفعل ، وامتصاص دم رعاياه للوفاء بدينه للمرابين الرومان الذين أقرضوه الأموال اللازمة لاستعادة عرشه ، ولدفع الرشوة التى وعد بها حاكم سوريا . حتى لقد عين رابيروس المرابى الرومانى وزيرا للمالية لكى يحصل الديون : ورشوة جابينوس ... الأمر الذى جعله يعتصر الشعب اعتصارا ــ الأمر الذى نذر باندلاع الثورة ، مما اضطر بطليموس الى القبض عليه وعماله وسجنه وذلك لتهدئة غضب الجماهير وحماية له من ناحية أخرى .. وهرب رابيروس ، خاويا خالى الوفاض ، بعد أن اوشك أن يهلك اكثر من مرة . وقد اتضح ذلك كله من المحاكمات التى تعرض لها هو وجابينـوس حاكم سوريا فيما بعـد فى روما ، لاتهامهمـا بالخيانة العظمى والرشـوة .

٥١ ق٠م

مات بطليموس الزمار مكروها من شعبه محتقرا من الرومان .

ويحدثنا اسـترابون بأن كل البطالسة الذين أتوا بعد بطليموس الثالث كانوا ملوكا عابثين أفسـدتهم الرذائل ، وان أسـوأهم جميعـا كان رابعهم بورجيتس الثانى وبطليموس الزمار ، وان الأخير أضـاف الى عبثه وفجوره ولعا شديدا بلعب المزمار وانه كان فخورا بمواهبه الموسيقية الى حد انه كان لا يخجل من الاشتراك فى المسابقات الموسيقية التى كان يقيمها فى قصره .

حكم كليوباترا السابعة وبطليموس الثالث والرابع عشر

لم يمت بطليموس الزمار الا بعد ان كان قد أنجب ابنتين هما كليوبترا وراسينوس وولدين وهما بطليموس الثالث عشر وبطليموس الرابع عشر ، وكان قد أوصى أن يلى العرش ابنه الاكبر البالغ من العمر عشر سنوات ، على ان يتزوج أخته كليوبترا البالغة من العمر ثمانيه عشر عاما ويشركها معه فى الحكم . ولما كان بطليموس الزمار يعرفه كراهية الاسكندريين فقد عهد الى الشعب الرومانى بالاشراف على تنفيذ وصيته ، وارسل نسخة من الوصية الى روما وأودع الثانية الاسكندرية .

وقد نفذ الاسكندريون الوصية حتى لا يدعوا مجالا لروما للتدخل ، وهكذا بدأت كليوبترا السابعة حكمها والتى كان مقدرا لها أن تخلد من دون سمياتها عبر التاريخ على الرغم من ان نهاية الحكم البطلمى وتحول مصر الى ولاية رومانية كان على يدها .

والقول على انها لم تكن فاتنة من حيث الجمال ، ولكن هناك اجماعا على جاذبيتها الشديدة وقدرتها على اثارة حب الرجال ، وكانت مثقفة ثقافة عالية مع الاحاطة بعديد من اللغات — وللمصريين كانت تبـدو كانها ايزيس عاطفة عليهم — ولم تكن تتحرج او تتأثم عن فعل شىء ولكنها كانت قادرة على أن تثير فى من تختاره صـديقا لها ، أعمق مشاعر الولاء لها — واذ كانت تملك طاقة كبيرة وشجاعة وجاذبية وذكاء ، فقد كرست حياتها لتحقيق هدفين — تثبيت دعائم مكانتها ومكانة أسرتهـا فى مصر وأن تشارك فى السـلطة المركزية لروما . وقد كان هـذا الهـدف الأخير الذى يملأ قلب أعدائها من الرومان بالحقد .

٤٦ ق٠م :

ثار النزاع فى روما بين قيصر وجيوشه من ناحية وبومبى ومجلس الشيوخ من ناحية أخرى . فاضطر بومبى الى الجلاء عن ايطاليا والانسحاب الى الشرق ، وأرسل ابنه خنابوس الى كليوبترا يطلب منها المعونة . فأمدته كليوبترا بخمسين أو سـتين

سفينة ومددا من القمح وقوة قوامها خمسمائة رجل من حامية جانبيوس التى كان قد تركها بالاسكندرية وقد أوغر ذلك صدر الشعب السكندرى ضد كليوبترا فأجبرها على الفرار من مملكتها ، ولكنها اذ كانت تحمل فى عروقها دم كل الملكات المقدونيات اللواتى سبقنها من حيث الطموح وقوة الارادة ، وزادت على كل الملكات اللواتى سبقنها تعلمها اللغة المصرية بل والعامى منها ، ولغات البدو والعبرانية .. فقد ذهبت الى حدود مصر الشرقية وراحت تجند من الاعراب جيشا راحت تزحف به على مصر ، فجمع اوصياء الملك قوة وأسرعوا شرقا ومعهم الملك الصغير لصد كليوبترا ، فتواجه الجيشان عند راس كاسيون شرقى بلوزيون .

٤٨ ق٠م :

هزم بومبى فى موقعة فارسالوس امام جيوش قيصر ، ففقد ثقته بنفسه ولاذ بالفرار والتجأ الى معسكر الملك بطليموس الصغير ، فذبحه انصار الملك ليتقربوا بهذه الفعله الى يوليوس قيصر ، الذى وصل بعد وقوعها ونزل فى الاسكندرية فى قوة صغيرة لا تزيد عن ٨٠٠ فارس و٣٢٠٠ من المشاة ، وسار فى طرقاتها تحفه شارات الحكم الرومانى بوصفه قنصلا واتخذ من قصر البطالمة مسكنا له . وقد دل هذا التصرف على انه اعتبر مصر ولاية رومانية والاسكندرية مدينة مقهورة ، فأحنق ذلك الشعب الاسكندرى وغلت مراجل غضبه ، فاعتكف يوليوس قيصر فى القصر وما يحيط به ، ليأمن غائلة الشعب . وأرسل يستدعى كليوبترا وبطليموس المتنازعين ليمثلا امامه ويحكم بينهما طبقا للوصية التى تركها أبوهما بطليموس الزمار .

وكان على كليوبترا لكى تمثل أمامه بدون أن تقع فى يد خصومها أن تتسلل متخفية ، فهربها بعض انصارها الى داخل القصر ملفوفة فى سجادة . ولم تكد كليوبترا تنجلى امام يوليوس قيصر حتى ملكت عليه لبه وأسرته بغرامها . وحاول قيصر ان ينفذ نص الوصية وهو أن تحكم كليوبترا بالاشتراك مع بطليموس الصغير ، ولكن الصبى ما كاد يرى أخته حتى استولت عليه عاصفة من الغضب والقى بتاجه وجرى فى الشوارع يصرخ من الخيانة ، مؤلبا الشعب على روما وقيصر وأخته ، واعد أوصياؤه العدة لمحاربة يوليوس قيصر . فزحفوا بالجيش الذى كان معدا ومجهزا فى بلوزيون وزحفوا به على الاسكندرية ، وحاصروا يوليوس قيصر وجيشه فى الحى الملكى ، فأرسل يوليوس قيصر يطلب النجدات من أرجاء الامبراطورية بينما صمد للحصار الذى فرض عليه .

ولما كان للاسكندريين فى الميناء ٧٢ سفينة وفى الأحواض ٣٨ سفينة أخرى ، فقد قرر يوليوس قيصر احراقها حتى لا ينتفع بها المحاصرون له ، فامتد اللهب الى المكتبة الكبرى على ارجح الآراء فاتى على هذا التراث الانسانى الذى لم يسبق له مثيل فى دنيا المعرفة والتحضير .

وليس هناك ما يصور الموقف أدق تصوير من أن ننقل بعض فقرات من كتاب حرب الاسكندرية :

« واذ كانت الاسكندرية مدينة غزيرة الانتاج وافرة الثراء ، فقد اخذت تجهز معدات من جميع الأنواع ، وكان سكانها أنفسهم على أكبر قدر من الذكاء وسعة الحيلة . وعندما رأوا ما صنعناه من معدات صنعوا مثلها بمهارة فائقة حتى بدأ كأن رجالنا اقتبسوها منهم ، كما ابتكروا بأنفسهم أشياء كثيرة . ولم يتمكنوا من مهاجمة تحصيناتنا فى نفس الوقت الذى كانوا يدافعون فيه عن مراكزهم . وقد اخذ زعماؤهم يسوقون مثل هذه الحجج فى المجالس والاجتماعات الشعبية . فقد حضر أولوس جابينيوس بجيشه الى مصر منذ سنوات قليلة مضت . كما التجأ اليها بومبى بعد فراره . وها هو ذا قيصر جاء مع قواته ، ولم يحمله موت بومبى على العدول عن البقاء بينكم . فاذا لم تطردوه فستصبح مصر ولاية بعد ان كانت مملكة . ولابد أن يتم جلاؤه بسرعة لانه معزول بفضل العواصف فى مثل هذا الفصل من السنة ، فلا يستطيع أن يتلقى امدادات من وراء البحر » .

٤٧ ق.م :

٢٧ مارس : احرز يوليس قيصر النصر على بطليموس بعد ان وصلت اليه النجدات من الشرق برا ومن البحر . وقتل بطليموس الثالث عشر فى المعركة .

ومضى قيصر فى تنفيذ وصية بطليموس الزمار فأقام كليوبترا ملكة على مصر وأشرك معها فى الحكم أخاها الأصغر بطليموس الرابع عشر .

وامضى مع كليوباترا ثلاثة اشهر أخرى .. ولم يغادر مصر مبحرا الى سوريا ليقصد منها آسيا الصغرى الا فى المدة بين ١٥ ابريل و ٥ مايو من السنة . وقد اعتبرت كليوبترا نفسها زوجة شرعية ليوليوس قيصر وأطلقت على ابنها منه الذى انجبته فى شهر يونيو من نفس العام اسم قيصر وان كان الاسكندريون أطلقوا عليه اسم قيصرون .

٤٦ ق.م :

وصلت كليوباترا الى روما لتحقيق مشروع زواجها رسميا واعتراف يوليوس قيصر بابنه منها ، وقد اسكنها قيصر وابنها وأخاها وحاشيتها فى قصره عبر نهر التيبر ، وقد شهدت مع قيصر الاحتفالات الراقصة التى أقيمت بمناسبة انتصاراته الضخمة ، وقد اقام لها قيصر تمثالا من الذهب فى معبد فينوس التى كانت تعتبر أم

الرومان جميعا ... على انه يؤلهها تمهيدا لزواجه منها ، كما نقل انطونيوس الى مجلس الشيوخ ... عتراف قيصر بأبوته لقيصرون .

وهكذا عاشت كليوباترا فى روما باعتبارها سيدة روما المقبلة ، وعلى هذا الأساس كان نبلاء الرومان يكرهونها ، وفى ذات الوقت يتزلفون اليها ، فى الوقت الذى كانت تتعالى عليهم بل لقد حدثنا شيشرون أنها عاملته بطريقة مسيئة .

٤٤ ق.م :

فى منتصف مارس من هذه السنة قتل يوليوس قيصر نتيجة المؤامرة الشهيرة التى دبرها له أحرار الرومان من أعضاء مجلس الشيوخ وعلى رأسهم بروتوس وكاسيوس ، خوفا منهم من أن يعلن يوليوس قيصر نفسه ملكا عليهم ، وكراهيتهم لحكم الفرد البطل وانفراده بالسلطة .

وكان طبيعيا وقد انهارت آمال كليوباترا وخططها بمصرع قيصر ان تفر عائدة الى مصر .

ورغبة منها فى تثبيت مركزها فى مواجهة روما .. اشركت معها ابنها قيصرون فى الحكم . ويرينا معبد دندرة كليوباترا فى صورة الآلهة حتحور ومعها ابنها قيصرون فى شكل فرعون .

٤٣ ق.م :

تألفت الحكومة الثلاثية الثانية من اكتافيوس ابن بنت اخت قيصر الذى أوصى يوليوس قيصر بأن يكون وريثه ، ومن انطونيوس الذى اضطلع ببعث الاقتصاص من قتلة قيصر ، فألقى تأبينه التاريخي المشهور لقيصر والذى قلب فيه عواطف جماهير روما ضد قتلة قيصر ، أما ثالث الحكومة فكان يدعى لبيدوس حاكم ولايتى الغال واسبانيا وتم الاتفاق على أن تدوم هذه الحكومة حتى شهر يناير سنة ٣٧ ق.م.

وكان من بين أعمال هذه الحكومة الاعتراف رسميا بديانة ايزيس المصرية ، والتى كانت روما تتأرجح حيالها بين التشجيع والحظر منذ عام ١٨٦ ق.م.

وقد وقفت كليوباترا بحذق عجيب على الحياد خلال الصراع الذى نشب على السلطة عقب وفاة قيصر ، فلم تنحز كما كان متوقعا الى أنصار قيصر وآثرت أن تنتظر نتيجة المعركة فدل ذلك على أنها كانت تفكر بعقلها لا بعاطفتها ، وتعمل طبقا لمصالح استقلال مصر .

٤٢ ق٠م :

انتصر اكتافيوس وانطونيوس نهائيا فى معركة لحيلى الحاسمة على قتلة قيصر ، وعهد الى انطونيوس بتنظيم شئون الشرق ، بينما عاد اكتافيوس الى ايطاليا ليوزع الأراضى بين جنوده القدماء .

ووصل انطونيوس الى افسيس ، وبدأ يستدعى حكام الشرق الذين حامت حولهم الشبهات فى خلال الصراع الذى تلا مقتل قيصر ، وكانت كليوباترا ممن تلقت طلب الاستدعاء فلم تلبه فى بادىء الأمر ، وتركته طويلا فى انتظارها .. فلم يلبث ان أرسل لها رفيق مجونه ليستحثها على لقاء انطونيوس فى كيليكيا ، فرأت كليوباترا ان تشرع فى خطتها الجديدة ، وهى ان تستولى على لب سيد روما الجديد كما سلبت لب سيدها السابق .

فاستقلت مركبا مقدمها من الذهب ، وقلاعها من القماش الارجوانى اللون ومجاديفها من الفضة ووسط العطور العبقة والموسيقى الشجية ، وبين غوان تمثلن آلهة الحب وعرائس البحر . وصلت الى طرسوس ، ودعت انطونيوس الى مقابلتها على هذا المركب ولم تذهب اليه ..

وقد أخذ ذلك المنظر بلب انطونيوس فوقع أسير غرام كليوباترا ، واصبح مصيره منذ هذه اللحظة بل مصير روما كلها رهنا بمشيئة الملكة المصرية وكان أول ما فعله أن جاء مع الملكة الى مصر ، حيث قصت كتب الأدب والتاريخ حياة كليوباترا وانطونيوس فى هذه الفترة ، فى كثير من الخيال ، والمبالغات المسرفة ، حتى ليعزون الى كليوباترا أنها كانت تذيب اللآلىء الغالية فى الخل لتشرب وتسقى انطونيوس ، ويدحض الدكتور ابراهيم نصحى هذه الخرافات بحجة بسيطة ناصعة وهى ان الخل لا يذيب اللؤلؤ .

٤٠ ق٠م :

غادر انطونيوس مصر ليواجه مشاكل الامبراطورية . وقد كاد يقع الاصطدام بينه وبين اكتافيوس ، ولكن مساعى التوفيق نجحت بين الرجلين اللذين اصبحا سيدى الدولة الرومانية وبمقتضى الصلح الذى تم بين الرجلين أعطى الشرق لانطونيوس على ان تنتهى منطقته عند شاطىء البانيا ، وكان الغرب من نصيب اكتافيوس. بينما احتفظ ليبدوس بشمال افريقيا وتأكيدا لأواصر الاتفاق تزوج انطونيوس اكتافيا أخت اكتافيوس . واتخذ من اثينا مقرا لحكمه .. وهكذا بدا كما لو كانت كليوباترا قد اختفت نهائيا من صورة حياته ، فى الوقت الذى كانت فيه قد انجبت منه توأمين فى هذه الفترة سميا اسكندر هليوس (أى الشمس) وكليوباترا سيلنى أى القمر .

٣٧ ق٠م :

وصل انطونيوس الى انطاكية بعد أن أعاد زوجته اكتافيا الى ايطاليا لتخ
وأرسل يستدعى كليوباترا الى جانبه ، ولم تكد تصل اليه حتى تزوجهـا
واعترف بابنيه منها ، واصـبحت كليوباترا فى نظر الجميع شرق بحر الادر
زوجة انطونيوس الشرعية وان رفض الرومان اعتبارها كذلك لعدم تطليق از
لاوكتافيا .

وقد طلبت كليوباترا هدية زواجها من انطونيوس أن يعيد لها امبراطورية
وقد حقق لها انطونيوس كل امنيتها فرد لها كل سوريا الوسطى وكليكيا
وجزيرة كريت والجانب الاكبر من شواطىء فلسطين وفينيقيا ولم يمنع عنها
هرود (اليهودية) كما رد اليها قوريتانية التى كانت قد ضمنت الى روما من

٣٦ ق٠م :

انجبت كليوباترا لانطونيوس ولدا جديدا أطلقت عليه اسم بطليموس فيلا
تخليدا لذكرى استعادة امبراطورية هذا الملك .

٣٥ ق٠م :

شن انطونيوس حملة خائبة على بارثيا ، انتهت بما يشبه النكبة ، حيث
الى انسحاب مشئوم كلفه خسائر فادحة ، ويصور لنا بلوتارك الذى روى تار
الأحداث ، صورة مؤثرة لموقف اكتافيا من انطونيوس فى هذه المحنة لا نعرف
من الدقة . ولكننا نثبتها هنا لجمال الصورة من ناحية ، ولما سيكون لها م
على سير الحوادث فيما بعد .

فعندما علمت اكتافيا ان انطونيوس فى حاجة الى مساعدة برحت ايطاليـ
مقادير كبيرة من المال والملابس وغير ذلك من حاجة الجيش والفى جندى من
المختارين .

ولكنها عنـدما وصـلت الى اثينا وجدت رسـالة من انطونيوس يأمره
التخوص اليه . فأطاعت زوجها كأى زوجة فاضلة وانفذت اليه مبعوثا ليسـ
الجهة التى يريد أن ترسل اليها ما أعدته من امدادات . وقد اثار هذا المسلك
اكتافيوس فأمر أخته بأن تترك بيت انطونيوس لكنها رفضت وظلت فى بيت ز
ترعى أولاده ، سواء كانوا منها أو من زوجته الأولى فولفيا .

٣٤ ق.م :

غزا انطونيوس ارمينيا واخضعها فأصبحت ولاية رومانية وخطب ابنة ملك ميديا لابنه اسكندر هليوس الذى اعتزم ان يمنحه ارمينيا .

وقد احتفل انطونيوس بانتصاره فى الاسكندرية على خلاف ما جرى عليه العرف بألا يحتفل القواد الرومان بانتصاراتهم الا فى روما . وقد دل ذلك على انه ينوى نقل عاصمة الامبراطورية من روما الى الاسكندرية ويقول بعض المؤرخين ان ذلك لم يكن يطيب لكليوباترا التى كانت تتوق الى حكم الامبراطورية الرومانية من عاصمتها الأصلية ، حيث اشتهر عنها انها كلما ارادت تأكيد أمر من الأمور أن تقول : انها متأكدة من هذا الشىء او ذاك تأكدها من أنها سوف تصدر الأحكام يوما فى الكابتول .

وخطا انطونيوس خطوة كبيرة نحو تحقيق احلام كليوباترا ، عندما دعا الشعب السكندرى والقواد والجنود الى اجتماع حاشد فى الجيمنازيوم .

وقد اقيم على منصته عرشان مرتفعان جلس عليهما انطونيوس وكليوباترا ، وعلى مستوى ادنى جلس على عروش اخرى قيصرون فاسكندر هليوس فبطليموس فيلادلفوس فكليوباترا سيلنى — وكانت كليوباترا فى زى الآلهة ايزيس واسكندر هليوس فى زى الملوك الآخيين وفيلادلفوس فى الزى المقدونى وخاطب انطونيوس الحاضرين بأن كليوباترا كانت زوجة قيصر وان قيصرون ابن قيصر الشرعى . ثم نادى بكليوباترا ملكة الملوك وقيصرون ملك الملوك على أن يحكما سويا مصر وقبرص ونمتد سيادتهما على ممالك أبناء كليوباترا الآخرين ونادى باسكندر هليوس ملكا على ارمينيا وميديا وبارثيا (بالرغم من انه لم يكن قد فتحها بعد) وببطليموس فيلادلفوس ملكا على ممتلكات مصر فى سوريا وفينيقيا وكليكيا . ولكليوباترا سيلنى على قورينايئة .

وبدات الأحداث كلها تتجه صوب قرب وقوع اشتباك بين انطونيوس واكتافيوس .

٣٢/٣٣ ق.م :

قضى انطونيوس وكليوباترا الشتاء فى مدينة افيسوس حيث كانا يجمعان جيوشهما واساطيلهما للاصطدام بقوات اكتافيوس . وفى هذه الفترة اهدى انطونيوس الى كليوباترا مكتبة برجام (٢٠٠,٠٠٠ مجلد) تعويضا لها عن الكتب التى ذهبت طعمة للنيران أثناء حرب الاسكندرية .

٣٢ ق.م :

قرر انطونيوس نهائيا اعلان الحرب على اكتافيوس وطلق اكتافيا .

وفى هذه الفترة خطا اكتافيوس الخطوة الأخيرة لتأليب الشعب الرومانى على

انطونيوس اذ استولى على وصيته التى كانت مودعة طبقا للتقاليد الرومانية عند الكاهنات العذارى ، وبموجب هذه الوصية كان يؤكد هذا الذى أعلنه فى مصر من تولية ابناء كليوباترا على ممالك الشرق ويوصى بأن يدفن فى الاسكندرية حتى لو مات فى روما .

فاعتبره الرومان انه أصبح أسير امرأة أجنبية يرغب فى جعلها ملكة عليهم : فراحوا يوجهون الى كليوباترا كل الموبقات والمثالب .

واسرعت الولايات الرومانية تظهر تصميمها على الحرب وأعلن اكتافيوس حرمان انطونيوس سلطانه وحقه فى تولى منصب القنصلين ، ثم أعلن الحرب على كليوباترا لا على انطونيوس .

٣١ ق.م ـ موقعة اكتيوم :

وفى كتب التاريخ التفصيل الدقيق لسير الحرب البرية بين اكتافيوس وانطونيوس وكليوباترا على شواطىء بحر الادرياتيك ولكن المعركة التى حسمت النزاع هى المعركة البحرية الشهيرة اكتيوم . وقد دار الخلاف بين المؤرخين والباحثين عن موقف كليوباترا من هذه المعركة ، وعما اذا كانت قد خانت انطونيوس كما زعم البعض فانسحبت بأساطيلها الى مصر ، أم أن الانسحاب كان خطة متفقا عليها بين انطونيوس وكليوباترا .

ويلخص الدكتور ابراهيم نصحى رواية بلوتارك عن الموقف فى هذه المعركة فى النقاط الثلاث الآتية :

١ ـ ان اكتافيوس كان متفوقا فى البحر بينما كان انطونيوس متفوقا فى البر ، لكن انصياعه لكليوباترا جعله يقرر خوض المعركة الفاصلة بحرا .

٢ ـ ان كليوباترا غدرت بأنطونيوس ، اذ انها حرضته على خوض معركة بحرية وبدلا من أن تساعده على كسبها أعدت نفسها للهرب .

وبعد مناقشة مستفيضة لكل الأقوال يبنى مؤرخنا لهذه الفترة من تاريخ مصر الدكتور ابراهيم نصحى أن المعركة التى جرت فى اكتيوم كانت لتغطية الانسحاب الى مصر بحرا .

وقد عاد انطونيوس الى مصر فى حالة انهيار تام على عكس كليوباترا التى كانت فى أوج نشاطها ، وكان عقلها يعمل بسرعة ويدبر فى خطط جديدة لقهر اكتافيوس ، حتى وصل بها الأمر الى حد التفكير فى الذهاب الى اسبانيا واحتلالها ، أو تكوين دولة على شاطىء الهند ولذلك قررت نقل أسطولها برا من البحر المتوسط الى البحر الأحمر .

٣٠ ق٠م :

اقترب النتيجة المحتومة حيث وصلت طلائع فرسان اكتافيوس الى ضواحى الاسكندرية فشن عليها انطونيوس هجوما ناجحا جعلها تتبدد ، ولكنه لما حاول اعادة حشد جيوشه فى اليوم التالى انفضوا عنه وتركوه وحيدا ، فاضطر أن يعود الى المدينة ، حيث سربت اليه اشاعة مقتل كليوباترا حيث لم يكن يبقى انطونيوس على قيد الحياة الا حبه لكليوباترا ، فطلب من تابعه أروس أن يرديه قتيلا ولكن التابع الأمين فضل الانتحار على قتل سيده ، ثم لحقه انطونيوس الذى انتحر ببقر بطنه ولكنه قبل أن يسلم الروح جاءته رسالة من كليوباترا انها لا تزال حية ، فنقل اليها فى مقبرتها التى كانت قد جمعت فيها كنوزها وآوت اليها . فشقت ثيابها وندبته وبكته بكاء مرا ومات فى احضانها كما كان يشتهى .

أول أغسطس سنة ٣٠ ق٠م - انتحار كليوباترا :

دخل اكتافيوس مدينة الاسكندرية بغير مقاومة وأصدر أمره الى بروكليوس بأن يأخذ كليوباترا على قيد الحياة . وقد أصرت كليوباترا على أن لا تسلم نفسها الا اذا قبل اكتافيوس اعطاء العرش لأحد أبنائها . ولم تلبث كليوباترا بعد مقابلة خاصة تمت بينها وبين اكتافيوس بعد أن استيقنت أن اكتافيوس يأبى الا أن يقودها ذليلة الى روما لتسير فى موكب نصره ، أن لجأت الى الانتحار ، وجعلت انتحارها بصورة تتناسب مع دورها الملكى فى التاريخ باعتبارها ملكة مصر . فقد ارتدت ثيابها الملكية ووضعت الصل الذى كان المصريون يعتبرونه خادم اله الشمس ويضعونه رافع الرأس فى تاج ملوك مصر ، فلدغها لدغة قاتلة . وهكذا انتهت صفحة سليلة البطالسة والتى كانت من دونهم جميعا تعتبر ملكة مصر ، وأرادت أن تحقق لمصر من خلال شخصها حلم الأولين والآخرين وهو أن تكون سيدة العالمين (١) .

ولم يتملك الرومان فى كل تاريخهم الخوف الا من شخصين أحدهما رجل والثانى امرأة .. فأما الرجل فهانيبال وأما المرأة فكليوباترا ، يكشف عن ذلك تلك الملاحم من الشعر التى راحت تهيل كل السباب واللعنات على كليوباترا وتندد بأحلامها التى ساورتها من أن تحكم روما والعالم . ولذلك فقد اعتبر اكتافيوس انسانا مقدسا يوم دخل الاسكندرية اذ خلص روما من أشد المخاطر ، وقرر السناتو اعتبار ذلك اليوم عيدا وطنيا وبداية للتقويم المحلى . وخلع على قيصر لقب أغسطس وسمى الشهر باسمه ، ولم يلبث أن أصبح الها تقام له المعابد . . وحقق اكتافيوس ما أباه الرومان على يوليوس قيصر ، اذ وضع حدا للجمهورية الرومانية وبدأ عهد الامبراطورية .

---

(١) لعل أعظمة شوقى الشاعر لم تصل الى ذروة مثلما وصلتها فى مسرحيته الشعرية عن كليوباترا حيث حلل شخصية الملكة المفترى عليها ودافع عنها ، وقد كنا نظن فى شبابنا انه بالغ فى هذه الصورة فاذا به يستقى التاريخ فى كل بيت من الشعر .

نظرة عامة على عهد البطالسة :

واذ تطوى صفحة البطالسة لتبدأ صفحة جديدة من تاريخ مصر وهى مصر تحت حكم الرومان ، فيحسن بنا أن نذكر بعض ملاحظات عامة ..

يعتبر حكم البطالسة من الناحية الداخلية ، صورة دقيقة لما يعتبر فى العصر الحديث اشتراكية الدولة ، فقد كانت وسائل الانتاج الكبرى وعلى رأسها الزراعة والتجارة الخارجية مملوكة لبطليموس أى الدولة ، والصناعات الرئيسية احتكارا للدولة كذلك .

فتألفت هيئة بيروقراطية كبيرة من الموظفين الحكوميين يؤيدها حراس مسلحون تدير شئون أرض مصر كلها كأنها مزرعة حكومية ضخمة ، وكان الموظفون يعينون لكل زارع تقريبا قطعة الأرض التى ينبغى أن يزرعها والمحصولات التى يجب أن ينتجها — وكان فى وسع الدولة أن تجنده هو ودوابه للعمل فى المناجم ، واقامة المبانى العامة — والصيد — وشق قنوات الرى — انشاء الطرق — وكانت محصولاته تكال بمكاييل حكومية ويدون الكتبة مقدارها وتدرس فى أجران الملك ويحملها الفلاحون أنفسهم الى مخازن الملك وكان يستثنى من هذا النظام بطبيعة الحال بعض الحالات : فقد كان البطالمة يجيزون للفلاح أن يمتلك بيته وحديقته ويجيزون الملكية الخاصة فى الحواضر ويؤجرون قطعا من الأرض للجنود مكافأة لهم على ما قدموا من خدمات — ولكن الأراضى المستأجرة كانت مقصورة فى العادة على المساحات التى يوافق صاحبها أن يخصصها للكروم او البساتين أو أشجار الزيتون .

وقد تحسنت وسائل الزراعة — فاستبدل بالشادوف الساقية — وهى عجلة كبيرة — وكذلك مضخة تسيوس ولولب اركميدز .

وأمكن بفضل تركيز الادارة الاقتصادية فى يد الحكومة ونظام السخرة اقامة المنشئات العامة للتحكم فى فيضان النيل وانشاء الطرق وشق قنوات الرى وتشييد المبانى .

الأراضى :

نقش هيروغليفى على جدران معبد ادفو يروى كيف أن الأراضى المنزرعة فى كل انحاء مصر من الفنتين حتى البحر أهداها الاله حورس الى ابنه الملك حورس الحى بطلميوس ومعها وثائق الملكية وقد سجلت بخط الاله تحوث .

الفلاحون يدعون مزارعى الملك — ولم يكونوا موالى ولا عبيد .

القيت على مزارعى القرية مسئولية الانجازات المطلوبة من اراضيها مسئولية جماعية .

الاقطاعات عسكرية — الحكومة تقدم البذور — كانت هناك أملاك خاصة (ملاك الأراضى) أراضى المعابد تزرع :

— الحبوب الغـذائية .
— الحبوب الزيتيـة .
— الكتـــان .
— الكروم والفواكه .
— الأشـــجار .

وكانت صناعة الزيوت احتكارا للدولة .

« محظور لأى سبب أن يملك احـد مطاحن أو معـاصر أو اية أداة تستخـدم فى استخراج الزيت والا فرض عليه أن يدفع للخزانة العامة ٥ تالنت وللملتزم خمسـة اضعاف الخسـارة » .

المعابد :

لم يكن فرعون المخلوق الوحيد الذى يستطيع الاتصال بالآلهة ، بل كان أيضا الاله الوحيد الذى يتمتع بالاتصال ببنى الانسان ، فاذا لم يكن على عرش مصر فرعون فان الديانة المصرية كانت تفقد الحلقة الأساسية فى الاتصال بين الناس والآلهة .

يقول ارسطو : اذا وجد فى دولة شخص يسمو على المواطنين الآخرين فى الفضيلة والمقدرة السياسية ، فانه لا يجب اطلاقا اعتباره فردا فى الدولة لأنه لا يتصف اذا اعتبر مساويا لغيره ، على حين أنه يسمو على غيره فى الفضيلة والمقدرة السياسية . ان فعل هذا الرجل يجب اعتباره الها من البشر » .

اله الاسكندر :

فقد أنشأ بطلبموس الأول عبادة الاسكندر .

وكانت عبادة البطالمة عبادة محلية فى مدينة بطليموس باعتباره مؤسس المدينة .

الاسـكندرية :

على بعد اربعين ميلا من نقراطيس (ايتاى البارود) وعلى مسافة بضعة اميـال غربى فرع النيل الجنوبى — تقع على الشريط من اليابسة الذى يفصل البحر عن بحيرة مريوط ، وقربها من جزيرة فاروس ، فيمد جسر من الجزيرة الى الشاطىء يمكن توفير مرفأين يستخدم ايهما تبعا لهبوب الريح .

وكانت تقوم قرية راويتس .

كان يحيط بالاسكندرية منذ تأسيسها اسوار تبلغ طولها ١٥ كيلو حصنت باقامة ابراج عليها فى مسافات .

كانت نتبع من الناحية الشمالية الشرقية مجرى الشاطىء .

يحدثنا سترابون ان المدافن كانت تبلغ ٣٠ سنادا والاسناد هو ١٨٥ر٩ مترا فى الطول وسبعة أو ثمانية فى العرض .

والمهندس الذى استخدمه الاسكندر يدعى دينوكراتس .

وشوارعها تجرى فى خطوط مستقيمة من الشمال الى الجنوب . ومن الشرق الى الغرب .

وكانت مقسمة الى أربعة أحياء ــ أبعدها نحو الغرب حى راكوتس وسكانه من المصريين ــ والحى الشمالى الشرقى حى اليهود والجنوبى الشرقى او البركيوم يحتوى على القصر الملكى والمتحف والمكتبة ومقابر البطالسة وضريح الاسكندر ودار الصناعة البحريه وأهم الهياكل اليونانية وكثير من الحدائق الفسيحة وكان لاحدى هذه الحدائق مدخل تبلغ مساحته ثمانية أقدام مربعة وكانت حديقة اخرى تحتوى على مجموعة الحيوانات الملكية وكان وسط المدينة مبانى الادارات والمخازن الحكومية والمحكمة ومدرسة الالعاب الرياضية وألف حانوت وسوق .

وكان خارج الأبواب الكبرى ملعب رياضى وميدان للسباق ومدرج ومقبرة عظيمة .

وكان سكان الاسكندرية خليطا من اجناس مختلفة وكانت عدتهم تتراوح بين اربعمائة الف وخمسمائة الف من المقدونيين واليونانيين والمصريين واليهود والفرس واهل الأناضول والعرب والزنوج .

ويصف هروداس : ان الاسكندرية هى بنت افروديتى ــ وان الانسان ليجد فيها كل شيء : ثروة ، وملاعب ، وجيشا كبيرا ، وسماء صافية ، ومعارض عامة ، وفلاسفة ومعادن ثمينة وشبابا ظرفاء .

ومبنى ملكيا طيبا ومجمعا للعلوم وخمرا لذيذة ونساء حسانا .

وكان نحو خمس سكان الاسكندرية من اليهود وقد كانت مصر من القرن السابع الميلاد موطنا للعبرانيين ثم قدموا اليها فى أعقاب الفتح الفارسى ــ وحضهم الاسكندر على الهجرة اليها وعرض عليهم كما يقول يوسنوس أن يكون لهم ما لليونان من حقوق سياسية واقتصادية وجاء بطليموس الأول بعد استيلائه على أورشليم بآلاف الأسرى اليهود الذين أطلق خلفه سراحهم .

وفى القرن الميلادى الأول بلغ عدد اليهود بمصر مليونا .

الفصل السابع

مصر تحت حكم الرومان

٣٠ ق٠م :

بدخول اكتافيوس وجيوشــه المنتصرة الاســكندرية ، وانتحــار مارك انطــونى وكليوباترا : دخلت مصر رسميا تحت حكم الرومان .

وقد منع اكتافيوس جنوده من نهب المدينــة أو تخريبها : وألقى على مواطنيهــا خطابا باللغة اليونانية أعلن فيه صفحه عنهم .

وعندما احضروا اليه تابوت الاسكندر من قبره رثاه بما يستحقه من تبجيل بأن وضع عليه تاجا من الذهب ونثر فوقه الزهور . ولكنه رفض أن يزور قبر البطالسة باعتبارهم قوما اصبحوا فى عالم الفناء : وتأكيدا لهذا المعنى فقد أعدم قيصرون ليزيح آخر انسان يمكن أن ينافسه . اما أولاد انطونيوس من كليوباترا ، فقد بعث بهم الى اخته اكتافيا (بناء على طلبها كما اتصور) لكى تقوم على تربيتهم كأولادها منه .

احتلال مصر الدائم :

واذ كان اكتافيوس بالتجارب الخاصة : قد عرف خطر مصر وغناها وثروتها .. وكان قمحها هو الذى تعيش عليه روما منذ أمد طويل ، وكان من يحول دون وصول هذا القمح اليها يؤثر على قدرها .

فقد أحكم اكتافيوس تأمين السيطرة على مصر : فترك بهــا ثلاث فرق ، جعل مقر أولها مدينة الاسكندرية نفسها ، فى ذات الموقع الذى يعرف باسمه حتى اليــوم (كامب شــيزار) .

والرأى على انه كان ينتوى أن يجعل من هذا الموقع الجديد مدينة ينتقل اليهــا مركز الحكم .. ولكن هذه المحــاولة حبطت وكانت نيقوليوليس لا تزيد عن أن تكون معسكرا للحامية الرومانية . واذا كانت منف هى عاصمة مصر السفلى المدينة المقدسة صاحبة النفوذ .. فقد وضع الى جوارها عند بابليون (مصر القديمة) قوة عسكرية اخــرى .

وكذلك وضـع قوة ثالثـة ، عند طيبـة عاصمة الجنـوب ، ومنبع الثـورات والسخط الدائم على حكام الشمال وخاصة الأجانب منهم كما وزع كتائبـه فى طول البلاد وعرضها وعلى حدودها الشرقية والجنوبية .

واذ انتهى اكتافيوس ، من تثبيت سلطانه بقوة السلاح على البلاد .

فقد انتقل بثاقب فكره ، وبما عرف به الرومان من قدرة على احسان الادارة .. الى تهيئة الوسائل لجعل مصر تدر على روما أكبر قدر من الثروة ، وذلك عن طريق تحسين وسائل الزراعة : بتكليف الحاميـة الرومانية بشق الترع وتطهير القنوات ، واصلاح أراضى جديدة ، وبناء الصهاريج على الطرق الصحراوية بين موانى البحـر الاحمر وداخل الوادى ..

ولما كانت المدن الاغريقية الثلاث (الاسكندرية ونقراطيس وبابليون) هى وحدها التى كانت تتمتع بمجالس بلدية خاصة بها ، فقد عمم اكتافيوس هذا النظام على كل عواصم الاقاليم ، مما أحفظ عليه سكان الاسكندرية من الاغريق . بل لقد ذهب الى أبعد من ذلك فألغى مجلس شيوخ مدينة الاسكندرية (السناتو) فى بعض الآراء ورفض أن يعيد للمدينة انشاء مجلس شوراها الذى كان قائما بها منذ تأسيسـها ولم يلغ الا فى فترة الاضطراب آخر حكم البطالسة ، فلم يستجب لهم أغسطس . وذلك فى الوقت الذى أقر فيه لليهود امتيازاتهم القديمة ، حيث كانت طائفتهم تتمتع بشبه استقلال فيرأسهم رئيس ومجلس من المسنين أشبه ما يكون بمجلس الشيوخ ، واذ كان اليهود ممن ساعدوا الرومان فى غزو مصر فقد طالبوا بحقوق المواطنين فى المدينـة ـ مما ملأ قلوب الاسكندريين حقدا عليه .

كما وضع الأسس لتنشيط التجارة والصناعة .. على الأسس التى كانت جارية أيام حكم البطالسة فى فترة ازدهارها .

بحيث يقول المؤرخون ، ان مصر فى طلائع القرن الأول من الحـكم الرومانى ، قد وصلت الى ذروة ازدهارها الاقتصادى ، كما ظلت الاسكندرية تقوم بدورها التقليدى فى حضارة البحر الأبيض المتوسط ، فتكون الرائدة الشرعية ، وان كان اسم مدينة روما قد علا عليها بطبيعة الحال ..

علاقة مصر بالامبراطورية الرومانية :

وقد دار جدل طويل بين المؤرخين ، ويبدو انه سيظل مستمرا ، حول علاقة مصر بالامبراطورية الرومانية ، فالبعض يرى انها لم تتحول الى ولاية رومانية كبقية الولايات الرومانية ، وانها ظلت ملكا خاصا لقيصر الذى راح يديرها باعتباره خليفة للفراعنـة والبطالسة ، عن طريق حاكم يختاره بنفسه من طبقة الفرسان وليس بمعرفة السناتو .

كما يستدلون على انفرادها بأحكام خاصة من دون الولايات الأخرى، بحظر زيارتها
ى اى كبير من كبراء روما الا باذن خاص من القيصر . والشعور الذى خرجنا به من
العتنا لكل ما قيل بهذا الصـــدد ، أن مصر والاســكندرية قد ضمتا للامبراطورية
ومانيـة كأى ولاية اخرى ، ولكن نظرا لتاريخها العريق ، وخطورة موقعهـا ودقة
ونها واعتماد روما على ثروتهـا ، فقد وضعت لها هذه الأحكام الخاصـة ليكون
تافيوس سلطة استثنائية فيها .

ر الامبراطورية الرومانية :

بدا بعودة اكتافيوس الى روما بعد استيلائه على مصر وابعاده الخطر الذى كان
رق الرومان ، ما يسمى بعصر الامبراطورية الرومانيـة حيث انتهت الجمهـورية
رومانيـــة .

ولكن اكتافيوس كان من الحصافة والكياسة ، والتجربة ما جعله يبدو وكأنه باعث
جمهورية ، والرجل الخاضع لمجلس الشيوخ ، حتى لقد كان المجلس يحدد انتخابه
نصلا لمدة عام واحد يتجدد بل وجاءت فترات لم يرشح نفسه لمنصب القنصلية ،
كتفيا بلقب جديد خلع عليه وهو منصب « المواطن الأول » أو زعيم مجلس الشيوخ ،
لكنه ظل فى حقيقته مركز القوة الحقيقية ، والسلطة برئاسته الفعلية للجيش ،وتوليه
ارة اغنى الولايات فى الغرب والشرق .

۲۹ ق ٠ م :

كشف اكتافيوس عن عزمه بوضع حد للحروب فى أرجاء الامبراطورية ، وتوطيد
عائم السلام ، وذلك باغلاقه هيكل جانوس « اله الحرب » اشارة الى أن اله الحرب
ـد نال كفايته الى حين .

۲٠ ق ٠ م :

كان اكتافيوس قد عين صديقه كورنيلوس جالوس واليا على مصر مكافأة على
خدماته وعهد اليه بتنفيذ السـياسة الادارية والمالية والاقتصادية التى وضـعها ،
تحقيق أكبر قدر من الاستفادة من مصر ومواردها لصالح روما .

ويبدو أن موظفيه وجباة ضرائبه ، أو النظم الجديدة التى وضعها قـد اثارت
عليه مدينة طيبة وبالتالى مصر العليا كلها .

ويبدو أن هذه الثورة كانت من القوة أو العنف الى الحد الذى لم تفلح معه قوة
الجيش الرومانى المرابط عند طيبة لقمعها مما اضطر كونيلوس نفسه الى أن يرأس
بنفسه حملة قوية لاخمادها ، وترك حجرا من الجرانيت فى معبد أنس الوجود يقول
لنا فيـه بافتخار :

« أنه الفارس الرومانى وأول والى على الاسكندرية ومصر بعد اندحار ملوكها على يد قيصر بن الاله وكيف قمع ثورة طيبة بعد معارك حامية واخضع طيبة مصدر الذعر لجميع الملوك وقاد الجيش مستوليا على المدن الثائرة الى ما وراء شلال النيل واستمع الى سفراء ملك الاثيوبيين عند فيلاى وقبل ذلك الملك أن يكون تحت الحماية وعينه حاكما على اقليم أثيوبيا .

وقد قدم هذا المنصب هدية للالهة الثوبية وللنيل الذى أعانه .

٢٦ ق ٠ م :

اسكر هذا الانتصار فيما يبدو كورنيلوس ، فراح يسجله على الاهرام ويقيم لنفسه تماثيل فى ارجاء الوادى فكان من الطبيعى أن يثير ذلك مخاوف اكتافيوس الذى كان السناتو قد خلع عليه لقب أغسطس فى العام الاسبق ، فعزله من ولاية مصر ، بل وحاكمه وجرده من حقوق المواطن .. فانتهى به الامر الى الانتحار .

٢٦ ق ٠ م :

عين أغسطس قيصر ايليوس جاللوس واليا على الاسكندرية ومصر خلفا لكورنيلوس وقد عهد اليه أغسطس بمهمة السيطرة على البحر الاحمر والنفوذ الى المحيط الهندى باحتلال اليمن ، وقد ألف لذلك جيشا ترى فيه لأول مرة وحدة يهودية من ٥٠٠ جندى أرسل بها هيرود ملك اليهود لتحارب لحساب الرومان . وقد استطاع فى بادىء الامر ان يستولى على اليمن وان يصل فيما تقول بعض الروايات إلى مدينة كارب عاصمة سبأ .

ولكنه لم يلبث أن هزم وانسحب مسجلا بذلك فشل الحملة ، ولكن الحوادث التالية كشفت عن نجاحها فى اشعار المنطقة بقوة الوجود الرومانى فبدات التجارة الشرقية الخاصة بالعطور والتوابل والاحجار الكريمة والاخشاب التى كانت تأخذ طريقها عبر جزيرة العرب ، تتحول الى الموانى المصرية على البحر الاحمر ، ومنها عبر الصحراء الى النيل فالاسكندرية فروما .

٢٤ ق ٠ م :

كان النوبيون قد انتهزوا فرصة غياب الجيش الرومانى عن مصر ثم عودته فاشلا فأغاروا تحت قيادة ملكتهم كنهراكى على الحاميات الرومانية فهزموها واحتلوا جزيرتى فيلة والفانتين ومدن أسوان ثم نهبوها وحملوا تماثيل اغسطس وأسروا بعض الأهالى .

فلما أن ولى جايوس نيروثيوس حكم مصر بعد عزل أيليوس جاللوس .. وكان همه الاول هو تأديب النوبيين ، فانتصر عليهم فى كل المعارك التى تصدوا لحربه فيها وتابع سيره جنوبا حتى وصل الى مدينة نباتا فاستولى عليها ، ثم راى أن من المصلحة أن لا يتوغل اكثر من ذلك ، فترك حامية صغيرة وقفل راجعا .

٢٢ ق . م :

اضطر تيرونيوس لأن يعود للحرب فى بلاد النوبة . وفى هذه المرة اقام عديدا من الاستحكامات والقلاع العسكرية التى لاتزال اثارها قائمة حتى اليوم (الدكة ــ كلابشة)

وكفت ملكة النوبيين عن القتال وجنحت للسلم وطلبت الصلح فعقد الصلح معها على أساس اعفائهم من دفع جزية للرومان .

١٣ ق . م :

ولى حكم مصر روبريوس بربارويس .

(استقرار الاحوال فى مصر)

وانقضت فترة طويلة لاتسجل لنا الآثار شيئا خاصا عن علاقات مصر بالامبراطورية لمدة طويلة مما يدل على استتباب الاحوال ، وان الاصلاحات الادارية والاقتصادية قد آتت ثمرتها ويرى اسم اكتافيوس ورسمه على كثير من الآثار والمبانى التى كان قد بدىء بإنشائها قبل حكمه ثم استمر العمل فيها سواء فى الاسكندرية أو فى مصر العليا ويرى اسمه كفرعون فى معبد فيلة ، كما يرى متعبدا كفرعون لايزيس فى معبد طنطرا (دندرة) كما نرى صوره فى معبد « تالمس » وهو يقدم القرابين .

٧ ق . م :

ولى حكم مصر توراثيوس .

٤ ق . م :

ولد عيسى بن مريم عليه السلام (يسوع المسيح) فى بيت لحم ، والمؤرخون على أن هذا التاريخ السابق بأربع سنوات عن تاريخ الميلاد المعمول به ، هو الزمن الحقيقى الذى ولد فيه المسيح ، فالاناجيل تشير الى أنه ولد فى عهد هيرودس الكبير ، الذى

مات حول هذا التاريخ بعد أن بعث زعماء ملكه الى اغسطس مع هدية تمثية اشعاراً بتبعيته لروما .

مقـــدم عيسى الى مصر :

وقد هربت السيدة مريم بولدها على ما يروى انجيل متى الى مصر .

« فراى ملاك الرب ليوسف فى الحلم قائلا قم فخذ الصـــبى وامه واهرب الى مصر وكن هناك حتى اقول لك فان هيرودوس مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه . فقام واخذ الصبى وامه ليلا وانصرف الى مصر . وكان هنـــاك الى وفاة هيرودوس ليتم القول من الرب للنبى القائل « من مصر دعوت ابنى » .

وهناك اقاويل عن خط سير العائلة المقدسة عند زيارتها مصر ، وأين أقامت ، وقد اكتفى المؤرخ القبطى الكبير مرقص باشا سميكة بذكر بعض اشارات كما وردت فى المصادر التاريخية فى كتابه القيم دليل المتحف القبطى واهم الكنائس والاديرة فقال عن كنيسة ابى سرجة بمصر القديمة ان هناك شبه اجماع أن هذه الكنيسة شيدت فى نفس المكان الذى اقامت به العائلة المقدسة لما هربت الى مصر من وجه هيرودوس .

وقال عند ذكره لدير المحرق : فى المسمر الذى وضعه الانبا نادمنليس البطريرك الثالث والعشرين أن العائلة المقدسة اقامت لما لجأت الى مصر هربا من الملك هيرودوس وجاء فى كتاب المقريزى : تزعم النصارى أن المسيح عليه السلام أقام بدير المحرق مع والدته ستة شـــهور وايام .

ولكن فى كتاب تاريخ الأمة القبطية تفصيل واف لخط سير العائلة المقدسة .

فقد جاءت العائلة الى مصر عن طريق صحراء سيناء ودخلوها جهة الفرما ومنها الى مدينة بسطة (تل بسطة بجوار الزقازيق) واتجهوا غربا فعبروا فرع النيـــل الشرقى عند سمنود ، وظلوا سائرين غـــربا الى فرعه الغربى فعبروه ومروا بوادى النطرون ــ ومن هناك ساروا الى الوجه القبلى فنزلوا بمدينة الاشمونين ثم مضوا الى القوصية فالى قرية ميزة وهبطوا حيث يوجد دير المحرق وبعد أن اقاموا به بضعة أشهر على الاكثر ظهر ملاك الرب ليوسف فى الحلم وقال قم وخذ الصبى وامه وعد الى اليهودية لان هيرودوس الذى كان يطلب نفس الصبى قـــد مات ، فقاموا وانحدروا شمالا حتى جاءوا بابليون (مصر القديمة) وكان بها حى اليهود ــ ونزلوا فى الموضع الذى به كنيسة القديس سرجيوس المعروفة بكنيسة السرجة وغادروها الى عين شمس وكانت مدينة عامرة باليهود فأقاموا يستظلون بشجره يقال أن موضعها حيث توجد الآن الشجرة المعروفة بشجرة العذراء بالمطـــرية ومن هناك انطلقوا الى فلسطين عن طريق مديرية الشرقية فالصحراء .

١٤ م :

توفى اكتافيوس اغسطس قيصر فى التاسـع عشر من الشهر الذى سمى بأسمه وهو اغسطس ، بعد أن بلغ من العمر سـتا وسبعين سـنة ، حكم فيها ما يقـرب من نصف قـرن .

ويطلق على عصره العصر الذهبى حيث وصلت فيه الامبراطورية الرومانية الى أوسع ما وصلت اليه بعـد أن اتم فتح اسبانيا وتسلم الادارة فى بلاد غالة ، وهكذا امتدت الامبراطورية من المحيط الاطلسى غربا والصحراء الكبرى جنوبا ونهر الفرات والبحر الأسود شرقا ، ونهر الدنوب والالب شمالا .

وقد فرض فى هذه الرقعة الكبيرة والتى شـملت حوض البحر الأبيض بأكمله ما يطلق عليه السلام الأغسطسى والذى بقى من بعده مائة عام .

وقد خلع السناتو على اكتافيوس لقب اغسطس عام ٢٧ ق.م معبرا عن احساس شبه وفاء بالجميل لقاء الأعمال التى انجزها ولم يلبث اسمه ان اضيف الى أسماء الآلهه فى الترانيم الرسمية التى تنشد فى روما ولكن عبادته انتشرت فى أنحاء العالم الرومانى وبخاصة فى بلاد الاغريق .

ولما مات أصدر مجلس الشـيوخ قرارا أن تعبده روما باعتباره أحـد آلهتها الرسميين وقد اتسمت الأربعين سنة الأخيرة من حياته بالبسـاطة فى المعيشة التى تكاد تصل الى حد التقشف والاعتدال والتواضع الحقيقى الذى لا يشوبه زهو .

وازدهرت الآداب ونشر من الكتب فى عهده ما لم ينشر مثله فى اى عهد من العهود وازدهر الشعر حتى لقد قيل أنه أصبح هواية كل انسان فى روما سـواء فيلسوفا أو ابله .

وكانت الاعلانات تلصق على الحائط معلنة أسماء الكتب الجديدة واثمانها وأعظم آثار النثر كانت فى تاريخ تيتس لفيوس الذى ترك لنا تاريخا مفصلا لروما وخاصـة للمده من ٢٣ ق.م حتى ١٧ م .

والى هذا العهد ترجـع الياذة فرجيل التى احتوت على ملحمة تأسيس روما ، ومعارك اكتافيوس . كما قال هوراس أعظم أشعاره ، وأوفيد .

وكان آخر ما نطق به اغسطس قيصر عند وفاته هى هـذه العبارة التى اعتاد الممثلون الرومانيون أن يقولوها فى ختام كل رواية .

« والآن وقد انتهت دورى فصفقوا بأيديكم واخرجوا من المسرح بتصفيقكم » . ثم عانق زوجته وقال لها تذكرى عشرتنا الطويلة يا ليفيا ــ الوداع .

١٤ م ــ تبريوس قيصر :

ولى عرش روما تبريوس ، وقد كان أغسطس قيصر قد تبناه عام ٤ ميلادية ،

واشركه معه قبل وفاته فى الحكم باعتباره قنصلا ، فلما مات قيصر كان يتمتع بسلطات واسعة النطاق : فتظاهر كسلفه اغسطس بأنه راغب فى اعادة الجمهورية ولكن السناتو ادرك استحالة هذه الخطوة ، فقد كانت أسس الامبراطورية فى صورتها الجديدة قد توطدت ولذلك فقد منحه السناتو سلطات والقاب أغسطس .

وقد استهل عهده باظهار الحزم فى معاقبة موظفى الدولة الذين يسيئون استغلال سلطتهم فى معاملة الرعية . ويحفظ لنا التاريخ أيضا نصا يعزوه البعض الى تيبريوس ، وفيه يقرع واليه على مصر لارساله مبلغا أكبر من المقدر للجزية سنويا . وجاء فى هذا النص : انما أرسلت الى مصر لتجز صوفها لا لتسلخ جلدها .

١٦ م :

ولى حكم مصر فيتراسيوس يوليو .

١٩ م :

زار جرمانيكوس ولى العهد مصر ، وكان تيبريوس قد بعث به الى ولايات آسيا الصغرى لتفقد احوالها . وكان جرمانيكوس شابا كريما لطيفا محبوبا من الجماهير الرومانيه لشجاعته فى المعارك الحربية . فلما جاء مصر تعلق به شعب مصر ، لحسن سيرته وكياسته فى معاملته للشعب ، وليس هناك ما ينقل الينا قبسا من حالة مصر وأوضاعها فى هذه الفترة خير من ان ننقل ما قاله تاسيتوس عن هذه الزيارة :

« ذهب جرومانيكوس الى مصر للتعرف على تاريخها القديم غير انه تذرع بحجة الاهتمام بالولايه ، وقد خفض الأسعار بأن فتح صوامع الغلال واصطنع أشياء كثيرة محببة الى قلب الجمهور فكان يمشى بدون حرس ، وانتعل صندلا وارتدى زيا كزى الاغريق وقد انتقد تيبريوس ارتداءه الزى الاغريقى كما انتقد مسلكه انتقادا هينا ، ولكنه وبخه توبيخا لاذعا لأنه دخل الاسكندرية دون ارادة الامبراطور متخطيا قواعد اغسطس : ذلك أن اغسطس من بين الأسرار الخاصة بتوطيد سلطانه قد عزل مصر ، مانعا أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان الرومان اللامعين من دخولها الا بأذن مخافة ان يصيب ايطاليا بمجاعة أى شخص قد يمثل تلك الولاية بحامية بسيطة .

نجد أن جرمانيكوس الذى لم يكن قد بلغه بعد ، أن رحلته هذه كانت موضع هجوم ، صعد فى النيل الى مصر العليا بادئا من كانوب ، وبعد ان زار الآثار العظيمة فى طيبة القديمة وكانت لا تزال باقية على الصروح الضخمة كتابات مصرية تشرح قصة البذخ الغابر ، غير أن عجائب أخرى استرعت كذلك انتباه جرمانيكوس وعلى الأخص تمثال ممنون الحجرى الذى يرجع نغما موسيقيا عندما تمسه أشعة الشمس ، والاهرام التى شادها ملوك متنافسون بثرائهم ، فى ضخامة الجبال وسط رمال متناثرة من اليسير اجتيازها ، والبحيرة التى حفرت فى الأرض لتخزن ماء فيضان النيل .

وبعدئذ قد وصل الى الفانتين واسوان وهما حصنا الدفاع قديما عن حدود الامبراطورية التى امتدت الى البحر الأحمر .

وثمة وثيقة اخرى عن هذه الزيارة ترجمها لنا الدكتور عبد اللطيف أحمد على الذى ترجم لنا الفصل السابق وهى منشور أذاعة جرمانيكوس على شعب مصر ، يكتشف عن مدى التزامه القانون فى معاملاته ورغبته فى احسان معاملة الشعب .

« جرمانكوس قيصرين اغسطس حفيد اغسطس المؤله نائب القنصل يعلن : بلغنى انه بمناسبة زيارتى قد اكره الناس على تقديم مراكب ودواب وأن منازل للضيفان قد أخذت بالقوة للاقامة وان وسائل الارهاب قد استعملت مع الافراد لذلك رأيت من الضرورى أن أعلن اننى لا اريد ان يستولى أحد على مركب او دابة الا بأمر بابيوس صديقى وامينى ، ولا أن تغتصب منازل للضيافة ، فان تكن هناك حاجة فان بابيوس نفسه سيوزع منازل الضيافة بالعدل والقسطاس وبالنسبة لما يلزمنا من المراكب أو الدواب فانى آمر بدفع الأجور وفقا للجدول الذى قدمته وانى لأرغب فى احضار المخالفين الى أمينى الذى سيتولى هو بنفسه دفع الظلم عن الأفراد او يبلغنى الأمر ، وأحظر على من يلتقون بالدواب أثناء مرورها فى المدينة من اغتصابها بالقوة لان ذلك من أعمال اللصوصية الفاضحة .

فلا عجب وهذا مسلك جرمانيكوس ، أن يتعلق به الشعب المصرى تعلقا شديدا ، بحيث راحوا يخلعون عليه أعظم الألقاب والنعوت التى لا تضفى الا على الامبراطور ، مما جعل جرمانيكوس نفسه يعتب على المصريين ذلك ، وينذرهم انهم اذا استمروا على ذلك فلن يظهر بينهم .

على أن حياة جرمانيكوس انتهت بمجرد عودته الى سوريا ، وقيل أنه مات بالسم ، واتهم بقتله بيزو والى سوريا الذى لم يلبث أن انتحر عندما وجهت اليه التهمة ، وقيل ان ذلك تم بموافقة تبريوس ولكن لا دليل على ذلك .

٢١ م :

ولى حكم مصر جالريوس .

٢٦ م :

بدأ ظهور المسيح فى منطقة الجليل مبشرا وداعيا الى سبيل الله .

٣٠ م :

امر بونيوس بيلاطس حاكم يهودية (جواريا) على ما تقول الاناجيل بصلب المسيح

بتهمة اثارة الفتنة ، بناء على طلب اليهود (١) .

٣٢ م :

عين افيليوس فلاكوس واليا على مصر فاستهل نشاطه بالتجول فى انحاء مصر ، فوصل فى جولته الى طيبة فراعه كثرة الاسلحة التى وجدها فى حوزة الاهالى .

٣٤ م :

أصدر فلاكوس منشورا يحظر فيه على الأهالى حمل الأسلحة أو احرازها وهدد المخالفين بعقوبة الموت ، كما أمر بفض النوادى والجمعيات الاغريقية .

٣٧ م :

مات ثبريوس ، وسجل له التاريخ أروع الصفحات فى مستهل حكمه أو التسع سنوات الأولى حتى لبصفه ممسننى بأنه « أقدر حاكم شهدته الامبراطورية » ، أما المؤرخ ناستس الذى كان من المعادين لتبيريوس فقد اعترف له بأن : ترشيحاته للمنصب العامة كانت تصدر عن حكمة وان من كان يرشحهم من القناصل البربتوربتى كانوا يتصفون بصفات الشرف والكمال القديمة الخليقة بمناصبهم ، وكان من يلونهم من الموظفين يمارسون سلطات مناصبهم بعيدين عن تدخل الامبراطور . وكانت القوانين ، اذا استثنى منها ، ما نختص باغتصاب الملك تجرى فى مجرها الطبيعى ، وكانت أعمال الايرادات العامة يصرفها رجال امتازوا بالاستقامة والنزاهة ولم تفرض على اهل الولايات اعباء جديدة ، وكانت الضرائب القديمة تجبى فى غير عنف أو قسوة وساد النظام بين عبيده . وكانت دور العدالة مفتحة الأبواب نفصل فى كل نزاع يقع بين الامبراطور وافراد الشعب ، وكان القانون هو وحده الفيصل فى هذا النزاع .

وقد انطوى على نفسه فى أخريات حياته وآوى الى جزيرة كابرى واعتقد الناس باطلا انه يرتكب هناك أخبث الرذائل والحقيقة ، أنه كان يدير منها الامبراطورية فى حكمة وحزم ، وكان يبلغ رغباته الى مجلس الشيوخ : فكان مجلس الشيوخ يلبيها فى غير معارضة ، وهكذا تدعمت دعائم السلطة الامبراطورية اذ أنه كان رجلا صارم الخلق يرعى الضمير الى ابعد حد فى شئون الامبراطورية .

---

(١) ويقول يوسانيوس القيصرى الذى عاش فى القرنين الثالث والرابع فى كتابة تاريخ الكنيسة ان بلاطس ارسل تقريرا بما حدث عقب سلب المسيح وقيامه من الموت الى ثيبربوس ، الذى اعتبر المسيح الها ، وطلب من السناتو اعتباره الها رسميا ، ولكن السناتو رفض ذلك ، وليس هناك فى وثائق التاريخ الاخرى ما يشير الى وقوع مثل ذلك .

ولكن تآمر أوفى أعوانه عليه وهو سجانوس الذى تولى قيادة الحرس الامبراطورى جعله ينقلب فى أخريات حياته الى سوط نقمة ، فلم يكتف باعدام سجانوس ، بل أعدم كل عائلته بما فيهم ابنة صغيرة طاهرة كانت تتساءل فى براءة لماذا قبضوا عليها واذ كان محرما اعدام عذراء فقد طلب من الجلاد ان يفض بكارتها قبيل اعدامها . وقتل كل من حامت حولهم ظلال من الشك ، مما جعل الكثيرين ينتحرون تخلصا من عقابه . وظللت أخريات حياته سحابة سوداء شملت حتى خاتمة حياته نفسها حيث يقال انه قد خنق ، وتنفس الرومان الصعداء عندما مات واندفعوا يهتفون فى الشوارع تيبريوس الى نهر التيبر .

ولكن ذكراه ظلت طيبة فى الاسكندرية والتى كانت أقامت معبدا باسمه على أعلى مكان بالمدينة كان محاطا بالاعمدة وبه مكتبة : كانت الحدائق تحيط به كما نقش المصريون صوره ورسومه كفرعون يعبد ايزيس وحورس على معبد فيلا وفى معبد طنطرا (دندرة) .

ويحدثنا فيلو فيلسوف اليهود فى مصر انهم بلغوا فى هذه الفترة ما يجاوز المليون، حيث كان ثلث هذا العدد يقيم فى الاسكندرية وحدها .

ومن الولاة الرومانيين الذين حكموا مصر خلال حكم تبريوس دون أن يعرف تاريخ ولايتهم بالضبط .

اميليوس مركتوس جايوس قيصر ـ كاليجولا وسبرس سترابو :

٣٨ م :

اعتلى جاريوس قيصر الشهير بكاليجولا العرش فى ١٨ مارس وهو الابن الذى بقى على قيد الحياة من أولاد جرمانيكوس الأمير المحبوب ، ولعل هذه الصلة التى تربط بين أبيه ومصر هى التى جعلته يبادر بمجرد ولايته للعرش أن يعيد فتح معبد ايزيس فى ساحة مارس (وكان قد أغلق) ثم أصدر قرارا بالاعتراف بديانة ايزيس رسميا .

٣٨ م :

وفد على مصر فى اول أغسطس اجريبا اليهودى حفيد هيرود الكبير ، وكان كاليجولا قد عينه ملكا على دولة يهودية صغيرة مجاورة لمملكة جلاديا اقتطعها من ولاية سوريا الرومانية .

وقد انتهز اليهود فرصة مروره بمصر لكى يحتفلوا به احتفالا شعبيا ضخما يكشف عن قوتهم . فأثار ذلك مخاوف أهالى الاسكندرية ، واستثار كوامن أحقادهم ضد

اليهود ، فنظموا مظاهرات مضادة ساخرة ضد الملك اليهودى .. وكأنهم خشوا من مغبة تورطهم فى الهزء من صنيعة الامبراطور ، أو كأنهم رأوا من عدم تحرش الوالى بهم مشاركة لهم فى افكارهم ، فاقتحموا معابد اليهود لتنفيذ امر كاليجـولا باقامة تماثيله فى كل المعابد ، فلما قاوم اليهود الذين كانوا يوحدون الله ويرفضون اقامة الأوثان فى معابدهم ، اتهم الشعب السـكندرى بعدم الولاء للامبراطور وأصـدر فلاكوس الوالى الرومانى منشورا أعلن فيه أن اليهود أجانب ودخلاء وسحب منهم الامتيازات التى كانوا قد اكتسبوها بحكم العرف ابان اقامتهم فى الاسكندرية ، ولم يبين الا الحقوق القانونية لأمثالهم ممن لا يتمتعون بحق المواطن .

وكان هذا المنشور كافيا لالهاب عواطف جماهير الشعب السكندرى ضد اليهود الذين كانوا قد تجاوزوا الحى المخصص لهم ، وانتشروا فى الاحياء الأخرى من المدينة، فردوا الى حيهم الأصلى ، ونهبت بيوتهم ومتاجرهم خارج هذا الحى ، وقتل كل من حاول ان يتصدى لهم . ثم ابلغ الحاكم ان اليهود يخفون أسلحة على خلاف الأوامر الصادرة منه بعدم احراز الأسلحة ، فقبض على ثمان وثلاثين من كبار شـيوخهم وزعمائهم وجلدهم علنا امعانا فى الزراية بهم .

وكان طبيعيا ان يشكو اليهود الى الامبراطور وان يكون حامل شكواهم هو صديقه الملك اجريبا ، فأحدثت الشكاة اثرها ، وارسل الامبراطور من قبض على فلاكوس وسيق الى المحاكمة فى روما ... واذ سيق للمحاكمة فقد انهالت عليه التهم لا من اليهود فحسب ، بل من سكان الاسكندرية الاغريق ، الذين لم ينسـوا له فضـله لجمعياتهم ونواديهم الأدبية . فكان ان أدين فلاكوس وصودرت أمواله ثم اعدم بعد ذلك . وتغنى اليهود بهذا الحادث باعتباره نصرا اليها لهم .

٣٩ م :

ولى حكم مصر فتراسيوس يوليو .

٤٠ م :

أوفد اليهود سفارة جديدة الى روما وكان رئيسها فخر اليهود والاسـكندرية فى هذا العصر ونعنى به فيلون الفيلسوف اليهودى ، وأوفد اهل الاسكندرية بدورهم سفارة مضادة ، ترد على مطالب اليهود وشكاويهم وكان يرأسهم علم آخر من أعلام الاسكندرية وهو ابيون اللغوى .

ولم يكد اليهود يتقدمون بمطالبهم لكاليجولا وهى حقهم فى حرية العبادة وفقا للشريعة الموسوية ، وان يحصلوا على حق المواطن لمدينة الاسكندرية ، فأجابهم كاليجولا الذى كان قد تسلطت عليه فكرة الوهيته انهم كفرة ملحدون ، لانهم رفضوا أن يعبدوه فى معابدهم ، وأعرض عنهم منذرا اياهم بشر وخيم .

خرج فيلون من هذه المقابلة حزينا كئيبا وهو يقول : ان يكن الامبراطور ضدنا فان الله معنا .

ولم ينقذ اليهود من نقمة كاليجولا الا موته العاجل .

وفيلون هذا الذى رأس الوفد اليهودى هو آية على ان الاسكندرية ظلت بعد الاحتلال الرومانى هى عاصمة البحر الأبيض العلمية ، والدور الذى قامت به فى مزج الحضارات والديانات والتمهيد لانبعاث التعاليم المسيحية . وليس هناك من يرمز لهذا الدور بخير من فيلون فهو يهودى من أبناء الاسكندرية ، افتتن بالفلسفة الاغريقية وجعل هدف حياته الأكبر ان يوفق بين الكتاب المقدس والفلسفة اليونانية وخاصة افلاطون . وكان الله فى كتابات فيلون هو الكائن الجوهرى فى العالم وهو غير مجسد ازلى سرمدى فى وسع العقل ان يدرك وجوده . ولكنه لا يستطيع ان يخلع عليه صفة ما لأن كل صفة تعنى التحديد .

والذين يتصورونه فى صورة بشرية انما يفعلون ذلك ليقربوه من خيال البشر .

وكان يقول ان اول ما ولد الله ولد العقل الالهى او كلمة Loyos فالكلمة هى ابن الله من الحكمة العذراء ، وكان يقول ان الله عن طريق الكلمة قد كشف عن نفسه للانسان .

وكان فيلون معاصرا للمسيح كما نرى ، ومع ذلك فلا يلوح من كتاباته أنه سمع عنه ، ومع ذلك فقد كان مقدرا له وهو اليهودى الذى لم يسمع بالمسيح أن يسهم أكبر مساهمة فى تكوين اللاهوت المسيحى حيث أخذت أفكاره طريقها فى الاصحاح الأول من انجيل يوحنا الذى يقول لنا :

« فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله » او بالأحرى هذا هو ما يقول به الكثيرون من دارسى اللاهوت المسيحى .

٤١ م :

فى الرابع والعشرين من يناير من هذه السنة قتل احد ضباط الحرس الامبراطورى تنفيذا لمؤامرة مدبرة من كاليجولا .

ولما ذاع خبر مقتله فى روما تردد اهلها فى تصديق الخبر وظنوه احدى حيل الامبراطور لمعرفة من يتهيج بموته .

وكان المتآمرون ارادوا ان لا يدعو الناس فى شك من أمر مقتله .. فقتلوا كذلك زوجته الأخيرة ، وحطموا رأس ابنته .

ويقف المؤرخون حيارى ازاء ما ينسب الى كاليجولا من معاصريه الرومان ، ومن صنوف الجرائم والحماقات والدناءات التى ارتكبها ، ولا يجدون تفسيرا لها الا أنه

كان مجنونا ، ويبدأ البحث فى جنونه أكان أصيلا فيه أم أنه عرض له بعد ذلك . ذلك أنه بدأ بداية تنم عن حسن ادراك الامور ، فقد وزع أموالا طائلة على الشعب ، وأظهر الخضوع والتواضع لأعضاء مجلس الشيوخ . ولكنه لم يلبث ان طلب منهم ان يقبلوا قدميه تعظيما وتبجيلا ، وان يشكروه فوق ذلك اسماحه لهم بفعل ذلك وغلا فطالب من الرومان ان يجعلوا منه الها لهم . ولما كان هذا التقليد تقليدا مصريا ، فقد أصبح شديد الاعجاب بمصر ودينها وتقاليدها ، حتى لقد فكر أن ينقل عاصمة الامبراطورية الى الاسكندرية واندفع مع شهواته الجنسية الى الحد الذى لم يقف فيه عند حد : فأرغم أخته دروزولا على الطلاق من زوجها وراح يعاشرها معاشرة الازواج : وبينما كان يحضر حفلة زفاف فى احدى المرات انتزع العروس من عريسها ، وتزوجها ثم طلقها بعد بضعة أيام .. واندفع بعد ذلك فى افتناص كل صنوف النساء .. فلا يسمع على امرأة جميلة الا ويدعوها لنفسه ، وما كان لها أن ترفض وما كان لزوجها الا أن يطيع .

واذ كان قد بدد كل ما فى خزائن الامبراطورية من تراث ، فقد فكر فى طريقة لجمع المال ، وهى توجيه تهمة الخيانة العظمى للكبراء والاغنياء ليتسنى له اعدامهم ومصادرة أموالهم .

وحدث مرة أن قل ما يلزم من اللحم لاطعام الوحوش التى كان يستخدمها فى الالعاب ، فأمر أن يقدم جميع الصلع من المساجين ليكونوا طعاما لهذه الوحوش .

وعندما دبرت مؤامرة بعد ثلاث سنوات لاغتياله ، اكتشف كاليجولا المؤامرة ، ففرض على روما عهدا من الارهاب زاده وحشية حبه الجنونى للاذى ، فكان يأمر الجلادين أن يقتلوا الضحايا ببطء باثخانهم بالجراح الصغيرة الكثيرة حتى يشعروا بأنهم يموتون ، وأمر جدته انطونيا أن تقتل نفسها ، وأمر ان يكوى رجال الطبقات العليا بالحديد المحمى (ممن تآمروا عليه فيما نعتقد) وان يحبسوا فى اقفاص حديدية ، ثم تنشر اجسامهم ويلقوا بعد ذلك للحيوانات الضارية .

أما أحاديث اسرافه وفجوره وعبثه مع الراقصين والمغنين فحديث طويل عريض لا يكاد يصدق . وليس ذلك الا مجرد عينات مما فعل هذا الامبراطور حرصنا كل الحرص على تخفيفها لتكون اقرب الى الاذهان .

وكان عمره عندما قتل لا يتجاوز التاسعة والعشرين .

وترى صورة كاليجولا كفرعون مصرى على جدران معبد طنطرا كما يرى اسمه على المبانى والمنشئات التى استمر العمل فيها أبان عهده .

٤١ م : الامبراطور كلوديوس قيصر :

تصور قتلة كاليجولا وقد كانوا يدينون بالمبادىء الجمهورية ، أن الوقت قد

حان لخلع الحكم الاستبدادى والعودة الى النظام الجمهورى الديمقراطى : ناسين أن هذه الجمهورية كانت قد انتهت الى غير رجعة ، وأن القوة العسكرية الباطشة قوة الحرس الامبراطورى لا قوة السناتو هى التى اصبحت مصدر السلطان.

ويحدثنا التاريخ حديثا عجبا . . فعندما انقض الحرس الامبراطورى عقب المؤامرة لقتل كل من يلوذ بكاليجولا ، عثروا على شيخ يبلغ من العمر الخمسين وقد اشتهر طول حياته بالبلاهة ، وكان يرتجف فى مخبئه فزعا فى أحد أركان القصر ، فلما أمسك به الجند توسل اليهم أن يبقوا على حياته ولا يقتلوه فهو لم يفعل شيئا . فاذا بهم يفاجئوه بقولهم « كن أنت امبراطورا لنا » واقتيد الرجل الشيخ الأبله مذهولا مذعورا لا يكاد يصدق الا أنهم سيمثلون به ، اقتيد الى ثكنة الحرس الامبراطورى ، حيث كرروا على سمعه ما عرضوه عليه ، فما كان من الرجل الا أن وقف يخطب فيهم واعدا كل واحد منهم اذا جعلوه امبراطورا بمنحة مالية ضخمة (١٥ ألف سسترس)

وهكذا وضع الأساس لهذا التقليد الذى لن يلبث أن يصبح لدى الحرس الامبراطورى قانونا يشترى به الاباطرة العرش .

ولم يكن هذا الشيخ الأبله الذى وجد نفسه امبراطورا على غير انتظار سوى كلوديوس أخ جرمانيكوس وعم كاليجولا . وقد كانت مفاجأة للجميع أن برهن كلوديوس بمجرد توليه على العرش ليس فقط بعلمه وذكائه فحسب بل بقوة ارادته وأخلاقه القوية ــ فقد بادر باطلاق سراح من سجنوا بمقتضى قانون الخيانة العظمى ، واعاد جميع المنفيين الى أوطانهم ورد الاموال المصادرة الى أصحابها والغى الضرائب التى فرضها كاليجولا . ولكنه فى نفس الوقت أمر بأعدام قتلة كاليجولا ، فليس هناك ما هو أخطر من التغاضى عن قتلة الاباطرة وحرم عادة السجود للامبراطور ولعله لا يكشف عن قدرة كلوديوس التى أدار بها الأمور بمجرد اعتلائه العرش ، من تتبع آثاره ونشاطه فى مصر . .

٤١ م ــ ولى حكم مصر امليوس ركتوس :

بعث كلوديوس بمجرد توليه الامبراطورية بمنشورين لاحسان معاملة اليهود ، وقد تلاهما بنفسه فى الاسكندرية ، الملك اجريبا ، وكان أول المنشورين يعيد ليهود الاسكندرية كل الحقوق التى كانوا يتمتعون بها قبل عصر كاليجولا . أما المنشور الثانى فكان يمنح هذه الحقوق لكل الجاليات اليهودية فى سائر انحاء الامبراطورية وكان طبيعيا أن يملأ الزهو بالانتصار يهود الاسكندرية فتجمهروا مسلحين مطالبين بتنفيذ حقوقهم . متحرشين بأهل الاسكندرية فوقع الاصطدام بين الطرفين ، وكان اليهود هم البادئون هذه المرة : وأسرع الوالى المزود بتعليمات الامبراطور بقمع الفتنة بكل شدة فهدأت الاحوال .

رسالة كلوديوس الى اهل الاسكندرية :

وقد حفظ لنا التاريخ رسالة من كلوديوس وجهها الى أهل الاسكندرية وكانوا قد ارسلوا اليه : يهودا واغريقا كل من جانبه وفدا يهنىء ويدافع عن نفسه ويتقدم بمطالب .

، وهى رسالة حية تنبض بالحياة وتدلنا على مكانة الاسكندرية لدى الاباطرة وكيف كانوا يناقشون سكانها ويدرسون مطالبهم وشكاواهم :

« من تبريوس كلوديوس قيصر اغسطس جرمانيكوس الامبراطور الكاهن الأعظم حامل السلطة التريبونية المرشح قنصلا الى مدينة الاسكندرية سلاما » .

ثم يقول انه تلقى من السفراء قرار الاسكندرية بتكريمه ويعقب على ذلك قائلا :

« انهم اوضحوا لى ما يكنون من شعور طيب نحونا وهذا شعور أدخرته لكم فى نفسى — كما تعلمون جيدا — منذ زمن طويل فانتم بطبيعتكم تجلون الأباطرة كما أعلم من ادلة كثيرة ولا سيما اهتمامكم الشديد بأسرتى وهو اهتمام متبادل ، وأمل أعظم شاهد عليه — ولأذكر اقرب مثل ضاربا صفحا من الامثلة الاخرى — هو أخى جرمانيكوس قيصر الذى خاطبكم بلغة واضحة صريحة » .

وتنقسم بعد ذلك رسالة كلوديوس الى ثلاثة اقسام يتناول القسم الأول مناقشة اقتراحات الاسكندرية لتكريمه كجعل يوم ميلاده عيدا رسميا ، ، واقامة بعض التماثيل له ، وغير ذلك .. وقد قبل هذا النوع من الاقتراحات . ولكنه رفض اقامة المعابد بأسمه لأن ذلك امتياز خاص بالآلهة ويجب أن يظل وقفا عليهم .

ويتناول القسم الثانى مناقشة مطالب الاسكندرية التى تقدموا بها ، وهو يوافق بعضها فى ارتياح ، كقصر تعيين والى مصر لمدة ثلاث سنوات فقط .

« لأن حكامهم سوف يسلكون اثناء فترة توليهم مناصبهم مسلكا حذرا خشية ان يتعرضوا للحساب على أساءة استعمال السلطة » . حتى اذا وصل كلوديوس الى المطالب الخاص باقامة مجلس للشورى قال فى الرد عليه ما يلى :

« اما عن مجلس الشيوخ فليس فى وسعى ان اقول ما هو التقليد الذى درجتم عليه فى عهد الملوك الاقدمين ، ولكنكم تعلمون جيدا انه لم يكن لديكم مجلس فى عهد من سبقونى من الاباطرة وحيث ان هذا مقترح جديد يثار للمرة الاولى ولا يتضح اذا ما كان سيعود بالفائدة على المدينة وحكومتى فقد كتبت الى ايمليوس ركتوس (الوالى) أن يبحث الموضوع ويخبرنى عما اذا كان من الضرورى انشاءه اصلا وكيف ستكون طريقة انشائه اذا تبين أنه ضرورى .

أما القسم الثالث من اقسام الرسالة ، فخاص بالموضوع الذى قام بين اليهود والاغريق من سكان الإسكندرية .

« أما عن الفريق المسئول عن الشغب والنزاع ـ وأن شئتم الصدق ـ عن الحرب مع اليهود . فعلى الرغم من أن سفراءكم ولا سيما ديوتسيوس بن شيمون قد دافعوا عن قضيتكم دفاعا مجيدا عندما ووجهوا (بخصومكم) الا أننى لم أشأ ان اقوم بتحقيق دقيق مختزنا فى صدرى سخطا دفينا على من يبدأون (العدوان) من جديد وانبئكم بصراحة انه اذا لم تكفوا عن تبادل العداوة المستحكمة القاتلة ، فسوف اضطر الى ان اظهر لكم كيف يصير العاهل الشفوق عندما يتملكه غضب هو محق فيه . ولهذا فاننى من ناحية اناشد الاسكندريين مرة أخرى ان يبدوا روح التسامح والود لليهود الذين يعيشون فى المدينة نفسها منذ زمن طويل : والا ينتهكوا شعائر عباداتهم الدينية، بل أن يدعوهم يمارسون عاداتهم التى يمارسونها أيام اغسطس المؤله والتى اقررتها انا كذلك ، بعد ان سمعت اقوال الطرفين .

ومن ناحية أخرى فانى آمر اليهود صراحة الا يضيعوا جهدهم فى السعى وراء (حقوق) اكثر مما حصلوا عليه من قبل ، والا يرسلوا بعد اليوم سفارتين كانهم يعيشون فى مدينتين ، فذلك أمر لم يحدث من قبل ، والا يقحموا أنفسهم فى مباريات معاهد التربية أو منظمات الشباب ، بل ينتفعوا بما فى حوزتهم من (امتيازات) ويتمتعوا بمدينه ليست مدينتهم بوفرة من الخيرات الجمة . وعليهم الا يستقدموا أو يستدعوا يهودا ممن يفدون الى المدينه من سوريا ، أو من مصر عن طريق النهر مثيرين فى نفسى مزيدا من الريبة . ولئن لم يمتثلوا لانتقم منهم بكل الوسائل بوصفهم قوما ينشرون الوباء الشامل فى انحاء المعمورة . فان كف كل عن هذه الأعمال ورضى ان يعيش فى تسامح وود مع الآخر فسوف أولى من جانبى اهتماما للمدينة التى تربطنا بها صداقة تقليدية قديمة » . على أن كلوديوس وان لم يمنح الاسكندريه مجلس شوراها ، فقد اظهر اهتمامه وعطفه عليها بتبنى الوسائل فبنى بها مدرسه سماها باسمه وامر أن يقرا فيها تاريخه الذى وضعه عن ايطاليا وقرطاجنه واعاد لها حق ضرب النقود الذى كان قد انكر عليها فضربت النقود فى السنة الاولى من حكمه ، ثم سنى ملكه بعد ذلك مما افاد المؤرخين فائدة عظمى .

وسن قانونا لحفظ حقوق الشعب من التعدى والظلم ، وأمر واليه ان ينشره فى طول البلاد وعرضها ، ولكن الوالى لم يقم قضاة فى داخل البلاد للحكم بموجبه فلم يظهر له أثر فعلى .

٤٧ م ـ ولى حكم مصر جوليوس برستوموس .

٤٨ م ـ « فرجيلوس كابيتو » .

٥٣ م ـ تجددت الفتنة من جديد فى الاسكندرية بين اليهود والخليط من سكان الاسكندرية . ولم تصلنا اخبار الفتنة فى هذه المرة من كتب المؤرخين ، ولكن من هذه البرديات التى تؤلف مجموعة من الوثائق أطلق عليها العلماء اسم « أعمال الاسكندريين » وهى كتابات من نوع الأدب الشعبى ستظل تقابلنا حتى عام ٢٠٠ م عندما أعطيت الاسكندرية حق تأسيس مجلسها الخاص بالشورى . ولا يستطيع

التاريخ أن يتجاهل هذه الوثائق التى تفيض كلها بالهجوم على اليهــود من ناحية وعلى الرومان من ناحية اخرى ، بل لعلها لا تهاجم اليهود الا كسبيل للهجوم على الرومان ، والهاب روح العداوة ضد الحكم الاجنبى . فتحدثنا هذه البردية التى نحن بصددها والتى تسمى « أعمال أسيدوروس » كيف ان سـفراء الاسكندرية وعلى راسهم أسـيدوروس . قد مثلوا فى حضره الامبراطور كلوديوس أول مايو عام ٥٣ ليتمتكوا له من الملك اجريبا اليهودى ... ولكن كلوديوس كما يبدو فى هذه الوثيقة قد انحاز الى جانب اليهود وملكهم ... حتى لقد أصـدر حكمه باعدام اسيدوروس وزميل له يدعى لاميون .

ويوجه كلوديوس الحديث لاسيدوروس متسائلا :

كلوديوس : أحق يا اسيدوروس انك ابن راقصة .

اسيدوروس : انا لست عبدا ولست ابن راقصة ،انما أنا مدير معهد التربية بمدينة الاسكندرية الشهيرة .

وأما أنت فابن منبوذ غير شرعى لسالومى اليهودية وعندئذ يقول لاميون لزميله اسيدوروس ليس بيدنا حيلة سوى الاذعان لحاكم مجنون .

ازدهار حياة مصر الاقتصادية :

وفى هذه الفترة من التاريخ اكتشـف الملاحون العاملون من مصر طريق البحر الى الهند ، فادى ذلك الى اتساع التجارة اتساعا عظيما .

ويحدثنا بالينى الاكبر عن الأرباح الضخمة التى بدات تدرها هذه التجارة التى اصبحت مصر معبرا لها . كما يحدثنا عن ازدهار الصناعة فى مصر ولا سيما صناعة المنسوجات والأصباغ والورق بصفة خاصة الذى اصبحت تصنع منه انواع متعددة تسد حاجة عالم البحر الأبيض كله .

٥٤ م ــ ولى حكم مصر لوسيوس .

٥٤ م وفاة كلوديوس : دست اجريبنا زوجة كلوديوس لزوجها السم فى طعامه فاردته قتيلا ، بعد ان ضمنت تأييد الحرس الامبراطورى لها ولتولى ابنها نيرون العرش . ولم يكن مصرع كلوديوس بهذا الأسلوب الا مظهر فشله فى حياته الخاصة والزوجية .. فحيث اعتبر من انجح الاباطرة فى الشئون العامة . فعاقب الموظفين الذين اساءوا استخدام السلطة وسعى لرفع شأن الولايات الرومانية كلها لتصل الى مكانة ايطاليا نفسها لتؤلف معها مجموعة متساوية من الأمم الرومانية .

وحقق ما سعى يوليوس قيصر لتحقيقه وهو احتـلال الجـزر البريطانيـة (عام ٤٣ م) وذهب اليها بنفسه . حيث حقق ذلك كله ... عجز ان يسيطر على سياسة بيته ،فتزوج اربع مرات كانت كل زيجة منها ذات طابع غريب ...

وذهبت واحدة منهن فى التاريخ علما على أقصى مايمكن ان تصل اليه امراة متزوجة من الاباحية والتحلل من كل المعانى والقيم ونعنى بها « مسالينا » والتى يقول لنا عنها مؤرخو الرومان ما يتردد الانسان لتصديقه ... لا من ناحية ارتكابها اياه بالفعل ، ولكن من ناحية موافقة الامبراطور عليه ، حيث كانت تستعين به على اقناع من يتردد فى مبادلتها العشق ، فمن استعصى بعد ذلك لفقت له تهمة الخيانة العظمى وقضى عليه .

وقد وصل بها الأمر الى حد أن تقصد المواخير العامة وتستقبل كل من يدخلها وتأخذ ما يقدمون لها من اجور .

ونحن مضطرون ان نصدق مدى ما وصل اليه استهتارها الذى لم يسمع بمثله لأنه كان السبب الذى أدى الى موتها .

فقد انتهزت فرصة غياب الامبراطور ، وتزوجت رسميا من شاب وسيم يدعى كيوس سليوس ، وابت الا ان يتم الزواج فى حفل رسمى وان تجرى فيه كل المراسيم والطقوس المعتادة .

وابلغ نارسيس (سكرتير المراسلات الامبراطورية) سيده بما حدث . فخف الى روما واصدر أمره بذبح سليوس وجميع عشاق مسالينا . أما هى فقد بعث اليها لتدافع عن نفسها وكانت فى حديقتها الخاصة التى أعدتها لملذاتها الخاصة ، وخشى نارسيس على نفسه أن يصفح الامبراطور عنها بعد كل ذلك فتنقلب الدائرة عليه ، فأرسل لها بعض الجند فقتلوها .

وأبى كلوديوس الذى كان قد بلغ من العمر السابعة والخمسين الا أن يتزوج للمرة الرابعة ، وكانت زوجته هذه المرة ابنة أخته اجريبنا التى أوقعته فى حبالها وكان قد سبق لها الزواج ، حيث رزقت بابنها نيرون ، الذى جعلت نصب عينيها أن ترفعه على العرش ، وأن تجعل منه اسكندرا آخر ونجحت فى خطواتها الأولى عندما تزوجها خالها الامبراطور وعلى الرغم من ان كلوديوس كان له ابن ، فقد نجحت فى حمله على تبنى نيرون ، وجعله وريثا على العرش دون ابنه صاحب الحق .

وجاءت بسنكا الفيلسوف الكبير ليكون مربيا لنيرون كما كان أرسطو مربيا للاسكندر .

وعندما تصورت أن كلوديوس يحاول التخلص من وعده وتعيين ابنه الاصيل وليا لعهده أسرعت فدست السم لكلوديوس ... وهكذا وجد نيرون نفسه على عرش روما بفضل دسائس أمه ومؤامراتها وشخصيتها العجيبة المسيطرة .

وقد أنشأ كلوديوس بهو الأعمدة فى المعبد الكبير بطنطرا وشيد الاعمدة الرائعة فى فيلا وترى صورة كلوديوس كفرعون مصرى يتعبد للالهة على جدران معبد فيلا كما ورد ذكر اسمه فى المبانى والمنشآت التى استمر العمل فى اقامتها فى عهده .

حكم نيرون :

٥٤ م ــ اعتلى نيرون الذى كان عمره سبعة عشر عاما عرش روما . وبدأ حكمه بداية موفقة جدا بفضل توجيهات أستاذه سنكا وقائد حرسه الامبراطورى يورس. ودامت هذه البداية الرائعة خمس سنوات يقول عنها تراجان أنها خير السنين فى تاريخ الحكومة الامبراطورية .

مصــــر :

ولقد استقبلت مصر والاسكندرية القيصر الجديد كما هو شانها دائما مع فراعنتها وملوكها ، بالتحية والاكرام واقامة الاعياد والاحتفالات . وتصفه لنا البردية التى ورد فيها اعلان جلوسه على العرش : أنه روح العالم والطبيب والامبراطور المرتقب من الدنيا ومناط أملها ومصــدر كل البركات ، وانه يتعين على الجميع أن يرتدوا الاكاليل وينحروا الثيران لجميع الآلهة عرفانا بالجميل .

ويوصف فى بعض مسكوكات الاسكندرية بأنه : «منقذ المعمورة » .

٥٦ م ــ وقد عين كلوديوس بالبيلوس واليا على مصر والذى بذل عناية كبيرة باصلاح الاحوال الاقتصادية فى مصر والعمل على ازدهار الصناعة والتجارة والزراعة .. مما يجعل المؤرخ جرافتون ملن يرى أن ثناء المصريين على نيرون لم يكن مجــرد الاقوال التقليدية المألوفة .

٥٩ م ــ ولى حكم مصر جوليوس فسينيوس .

٦٠ م ــ حوكم شارل اليهودى الذى كان قــد تحول الى أكبر دعــاة التبشير بالمسيحية واصبح اسمه بولس امام فيلكس حاكم جواديا ، فطلب بولس الذى كان على معرفة بالقانون الرومانى ، أنه يريد أن يحاكم امام الامبراطور ، فأجيب الى طلبه وارسل الى روما ليحاكم بها .

وهكذا خطت المســيحية خطواتها الكبرى على يد بولس لتنتقل من ديانة يهودية الى ديانة عــالمية .

٦١ م ــ قامت بعثة بناء على امر نيرون وبتوجيهات من سنكا الذى كان مغرما بالجغرافية والعلوم ، لاستكشاف منابع النيــل ، فقوبلت البعثة بالترحاب فى كل مكان حلت به ، ووصلت الى مروى العاصــمة الجنوبية للنوبيين ، ثم وصلت الى مستنقعات النيل الابيض ، وجمعت معلومات قيمة عن تضاريس الارض وحيوانات هذه المناطق النائية ورسمت خريطة لها .

ويقول بعض المؤرخين أن هذه البعثة انما كانت تمهيدا للقيام بغزو عسكرى لبلاد النوبة ، ولكن هذا ليس الا افتراض .

٦١ (١) م — فى هذه السنة بدأ مرقص الرسول النبشير بالمسيحية فى الاسكندرية وكان قد قدم اليها من المدن الخمسة (ليبيا) فأخذ يسير فى شوارع المدينة مأخوذا بحالها حزينا على ما مر بها من شرور ، وكما لو كانت المدينة العظيمة قد سحرته فأنسته الجوع والتعب وعند المساء انقطع سير حذائه فوقف عند أول اسكاف صادفه وطلب منه أن يصلح له حذاءه ، وبينما كان الاسكاف يباشر عمله اذ دخل المخراز فى يده فرفعها فى ألم وهو يهتف « الله الواحد » وفى الحال تفل الرسول على الأرض وصنع من التفل طينا ومسح به الجرح فأبراه .

ثم سأل الاسكاف أن كان يعرف الله الواحد الذى يناديه فقال له : « أننى أسمع عنه سمعا ولكننى لا أعرفه » وعندئذ أخذ مرقص يروى له كيف ولد المسيح وكيف علم وكيف افتدى الناس بأن ارتضى أن يعلق على الصليب ثم دفن وقام من الاموات وصعد الى السماء « وتفتح قلب الاسكاف لهذهالبشرى المجيدة وابتهجبها ، فأصطحب معه مرقص الى البيت . حيث اصطبغ بالصبغة المقدسة هو وأهل بيته ، فكان بذلك الاسكاف واسمه اينانوس (جنانيا) وهو وآل بيته أول المؤمنين » (٢) .

٦٤ م — اعتزم مرقص الرسول أن يبارح الاسكندرية ، فرسم اينانوس (حنانيا) بابا للاسكندرية . فهو أول بابا للاسكندرية بعد مرقص أو ثانى بابا للاسكندرية واليه ينسب انشاء أول كنيسة فى الاسكندرية وهى على ما يعتقد بعض أقباط مصر فى نفس البقعة التى توجد بها الكنيسة القبطية الحالية بالاسكندرية بشارع الاقباط .

وتاريخ الكنيسة القبطية يعزو الى مرقص أيضا انشاء مدرسة لاهوتية فى الاسكندرية ، لتقف فى مواجهة المدارس الفلسفية أو اليهودية التى كانت تملأ الاسكندرية ومرة أخرى ليس باستطاعة المؤرخ المحقق أن ينفى هذا الخبر .. فمدرسة الاسكندرية اللاهوت ستصبح بعد قليل احدى حقائق العالم المسيحى .

٦٤ م — فى الثامن عشر من شهر يوليو من هذا العام شبت النار فى المضمار الأكبر بروما وانتشرت انتشارا سريعا ، وظلت النار مشتعلة طوال تسعة أيام بلياليها التهمت فيها ما يقرب من ثلثى مدينة روما .

وعلى الرغم من أن نيرون كان بعيدا عن روما ساعة اندلاع الحريق ، فقد امتلأت روما بالشائعات أنه هو صاحب الحريق ومدبره لكى يغنى أحد اناشيده على ضوء اللهب .

---

(١) اعتمدنا فى هذا التاريخ وعلى كل سنى البابوات على التاريخ القبطى المعتمد من الكنيسة القبطية المصرية ، والذى يتأخر عن التقويم الميلادى الغربى بثمانى سنوات .

(٢) هذا هو الرأى المعمول به فى كيف بدات الدعوة المسيحية فى مصر ، وهى رواية الكنيسة ، وليس هناك ما يناهضها أو يدعو لعدم الاخذ بها ولكن الاستقراء يدل على أن الاتصال بين يهود مصر ويهود اورشليم كان لا ينقطع ، ولا يمكن أن يكون يهود مصر الذين حضر الكثيرون منهم عيد الفصح الذى حوكم فيه المسيح ، لم يشهدوا مأساته ولم يتأثروا بها ويعتنقوا الدين الجديد مع اخوانهم فى مصر فلابد أن تكون المسيحية دخلت الى مصر بصورة ما خلال الثلاثين عاما السابقة على مقدم بولس .

ووجد نيرون ان خير طريقة للدفاع عن نفسه هو أن يلصق التهمة بغيره ، فوجد فى المسيحيين كبش الفداء ، فصب عليهم جم غضبه ولننقل لك ما قاله تاستيوس فى تاريخه عما حل بالمسيحيين وهى على ما يقول المؤرخون المحققون أول اشارة وردت للمسيحية فى كتب التاريخ المعاصرة لحياة المسيح وما تلاها :

الصق نيرون التهمة بطائفة من الناس يحقد عليهم الشعب لأعمالهم الخبيثة (١) ويسمون غالبا بالكريستيانى (المسيحيين) والاسم مشتق من كريستوس وهو اسم رجل عذبه بنتيوس بيلات المشرف على الشئون المالية فى عهد بربيوس . وكان ما حل به من العذاب ضربة شديده وجهت الى الشيعة التى أوجدها هذا الرجل ، وبفضل هذه الضربة وقف نمو هذه الخرافات الخطيرة الى حين ، ولكنها لم تلبث ان عادت الى نشاطها وانتشرت انتشارا سريعا قويا فى بلاد اليهود وفى مدينة روما نفسها » .

ويمضى تاسنيوس فى سرد ما حدث من اضطهاد للمسيحيين فيقول :

واستخدمت فى اعدام المسيحيين افانين من القسوة المتناهية ولم يكتف نيرون بتعذيبهم بل اضاف الى هذا التعذيب السخرية منهم والازدراء بهم ، فالبس بعضهم جلود الوحوش وتركوا تلتهمهم الكلاب . وسمر غيرهم فى الصلبان ، ودفن الكثيرون منهم أحياء ، ودهنت اجسام البعض الآخر بالمواد الملتهبة واشعلت فيهم النيران ليكون مشاعل فى الليل . وفى آخر الأمر افعمت هذه الوحشية قلوب الناس جميعا رأفة ورحمة ورقت القلوب اسى على المسيحية .

٦٦ م — عين نيرون تيبريوس يوليوس الاسكندر واليا على مصر .

اجتمع أهل الاسكندرية فى المدرج الكبير ليبحثوا فى شان ارسال سفارة الى روما تعبر للامبراطور عن ولائهم له بمناسبة اندلاع ثورة اليهود ضد الحكم الرومانى فى أورسليم . فاندس بعض اليهود وسط المجتمعين فلما كشف أمرهم المجتمعون هموا بالبطش بهم باعتبارهم جواسيس عليهم وفكر البعض فى حرقهم أحياء . فثار يهود الاسكندرية ، وهاجموا المجتمعين فى المدرج ورجموهم بالحجارة ، بل وفكروا فى ان يضرموا النار فى الملعب ليحرقوا كل من به .

ولكن تبريوس يوليوس الاسكندر والى الاسكندرية فى هذا الوقت وهو اليهودى الأصل وارتد الى الوثنية ، أوضح لليهود مغبة اعمالهم ، ولكن المتطرفين منهم لم يستمعوا اليه ، ومضوا فى اشتباكاتهم المسلحة . فاستعان الوالى بالجيش المرابط بالمدينة ، كما تصادف وصول جيش من روما فى طريقه الى أدرشليم لاخماد الثورة بها فأحاط باليهود وحوصروا فى حيهم الخاص بهم ، ولكنهم استماتوا فى الدفاع عن انفسهم على انهم لم يلبثوا أن غلبوا فى نهاية الامــر على امرهم ولا ســبيل للتحقق مما قاله يوسيفوس المؤرخ اليهودى الذى زعم أن عدد قتلى اليهود فى هذه الملحمة ناهز الخمسين الفا .

---

(١) غنى عن البيان أن تاستيوس لم يكن مسيحيا .

٦٧ م — تعيين فاسبسيان للقضاء على ثورة اليهـود .

٦٨ م — موت نيرون : انتحر نيرون بطعنة خنجر شريرا طريدا ، بعد أن أحيط به ، اذ أعلن فندكس حاكم غالة (فرنسا) الثورة عليه ، ولم يلبث الجيش الرومانى فى اسبانيا أن استجاب لهذه الثورة ونادى بقائده المسن (جاليا) امبراطورا .

وانضم الحرس الامبراطورى فى روما الى المناداة بجاليا امبراطورا .

واسرع السناتو فأعلن أن نيرون عـــدو للشـعب وقضى بأعـــدامه وفــق الطـرق القـديمة .

ووجد نيرون نفسه فجاه وقد هجره كل من حوله ففر هاربا مذعورا متخفيا فى ملابس زرية وعندما وصـل الجنود للقبض عليه وضــع حدا لحياته بالانتحار وهو يردد « أى فنان يقتلون » .

ولعل تهمة حرق روما التى الصقها به معاصروه هى أخف ما ارتكب من آثام اذا صح ما ادعاه أو نسبب اليه من انه أراد ان يعيد بناء روما لتكون جديرة بمركزها كعاصـــمة للدنيا .

ولكن الذى يصمه به التاريخ فى الدرجة الأولى ، هو أن قتله أمه اجريبنا التى فوق كونها كأى أم قد حملته وارضعته فقد كرست حياتها من اجل أن تجعله ملك الدنيا حتى أوصلته بالفعل الى ما وصل اليه ، ومع ذلك فقد قرر استجابة لنزوة محظيته « بوبيا » أن يقتلها ففكر فى السم وفشل ، فشرع فى قتلها اغراقا ولكنها نجت أو سبحت ، فلم يبق الا ان تقتل بالسيوف فأرسل رجاله يطاردونها ، فلما لحقوا بها خلعت ثيابها وتبدت امامهم عارية وقالت لهم « أدفعوا سيوفكم فى رحمى » اشارة الى انه هو الذى انجب هذا الولد ، واحتاج قتلها الى عدة طعنات ، ولما رأى نيرون جثتها العارية لم يزد عن قوله : لم أكن أعرف ان لى أما بمثل هذا الجمال .

وكان جزاء نيرون على هذه الفعلة ، ان صفق له السناتو وهلل ، وقرر توجيه الشكر والحمد للآلهة التى كلأت نيرون بالرعاية وانجته من الســوء والحق نيرون بأمه زوجته اكتافيا التى قطعت راســها والقيت بين أحضان بوبيا عشــيقة نيرون تحقيقا لرغبتها .

ومرة اخرى قدم مجلس السناتو الشكر والدعاء للآلهة لحفظها الامبراطور ونجاته من كل سوء ونستطيع أن نتصور ما الذى حل برجالات روما عندما اكتشف نيرون احدى المؤمرات عليه ، فقد كان جوابه هو التوسع فيما اكتشفه كاليجولا من قبله وهو اخضاع روما لجو من لارهاب الوحشى ، وتوجيه تهمة الخيانة العظمى لا للمتآمرين أو من أشتبه فى تامرهم ، ولكن لكل من يكون مرغوبا فى قتله لمصادرة أمواله ، لسد عجز الخزانة التى كان نيرون قد بعثرها .

حتى سنكا استاذه ورائده ، لم يكد يظهر اعتراضه على بعض أعمال نيرون ، حتى طلب منه الاعتزال فى بيته ، ثم لم يلبث ان صدر له الأمر بأن يقتل نفسه ففعل ، غير آسف فيما يبدو على مفارقة حياة تحول فيها تلميذه الى شيطان مريد . ولعل روما فى كل تاريخها لا تجد فيلسوفا يفوق سنكا من حيث تمثيله للفلسفة الرواقية .

وتغوق نيرون على سلفه كاليجولا فى حماقاته ومباذله حيث كان يتخفى ويطوف الشوارع ويتردد على الحانات والمواخير فى صحبة رفاق السوء الذين قد يحلو لهم ان يسطوا على الحوانيت ويسيئون الى النساء ويفسقون بالغلمان ويجردون من يقابلونهم مما معهم من نقود ويضربونهم بل ويقتلونهم .

وعندما ماتت بوبيا زوجة نيرون التى قتل من اجلها أمه وزوجته (عام ٦٥ م) عثر على شاب يدعى اسبورس عظيم الشبه بها ، فأمر بخصيه وتزوجه فى احتفال رسمى (استعمله فى كل شيء كما تستعمل النساء) .

والناحية التى تحير الباحثين النفسيين فى حياة نيرون هو ان هذا الانسان الذى انحرف بهذه الصورة العجيبة كان فى طيات نفسه الرغبة القوية فى أن يكون فنانا ، حتى لم يكن يستخفه شيء من الطرب الا ان يغنى على شعره أو صوته ، وحتى ليحمله حب الفن على ان يغنى ويمثل فى المسارح العامة التى تزدحم بالجماهير (حتى لينكسر بعضها من شدة الزحام) لترى امبراطورها وهو يركع على المسرح فى ختام المسرحية كعادة الممثلين ليطلب من النظارة أن تصفق له .

ولما احس أن الرومانيين لا يقدرون فنه كما ينبغى رحل الى بلاد اليونان عام ٦٦ فاليونانيون هم الشعب الوحيد الذى له آذان موسيقية تقدر فنه واستغلت بلاد اليونان فرصتها الذهبية فصفقوا للامبراطور ، بل ومنحوه كل ما عندهم من كل فرع من فروع البطولات الرياضية وسباق العربات التى اشترك فيها كما منحوه جوائز الغناء والعزف والتمثيل . ورد الامبراطور التحية بأحسن منها فأعلن أن بلاد اليونان اصبحت حرة فلم يعد عليها ان تدفع جزية لروما .

وليس ذلك الا اشارات لما تضمنته كتب التاريخ الرومانية لحياة هذا الامبراطور . الذى اصبح حرق روما رمزا عليه ورمزا على منتهى ما يمكن أن يؤدى اليه حكم الفرد الطاغى .

ولعل اعجب ما فى الأمر ان يهبط رجالات الرومان الى المستوى الذى يجعلهم يرضون بمثل هذا الحكم وهم الذين قتلوا من قبل أعظم رجالهم وهو يوليوس قيصر خوفا من ان يعلن نفسه ملكا .

يريد ان يكسب قوته فى مصر :

بقى أن مصر والاسكندرية كانت آخر ما تعلق به أمل نيرون عندما احيط به ،

فقد رجا أن يسمح له بالذهاب ليكون واليا على مصر ، أو يترك ليتكسب فى الاسكندرية بعرق جبينه على مسارحها ودور الغناء بها .

وكان فى بلاطه رجال من الذين يمثلون العلم المصرى والدين المصرى من أمثال خيريمون النقراطيسى مربى القصر ، وبالبيللوس عالم النجم الفذ .

وكانت بوبيا زوجته صاحبة التأثير عليه تشبه بايزيس ربة مصر ، واوصت (فيما يبدو) بأن تحفظ جثتها بعد موتها تأثرا بالعقائد المصرية ونفذت وصيتها .

وترى صور نيرون كفرعون مصرى فى معبد طنطرا ويذكر اسمه على كثير من المنشآت التى استمر العمل فى تشييدها ابان حكمه ، ولكن معبد كلابشى قد انشىء بأكمله فى عهده .

اربعة اباطرة فى عام :

٦٨ — ٦٩ — كان الاعتراف بجاليا امبراطورا للرومان فى يونيو ٦٨م تسليما من السناتو بأن الأباطرة يمكن أن يعينوا بعد الآن فى أماكن أخرى غير روما ، بعد أن كان قد سلم بحق الحرس الامبراطورى فى تعيين الامبراطور .

ولما كان جاليا الامبراطور الجديد شيخا وقائدا جليلا ممن كانوا لا يزالون يحتفظون بالروح الرومانية الأصيلة ، فقد احنق عليه الحرس الامبراطورى منذ اللحظة الأولى بعدم اعطائه المنحة التى شرعها كلوديوس لأفراد الحرس .

وعندما حاول أن يفرض على روما حياة التقشف والعودة الى بساطتها الاولى ، الب عليه عناصر الفساد التى كانت تغص بها روما وحولهم الى أعداء الداء .

وعندما أصدر امره بوجوب أن يرد كل من أعطاه نيرون مالا تسعة اعشار ما أخذه .. كان يضم لقائمة اعدائه اعدادا غفيرة من أقوى رجال روما ولغناهم .

فلا عجب اذا كان باستطاعة من يدعى أوتو والذى كان رفيق فسق لنيرون والذى اخذ منه نيرون زوجته بوبيا ، أن يحظى بتأييد الحرس الامبراطورى وأن يحمله على قتل جاليا ويدعو خليفته الذى كان قد عينه ليكون قيصرا من بعده .

فى مصر :

وعلى الرغم من قصر المدة التى حكم فيها جاليا فاننا نرى معبدا صغيرا فى مدينة حابو قد كرس له ونرى صورته كفرعون كما نرى اسمه على المبانى التى استمر العمل فيها فى أيامه .

ولم يكد جاليا يقتل وينادى الحرس الامبراطورى بأوتو امبراطورا حتى بادر السناتو باعتماد هذا الاختيار وتكريمه .

ومما يؤثر عن أوتو انه كان من عبـاد ايزيس المتفانين فى عبادتها ، وهـــو ما يدل على مدى انتشار هذه العبادة فى روما ووصولها الى كبار رجالاتها . على ان اوتو لم يهنأ طويلا بالامبراطورية ، فان جيش الرامين الذى رفض من البداية الاعتراف بجاليا امبراطورا ونادى بقائده اولوس فيتليوس امبراطورا ، رفض الاعتراف باوتو وزحف على روما ، حيث قابلته جيوش اوتو . ولكن الدائرة دارت على أوتو وجيشه ، فأقدم أوتو على الانتحار ، ويقال ان هذا الانتحار هو العمل الوحيد الطيب فى حياته ولم تتجاوز مدة حكمه خمسة وتسعين يوما . وبالرغم من ذلك نجد صـورته بدوره كفرعون نفسه فى مدينة حابو بطيبة .

ومرة اخرى بادر السناتو باعتماد اختيار الامبراطور الجديد اولوس فيتليوس ، مع توجيه الشكر لجيش الرامين لاختياره هذا الامبراطور العظيم .

ويقول لنا تاسيس ان هـذا الامبراطور العظيم قد جمع فى حكمه القصـير كل الحماقات والمفاسد التى شهدتها روما ابان حكم كاليجولا ونيرون .

وزاد عليهم بأن جعل الحكم وليمة مستمرة من الطعام التى ينفق عليها كل يوم عشرات الملايين من السشراس وان يتخلل هذه الولائم كل المساخر والمهازل ومظاهر الاباحية والانحلال الذى يلطخ تاريخ روما فى هذه الفترة . على أن هذا الحكم الفاسد لم يعمر طـويلا بدوره ، فقد رفضـت الفرق الرومانية فى الدانوب الاعتراف به امبراطورا ، وزحفت نحو روما ، وعلى راسها قائدها انطونيوس . وتقابلت الجيوش الزاحفة وجيوش فيتليوس عند مدينة كزمونا فى اكتوبر عام ٦٩ م ويقال ان الدماء جرت فى هذه المعركة كما لم تجر فى أى معركة سابقة فى التاريخ كله ، على الرغم من أن فيتليوس نفسه كان راغبا عن الحرب وطلب من مناصريه ان يلقوا السلاح ، ولكن جيشه اصر على المقاومة فى داخل روما نفسها ، بينما وقف الشعب يشهد الجيوش المقاتلة كما لو كان يشهد تمثيلية مسرحية فيقول لنا تاستس الذى كان معاصرا لهذه الاحداث ، أن الجماهير احتشدت لتشاهد المعركة كان منظر القتل واراقـة الدماء لم يكن الا منظرا يعرض عليهم لتسليتهم ، وبينما كانت المعركة حامية الوطيس كان بعضهم ينهبون المتاجر والمنازل ، وكانت العاهرات يمارسن مهنتهن ; وكان الجمهور يتسلى بالبحث عن الجنود المختبئين وتسليمهم الى غرمائهم ليذبحوهم .

وقبض على فيتليوس وطيف به فى المدينة وحول رقبته طوق معقود ، والقيت عليه الأقذار وعذب تعذيبا بطيئا واخيرا قتل فى ديسمبر عام ٦٩ م . وسحبت جثته بخطاف فى شوارع المدينة ثم القيت فى نهـر التيبر .

لعله الوحيد بين الاباطرة الثلاثة الذين بدأوا بجاليا وانتهوا به ، من لايرى اسمه فى مصر فضلا عن صورته ذلك أن انطونيوس قائد الجيوش التى دخلت روما وقتلت الامبراطور لم يكن يعمل لحسابه وانما كان يعمل لحساب هذا القائد الرومانى الذى يسطع نجمه فى الشرق ونودى به فى مصر امبراطورا ونعنى به فاسبسيان ، والمناداة بالامبراطور الجديد من مصر هى التى حالة دون الاعتراف بفيتليوس .

الاسكندرية تنادى بالامبراطور الجديد :

كان طبيعيا وهذا مدى وقوع الشقاق فى أرجاء الامبراطورية الرومانية ، أن تسهم مصر والاسكندرية بصفه خاصة فى هذه المعمعة وان يقدر لها دون غيرها نجاح من أيدت واختارت .

كان فاسبسيان على رأس الحملة التى بعث بها نيرون الى بيت المقدس لاخماد ثورة اليهود ، فلما أن مات نيرون ، ونادى كل جيش بقائده امبراطورا ، رشحت الفرق الرومانية المقيمة فى مصر فاسبسيان ليكون امبراطورا ويقال ان والى مصر يومئذ تيبريوس يوليوس الاسكندر ، وهو من عرفنا نشأته المصرية وتدرجه فى مراتب السلطة حتى أصبح واليا هو الذى أوعز الى الجيوش المرابطة فى مصر بهذه الخطوة .

وكان طبيعيا أن يبادر جيش فلسطين العامل تحت أمره فاسبسيان بتأييد هذا الترشيح فنادى بفاسبسيان امبراطورا وتبعتها الفرق السورية .

وتسبث فاسبسيان بفرصته ، فزحف على مصر ليتخذ منها مركزا لمباشرة سلطانه . وليحول دون وصول قمحها الى روما اذا توقف منافسوه فى روما عن الاعتراف بسلطانه .

ووجدت الاسكندرية فى تقدم فاسبسيان اليها فرصتها لتعلن تمردها على روما ، ولتشفى غليلها من المدينة التى سلبتها عزتها السياسية ومجدها ، فاستقبلت فاسبسيان بكل حماسة وتعالت هتافات ابنائها على اختلاف جنسياتهم بحياة الامبراطور ، واضفت عليه ما اعتادت ان تضيفه على حكامها من صفة الالوهية .

بل ان كتب التاريخ لتحدثنا عن أن فاسبسيان بدأ يمارس العجائب فى الاسكندرية فقد تقدم له ضرير وآخر عاجز اليد وزعما أن سيرابيس أوحى اليهما أن يلتمسا الشفاء على يدى فاسبسيان بمجرد أن يلمسهما : وتقول الرواية أن فسبسيان استشار الأطباء قبل الاقدام على لمس الرجلين فأشاروا عليه أنه لن يخسر شيئا اذا لم يشفيا ولكن الرجلين شفيا بالفعل بمجرد لمسة فاسبسيان لهما .

فأسرت هذه المعجزة قلب فاسبسيان فزار معبد سيرابيس مقدما فروض الاحترام ، فحدثت له عجيبة جديدة زادت الاحترام والتقديس عمقا فى نفسه .

وتلقى فاسبسيان وهو فى الاسكندرية نبأ الاعتراف به امبراطورا فى روما فأعلن سياسته الجديدة . التى تقوم على اصلاح ما أفسده نيرون والغاء ما أصدره أو بعثه من قوانين وخاصة ما يتصل منها بموضوع الخيانة العظمى .

وأسرع بشحن كميات مضاعفة من القمح لروما وكانت فى أشد الحاجة اليه .

وسرعان ما أحست الاسكندرية : أن اعادة بناء روما ستتم على حسابها اذ أن فاسبسيان جد فى تحصيل الضرائب المتأخرة ، بل وفرض عليهم ضرائب جديدة فلجأ

الاسكندريون الى سلاحهم التقليدى سلاح النكتة والتشهير فلقبوا فاسبسيان بتاجر السمك فاستشاط فاسبسيان غضبا واخضع اهل الاسكندرية لضريبة الرؤوس التى كانوا معفون عنها امتهانا لهم .. ولكن تيتوس ابنه توسط لأهل الاسكندرية عنده واعفاهم منها .

وبالرغم من اعفاء أهل الاسكندرية من هذه الضريبة فقد تعالت أصوات الجماهر الغاضبة .

اننا نصفح عنه — اى فاسبسيان — فهو لا يعرف كيف يتصرف القياصرة .

٧٠ م — عهد فاسبسيان الى ابنه تيتوس بقيادة الحملة ضد اليهود بينما توجه هو بعد انقضاء الشتاء ليباشر سلطانه فى روما .

وقد توجه تيتوس الى اورشليم مصطحبا معه والى مصر بتريوس يوليوس الاسكندر بعد أن اتخذ منه منصب رئيس اركان الحرب .

ومصطحبا معه كذلك احد اليهود الذين ساهموا فى الثورة اليهودية . حتى وقع فى أسر ابيه ، فاسبسيان وهو جوسفون اليهودى الذى قدر له أن تكون من أعظم المؤرخين ، والذى ندين له بصفة خاصة لحفظه قوائم مانتون الخالدة فى تاريخ مصر وقد حاول تيتوس لدى وصوله الى اورشليم ، أن يجرى مع اليهود صلحا فيلقوا السلاح ويعفو عنهم ، ولكنهم أصروا بعناد غريب على ان يحاربوه . فأقام الحصار على اورشليم ، فلم يهن ذلك من عزمهم وصبروا على مكاره الحصار ستة شهور وان كانوا قد انقسموا الى فريقين فى الداخل يحارب كل منهم الآخر ويصف لنا جوسفون ما حل بهم فى هذه الفترة من اهوال ما نوفر على القارىء اذى سماعه وحسبنا أن ننقل صورة واحدة تغنى عن ما عداها فقد طهت احدى السيدات اليهوديات طفلها واكلت جزءا منه ولما دخل عليها اهلها يبحثون عن قوت قدمت لهم ما بقى من جسد الطفل ففروا هاربين مذعورين .

وعندما نجح تيتوس فى اختراق اسوار المدينة قاتله من بقى فيها من الأحياء قتالا سريرا فى كل خطوة وفى كل شارع وعطفة وفى كل بيت ... ولم يخمد مقاومتهم الا ان شب حريق فى الهيكل احاله الى رماد ففت ذلك فى عضدهم واستسلموا لمصيرهم .

تيتوس فى مصر :

عاد تيتوس الى مصر منتصرا ، فأقيمت له اعياد النصر فى مصر كما لو كان فى روما .

واحب تيتوس المصريين فلم يتودد كسابقيه من الأباطرة الى الاغريق من سكان الاسكندرية ، بل لقد تقرب الى المصريين أنفسهم فحضر اختيار عجل ابيس الجديد .

وحرص على أن يلبس التاج التقليدى الذى يلبسه فرعون فى مثل هذه المناسبة ، مما جعل الوشاة يسعون بينه وبين أبيه بالوقيعة زاعمين أنه يتطلع الى العرش قبل الأوان .

٧١ م ـ على الرغم من أن يهود الاسكندرية لم يسهموا فى ثورة أورشليم وعلى الرغم من انهم اصموا آذانهم عن كل نداء لمساعدة اخوانهم الذين فروا بعد سقوط أورشليم ، بل وقبضوا على بعض من حاولوا تحريضهم على الثورة وتسليمهم للسلطات، فان الامبراطور فاسبسيان أصدر أمره بأن يدفع اليهود جميعا ذكورا واناثا على اختلاف اعمارهم ضريبة سنوية مقدارها ديناران لمعبد الاله جوبيتر فى روما ، وهى ضريبة النصف شاقل التى كان الذكور البالغون من اليهود يدفعونها لمعبد اورشليم .

٧١ م ـ ولى حكم مصر يوليوس لوبوس .

٧٣ م ـ صدر أمر الحكومة الرومانية باغلاق معبد (أونياس) فى لينتوبولس والذى كان يهود مصر يتوجهون اليه بالعبادة بدلا من أورشليم ، وذلك ارتيابا من الحكومة الرومانية ، ان هذا المعبد قد أصبح مركز نشاط الحركة اليهودية وصادرت املاكه ، وذلك لتحول دون انتقال نفوذ المعبد الكبير بعد زواله اليه .

٧٩ م ـ وفاة فاسبسيان :

مات فاسبسيان فى الرابع والعشرين من شهر يونيو من هذا العام وقد نيف على التاسعة والستين ، وكان موته طبيعيا على خلاف كل من سبقه من الاباطرة باستثناء اغسطس قيصر . ولا عجب فى ذلك فلأول مرة فى تاريخ روما الامبراطورية تنعم بعشر سنوات من حكم القانون والعدالة والأمن والنظام .

ويمثل فاسبسيان فضائل النموذج ، وقد عاش طول عمره وهو لا يحاول أن يخفى أصله المتواضع ، وهكذا عرف عرش روما لأول مرة فضائل الطبقة الوسطى فكان يزدرى الترف والبطالة . ويأكل طعام الفلاحين ويصوم يوما فى كل شهر . واعلن حربا شعواء على التبذير والاتلاف ، حتى لقد وصفوه بالبخل وجاءه فى أحد الأيام رجل رومانى كان قد رشحه لمنصب من المناصب فكان رائحة العطر الثمين تفوح منه ، فقال فاسبسيان كنت أوثر لو كنت تفوح منك رائحة الثوم وعدل عن تعيينه . ولم يحجب نفسه عن الناس فكان بابه مفتوحا لهم ، وكان يتحدث اليهم حديث الرجل الذى لا يترفع عنهم ، ويسمح لكل انسان أن يوجه الى سلوكه وخلقه ما يشاء من النقد : وكشف مرة عن مؤامرة تدبر له فعفى عن المتآمرين ، وبلغ من حلمه وسعة صدره أن المؤرخين لم يجدوا ما يؤاخذونه عليه باعتباره خروجا على

هذا المنهاج سوى اعدامه احد اعضاء مجلس السناتو الذين اشتدوا فى الهجوم عليه ومعارضته ، وقتله ثائرا آخر هو وزوجته ويضيفون انه ظل يندم على هاتين الفعلتين طول حياته وقد اراد ان يطعم مجلس الشيوخ الذى كان قد تعفن كما راينا فجاء الى روما بالف أسرة من الأسر الممتازة فى ايطاليا والولايات القريبة وسجل اسماءها فى سجلات طبقتى الاشراف والفرسان — وملأ ما كان فى مجلس الشيوخ من فراغ من بين هذه الأسر الجديدة الفاضلة .

ومن حسناته التى يسجلها له التاريخ انه انشأ أول نظام للتعليم تقوم به الدولة فأمر بأن تختار طائفة من ذوى الكفاية من مدرسى الآداب وعلوم البلاغة اللاتينية واليونانية ، ليقوموا بتعليمها للطلاب على نفقة الدولة ، وعلى ان يعطوا معاشا بعد خدمة عشرين سنة . وجعل رئاستهم الى كونتليان الشهير الذى انشأ مدرسة للخطابة كان من بين تلاميذها تاستس وبلنى الأصغر .

وقد كتب كتاب بلنى الكبير « التاريخ الطبيعى » فى عهده واهدنى الى ابنه تيثوس .

كما انه أعاد بناء الهياكل التى دمرت وبدأ اشهر المبانى الرومانية كلها وهو مبنى الكولسيوم .

على أن استلام ڤاسبسيان خزينة الدولة عند توليه فى حالة تشبه الافلاس .. وما دمرته الحرب الأهلية جعله يشتد فى جبى الضرائب من الرومان ومن الولايات ، وذلك فى الوقت الذى قبض فيه يده عن السفه الذى اشتهر به من قبله من الاباطرة .. فجعل الناس يصفونه بالبخل ويتندون به ... وهكذا لحق اهل روما أهل الاسكندرية من قبل فى السخرية به من هذه الناحية .

ومن آثار عهد ڤاسبسيان فى مصر اكماله معبد لاتوبوليس ويقع غربى منف وهو من أبدع بنايات مصر القديمة ، حيث زاد عليه رواقا قائما على أربعة صفوف من العمد المحلاه بتيجان على شكل الزهور .

كما يرى اسم ڤاسبسيان محفورا فوق الباب الكبير لمعبد دندرة .

وقد مات وهو يحاول ان يتندر على نفسه اذ يقول :

« وا أسفاه اظن انى صائر لأن اكون الها » ووقف على قدميه وهو يكاد يلفظ انفاسه الأخيرة واعانه بعض اتباعه على الوقوف وهو يقول : ان الامبراطور يجب ان يموت واقفا .

ويظهر اسم ڤاسبسيان على المعابد المصرية كفرعون فى معبد كراتش ومعبد آمون رع فى الواحة الداخلة .

٧٩ م ـ تيتوس فافيوس فاسبسيان :

اعتلى تيتوس عرش الامبراطورية بعد وفاة أبيه وقد عرفته مصر مترددا الى شعبها بمختلف طبقاته . محترما لدينها وتقاليدها ، وقد كان هذا شأنه فى ايطاليا كذلك . حتى انه وصف بأنه « محبوب بنى الانسان وقرة أعينهم وأكثر النـاس طيبـة » .

ويقول عنه ديون كاسيوس : انه لم يقتل أحدا أثناء حكمه .

وذهب الى حد ان امر بجلد الوشاة والمخبرين ونفيهم من البلاد .

وآلى على نفسه انه يؤثر ان يقتل من ان يكون سببا فى قتل اى انسان : ولما نمى اليه أن اثنين من الأشراف يأتمران به ليخلعاه أرسل اليهما يحذرهما . وكانت سياسته تقوم على معاملة شعوب الولايات لا كعبيد لروما وانما كشركاء لها ولكنه لم يعش طويلا لتحقيق هذه السياسة . وقد شاب عصره القصير وقوع كوارث طبيعيـة هزت الامبراطورية ، كثوران بركان فيزوف ثورته التى فاجأت مدينة بومبى فدمرتها عن آخرها ودفنت أهلها تحت الحمم .

واندلاع حريق فى روما عام (٨٠) دام ثلاثة أيام دمر فيها مرة أخرى هياكل جوبيتر وبوتو ومنرفا .

ثم تفشى بها فى السنة الثالثة طاعون لم تشهد وباء أشد فتكا منه فى تاريخها .

فكانت هذه الكوارث فرصة لاظهار ما انطوى عليه تيتوس من عطف وبر بمواطنيه اذ كان يخف دائما بنفسه الى موطن الكارثة . ويسعف المنكوبين ويمدهم بالأدوية والاغذية ويدبر لهم المساكن المؤقتة ريثما ينشىء لهم مساكن جديدة .

واعتبر عيب تيتوس الوحيد هو كرمه الحاتمى .. وعرف عنه القول ، بأن اليوم الذى لا يسعد فيه انسانا ما بهبة يقدمها له هو يوم أضاعه من حياته . وقد أتم أعظم مبانى روما الخالدة والذى بدأ بها أبوه وهو معبد « الكولسيوم » .

وكان طبيعيا وهذا مسلكه أن يترك الخزينة عند موته فارغة وهى التى تركها ابوه من قبله تغص بالأموال ، وقد تلطف به القدر فجعله يموت سريعا قبل أن تفسده السلطة فلم يحكم سوى عامين .

ولقد حزنت عليه روما كلها كما لم تحزن على اى امبراطور من قبله ... وليس الا اخوه الذى ولى العرش من بعده والذى كان يناصبه العداء أحيانا فى حياته من انفرد بالسرور والابتهاج .

ويوجد رسم له كفرعون فى معبد لاتوبوليس .

٨١ م ـ الامبراطور دومتيان :

اعتلى العرش دومتيانوس عقب وفاة أخيه تيتوس ومما يذكر فى تاريخه أنه ابان

المعركة العنيفة التى دارت فى روما بين الجيوش الموالية لأبيه وجيوش فيتليوس ، احتمى بمعبد ايزيس وقضى الليل مختبئا فى بيت حارس المعبد ، ولما طلع النهار تنكر فى زى احد اشياع ايزيس ثم عبر التيبر مع خليط من كهنتها دون أن يكتشف أحد أمـره .

واذا كان لايزيس وعبادتها مكانة فى عهد ابيه لهذا السبب : فلا عجب اذا أصبح دومتيان هو حامى ايزيس وراعيها . على أن الديانة المصرية لم تكن حبيبة الى قلب الامبراطور الجديد ، لمجرد العرفان بالجميل ، بل لأنه كصاحبيه من قبله كاليجولا ونيرون ، كان يرى فيها الأساس لألوهيته .

٨٢ م ـ ولى حكم مصر مستيتوس افريكانوس .

٨٥ م ـ اعاد بناء معبد ايزيس فى ساحة مارس وكان الحريق الذى شب فى عهد اخيه عام ٨٠ م قد دمره واقام أمام المعبد مسلة منقوشا عليها باللغة الهيروغليفية المقدسـة .

٨٦ م ـ ولى حكم مصر سيتيموس فيجاتوس .

٨٦ م ـ ارسل دومتيان الى الاسكندرية عددا من الكتبة لينسخوا المحفوظات فى مكتبة الاسكندرية لتزويد مكاتب روما بها .

وهذا ما يجعل البعض يستندون الى هذا العمل للقول بأن حريق يوليوس قيصر لم يأت على مكتبة الاسكندرية الكبرى ، ولكن هذا الرأى يمكن ان يرد عليه بأن مكتبة الاسكندرية قد عادت الى الازدهار بالمائتى ألف كتاب التى أهداها انطونيوس لكليوباترا على سبيل التعويض .

٨٦ م ـ مات انيانيوس بطريرك الاسـكندرية بعـد أن لبث فى منصـبه اثنين وعشرين سنة ، وهو ما يؤكد أن المسيحية لم تضطهد فى مصر بأى صورة من الصور فى القرن المسيحى الأول .

وخلفه ميلوس (اميليوس) ثانى بطريرك بعد مرقص الرسول .

٨٧ م ـ ضربت النقود فى الاسكندرية وهى تحمل لأول مرة صورة الآلهة المحليين للمدن المصرية القديمة .

٨٨ م ـ شيد لوكليوس وهو احد مواطنى بلدة بنتنفيوم بجنوب ايطاليا معبدا لايزيس احتفالا بنجاه الامبراطور وعودته بعد نجاحه فى ايقاف الغزوة التى شنها الداشيون عبر الدانوب .

ونصب أمام المعبد مسلتين تحملان نقوشا هيروغليفية تصف ايزيس بانها سيدة بنتنفيوم ، ويستدل من ذلك على أن دومتيان قـد أسبغ على عبادة أيزيس صـفة رسـمية .

وقد انتشرت عبادة ايزيس على هذه الصورة فى عهد دومتيان ، بحيث أصبحت معابدها مكدسة بصورها المهداة لها ممن انجتهم من الخطر فوق انتشارها الذريع فى أرجاء الامبراطورية قبل ذلك ، هو الذى جعل الشاعر الرومانى (جوفينال) وهو الشاعر الهجاء الحاد اللسان يحدد قلمه لتشويه سمعة أيزيس ووصف معابدها بأنها أماكن للفسق اذ تتزين النساء ويهرعن الى لقاء عشاقهن فى الحدائق أو (عند محاريب ايزيس القـوادة) وينتقل من مهاجمة ايزيس الى التنديد والسخرية بالمصريين وعقائدهم فى تقديس الحيوانات وعبادتها ، وكيف تقوم أقسى المعارك بين بلدتين قد تبعد كل منهما عن الأخرى عشرات الكيلومترات ، لأن هذه تقدس هذا الحيوان ، والاخرى لا تقدسه .

والحق ان تقديس الحيوانات وعبادتها فى مصر ... كان قد بدأ يأخذ صورة متدهورة ، كانت تذهل جميع المراقبين من غير المصريين ، وقد حاروا فى تفسيرها ومن ناحيتنا فنحن نعللها بأن الزمان كان قد بدأ يظلل ديانة سماوية روحية وهى الديانة المسيحية ، فكان لا بد أن تتدهور العقائد القديمة ، ليظهر بطلانها ازاء الحقيقة الجديدة .

٩٠ م — ولى حكم مصر ميتوس روفوس .

٩٥ م — ولى حكم مصر ترونيوس سيكوندس .

٩٦ م — قتل دومتيان بمؤامرة دبرت له من اخصائه والمقربين اليه على راسهم زوجته دومينيا ، وهكذا عاد من جديد لسنة الاباطرة قبل ابيه واخيه وهى ان ينحوا عن العرش بالموت .

ذلك أن دومتيان الذى يعترف له الجميع بأنه بدأ حكمه بداية طيبة ، بحيث واصل سياسة ابيه واخيه من قبله فى حسن الادارة واحترام سيادة القانون والضرب على يد المختلسين والمرتشين ، ومراقبة الموظفين وحسن اختيارهم .

والغاء الضرائب المتأخرة على رعاياه منذ أكثر من خمس سنوات .

وتشجيعه للآداب والفنون ، حيث بلغ النحت الغلافى الملون الى ذروة مجيدة .

وحبه للبناء والانشاء والتعمير ، فأضاف أجنحة جديدة للكولسيوم . وأتم حمامات اخيه تيتوس وبدأ انشاء حمامات جديدة وهى التى أقامها وكان متزمتا فى قواعد الاخلاق والسلوك فحرم نشر المطاعن القديمة ونفذ القوانين الوليوشية الخاصة بالزنا وامر بضرب عنق عذراء مسيحية حكم عليها بالزنا ونص على اعادة الخطباء ، ولم يكن يطيق رؤية الدم المسفوك .

كل ذلك قد تبدل راسا على عقب كما حدث من قبل بالنسبة لنيرون أو كاليجولا ، بمجرد أن اكتشف مؤامرة على قتله ، فتراه وقد تحول الى طاغية مستبد لا حد لاستبداده .

فنراه ينفى الفلاسفة من روما عام ٨٩ ويحظر عليهم الاقامة فى ايطاليا كلها بعد ذلك ، كما شمل قرار الابعاد المنجمين كذلك عقابا لهم على تنبؤهم بموت الامبراطور .

ولم يلبث أن اعتبر نفسها الها ، وطلب من الموظفين الا يذكروه فى وثائقهم الا بلقب سيدنا والهنا .. وانشأ طائفة من الكهنة ليشرفوا على عبادته وعبادة ابيه وأخيه المؤلهين .

وعندما رفض بعض المسيحيين فى عام ٩٣ ان يقربوا القرابين بين يدى تمثاله اصدر امره باعدامهم ، واستبد به الذعر الى حد الأخذ بالوشايات والتشجيع عليها واعدام كل من يحلو له اعدامه ، وكان يتخذ من السناتو اداة لتنفيذ اغراضه ، حيث كان السناتو يوجه آيات الشكر للآلهة لنجاة الامبراطور كلما قضى بأعوام نفر من الأبرياء ولم تكد زوجته تحس أن شكوكه قد حامت حولها ، حتى جمعت حولها أقرب المقربين اليه واللذين كانوا بدورهم باتوا لا يأمنون على انفسهم .. فكانت المؤامرة التى انهالوا فيها عليه فى حجرة نومه بعشرات من الضربات قبل أن يسلم الروح .

وأسرع السناتو الذى كان حتى آخر لحظة يهتف باسمه الى اصدار قرار يمحو اسمه من جميع النقوش العامة والغاء جميع التنظيمات التى اجراها ، واعتبار الأسرة الثلاثية قد انتهت بمقتله .

ويرى رسم دومتيان كفرعون فى معبد لاتوبوليس وقد انشىء فى عهده جسر على النيل عند مدينة كوبتوس .

ويقول تأسنس انه بموت دومتيان قد انتهى عصر الاباطرة العشرة الطغاة الذى فسدت فيه الأخلاق بما ضربته روما من أمثلة القسوة المروعة والفجور الطليق ، وحيث افنت الحروب الأهلية خير الرجال وأشدهم وأقواهم ، ونشرت الغدر والخيانة بين الاقارب والاصدقاء .

وبعد أن كان السناتو (مجلس الشيوخ) هو صاحب السلطة المبنية على القانون ، اصبحت فرق الجيش هى مصدر السلطات بكل ما يتبع ذلك من اهدار الكفاءة والاقتدار ، والاعلاء من شأن الرمح والسنان .

وسقط حكم القانون ليسود حكم طغيان الافراد وحقا لقد شيد فى هذا العصر صروحا ضخمة من المبانى التى انفق عليها من خراج الولايات ولكن النفوس ضعفت وذلت بعد أرهاب ذوى المواهب والابتكار ، فماتت روح الابداع والابتكار .

ويقول لنا دورانت : اذا كان الكثير من الاباطرة قد انحطوا الى الدرك لأسفل فما ذلك الا لارتفاعهم فوق القانون واذا كانوا قد هبطوا حتى اصبحوا دون شأن الرجل فما ذلك الا لان السلطة جعلت منهم آلهة يعبدون .

العصر الفضى :

وقد جرى المؤرخون على وصف عهد اغسطس بالعصر الذهبى للامبراطورية الرومانية .. وبالعصر الفضى للعهد الذى يبدأ بوفاته حتى ختام القرن .

نرفا (ماركوس كوكايوس) :

٩٦ م — استغل السناتو حادث دومتيان لكي يستعيد سلطانه المفقود ، وكان تعيين أحد اعضاء المجلس امبراطورا من الامور التى اتفق عليها المتآمرون .

ونادى بماركوس كوكايوس امبراطورا وكان هذا أول وآخر عمل جرىء قام به السناتو منذ زمن طويل ، وهو العنصر الجمهورى فى النظام الامبراطورى ثبات وجوده .

وكانت الاسر الارستقراطية القديمة قد انهكها ما تعرضت له من اضطهاد تناقص عددى مستمر ، وحلت محلها أسر نبيلة جديدة تكونت فى مدن ايطاليا وفى ولايات نتيجة التنظيم الذى أدخله الاباطرة على طبقة السناتو .

٩٧ م — تبنى الامبراطور نرفا القائد العسكرى الناجح تراجان ليكون خليفة له بهذا حلت الازمة التى اثارها الحرس الامبراطورى الذى كان قد غضب لمقتل دومتيان ، وغضب بالأكثر لتعيين الامبراطور الجديد دون الرجوع اليه . وعندما طلب الامبراطور فى شجاعة من الحرس أن يقتلوه ابى الحرس ذلك ولكنهم ظلوا حاصرين له ، حتى امكن التوصل الى هذا الحل .

ويقول المؤرخون أن أعظم ما قدمه نيرفا لروما من خدمات هو اختياره لتراجان.

٩٨ م — مات نيرفا فى ٢٥ يناير من هذه السنة .

ونجد صورته فى مصر كفرعون فى معبد لاتوبولس .

تراجان :

٩٨ م — تلقى تراجان نبأ جلوسه على العرش وهو يتولى قيادة جيش روما فى المانيا ، وهو أول من تربع على عرش روما من أهل الولايات فقد ولد فى أسبانيا وان كان ابوه ايطاليا وكان رضاء روما بهذا الاختيار وعدم الاحتجاج عليه حادثا خطيرا يؤذنا بتطور جديد فى التاريخ الرومانى .

٩٨ م — ولى حكم مصر بومبيوس بلانت .

٩٩ م — وصل تراجان الى روما بعد انقضاء أكثر من عام على وفاة نرفا ، وعندما وصل اليها كان فى الثانية والاربعين من عمره طويل القامة ممتلىء الجسم مهيب الطلعة ، وكانت شهرته كجندى وقائد من الطراز الاول وشجاعته قد سبقته ، وكيف كان يسير مع جنوده على قدميه ، ويصبر على أشد المكاره والآلام .

وقد استقبله السناتو مرحبا والقى بلنى الاصغر خطاب الترحيب فكان من أقواله التى خلدها التاريخ أن من أراد ان يكون زعيما يجب الا يكون سيد الدولة بل خادمها الاول ، ومندوب الشعب الذى ينفذ ارادته . ومن اراد أن يؤمر على الناس جميعا ، يجب أن نختاره جميعا.

وقد قبل تراجان هذه المبادىء اساسا لحكمه واتخذ من بلنى الاصغر صديقا ، ووفى للشعب بعهوده .. فكان حكمه حكم القانون فى أروع مجاليه .. حتى لينسب جوستنيان الى تراجان أنه صاحب القول المدوى فى سمع الزمان ، والذى يمثل ذروة الحضـــارة والمدنية .

« لان يفلت مائة مجرم من العقاب ، خير من ان يحكم على برىء واحد » .

وسرعان ما انعكس مســـلك تراجان فى مصر ، فسادتها فترة ذهبية من الحكم الخير والادارة الحسنة .

٩٩ م — ولى بطريركية الاسكندرية كردونوس بعد وفاة ميليوس .

١٠٣ م — عين فيبيوس مكسيموس واليا على مصر فأساء السيرة واستغل نفوذه ، فشكاه اهل الاسكندرية الى تراجان فأجرى محاكمة له على ما وجه اليه من تهم . وقد وصلت الينا احدى وثائق البردى التى تتحدث عن هذه المحاكمة ، والتى تشير الى متهم يدعى مكسيموس وكان يتقلد فى مصر ارفع مناصبها ، وجرى خلاف حول حقيقة البردية ، أهى محضر رسمى لمحاكمة حقيقية جرت امام الامبراطور بمجلسه الامبراطورى .. ام هى نموذج آخر من « اعمال الاسكندريين » التى كان أهل الاسكندرية يعبرون فيها عن غضبهم ومقتهم للحكم الرومانى . وعندنا انه سواء كانت الوثيقة محضرا رسميا او عملا أدبيا فهى تظهرنا على مدى نظرة الاسكندريين لما ينبغى ان يكون عليه الحاكم من وقار ومساواة وقدوة حسنة ، وهى تكشف لنا عن ايمانهم بمحاسبة حكامهم ، وسماع تراجان صوت رعاياه ضد نوابه .

وهناك بعد ذلك حقيقة مادية مؤكدة تبينها الآثار المصرية وهى العثور على اسم هذا الوالى جايوس تتوس مكسيموس مطموسا ، وهو الاجـــراء الذى كان يوقع على من توجه اليهم تهمة الخيانة العظمى .

والتهم الموجهة الى مكسيموس فى البردية التاريخية هى الابتزاز والربا واستغلال النفوذ لتعيين مدير معهد التربية فى الاسكندرية ، وافساد شاب ثرى يدعى ليون .

وكانت التهمة الرئيسية التى حوكم بها مكسيموس فى روما هى تهمة الابتزاز ، ولكن المتكلم بلسان الاسكندرية قد ركز اهتمامه على مسلك الوالى الخلقى وتهمة افساد الغلام واليك بعضا مما جاء فى الوثيقة .

« ولهذا سأضيف يا مولاى نقطة اخرى اعتقد انها ستثير دهشتك فترتاب فى صحتها حتى تقرا المستندات ، لقد كان يحكم على بعض الناس بدفع فوائد عن ديون لم يتسلموها فما هو مرده على ذلك ؟

لقد كنتم غائبين فلم تحاطوا علما بالرسائل التى كتبت لجلالتكم بشـــان هــذه الموضوعات . ولكن هذه الرسائل سوف تثبت بطريقة قاطعة مدى صرامة مكسيموس ونشـــاطه فى هــذا الصدد .

والمسند الاخير يدمعه بتهمه الشغف بالغلام وهيامه به ماذا اقول ؟ لقد اعتاد شاب يبلغ من العمر سبعة عشر عاما أن يتناول معك العشاء فى كل يوم ، وكلما كان كل فرد من هؤلاء الحاضرين يحظى بشرف المشاركه فى مأدبتك فأنت لم تكن تفدق مثل هذا الشرف على احد بسهوله بعد أن ارتقيت منصبا ملكيا ــ كل واحــد منهم راى الغلام فى حفل الشراب تارة برفقة والده وتارة وحــده . ورأى كذلك النظرات الوقحة . وما كان يتبادله هذان العاشقان الخشنان بصورة شائنة . وفضلا عن ذلك فقد كان هذا الغلام يقدم التحية (للوالى) يوميا ويشــهد هؤلاء الرجال يامولاى بروحك الحارسه أنهم بينما كانوا يقفون عند باب قصره انتظارا لتحيته تحية الصباح قد رأوا الغلام خارجا من غرفة نومه ، وقد ظهرت عليه علامات اتصاله بهذا الرجل . وما أن ألف الغلام الوسيم الثرى (هذا) السلوك المشين حتى ازداد رقاعه ووقاحة فكان يخرج مع بوتيجرس الحاجب ويتعلق بيديه أمام الجميع ويضحك ضحكا عاليا فى غير كلفه وسط جموع القادمين للتحيه . ولم يكن ساذجا لانه كان يقوم بعرض ماكان يفعله أمام المدنيين (للوالى) . لماذا اذن لم تحاول أن تقفه عند حده بما عهد بك من صرامة وقسوة بالغه . لقد أمرت بمصادره أملاك رجل واملاك زوجته واصدقائه لانه تقدم اليك بالشكر فى ثياب رثه . وقضيت باعدام رجل لانه جلس على المسرح دون ان يرتدى ملابس بيضاء وأما هذا الغلام الوسيم الامرد الوجه ، فكنت تسبغيه كل يوم فى قصرك الرسمى ولم تكن ترسله الى المدرس أو ممارسه التدريبات اللائقة بالشباب . وكم كنت تحاسب والده ــ بحق ــ حسابا عسيرا لو أنه لم يعمل على ارساله للمدرس وها انت تجوب جميع انحاء مصر فى صحبة هذا الغلام . او لم يتبعك الغلام ذو السبعة عشر ربيعا حتى الى المحكمة اثناء انعقــاد مجلسك الرســمى ؟ نعم وكان برفقتك يا مكسيموس فى كل من ممفيس ويلوزيون وحيثما كنت . أما نحن الآخرين فكناجميعا نعزف عن أماكن جولاتك التفتيشيه وعن مجالسك القضائية » .

وليس هناك ما يكشف عن اخلاق تراجان والمستوى الرفيع الذى كان يحاسب به ولاته ، من سماعه قبل هذه المرافعة الطويلة حول علاقة وال بشاب .. وقد رأينا كيف أن نيرون قــد تزوج شــابا فى حفلة رسمية .. وكان اللواط احــدى خصائص رجالات روما فى هذه الفتره .

اهتمام تراجــــان بمصر :

وقد بلغ اهتمام تراجان بمصر ، وحرصه على انصاف أهلها ورفاهيتهم ... انه فعل الامر الذى ماكان يمكن أن يطوف باذهان الرومان ولو على سبيل الخيال .. فحيث كانت روما تعيش على قمح مصر ، فقد عكس تراجان الآية .. فعندما انخفض فيضان النيل فى احدى السنوات ، فلم تنتج مصر القمح اللازم لاطعام أهلها ، ارسل تراجــان الى مصر اســطولا محملا بالقمح الذى كان مخــزونا فى روما للتفريج من حالة المصريين .

١٠٥ م ــ ولى حكم مصر مينيوس ايتالوس .

١٠٨ م — ولى حكم مصر ساليشسيوس سيميلوس .

تراجـان والمسيحيون :

١١٠ م — بعث بلنى الصغير وكان واليا على احدى الولايات الرومانية فى آسيا الصغرى (بثنيا) يستفتى تراجان عما يفعله بالمسيحيين الذين كان عددهم يتكاثر باستمرار وكان الوشاة يشون بالمسيحيين باعتبارهم عصاة ومتمردين فيساقون الى التحقيق والمحاكمة ، فقرر بلنى أن يستشير الامبراطور بشانهم ، وراح يصفهم له بانهم قوم كل ما يمكن ان ينسب لهم انهم يستيقظون فى يوم معلوم قبل الفجر ويرتلون بعض التراتيل للمسيح باعتباره الها وانهم اخذوا على انفسهم العهد الا يقدموا على اى امر شرير وان يمتنعوا عن السرقة والنهب والزنا وان لا ينكثوا بعهد أو يغتالوا امانة اودعت عندهم وغير ذلك من الجرائم الخلقية .

وقد رد تراجان على بلنى طالبا منه : ان لا يبحث عن المسيحيين ولكن اذا أرشد عنهم وحوكموا وادينوا فيجب ان يعاقبوا واذا حدث ان انكر اى مسيحى مسيحيته واذى الصلوات للاله فيجب ان يقبل منهم ذلك ايا كانت الظروف السابقة على ذلك .

ولا يجب أن تسمع بحال الاتهامات والشكاوى المجهوله لان قبول هذه الاتهامات يشكل سابقة خطرة وسيئة لا تتفق مع روح عصرنا وتقاليده والرأى على أن هذه الرسالة من بلنى ورد تراجان عليها هى اول اشارة تتصل بالمسيحية تصل الينا عن مصادر غير مسيحية (١) .

١١٢ م — مات كردونوس بطريك الاسكندرية فكانت مدة رياسته عشر سنوات وتسعة أشهر ، وظلت الدعوة المسيحية فى عهده توالى انتشارها المنظم فى طول البلاد وعرضها .. كما كانت مدرسة اللاهوت بالاسكندرية تتهيأ للتالق .

وقد خلفه بمريموس على كرسى الاسكندرية .

١١٥ م — وولى حكم مصر روتليوس لوبوس .

١١٥ م — انتهز اليهود فرصة انشغال تراجان فى جملة حربية ضد بارتيا ، والتى نجح فى مراحلها الاولى فاستولى على ارمنيا ، ثم استولى على المدائن عاصمة البارتيين انفسهم ، ولكن مركزه لم يلبث أن تحرج عندما هب البارثيون لمقاومته من جديد فى قوة وعزم ، فاضرم اليهود نار الثورة ضد الرومانيين ، ومما يدل على أن هذه الثورة كانت عملا مدبرا منظما انها لم تشتعل فى فلسطين لقرب جيش الامبراطور منها ولكنها اشتعلت فى الاماكن البعيدة فبدات أول ما بدات فى قوريناتية (برقة) ومنها الى مصر وقبرص .

---

(١) الاشارة الى المسيحيين التى وردت فيما مضى عما وقع عليهم من اضطهاد فى عهد نيرون قد رواها تاستس الذى كتب تاريخه بعد هذا التاريخ بخمس سنوات .

١١٩ م ـ نصب اليهود فى برقه ملكا عليهم يدعى لوكواس ، وحولوا ثورتهم الى حرب فانقضوا على مواطنى بلدة فورينى عاصمة الولاية ونكلوا بأهلها تنكيلا فظيعا حتى اوشكت المدينة أن تقفر بعد أن هلك منهم ٢٢٠٫٠٠٠ على ما يقول بعض المؤرخين وهدم اليهـود معابد وتماثيل الآلهة اليونانية وهدموا معبد أيزيس ودمروا حمامات المدينة وأنديتها ومسارحها وطرقاتها وأروقتها . وقد أمدتنا الآثار بما يكشف عن اتساع مدى هذا التخريب .. وذلك من خلال الجهود التى بذلها هادريان خليفة تراجـــان لازالة آثاره .

وزحف اليهود من برقة الى مصر فى صيف عام ١١٦ م تحت قيادة ملكهم لوكواس . وانسحبت أمامهم الحامية الرومانية وتحصنت بالاسكندرية، فلم يقو الجيش اليهودى على اقتحامها وانساب فى انحاء القطر حيث انضم اليهم مواطنوهم من اليهود فعاثوا فى أقسام عديدة من الدلتا ومصر الوسطى فسادا . ولدينا من الوثائق ما يدل على ان المصريين فى كل مكان تكتلوا لدفع الغارات اليهودية على بلادهم .. وان لم يصدم اليهود أن يجدوا بعض المصريين الثائرين .. الذين وجدوا فى ثورة اليهود تنفيسـا عن حنقهم وحقدهم على الرومان حتى أن بعض البـلاد فى مصر ظل يحتفل بذكرى الانتصار على اليهود حتى عام ٢٠٢ م أى بعد خمسة وثمانين عاما من وقوعها .

١١٧ م ـ أرسل الامبراطور تراجان جيشا الى مصر لقمـع فتنة اليهود تحت رئاسة ماركيوس توربو ـ وقد تمكن أخيرا من اخماد الفتنة قبل أغسطس من هذا العام بعد أن تركت جرحا لا يندمل فى نفوس سكان مصر .

١١٧ م ـ اعفى والى مصر رونيليوس لوبوس بعد فشله فى مصر وأرسل الامبراطور واليا جديدا وهو ماركوس فوربو على رأس جيش ضخم لاستئصال شأفة عصابات اليهود التى انتشرت فى انحـاء مصر .

ومات الامبراطور فى التاسع من شهر يوليو من هذا العام عن أربعة وستين عاما امضى منها فى الحكم تسعة عشر عاما بعد أن تبنى وهو على فراش الموت ربيبه وابن عمـه هادريان .

ولما كان تراجان كما قدمنا رجلا عسكريا من الدرجة الاولى فقد خالف سنة من سبقه من الاباطرة واستأنف سياسة الفتح ، فغزا فى مستهل حكمه أقليم راشـيا (رومانيا الحالية) وخلد ذكر هذا الفتح بالاثر الفريد من نوعه وهو عمود تراجان ، الذى صور عليه كما لو كان سيناريو سينمائيا أحداث هذه الملحمة ابتداء من عبور جنود تراجان لنهر الدانوب حتى استسلام ملك راشيا والرأى على أن هذه الصور التى نقشت حول عمود تراجان هى أعلى ما وصلت اليه واقعة الفن الغلافى ، وفن النحت بصـفة عامة فى القديم (١) .

---

(١) وقد بلغ من روعة هذا العمود ونقوشـــه التسجيلية ان نابليون قد حاكاه بعد ســبعة عشر قرنا فأقام عمود فاندوم فى باريس من حـديد المدافع التى غنمها ورسم على جدرانه تفاصيل معاركه على غرار عمود تراجان .

ولقد ذكرنا من قبل بمناسبة ثورة اليهود الشغاله فى حرب بارثيا ، فقد زحف عليها عام ١١٣ م وقرر ان يصفى وجودها نهائيا . فأستولى على ارمنيا وبلاد النهرين ووصل الى شاطىء المحيط الهندى فكان اول وآخر من يقف أمام هذا البحر من قواد الرومان .

ولكن الشيخوخة والمرض الذى اصابه حالا بينه وبين مواصلة الزحف .. فاكتفى بالوقوف على شاطىء البحر الاحمر معلنا اسفه ان تحول شيخوخته بينه وبين أن يواصل الزحف الى السند كما فعل الاسكندر .

ولكنه أصدر امره بأنشاء اسطول فى البحر الاحمر ليحمى التجارة التى بدات تزدهر بين مصر والهند وبلاد الشرق .

ولم يفتأ تراجان ابان حكمه يولى هذه التجارة اهتمامه ، حتى لقد اشار باعادة تشغيل الترعة التى تمتد من النيل الى البحر الأحمر لتربط بينه وبين البحر الأبيض من خلال النيل . والتى اعتنى بها بطليموس من قبل ومن قبله دارا ولقد أصبحت هذه الترعة مقياسا يقاس به مدى ازدهار مصر .

ونعتبر النقود التى صكت فى العام الحادى عشر من حكم تراجان من اجمل ما صك من نقود ، بعد ان اصبحت تنقش بالرموز المصرية . وفاقت كميتها كل النقود التى ضربت من قبلها .

ويعزى بناء حصن بابليون الى أيام تراجان ، حيث اصبح يمثل اهم نقط الدفاع عند راس الدلتا . وهناك معبد كامل لتراجان فى فيللا ــ كما لا تزال بوابة معبد طنطارة تحمل اسمه وله صور كثيرة كفرعون منقوشة على جدران المعابد فى لاتوبوليس وطنطرة وفيللا .

١١٧ م ــ اعتلى هادريان العرش فى ١١ اغسطس من هذا العام وهو من اصل اسبانى ومن نفس المدينة التى ولد فيها تراجان ، وهو ابن اخت لتراجان . وكانت مواهب هادريان كما يعددها المؤرخون القدماء مما يتعذر على التصديق ، الا ان تؤخذ على سبيل الاوصاف والنعوت التى تهال على الملوك غير ان الذى لا شك فيه أنها تستند كلها الى اساس كشفت عنه تصرفات الامبراطور الجديد .

فهم يقولون عنه انه كان منفوقا وبارعا فى المهارات الجسدية كلها تفوقه وبراعته فى المهارات العقلية فحيث كان قوى الجسد ، بارعا فى حمل السلاح واستعماله راكبا أو مترجلا جسورا مقداما ، استطاع فى رحلات الصيد أن يقتل بنفسه بعض الدببة الوحشية والاسود .. وحيث كان يعتبر خبيرا فى النظام العسكرى .

فقد كان من الناحية العسكرية والعقلية يجيد اللغتين اللاتينية واليونانية ، ويكتب نثرا أدبيا جميلا ، كما كان يقرض الشعر . وكان واحدا من احسن خطباء عصره وكان يحذق العلوم الرياضية والطبيعية ويحيط بقوانين روما وفلسفة العصر . قوى الذاكرة

حتى ليذكر أسماء جميع جنوده مهما طال غيابهم عنه ويجيد الرسم والتصوير بما يضعه فى صف الاساتذة . وكان يغنى فيطرب السامعين .

فلا عجب وهذه صفاته انه لا تكاد يلى العرش ، حتى لا يتخذ من روما مقرا متجمدا للحكم .. بل راح يجول فى انحاء الامبراطورية ، محاولا توحيدها ماديا ونفسيا فى اطار واحد ، واصفا مهمة الامبراطور انها بمثابة الشمس توزع ضوءها وحرارتها على أرجاء الكون كله . ولذلك فلا عجب اذا رأينا آثاره فى مصر ناطقة بذلك .

١١٨ م — عين هادريان « راميوس مرتبالس » واليا على مصر وكلفه باصلاح ما افسدته ثورة اليهود التى أضرت بمصر ضررا بالغا ، واعادة تخطيط مدينة الاسكندرية وبخاصة حى اليهود الذى تهدم فى الثورة وقد أصدر الوالى منشورا خاصا بتنظيم سكن اليهود بالاسكندرية ، ولا يعرف اذا كان هذا التنظيم يقضى بتوزيع سكن اليهود على سائر انحاء المدينة للحيلولة دون تكتلهم للحد من خطورتهم ، أم أن هذا التنظيم قضى باستمرار الوضع القديم وهو اقامتهم فى احياء خاصة بهم لتسهل مراقبتهم ، ولكن البرديات التى عثرنا عليها تدل على أن سكان الاسكندرية تخوفوا من عواقب هذا التنظيم الجديد . ورفعوا بذلك شكاوى الى الامبراطور ، ولكن الوالى حبسها وحال دون وصولها الى الامبراطور ، فهاجت الاسكندرية وسلط الاسكندريون السنتهم « كما هى عادتهم » على الامبراطور فراحوا بهجونه بأراجيز ماجنة ، فأصدر الوالى راميوس أمرا بالقبض على ستين مواطنا والزج بهم فى السجن هم وعبيدهم ممن اشتركوا فى اثارة الشغب . فحدث هجوم من الجماهير على السجن لاخراج المقبوض عليهم ، فأصيب البعض ، وقتل البعض الآخر : وتدلنا احدى البرديات ان محاكمة جرت فى روما لزعيمين من زعماء الاسكندرية وهما باولوس وانطونيوس ، وقد جاء على لسان انطونيوس العبارات التالية :

مولاى قيصر أقسم بملاكك الحارس أن باولوس يقول الصدق كما يقوله رجل لن يبقى على قيد الحياة يوما آخر . فقد أرسلنا اليك رسائل كثيرة ، عندما لاقينا اضطهادا شديدا ، وقلنا فى شكاوينا أن الوالى قد أمر اليهود الملحدين أن ينقلوا مساكنهم الى مكان يستطيعون منه مهاجمة مدينتنا ذات الاسم الميمون وتخريبها دون عناء . واذا كنت لم تتلق بيديك الكريمتين أى رسالة من هذا القبيل ، فان ذلك يفسر سبب كلماتك الجليلة . انه من الواضح أن ذلك العمل قد أرتكب ضدك حتى لايكون لديك دليل على ما أصابنا من ويلات » .

ولقد أعدم باولوس على ما تقول الوثيقة فواجه الموت فى شجاعة وأدرج الاسكندريون أسمه فى سجل الشهداء الذين جادوا بأرواحهم دفاعا عن قضية الاسكندرية ضد افتراءات اليهود واستبداد الرومان .

١٢١ م — ولى حكم مصر اتيربوس نيبوس .

١٢٤ م — توفى بطريرك الاسكندرية بريموس بعد أن ظل على كرسى مرقص الرسول اثنى عشر عاما وخلفه يسطس .

١٢٦ م – ولى حكم مصر فلافيوس تيتيانوس .

هاردیان فی مصر :

١٣٠ م – وصل هادريان الى الاسكندرية فى مارس أو ابريل من هذا العام وكانت الاسكندرية بالنسبة له تمثل كل ما كان حبيبا الى نفسه كملك وكانسان مثقف محب للفنون .

وقد استقبلته الاسكندرية باحتفالاتها التى كانت تعامل بها الملوك كآلهة .

ورأى هادريان عن كثب أعظم مدن امبراطوريته بعد روما والتى كان عدد سكانها يتجاوز الثمانمائة الف ، والتى كانت لا تزال أعظم مدن الامبراطورية على الاطلاق من حيث كونها مجتمعا عالميا انصهرت فيه كل الاجناس التى تتألف منها الامبراطورية كما انصهرت فيه كل المعارف الانسانية والفلسفات والعقائد ابتداء من عبادة الحيوانات التى أصبحت تبدو مضحكة سخيفة نتيجة تطور العصر ، وعبادة سيرابيس هذا المزيج من الاله المصرى والاغريقى ، وعبادة أيزيس التى امتلأت بها أرجاء الامبراطورية ، وعبادة يهوه اله اليهود الغريب الذى يتعصبون له تعصبا يؤثرون معه الفناء على أن يسجدوا لاله غيره .

واخيرا شهد هذه العقيدة الجديدة التى بدأ اتباعها يتكاثرون فى كل مكان تكاثرا سريعا ، وكان لها فى الاسكندرية مدرسة لاهوتية تحاول أن تتصدى لمدارس الفلسفة القديمة التى كانت لا تزال قوية شامخة حول المكتبة والمتحف وما بهما من علماء اعلام يؤثرون على الفكر العالمى .

واشبع هادريان هوايته فى المساجلات العلمية والرياضية والفلسفية واللغوية مع الاعلام الذين كانت تغص بهم الاسكندرية ، سواء منهم الاساتذة الزائرون من أمثال ديونسيوس أستاذ الفلسفة فى امستس ويوليمون الخطيب المتجول ، أو من الاساتذة المقيمين امثال ابيان المؤرخ وأبو لوتيوس المنطقى .

واسبغ الامبراطور عطفه على المكتبة والمتحف فوضعهما تحت رعايته المباشرة ، وضم علماء جددا الى هيئة علمائها .

وقد اخذ هادريان بأزدهار الاسكندرية الصناعى والتجارى حتى لينسب اليه قوله :

« أنها مدينة غنية تتمتع بالثراء والرخاء ولا يوجد بها عاطل عن العمل فالبعض يعمل فى صناعة الزجاج وآخرون يعملون فى صناعة الورق وكثيرون يعملون أما فى صناعات النسيج أو فى اى حرفة او صناعة اخرى : حتى اصحاب العاهات من العجزة والخصيان والعميان كل له عمله حتى من فقدوا أيديهم لا يقضون حياتهم عاطلين هناك الجميع يعبدون الها واحدا هو المال ، وهذا الاله يعبده المسيحيون أو اليهود وكل طائفة اخرى فى الواقع » .

ويشك المؤرخون فى أن يكون هذا القول قد صدر عن هادريان ، ولكن ذلك لا يقلل من اهميته من حيث أنه يصور لنا الاسكندرية بعد قرن ونصف من الحكم الرومانى ، وهى صورة تكاد تنطبق على أعظم حواضر العالم الغربى فى الوقت الحاضر .

ومن الاسكندرية واصل هادريان رحلته فى أرجاء مصر متجها نحو مصر العليا ومصطحبا معه زوجته (١) ومصطحبا فى نفس الوقت خليله وحبيبه الفتى « أنتيئوس » وكان الامبراطور قد التقى بهذا الفتى اليونانى فى ولاية بثنيا قبل هذا التاريخ ببضع سنوات ، فأخذ بجمال الشاب ذى الوجه المستدير والعينين النجلاوين والشعر الملتوى فأتخذ منه خادما خاصا له ، وشغف به حبا ، وقد تقول البعض عن العلاقة باعتبارها علاقة آثمة بينما قال البعض أنه يحبه حب الوالد لابنه . وشاء القدر ان يضع خاتمة مفجعة لهذا الحب ، فبينما كان الامبراطور يواصل رحلته فى النيل ، اذ قال له فلكيو مصر فى بعض أحاديثهم معه أن حياته ستطول شريطة أن يضحى للآلهة باعز ما يملك فما كان من الشاب الا أن قذف بنفسه فى النيل ليكون فداء للامبراطور وهكذا غرق انتيئوس .

ويقول لنا اسبارتياس الذى قص علينا هذه الحكاية ان هذا الحادث قد أحزن ملك العالم وجعله يبكى كما تبكى النســاء .

ويصرف النظر عن السبب الذى من أجله مات انتيئوس غرقا . فقد قرر هادريان أن يجعل من الشهيد الها وطلب من سكان الامبراطورية أن يؤلهوه : وكان الاثينيون أول من استجاب لهذا الطلب .

أما فى مصر فقد أمر الامبراطور أن يبنى حول ضريح انتيئوس هيكلا ومدينة هى مدينة انتيئوبوليس وقضى بأن تكون المدينة مركزا تمتزج فيه الثقافة اليونانية التى كان يحبها ، وثقافة مصر العريقة ، ولذلك فقد رفع الحظر الذى كان موضوعا على سكان المدن الاغريقية منذ أيام البطالسة وهو أن لا يتزاوجوا مع المصريين ، فأصبحت تنفرد بهذه الميزة الى جوار ميزات المدن الاغريقية الاخرى ، كانشاء مجلس بلدى خاص بها ، واعفائها من بعض الضرائب .

ولكى يهيىء للمدينة سبيل الازدهار الاقتصادى مد طريقا بينها وبين مدينة برنيقة احدى موانى البحر الأحمر وزود الطريق بمحطات للمياه والحراسة ، وهكذا ربط المدينة الجديدة بعجلة الاقتصاد المصرى المزدهر الذى كان يعتمد على تجارة الشرق المارة عبر مصر عن هذا الطريق وامثاله .

وعاد هادريان الى الاسكندرية بعد ختام رحلته فى مصر العليا ... ليصل الى علمه أن المدينة تمارس هوايتها المفضلة وهى أن تسلقه سرا بالسنة حداد بسيل من النكت والقصص والحكايات .

---

(١) يتحدث اسكندر صيفى فى كتابه المنارة التاريخية عن زيارتين لهادريان لمصر لا زيارة واحدة ، ولكن المراجع الاخرى تتحدث عن زيارة واحدة وهو ما اخترناه .

وتسجل النقود التى ضربت فى الاسكندرية زيارة هادريان لمصر حيث يرى على بعضها صورة مركب تدفعه الهواء .

وثمة نقود اخرى عليها صورة انتيئوس حبيبه المؤله الذى مات . ونقود اخرى صكت بمناسبة تجديد انتخـــابه لعشر سنوات ، ونقـود عليها صـورة ايزيس او سيرابيس ، ونقود تحمل احيانا صور الثالوث سيرابيس ايزيس حوريس .

ثورة اليهود فى اورشليم وتشريدهم النهائى :

١٣٢ م ــ شبت الثورة فى مدينة اورشليم من جديد وكان هادريان ابان زيارته لفلسطين قد هاله خراب المدينة فقرر أن يعيد بناءها على ان يجعل منها تحفة للفن والمعمار الاغريقى الرومانى وان يطلق عليها اسما رومانيا .

وكان ذلك كله يمكن ان يتم بغير احتجاج من اليهود .. ولكن الشىء الذى دفعهم الى الثورة ، هــو قراره ان يقيم على انقاض هيكلهم القديم ، معبدا للاله جوبيتر . وتزعم الثورة الكاهن العازر والمتعصب سيمون ــ وقد اخمدت الجيوش الرومانية الثورة بعنفها المعتاد . ودنى ان تخلى دولة اليهود (جواريا) من اليهود اخلاء تاما ، بحيث جعلت عقوبة الاعدام لمن يحاول من اليهود الاقتراب من اورشليم .

وهكذا تمت عملية تشريد اليهـود النهائية فتفرقوا فى البـلاد والامصار ، ولم تقم لهم بعـدها قائمة (١) .

١٣٤ م ــ ولى حكم مصر برتونيوس مامرتينوس .

١٣٥ م ــ خلف اومانيوس الذى ظل بطريركا على كرسى الاســكندرية المسيحى احـد عشر عاما الا قليلا .

وفاة هـادريان :

١٣٨ م ــ مات هادريان بعد ان حكم واحدا وعشرين عاما بعد ان بلغ من العمر نيفا وستين عاما حكم منها واحدا وعشرين عاما . والمؤرخون يعتبرون حكمه ازهى صفحات الامبراطورية الرومانية ككل . فلم يحدث ان وصـــل عالم البحر الابيض المتوسط فى يوم من الايام الى مثل ما وصل فى عهده من الاستمتاع بالحياة الكاملة . ولم يعتل عرش روما من قبله او بعده حاكم عمل على رفاهية شعوب الامبراطورية كما عمل . لقد كانت نظرية اغسطس أن الولايات توابع لايطاليا لتفيد منها مالا وثراء ولتحقيق ذلك فيجب أن تحكم حكما صالحا لتدر أكبر قدر من الخير على ايطاليا .

---

(١) لا تزال محاولة اليهود الحديثة للتجمع فى اسرائيل ، مجرد محاولة غير مستقرة وسط بحر من الكراهية والغضب والحقد . وعلى اية حال فان مدينة اورشليم القديمة لا تزال بعيـدة عن متناول ايديهم ولا يزال المسجد الاقصى كالطود الشامخ مكان هيكلهم .

اما فى عهد هادريان فقد حقق ما كان كلوديوس يحلم به وهو ان لا تكون مهمة روما مجرد جابية ضرائب لايطاليا . بل الحاكمة المسئولة عن دولة ، يتمتع كل جزء من اجزائها بقـدر متساو من عناية الحكومة .

وقد رأى هادريان تحقق ذلك قبل موته ، حيث جمع شتات الدولة ووحـدها ، وبر بوعده من انه سيدبر شـئون هـذه المجموعة من الامم تدبير من يدرك أنها ملك للشعب لا ملكه الخاص . ونعم حتى العبيد بهذا الحب الشامل لرعاياه ، اذ أصدر من القوانين ما حسن به ظروفهم ، فلم يعد بقدرة السيد أن يقتل عبده ، كما ابطـل التقليد المتبع من قتل كل عبيد الرجل اذا وجد مقتولا .

ولا يوجد ركن من أركان الامبراطورية لم يترك فيه آثار مبانيه ومنشآته ابتـداء من انجلترا وسورها الكبير لتفصل بين مدن بريطانيا حتى ضريحه الرائع الذى أنشأه ليدفن فيه والذى تحولت بقاياه الى قلعة القديس انجليو فى سوريا الى مدينته التى انشأها فى مصر والتى أشرنا اليها .

وفى مصر نرى على الاثار صورته كفرعون على أكثر من معبد فى فيلا وانتنبوبوليس ولاقوبوليس ، كما نرى اسم زوجته سبينا .

وقد تأثر الفن المصرى فى عهده تأثرا ملحوظا يتجلى فى هذه الصورة التى كانت ترسم على اكفان الموتى بالشمع والتى كانت تصور ملامح الميت بدقة مدهشـة على الطريقة الهيلينية .

الامبراطور تيتوس أوريليوس انطونيوس (بيوس) :

١٣٨ م — تولى عرش روما تيتوس اوريليوس انطونيوس (بيوس) وكان هادريان قد عهد اليه ابان حكمه بعديد من الوظائف العالية ثم انتهى بتبنيه وعهـد اليه بتولى العرش من بعده لما آنسه فيه من الكفاءة ، شريطة أن يتبنى بدوره ماركوس اوريليوس ولوسيوس .

وقد اطلق عليه مجلس الشيوخ (السناتو) لقب بيوس اى التقى لانه اعتبره ممثلا للفضائل الرومانية ، ووصـفه بأنه افضل الزعماء وكان أول عمل قام به بعد اعتلائه العرش أن وهب ثروته الخاصة الكبيرة الى خزانة الدولة . والغى المتأخر من الضرائب على المواطنين وزاد على ذلك أن نفحهم بهبات وفيرة ، ووفر لهم ما كان ينقصهم من الزيت والقمح والنبيذ فأمر بأن تشترى هذه السلع وتوزع على الناس بالمجان .

وكان على عكس هادريان الذى حكم الامبراطورية من خارج روما ، ذلك أنه لم يبرح روما طول حكمه ، مكتفيا بأن يعين فى الولايات رجالا من ذوى الكفايات والشرف الموثوق بهم . وكان محبا للسـلام ، ضنينا بأرواح المواطنين وقد اثر عنه قوله أنه يفضل الاحتفاظ بحياة مواطن واحد على قتل الف عدو .

فلم يسع الى توسـيع رقعة الامبراطورية مكتفيا بالوقوف عند حدودها التى

ابلغها اليها هادريان فنعمت الامبراطورية فى ظله بالسلام الذى لم تتذوق مثله منذ أمد بعيد . ويقول لنا ابيان المؤرخ أنه شـاهد فى روما بعينى رأسه مندوبى الدول الاجنبية الدين وفدوا الى روما يرجون عبنا وضـع بلادهم تحت الحكم الرومانى لكى يستمتعوا بمزاياه .

١٣٩ م — ولى حكم مصر افويوس هليودوروس .

١٤٨ م — ولى حكم مصر نيرونيوس أونوراتوس .

١٤٩ م — خلف مرباتوس على بطريركية الاسكندرية المسيحية اومانيوس الذى ظل بطريركا لمسيحى مصر أحد عشر عاما وبضعة شهور

١٥٠ م — ولى حكم مصر موفانيوس فيلكس :

وليس هناك ما يصور كيف كانت مصر بعامة والاسكندرية بخاصة هى موطن العلم من بزوغ شمس اكبر سماء الفلك حتى بداية العصر الحديث وهو كلوديوس بطليموس وكان مولده فى بلدة بطلميوتس التى انشأها البطالسة فى مصر العليا ولكنه عاش معظم حياته فى الاسكندرية وظل يرصد فيها الاجرام السماوية فى المدة من عام ١٢٧ م حتى عام ١٥١ م واهم ما يذكره به العالم ، هو قلبه لنظرية ارستراخوس الصحيحة من أن الأرض هى التى تدور حول الشمس آخذا بالرأى العكسى الذى يقول بأن الشمس هى التى تدور حول الارض ، وقد دون علمه فى كتابه الخالد المعروف باسـم « النظام الرياضى » وكان العرب اذا تحدثوا عنه نعتوه باسم العظيم اليونانى « المجسـطى » اى الاعظم وهو الاسم الذى يعرف به الكتاب فى التاريخ وظل لهذا الكتاب السيطرةعلى السماء حتى قلب كوبرنيكس النظرية واعادها الى وضعها الصحيح من أن الارض وليست الشمس هى التى تدور حول الارض .

وعجيب أن يكون لنظرية تعرف اليوم خطأها ، كل هذه القوة والثبات وهذا هو ما يظهر مدى عظمة بطليموس الفلكى وقوة فكره وذلك أنه قد اسـتطاع أن يفسر كل الظواهر الفلكية الاساسية بدقة رياضية وان يحسب الخسوف والكسوف لا فى عصره بل فى العصور السابقة عليه كتلك التى عرفتها بابل ومصر خلال الثمانمائة سنة قبل زمانه حيث أصبح من الممكن تحديد زمان ملوك بابل والفرس واليهودية تحـديدا قاطعا دقيقا .

وتقوم نظريته على أن الكون كروى الشـكل يدور مرة فى كل يوم حول الارض الكروية الثابتة (١) .

ويبلغ من دقته أنه قدر البعد بين القمر والأرض بما يقرب من تقديرنا الحالى .

(١) يقول سير هربرت سبنسر جونس فى كتاب (الفلك العام) يمكن تفسير حركة النجوم اليوميـة أما بفرض أن الكرة السماوية كلها تدور حول الارض أو بفرض إن الارض نفسها هى التى تدور بينما تبقى الكرة السماوية ثابتة .

ولم يقف علم بطليموس على الفلك ، بل لقد لخص فى كتابه الموجز الجغرافى جميع كان يعرفه الأقدمون عن سطح الأرض . وقد استطاع أن يصور على خرائطه جسما ويا على مسطح مستو .

والراى على انه عالم رياضى أكثر منـه فلكى أو جغرافى . وقد وصف كتـابه البصريات » وهو بحث فى الضوء وانكساره بأنه أعظم البحوث التجريبية فى التاريخ قـديم .

كما نقل عنه كتاب فى (الأنغـام) يعتبر أحسن ما لدينـا من آراء الأقدمين حول لذا الفن ، فن الغناء .

يرون :

ويجرنا الحديث عن بطليموس الفلكى ، وما يرمز اليـه من تفوق اسكندرية فى علوم ، الى دَوّر عالم آخر كان يمكن أن يبدأ الثورة الصناعية التى عرفها العـالم فى لقرن التاسع عشر قبل ذلك بثمانية عشر قرنا ، ذلك أنه اكتشف قوة البخار .

وقد اختلفت الآراء حول الزمن الذى عاش فيه هذا العالم فى الاسكندرية فمن ائل ان ذلك كان فى القرن الأول قبل الميـلاد ، فان آخرين يتأخرون به الى القرن لثالث بعد الميلاد ، ونقول دوائر المعارف البريطانية انه لا يمكن الا أن يكون قد عاش ـ الاسكندرية خلال القرن الأول لأنه يتحدث فى أحد كتبه عن خسوف قمرى شوهد ـ الاسكندرية عام ٦٢ ميلادية .

وقد اخترنا أن نذكره الى جوار بطليموس فكلاهما من نتاج الاسكندرية ، وكلاهما يرمزان لتطورها وتفوقها العلمى .

وقد وضع هيرون فى كتابه « الحيل » أسس وقواعد العجلة ومحورها والرافعة ، والبكرة ، والاسفين ، واللولب .

وفى كتابه « الهوائيات » درس ضغط الهواء فى سبع وثمانين تجربة معظمها من الحيل والألاعيب .

وتدرج من الألعاب المسلية باستخدام قوى الطبيعة الى صنـع مضخة رافعـة وأخرى لاطفاء الحريق ذات مكبس وصمامات .

كما شرح السـاعات المائية والأرغن المائى . وصـنع طائرا آليا يغرد وتمثالا آليا ينفخ فى بوق .

على أن أعظم ما توصل اليه هو تسخيره قوة البخار كطاقة محركة ، حيث صنع أول آلة بخارية فى التاريخ كان البخار الناشىء عنها يستخدم لوقف كرة فى الهواء ومنعها من السقوط ، ولم يكن ما فعله جيمس وات بعد ذلك بثمانية عشر قرنا الا أن استخدم هذه القوة البخارية فى تحريك رافعة .

وقد بقى لدينا حتى الآن كثير من كتب هيرون مترجمة الى العربية .

الطب والجراحة :

واذا كان بطليموس وهيرون يملان ذروة العلم والاختراع فى الاسكندرية ، فان ذلك يجرنا الى الحديث عن شهرتها فى هذه الفترة من علم وفن آخرين وهما الطب والجراحة ، حيث كان يقال حتى عدة قرون تالية « حسب الطبيب تنويها ببراعته أن يقال انه تعلم فى الاسكندرية » وليس ذلك فى الحقيقة الا استمرارا لتفوق مصر فى الطب والتشريح من أقدم العصور بحيث عرفت التخصص فى الطب ، فكان عندها أطباء للعيون وآخرون للعظام .

يقول ول دورانت الذى ننقل عنه :

« لم تكن الجراحة فى القرن الأول الميلادى فى اسكندرية أقل رقيا منها فى أى مكان آخر فى أوربا قبل القرن التاسع عشر . ولم تكن الطبيبات نادرات وقد كتبت واحدة منهن « منرودورا » رسالة فى أمراض الرحم لا تزال باقية حتى اليوم » .

ويزدان تاريخ الطب فى هذا العصر بأسماء عظيمة منها مرنيس الاسكندرى الذى اشتهر بجراحات الجمجمة وانتبليس أعظم الرمديين فى عصره ، وكان أعظم أطباء ذلك العصر الذى لا يمكن الا انه كان دقيق الصلة بالاسكندرية وقطن بها فقد تلقى فيها العلم فى شبابه .

وجالينوس الشهير الذى لا يفوقه شهرة سوى بقراط ، الذى أربت مؤلفاته على خمسمائة كتاب بقى منها ١١٨ كتابا تحوى عشرين ألف صفحة تشمل جميع فروع الطب وعددا من مباحث الفلسفة .

١٥٣ م — اندلعت ثورة فى الاسكندرية لا يعرف سببها ولكننا نعرف أن الوالى الرومانى قد خسر حياته فيها ، كما دفعت الاسكندرية ثمنا غاليا لثورتها .

ولكن يبدو أن الامبراطور (الطيب) قد أراد أن يظهر عطفه على المدينة بعد ذلك أو أن يصالحها فأقام بها عدة منشآت (١) كمدرج لسباق الخيل ، وبابين للمدينة احدهما يواجه البحر وسمى « الشمس » .

والباب الآخر يواجه بحيرة مريوط واطلق عليه اسم « القمر » وشق طريقا يخترق المدينة بالعرض .

ويقول اسكندر صيفى مؤلف كتاب المنارة التاريخية أن الامبراطور انطونيوس أمر بمساحة الطرق العسكرية بالمملكة وسموا ذلك « الدليل الانطونينى » .

---

(١) ربما كانت هذه المنشآت قد اقيمت قبل الثورة .

فكانت طرق مصر العسكرية ستا اولها من بلاد النوبة حتى حصن بابليون على ل حافة النيل الشرقية ، وثانيهما من منف الى هليوبوليس وحى اليهود وفليمسون بث ترعة تراجان نحو البحر الاحمر .

لثالث من منف الى مدينة بلوزيون (الفرما) والرابع من الصحراء الى البحر حمر عن طريق سيرابيون والخامس من فلسطين حتى الاسكندرية على شاطىء بحر المتوسط .

وسادسها من مدينة قبطوس (قفط) على النيل حتى برانيقة من البحر الاحمر .

وقد حدثنا اريان المؤرخ عن المسافات والابعاد بين مدن البحر الأحمر وعدد كانها واهمية تجارة مصر الداخلية والخارجية بها .

١٥٤ م ــ ولى حكم مصر سميرونيوس ليبرالس ويبدو أن الاحوال الزراعية اعمال السخرة بدات تسوء فى عهده لثقل الضرائب ، فهجر كثير من المزارعين قراهم اراضيهم ، فأصدر الوالى منشورا وجهه الى هؤلاء الذين هجروا قراهم دعاهم يه الى العودة الى قراهم واراضيهم واعدا اياهم بالنزول عن الضرائب المتأخرة تخفيف القائم منها .

١٥٥ م ــ خلف كاديانوش على بطريركية اسكندرية المسيحية ماريانوس الذى ل بطريركا لمدة تسع سنوات .

١٥٩ م ــ ولى حكم مصر فولسيوس ميسانوس .

١٦١ م ــ مات انطونينوس خاتما بذلك حياته الصالحة بعد أن كان قد بلغ من لعمر اربعا وسبعين سنة حكم فيها ٢٣ سنة .

وكما كان خير اعمال الامبراطورين السابقين عليه تراجان وهادريان هو نجاحهما اختيار خلفهما ، فقد وفق بدوره فى اختيار خلفه وهو ابنه بالتبنى ماركوس وربليوس الذى دعاه وهو على فراش الموت وعهد اليه بالعناية بشئون الدولة م ادار وجهه كما لو كان يُريد النوم واسلم الروح .

لامبراطور ماركوس أوريليوس :

١٦١ م ــ اعتلى ماركوس اوريليوس عرش روما وكان وافيا للعهد منفذا رغبة هادريان واشرك معه على قدم المساواة لوسيوس فيروسا ، مبتدئا بذلك التقليد الذى سيكون له أكبر الأثر فى تقسيم الامبراطورية .

على ان هذا الخطر لم يلح خلال حكم ماركوس اوريليوس الذى كان يؤلف ختام سلسلة الأباطرة الطيبين ، ذلك ان التاريخ كان يشهد بتولى ماركوس أوريليوس العرش تحقق ما حلم به أفلاطون فى جمهوريته الفاضلة وهو أن يلى العرش فيلسوف

ويؤكد لنا ماركوس أوريليوس نفسه ان ليس باستطاعة الحاكم الفيلسوف أن يغير وجه الدنيا نحو حياة أفضل ... وكل الذى يستطيعه أن يبذل اقصى جهده لتحقيق اكبر نصيب من الخير للمواطنين .

ليس ماركوس اوريليوس رداء الفلسفة السروانية منذ الثانية عشرة من عمره ، واخذ ينام على فراش من القش رافضا رجاء امه أن ينام على الفراش الوثير . وحشد لتعليمه رهط من مختلف الفلاسفة والعلماء فى شتى فروع المعرفة كالمنطق والفلسفة واللغة والبيان والخطابة والقانون والرياضيات وكان ماركوس اوريليوس يحمد لاخيه عندما كبر انه تعلم منه « أن فكرة الدولة هى التى يكون فيها قانون واحد لجميع المواطنين ويتمتع سكانها بحقوق متكافئة وحرية الكلام ، والحكومة الصالحة هى التى تحترم حرية المحكومين اكثر من احترامها كل شيء سواها » .

وكان يشكر لأستاذه مكسيموس انه هو الذى علمه : « أن يحكم نفسه والا يسمح لشخص ان يضلله وأن يكون بشوشا فى كل الظروف ، وأن يجمع قدرا متكافئا من اللطف والكرامة وأن يؤدى ما عليه من الواجبات فى غير تذمر » .

ومع ذلك فان هذا الملك الفيلسوف لم يتردد عن خلع رداء الفلسفة وارتداء لباس الجندى ليواجه الغارات البربرية التى بدأت تتوالى على حدود الامبراطورية استهانة بشأنها وقاد الجيش بنفسه ووضع أحسن الخطط ، وانتصر فى اكثر من معركة وأدهش المنهزمين بعد ذلك بلينه ورحمته .

ولكن ماركوس أوريليوس الفيلسوف ، كان مدركا ان كل الانتصارات التى حصل عليها تحمل طابعا مؤقتا ، فقد بدأ الداء ينخر فى عظام هذه الامبراطورية المترامية .

فى مصر :

١٦٢ م — ولى حكم مصر انتيوس سيراكوز .

١٦٥ م — ولى حكم مصر دومنيوس أونوراتوس .

١٦٦ م — ولى حكم مصر فلافيوس تيتيانوس .

١٦٧ م — ولى حكم مصر باسيوبوس روفوس .

١٦٩ م — ولى كرسى البطريركية المسيحية انمرنيوس خلفا لكاديانوس الذى جلس على كرسى مرقص الرسول اربعة عشر عاما .

ثورة فى مصر :

١٧٢ م — اندلعت نيران الثورة ضد الحكم الرومانى ولم تكن الثورة هذه المرة فى الاسكندرية بل اندلعت من صميم الريف المصرى ومن أراضى شمال الدلتا بالذات .

انتهز المصريون فرصة ارسال الحاميات الرومانية للحرب في منطقة الدانوب — جرت عوامل السخط والغضب تحت زعامة كاهن مصري يدعى ايزيدور ، وبلغت ـة من القوة بحيث هزمت القوات الرومانية الموجودة داخل البلاد ، وكادت ـة الاسكندرية نفسها أن تسقط في يد الثوار .

وعندما ارسلت روما جيشا لاخماد الثورة تحت قيادة « افيديوس كاسيوس » بقو على مواجهة قوات الثائرين في معركة مفتوحة فعمد الى المناورات وايقاع ـتة بين صفوف الثوار حتى انقسموا الى جماعات فسهل عليه بعد ذلك القضاء هذه الأقسام المتفرقة .

على ان هذه الثورة لم تخمد الا بعد أن أوحت للقائد المنتصر كما سوف نرى أن ـى بنفسه امبراطورا من مصر .

ديوس كاسيوس امبراطورا :

١٧٥ م — ولى حكم مصر جايوس كالفسيوس ستاتيانوس فلم يلبث أن انضم ، افيديوس كاسيوس الذى أعلن نفسه امبراطورا ، عندما وصلت اليه أنباء كاذبة موت الامبراطور ماركوس أوريليوس .

واسرعت مدينة الاسكندرية التى كانت لا تتوق الى شىء أكثر من أن تكيد روما ـن تستعيد سلطانها ومجدها السياسى ، فأيدت الامبراطور الجديد الذى أسرع و سوريا ليحصل على تأييد جيشها وشعبها له ، تاركا في مصر ابنـه ميكيانوس ـبـا عنـه .

ولم يتأخر جيش سوريا ولا سوريا عن المناداة به امبراطورا .

ويحفظ لنا التاريخ موقف ماركوس أوريليوس غير العادى في مواجهة هذه الثورة ـيه والذى يكاد يرتفع الى مرتبة التصوف ، فقد أعلن بين جنوده بمجرد بلوغ الأنباء ـبه انه على استعداد أن يواجه افيديوس أمام مجلس الشيوخ وامامهم وأن يسلم ـيه الامبراطورية بدون اراقة دماء . اذا كان الشعب يرى الخير في ذلك .

مضى ماركوس يقول في خطابه :

« ان أفيديوس لن يرضى بهذا الاحتكام وهو الذى اثبت عدم وفائه وخيـانته ـمحسن اليـه وأخشى ما أخشاه يارفاقى الجنود وانى أقولها مخلصا ، ان يضـع ـنيديوس حدا لحياته او ان يضع أحد الجنود حدا لهذه الحياة تصـورا منه انه ـخدمنى بذلك ، فيحرمنى من رغبتى الشديدة فى أن اثبت قدرتى على العفو عن ـشنع الجرائم واشدها خطرا وأن أجعل من افيديوس صديقا لى رغم اباثه وتمتعه ـكى أثبت للعـالم ان خطر أعنف الحروب الأهليـة يمكن أن يصـل الى نهاية سعيدة ـوفقة بغير حاجة الى اراقة الدماء » .

ولكن الجنود الرومانيين كانوا اقل فلسفة من أوريليوس ولم يحققوا له أمانيه اذ وضع احد الضباط حدا لحياة افيديوس كما اغتال جنود آخرون ابنه فى الاسكندرية وهكذا لم تدم هذه الثورة غير ثلاثة أشهر ولم يرق فيها غير دم مشعليها وهم افيديوس وابنه . واظهر ماركوس أوريليوس أسفه عندما حملت اليه رأس افيديوس ، وطلب أن تدفن باحترام وشرف .

ماركوس أوريليوس فى مصر :

١٧٦ م — وقد خف ماركوس اوريليوس الى مصر بعد انتهاء هذه الزوبعة ، واذا كان مقتل اوفيديوس قد حرمه كما كان يحب من أظهار قدرته على العفو فقد شمل هذا العفو كل من اشترك فى الثورة ، حتى الذين كانوا من رؤسائها ومدبريها كوالى مصر وافراد أسرة أفيديوس والذين يقضى القانون والتقاليد باعدامهم فقد اكتفى ماركوس اوريليوس بعزل الوالى ونفيه وحرمان اولاد افيديوس من نصف ميراث أبيهم ونفيهم .. على أنه لم يلبث فيما بعد ان سمح لهم بالعودة الى بلادهم وراح ماركوس أوريليوس بعد ذلك يتجول فى مدينة الاسكندرية كأحد الأفراد ويزور المعابد ويحضر مجالس العلماء والفلاسفة ويستمع اليهم ويساجلهم ويحاورهم . وتمثاله الذى أقيم له فى المدينة يمثله لابسا الجبة الرومانية وليس الملابس الملوكية كأسلافه .

١٧٧ م — حكم مصر باكتوموس ماخيوس .

١٧٧ م — اشرك ماركوس أوريليوس ابنه كوموروس معه فى الامبراطورية فمنح لقب امبراطور ثم لقب بأغسطس واصبح شريكا لأبيه على قدم المساواة معبدا بذلك الطريق ليكون امبراطورا من بعده ومخالفا هذا التقليد الحكيم الذى اتبع خلال العهود السابقة ، وهو أن يتم اختيار الامبراطور عن تبنى الأصلح والأكفأ ، لا عن طريق الوراثة .

موت ماركوس أوريليوس :

١٨٠ م — مات ماركوس اوريليوس وقد بلغ من العمر تسعا وخمسين سنة وبعد حكم استمر تسعة عشر عاما .

وقد ذهب ماركوس اوريليوس الامبراطور كما ذهب وسيظل يذهب غيره من الملوك الصالحين أو الطالحين ولكن ماركوس أوريليوس الفيلسوف ظل خالدا فى مبادئه وتعاليمه وكتبه التى ما تزال تقرأ حتى الآن وتسمع ويستفاد بها .

فنراه حينما يدلل على وجود الله يقول :

« أن الأشياء جميعها متشابكة بعضها ببعض والرابطة التى بينها رابطة مقدسة

الاشياء العاقلة كلها عقل مشترك ، وثمة اله واحد يسرى فى كل شىء ، مادة واحدة
ون واحد وحقيقة واحدة . هل يمكن ان يكون فيك انت (نظام واضح) ويكون
ن كله اضطرابا وفوضى .. » .

ويزيد آراءه وضوحا فى وحدة الوجود .

« فكما ان تبدل الأجسـام وانحلالها ، يفسحان المجـال لأجسام اخرى فكذلك
ل الارواح التى تنتقل الى الهواء وتتبدد وتتوزع فى عقل العالم الأصلى وتخلى
نها لأرواح جديدة ، لقد وجدت انت بوصـفك جزءا من كل ، وسوف تفنى فى
، الذى اخرجك وهذا هو ما تريده الطبيعة ، فاجتز هذه الفترة القصيرة من الزمن
ى تصـل هادئا الى الطبيعة واختم رحلتك وانت راض وليكن مثلك كمثل حبـة
يتون تسقط حين تنضج وتبـارك الطبيعة التى اخرجتهـا وتثنى على الشـجرة
ى حملتها » .

ويصل ماركوس أوريليوس من الصـفاء والشفافية بحيث يبشر بتعاليم أقرب
تكون من تعاليم المسيح فى موعظة الجبل اسمع اليه وهو يقول :

هل الشر الذى اصابك يمنعك ان تكون عادلا كريما معتـدلا ، حصيف الراى
اضـعا حرا :

ولنفرض أن الناس لعنوك أو قتلوك أو فرقوك اربا فماذا تستطيع هذه الأشياء
تفعل لتمنع عقلك ان يظل طاهرا حكيما متزنا عادلا ؟ واذا وقف الانسان بجوار
رائق صاف ولعنه فان النبع لا يكف عن ارسال الماء النظيف واذا دسته أو رميت
، الاقذار فسرعان ما يقذف بها النبع الى خارجه حتى لا يتدنس بها مرة اخرى .
تنس كلما أصابتك كارثة أن تطبق المبدأ القائل : ان ما حدث لم يكن شقاء حل بك
ن الصبر عليه صبر الكرام هو السعادة بعينها .

الا ما أقل الاشياء التى اذا حصـل عليها الانسان استطاع ان يحيا حياة هادئة
مئنة تشبه حياة الأرباب » .

هذه الأقوال الرائعة التى يقولها ماركوس أوريليوس تكشف لنا كيف أن الحاكم
ما بلغ من الصفاء والتسامح لا يمكن أن يباشر سلطانه ضد آرائه وأفكاره . فالتاريخ
سب اليه انه اصدر امرا باضطهاد المسيحيين . وقد لا يكون هو مصدر هذه الأوامر
الحقيقة ، وانما أحد شريكيه .

ولكن المحقق ان المسيحيين تعرضوا فى حكمه لاضطهادات شديدة نتيجة لما اتهموا
من اثارة القلاقل ، واذاعة نبوءات مزعجة وعدم الولاء للدولة والامتناع عن قسم
ين الولاء للامبراطور واحراق البخور حول تماثيـله ، وأهم من ذلك كله رفض
خـدمة فى الجيش .

وقد ضربت النـ.د باسمه فى الاسكندرية وعليها صورة النيل العظيم وفى السنة الحادية عشرة من حكمه ضربت النقود وعليها صورة ايزيس نقبض على شراع تدفعه الريح لجهة المنارة اشارة لقدوم الامبراطور الى الاسكندرية .

وترى صورة ماركوس أوريليوس كفرعون مصرى على جدران معبد لاتوبوليس وقد أصلح عدد كبير من المعابد فى زمنه وتم بناء احد معابد فيلا فى عهده كذلك .

كومودوس امبراطورا :

١٨٠ م — انفرد كومودوس بن ماركوس أوريليوس بالعرش بعد وفاة ابيه وكان عمره لا يتجاوز التاسعة عشرة ، واستهل حكمه بنقض كل ما عاش أبوه يعمل عليه ويدعو اليه وهو سياسة اللين والعفو والتسامح فقد أثار الأحقاد القديمة وصمم على تعقب أسرة أفيديوس كاسيوس الذين كان ابوه قد عفا عنهم ، وقضى عليهم جميعا ، كما انتقم من اهل الاسكندرية فحاكم زعماءهم وقتل الكثيرين منهم ، كما تدل على ذلك احدى وثائق البردى التى وصلت الينا مسجلة مثلا متاخرا من مجموعه اعمال الشهداء المدنيين او اعمال السكندريين وتتضمن هذه البردية اجزاء من محضر محاكمة هليودوروس (ابن أفيديوس كاسيوس) وابيانوس رئيس جمنازيوم الاسكندرية . ومن الحوار الذى دار بين ابيانوس والامبراطور نرى مدى الكراهية التى احتفظ بها أهل الاسكندرية ومصر بعامة تجاه الحكم الرومانى واليك بعض من هذه النصوص :

الامبراطور مخاطبا ابيانوس : الا تعرف الى من تتحدث الآن ؟

ابيانوس : اجل .. ابيانوس يتحدث الى طاغية .

الامبراطور : بل الى ملك .

ابيانوس : لا تقل انت هذا . كان يحق لوالدك ماركوس اوريليوس أن يكون امبراطورا ولتعلم انه كان أولا فيلسوفا وثانيا زاهدا وثالثا ملكا خيرا أما انت فعلى عكس هذه الصفات طاغية وشرير وفاسد الأخلاق .

فأمر قيصر أن يساق ابيانوس الى الاعدام .

وليس هناك ما يدل على عظم الأثر الطيب الذى خلفه ماركوس أوريليوس أن تراه يثنى عليه بهذه الصورة فى عمل من هذه الأعمال الاسكندرية .

علو شأن مدرسة الاسكندرية المسيحية :

١٨١ م — جلس بوليانوس على كرسى البطريركية فى الاسكندرية ، خلفا لاغريبيوس الذى ظل على كرسى الاسكندرية عشر سنوات .

باقتراب القرن الثانى الميلادى من ختامه كانت المسيحية قد تأصلت فى مصر
ع نطاق معتنقيها ، يدل على ذلك نكريس كتير من المطارنة لرئاسة الكنائس التى
تنتشر فى انحاء البلاد ، ويتجلى بالاكثر فى ارتفاع صيت مدرسة الاسكندرية
ذكرنا من قبل أن التاريخ الكنسى يعزو انشاءها الى مرقص الرسول ، وبدأت
اهميتها وخطورتها عندما يسهم فيها انيناجوارس الذى كان فيلسوفا وتنيا
الصيت ثم تحول الى مسيحى عمق الايمان فأبى على نفسه أن يوصل الى
، الآخرين ما أصبح يغمر قلبه من نور وايمان .

ونجد فى كتاب يوسابيوس القيصرى (١) أول تنويه بأهمية مدرسة الاسكندرية .

ونحو هذا الوقت (أى وقت بايون يوليانوس) عهد الى بنتينوس — وهو شخص
جدا بسبب علمه — ادارة مدرسة المؤمنين فى الاسكندرية . اذ كانت قد انشئت
نذ الأزمنة القديمة مدرسة للتعاليم المقدسة ولا زالت حتى يومنا هذا « القرن
ع » وكان يديرها كما وصل الى علمنا رجال فى غاية المقدرة والغيرة نحو الالهيات .
ن ان يبرز من بينهم فى ذلك الوقت بنتنيوس لأنه نهذب بفلسفة الرواقيين . وقد
غيرة شديدة نحو الحكمة الالهية حتى انه عين سفيرا يمثل المسيح للأمم التى
شرق ووصل حتى بلاد الهند .

وبعد اعمال مجيدة كثيرة رأس بنتنيوس اخيرا مدرسة الاسكندرية ، وفسر كنوز
اليم الالهية شفويا وكتابيا .

١٨١ م — ولى حكم مصر فلافيوس برسكيوس .

١٨٣ م — ولى حكم مصر مينيوس فلافانيوس وكان الانتاج الزراعى فى مصر قد بدأ
هور منذ قامت بثورتها التى دلت على سوء الأحوال . فلم تعد مصر هى المورد
ل لتوريد الغلال الى روما كما كان الشأن فى القرن الأول ..

ووصل الأمر الى حد ان انشأ كومودوس أسطولا لنقل القمح من شمال افريقيا
يدل نقصان حجم العملة ووزنها والتى سكت فى هذه الفترة على تدهور الأحوال
تصادية بصفة عامة .

١٩١ م — ولى بطريركية الاسكندرية ديمتريوس الأول خلفا ليوليانوس الذى
س على كرسى مرقص الرسول عشر سنوات وشهرا ، وقد تم اختيار ديمتريوس
تلاء السدة المرقصية على ما يقول التاريخ الكنسى بطريقة عجيبة فقد رأى الأنبا
يانوس ابان نومه ملاكا وسمعه يقول له :

---

(١) كان اسقفا لمدينة قيصرية ويعد من اقدر المؤرخين واقدمهم بالنسبة للمسيحية ولد عام ٢٦٤ م
ت عام ٣٤٠ م .

« ان الذى سيأتيك غدا بعنقود من العنب سيخلفك » . وفى اليوم التالى دخل ديمتريوس (الكرام) زارع العنب يحمل عنقودا من العنب هو باكورة كرمه وقد جاء ليقدمه لباباه المريض فلما رآه يوليانوس قال للمحيطين به هذا هو باباكم من بعدى وقص عليهم الحلم الذى رآه ، فلما ان توفى يوليانوس اتفقت كلمة الاكليروس والشعب على انتخاب ديمتريوس راعيا أعلى لهم وهكذا أصبح الكرام الخليفة الثانى عشر للقديس مرقص .

وسرعان ما نهض البابا الجديد ليكون جديرا بالمنصب الذى وصل اليه فداب على تحصيل العلوم الدينية والمدنية واستطاع بقوة ارادته وايمانه أن يستكمل فى وقت قصير ما فاته عبر السنين التى مرت به .

وباعتلاء ديمتريوس كرسى البابوية ، بدأ سلطان المسيحية الروحى والعلمى فى مصر يزداد علوا ، وكان من أوائل أعمال ديمتريوس أن انتدب بانتنيوس رئيس مدرسة الاسكندرية للسفر الى الهند ليبشر اهلها بانجيل المسيح ، واستجاب بانتينيوس لهذا التقدير ، فعهد بادارة المدرسة الى تلميذه (كلمنفيس) وتوجه الى الهند فوجد ان توما الرسول قد سبقه اليها وبشر بالانجيل هناك ... ووجد لديهم نسخة من انجيل متى بخط البشير نفسه .

قتل كومودوس :

١٩٣ م — قتل كومودوس خنقا بعد أن ظل منفردا بالحكم بعد أبيه ثلاثة عشر عاما ولعل هذه النهاية غير الطبيعية التى انتهى اليها على خلاف كل الأباطرة التى سبقته ابتداء من ترفا تكشف عن الحماقة التى كان قد تردى فيها على خلاف أبيه والاباطرة السابقين اليه . فقد اعاد الى الاذهان تصرفات كاليجولا — ونيرون وحماقاتهما وجرائمهما .

وكان يقضى أكثر أوقاته سكيرا معربدا مقامرا ومبعثرا اموال الدولة .

وكان فى حريمه ثلثمائة امراة وثلثمائة غلام ويقول لنا ناستس الذى يروى تاريخه أنه كان يحلو له فى بعض الأحيان أن يكون امراة فيلبس فى الاحتفالات العامة ثياب النساء . وتروى عنه قصص يتردد الانسان فى قبولها لما تنطوى عليه من نشوة مفرطة . كان يرغم بعض النساء اللواتى نذرن انفسهن لخدمة ايزيس أن يضربن صدورهن بثمر البلوط حتى يمتن . وأنه كان يقتل الرجال بلا تمييز بينهم بهرواة هرقل التى كان يمسكها بيده . وأنه جمع المقعدين وقتلهم بسهامه واحدا بعد واحد .

وعندما اكتشف مؤامرة قتله زاد جنونه واسرافه فى ارتكاب الجرائم فقتل عمته لوسيلا وعددا كبيرا من ذوى المقامات العالية لمجرد أن حامت الشبهة حولهم .. ويقولون انه لم يبق على قيدة الحياة أحدا من ذوى الكفاية على عهد أبيه ماركوس أوريليوس .

ولم يكن حكم كومودوس الا نذيرا بما ستنتهى اليه الامبراطورية من تفكك وضعف .. بعد أن اصبحت الأغلبية العظمى من سكان روما من العبيد . وبعد أن زال الايمان نهائيا بحكم القانون والديمقراطية ، ليحل حكم السيف والقوة . وبعد ان تهاوت العقائد الوتنية القديمة وفقدت الايمان بها ، وتحولت الى صور وأشكال أقرب الى الهزل منها الى الجد — وبعد ان تحولت الفلسفة الرواقية التى كانت تقوم على المجاهدة الى الاستسلام .

ولم يكن أثر المسيحية فى دفع الامبراطورية نحو الضعف والتفكك بأقل من أى من هذه العوامل .

١٩٣ م — الامبراطور برتينياكس :

حاول مجلس الشيوخ ان يستعيد سلطانه فى تعيين الأباطرة فاختار للعرش فى اوائل يناير من هذه السنة عضوا من أجل أعضائه واجدرهم بالاحترام وهو بريتينياكس وقد حاول أن يكون جديرا بمنصبه وأن يصلح ما أفسده كومودوس ، ولكن الحرس الامبراطورى الذى لم يشأ ان يفقد سلطانه فى تعيين الأباطرة اقتحم القصر وقتل الامبراطور وحملوا رأسه الى معسكرهم على طرف رمح وأعلن الثوار أنهم سيضعون التاج على رأس الرومانى الذى يمنحهم أكبر عطاء .

وراح سماسرة الحرس يتنقلون من غنى الى آخر ، فلما أن وعد جليانوس كل جندى بـ ٦٢٥٠ دراخمة أعلن الحراس اختياره امبراطورا .

وغضبت الفيالق والحاميات فى الخارج من استهتار الحرس الامبراطورى بالاتجار بالمنصب الامبراطورى فأعلنت كل منها رئيسها امبراطورا وزحفت جيوش المقاطعات على روما .

ولم يلبث لوسيوس سبتميوس سفيرس (ساويريس) قائد جيوش ولاية نيوفيا ان تفوق على جميع القواد بفضل جراته وسرعته وما قدمه من رشاوى وقطع على نفسه عهدا أن يهب كل جندى ٦٢٠٠٠ دراخمة اذا جلس على العرش ، فاستطاع ان يصل الى روما وأن يضم اليه الجيوش التى ارسلت لصده ، بل استطاع ان يضم الحرس الامبراطورى واعدا اياهم بالعفو والعطاء أن هم سلموا اليه قوادهم . وهكذا قطع رأس الامبراطور جليانوس .

وهكذا عاد الى الأذهان عام ٦٨ م وهو العام الذى توالى فيه على الحكم ثلاثة أباطرة .

وقد حاصر سبتميوس مجلس الشيوخ وطالب منه ان يؤيده لارتقاء العرش ، فلما أجيب الى طلبه اعدم عشرات من أعضائه وصادر كثيرا من مزارع الاشرافه حتى قيل انه قد آل اليه نصف أملاك شبه الجزيرة .

الأحوال فى مصر :

كان الوالى على مصر فى هذا العام (١٩٣ م) مانتنيوس سابينيوس .

وسجلت الآثار المصرية حكم برتيناكس القصير وقد أستطعنا ان ندرك من هذه الآثار المدى الزمنى الذى كانت الاخبار تستغرقه للوصول من روما الى مصر فحيث اعلن برتيناكس امبراطورا فى ١٥ يناير فان والى مصر لم يذع البيان ويصدر أمره باجراء الاحتفالات المعتادة فى مثل هذه المناسبة الا فى ٦ مارس وكانت الاحتفالات تستغرق خمسة عشر يوما .

وقتل برتيناكس فى ٢٨ مارس ولكن حتى ١٩ مايو كانت هذه الحقيقة لا تزال مجهولة فى الفيوم حيث عثر على وثيقة فى هذا التاريخ تشير الى كونه لا يزال هو الامبراطور .

ولم يكد خبر مقتله يصل الى مصر وان جليانوس ارتقى العرش حتى أعلنت الاسكندرية (فيما بعد) رفضها لهذا الامبراطور فلم تسك نقودا باسمه ولا يرى اسمه فى اى وثيقة من الوثائق فضلا عن جدران المعابد . ذلك ان المصريين وقد رأوا تدهور الحكم فى روما الى هذا المدى حتى أصبح العرش سلعة تباع فى المزاد حتى قرروا ان يتقدموا بمرشح لارتقاء العرش فنادوا — بسيشيوس نيجر (الأسود) وهو الجنرال الرومانى فى سوريا ، والذى عمل قبل ذلك فى مصر فى منطقة اسوان للدفاع ضد غارات البدو ، فأبدى من الحنكة والقدرة على كبح جماح جنوده من أن تنهب حاجات الاهالى أو تتعرض لهم بسوء ، فحببه ذلك الى قلوب الشعب ومما يؤثر عنه انه عندما طلب منه جنوده أن يزودهم بالخمر قال لهم : أن ماء النيل يكفيهم .

وهكذا ودى (بنيجر) امبراطورا فى مصر وسوريا وضربت النقود باسمه فى الاسكندرية ، وبدأوا يؤرخون باسمه عند تدوين الوثائق .

وكان رد فعل سفيروس (ساويرس) لهذا التمرد ان اسرع لتأمين حاجات روما من القمح من بلدان شمال افريقيا ، مظهرا بذلك ان الوقت الذى كان من يحكم فيه مصر يحكم روما بسبب القمح قد انتهى .

١٩٤ م — التقت جيوش نيجر وسفيروس عند مداخل كليكيا وكان مصير هذا اللقاء مقدرا من قبل فحيث جلس نيجر فى سوريا مطمئنا الى سلطانه ، كان سفيروس شعلة من النشاط والعمل فراح يعنى بالجيوش وينظم صفوفها ويجهزها والغلبة دائما للعامل المجد . وانهزمت جيوش نيجر وقتل ، وبذلك استقرت الأمور لسفيروس وانفرد بحكم روما .

وأوفد فى هذه السنة فيما يبدو البيوس برمبيانوس ليكون واليا عليها .

هاد المسيحيين :

ويذكر (تاريخ الكنيسة) ان اضطهادا وقع للمسيحيين فى هذا العام وكان ثقله
ينة الاسكندرية بالذات ، وقد كان من شهداء هذا الاضطهاد والذى خلد التاريخ
ه ليونيداس والد اوريجانوس الكبير الذى سيكون له شأن أعظم فى تاريخ
يسة بعامة وكنيسة مصر بخاصة ، كان مجرد ذكر اسمه يثير فى النفوس
(س) فى اسمى صوره ، كما يثير فى النفوس الحقد والكراهية فى احط صورهما
كان استشهاد ليونيداس هو نقطة الانطلاق فى حياة أورجانوس الذى سنعود
من مرة للتحدث عنه .

وقد اقتحم والى الاسكندرية فى هذا الاضطهاد كنيسة القديس مرقص فى
سكندرية وسلب ما فيها من ذخائر ومقدسات وآنية ، ثم قبض على الأب
تريوس ونفاه الى بلدة أوسيم حيث ظل منفيا بها حتى انتهى الاضطهاد .

١٩٦ م — جاء الامبراطور سفيروس الى مصر ليكسب ود أهلها باصلاح احوالهم
ادة ما فسد من الادارة فكان أول ما فعله ان حقق للاسكندرية مطلبها العزيز وهو
يكون لها مجلسها التشريعى بل ومنح نفس هذا الحق لكل عواصم المديريات
لقومات) والمدن الدينية (المتروبوليس) ويعتبر المؤخون ان ذلك هو أول توحيد
م مصر الادارية مع سائر انظمة الامبراطورية ، وقام سافيروس بالرحلة التى اعتاد
يقوم بها اباطرة الرومان اذا زاروا مصر ، وهى ان يبحروا فى النيل صاعدين حتى
بة وما وراءها ليشهدوا معابدها الخالدة ويقال ان سفيروس أصلح رأس احد
الى ممنون فتسبب هذا الاصلاح فى ايقاف النغمات الموسيقية التى كانت تنبعث
ه . وقد كانت هذه النغمات مبعث دهشة كل من كان يزور هذين التمثالين .

١٩٧ م — ولى حكم مصر ايمليوس ساتورنيوس .

٢٠١ م — ولى حكم مصر ماسبوس ليتوس كما يذكر البعض اسم اكيلا باعتباره
لى مصر فى هذا التاريخ .

٢٠٣ م — ولد فى لتوبوليس فى مصر العليا افلاطونين وكان مصريا ذا اسم رومانى
ربية يونانية وهو الذى سيكون مقدرا له بعث الفلسفة الأفلاطونية تحت اسم
فلاطونية الجديدة والتى احدثت أكبر اثر فى الديانة المسيحية .

٢٠٣ م — خلف اوريجانوس كليمنتص فى رئاسة مدرسة الاسكندرية المسيحية
اوريجانوس هو ابن ليونيداس الذى استشهد دفاعا عن العقيدة المسيحية عام ١٩٤
قد أراد اوريجانوس عندما قبض على ابيه وكان عمره يبلغ السابعة عشرة أن يشاركه

فى السجن والاستشهاد ، ولكن امه حالت بينه وبين فعل ذلك بأن اخفت جميع ملابسه فلم يستطع الخروج ، فأخذ يرسل الى ابيه فى السجن رسائل مشجعة على احتمال مصيره وقد جاء فى احدى هذه الرسائل .

« احذر أن ترجع عن ارادتك من أجلنا » .

ولم يلبث ليونتداس كما اشرنا من قبل أن اعدم وصودرت أموال الأسرة ، فوقع عبء كفالة الأسرة على أوريجانوس الشاب ، وقد كان لاستشهاد من استشهد فى هذه الفترة دفاعا عن العقيدة المسيحية اثر بعيد الغور فى نفس أوريجانوس ، فعمد الى حياة الزهد والتقشف ، واكثر من الصوم وقلل من ساعات النوم ، وافترش الأرض ، ومشى حافيا وعرض نفسه للبرد والعرى ، واخيرا عمد الى خصى نفسه اطاعة لاحدى آيات انجيل متى بعد ان تزمت فى تفسيرها أشد التزمت .

ولم يكد ديمتريوس يوليه المدرسة اللاهوتية ، حتى بزغ نجمه وطبقت شهرته الآفاق وهرع الكثير من الطلاب المسيحيين والوثنيين ينهلون من عمله وبلاغته وايمانه. وان الانسان فى عصرنا الحديث ليعجب وقد جاء وقت على العابد المسيحى كان يعتبر فيه طلب العلم وبخاصة الفلسفة كفرا وتجديفا ، كيف أن أوريجانوس فى هذا العهد المبكر جعل من برنامج الدراسة علوم النحو والمنطق والبلاغة والحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، وجعل تلقى هذه العلوم كلها مجرد تمهيد لدراسة الفلسفة ، ومقدمه فى خاتمة المطاف لدراسة الأسفار الالهية .

وهكذا اصبحت مدرسة اللاهوت الاسكندرانية بوتقة الحياة الثقافية فى الاسكندرية وبعد ان كانت المسيحية رغم كل الجهود التى بذلها من قبله اكلمنضوس وتنوس . ومن الجهال والعوام تحولت بفضل جهود أوريجانوس وبعزيمته الى طلبة الفلاسفة والمثقفين .

٢١١ م — مات الامبراطور سفيروس بعد ان بلغ من العمر خمسا وستين سنة سلخ فيها من الحكم ثمانى عشرة سنة امضاها فى حروب متصلة سريعة وحتمية قضى فيها على كل منافسيه وغزا بارثيا واستولى على طشقونة وضم بلاد النهرين الى الامبراطورية ، وانتصر على الاسكتلنديين فى بريطانيا فى عدة مواقع ، ولما جاءه الموت كانت كلمته :

« لقد نلت كل شىء ولكن ما نلته كان لا قيمة له » .

وقد عاب سفيروس على ماركوس أوريليوس انه سلم الامبراطورية الى ابنه كومودوس ، ومع ذلك فقد فعل هو مثل فعلته واسلمها الى ولديه كراكلا وجيتا وزودهما بهذه النصيحة الساخرة :

« أغدقا المال على جنودكما ثم لا يهمكما شىء بعد ذلك » .

ويرى رسم سفيروس بملابس فرعون مصر فى معبد الاتوبوليس ، كما ترى رسوم له مع زوجته .

الامبراطور كراكلا :

ارتقى كراكلا عرش الامبراطورية وقد سمى بهذا الاسم نسبة الى العباءة الغالية الثمن التى كان يرتديها أكبر أبناء سفيروس وبمجرد اعتلائه العرش أمر بقتل (جيتا) أخيه الصغير وشريكه فى الحكم . ويقال ان القتلة عندما دهموه وهو فى حجرة والدته هرع الى ذراعيها لتحميه ولكنها لم تستطع حمايته فذبح وهو فى حضنها وتخضبت ثيابها بدمه .

ويقال ان كراكلا أعدم عشرين ألفا ممن احتجوا على قتل أخيه ، ولما تذمر الجيش على أثر مقتل جيتا ، اسكت الجيش بأن نفحه منحة مالية تعادل ما ادخره ابوه سفيروس من أموال .

وعين امه (جوليا دمنه) التى لم تستطع أن تظهر حزنها على ابنها الذى ذبح فى حجرها امينة سر الامبراطورية لشئون العرائض والرسائل فكانت تشاركه أو تحل محله فى استقبال رجال الدولة وذوى المكانة ، فهمس المتقولون بأنها تستمد سلطانها عليه من مضاجعته لها ، وكان أهل الاسكندرية كعادتهم من أعتى الساخرين به فشبهوه وامه بأوديب الذى تزوج امه جوكستا ، واعلنوا نقمتهم عليه لذبحه اخيه على هذه الصورة .

منح حقوق المواطنة الرومانية لكل سكان الامبراطورية :

على أن كراكلا يذهب فى التاريخ علما على انه هو الامبراطور الذى منح حق (المواطن الرومانى) لجميع سكان الامبراطورية الأحرار .

ويقول بعض المؤرخين فى تعليل هذه الخطوة انه اقدم عليها لحاجته لفرض ضريبة التركات على جميع سكان الامبراطورية وهذه الضريبة لا تجبى الا من المواطنين الرومانيين .

واحسب أن هذا تعليل غير مستساغ . فلم يكن هناك ما يحول دون أن يعمم كراكلا سريان هذا القانون على جميع سكان الامبراطورية بغير حاجة الى منحهم حق المواطنة . كما يقول البعض ان حقوق المواطنة كانت قد أصبحت من الضآلة فلم يحدث منحها لسائر سكان الامبراطورية فرقا ، ولكن هذا الفارق مهما كان قدره من الضآلة .. هو الذى سيخضع بعد قليل على عرش روما اباطرة من كل جنس ومن كل قطر .. اباطرة ربما لم يذهب احدهم الى روما طول حياته .

كما ثار جدل بين بعض المؤرخين عما إذا كان حق المواطنين قد شمل المصريين فيمن شمل ...

يقول البعض ان المصريين (من دون سائر عباد الله استثنوا من هذا القرار .

ويقول الدكتور مصطفى العبادى ان الدراسات الحديثة المعتمدة على الوثائق البرديه بصفة خاصة قد اثبتت أن تطبيق قانون كراكلا فى مصر كان عاما وشاملا للمصريين جميعا سواء اهل المدن أو الريف .

٢١٥ م — ولى حكم مصر سبتيميوس هراكلتيوس .

كراكلا فى مصر :

وزار الامبراطور كراكلا مصر فى هذه السنة ويبدو أن جاءها راغبا فى الانتقام منها لما روجبا حوله من اقاويل حول علاقته بأمه وتنديدها بمسلكه فى مقتل اخيه .

وقد استقبلته الاسكندرية كما هى عادتها بكل حفاوة وكريم بالغين عنان السماء ورد كراكلا التحية بمثلها حتى قيل انه قدم ضحيته بمعبد سيرابيس . وزار ضريح الاسكندر وخلع عليه غطاءه الملوكى وزناره المحلى بالجواهر وخواتمه الثمينة .

ولكن هذا التصرف فيما يبدو زاد فى لهيب سخرية الاسكندريين . فقد رأوا فى هذه الاعمال ما يعزز القول أن كراكلا يحاول التشبه بالاسكندر .

وبدأ كراكلا انتقامه الرهيب ، فدعا شباب الاسكندرية ورجالها الى خارج المدينة ليؤلف من القادرين منهم فرقة جديدة فى الجيش الرومانى .

فسابق الرجال القادرون والشباب المتحمس للالتحاق بالفرقه المطلوبه ... وعندما تجمعوا خارج الأسوار أحاطهم الجنود الرومان ، وتظاهر كراكلا بأنه يفتش عليهم . وبعد أن خرج من صفوفهم أصدر أمره للجيش المحيط بهم بافنائهم وجرت مذبحه وحشية لم يسمع التاريخ بمثلها على هذه الصوره ... ولم تقف عند حد ذبح المجتمعين خارج الأسوار ، بل امتدت بعد ذلك الى داخل المدينة نفسها .

واصدر كراكلا امره بعد ذلك بالغاء حق سكان الاسكندرية فى المسابقات الرياضيه وامر ببناء سور يشطر مدينة الاسكندرية شطرين وقد كانت الجيوش الرومانية حتى ذلك التاريخ تقيم خارج الاسوار فى مدينة نيقوبوليس (الرمل حاليا) فاصدر امره بنقل المعسكرات الى داخل المدينة .

ويرى بعض المؤرخين أن كراكلا لم يقدم على تحطيم الاسكندرية بهذه الصورة العنيفة الا لخوفه من أن تقوم بثورة أبان اشتغاله بالحرب التى كان مقدما عليها فى بارثيا .

٢١٦ م — ولى حكم مصر فالريوس داتوس وفى هذه السنه اذن الأنبا ديمتريوس

بابا الاسكندرية لأوريجانوس رئيس المدرسة اللاهوتية ان يذهب الى آسيا الصغرى كى يعلم اهلها ، فذهب اليها وقام بالمهمة خير قيام ، وفى طريق عودته مر بفلسطين فبهر بعلمه ونبوغه وتقواه اسقفى قيصرية واورشليم فرسماه قسا .

ويقول لنا يوسابيوس القيصر فى تاريخ الكنيسة أن ديتمريوس « غلبه الضعف البشرى » اذ راى اوريجانوس يعلو نجمه ويعلو ويزداد شهرة .

واغضبه ان يرسمه اسقفا أورشليم وقيصرية قسا مع أن ذلك من صميم عمله واختصاصه : فاصدر قرار حرمان على أوريجانوس واصفا اياه بأنه طائش مستندا فى ذلك الى هذا الحادث القديم الذى أقدم عليه من خصيانه لنفسه .

على ان قرار الحرمان هذا كان سببا فى ان تعلو شهرة أوريجانوس أكثر واكثر وان يعرف من لم يكن يعرف مدى تقواه وعلمه الغزير وحكمته . بل لقد كان هذا الحرمان سببا فى خير الكنيسة والمسيحيين ذلك ان أوريجانوس أنشأ مدرسة لاهوتية جديدة فى قيصرية ، تخرج منها عدد كبير من فحول آباء الكنيسة المسيحية .

٢١٧ م ــ انتصر كراكلا فى حربه ضد البارثيين ولكن جنوده قتلوه عشية انتصاره ولم يزد حكمه عن خمس سنوات .

وترى رسومه ورسوم اخيه جيتا على جدران معبد لاتوبوليس . كما توجد له بعض التماثيل فى المتحف المصرى (١) .

٢١٧ م ــ الامبراطور مقرنيوس :

أعلن مقرنيوس قائد الحرس الامبراطورى نفسه امبراطوراً على اثر موت كراكلا حتى قيل انه كان هو الآمر بقتله .

وقد بدأ حكمه بالعمل على استجلاب ود المصريين فبعث اليهم لأول مرة فى تاريخ العلاقات الرومانية المصرية باحد اعضاء مجلس الشيوخ « ماريوس سكوندس » ليكون مساعدا للوالى الجديد بازيليانوس مبطلا بذلك التقاليد المتبع منذ عهد اغسطس وهو أبعاد مصر عن نفوذ أعضاء الشيوخ .

على ان حكم مقرنيوس لم يدم طويلا فقد استطاعت بعض الأميرات السوريات النابهات ان يجزلن العطاء لجنود الجيش الرومانى ليحملنهم على تولية ابن احداهن وكان صبيا يقيم فى مدينة حمص ويشغل منصب كاهن اله المدينة .

وقد زعمت كبرى هذه الأميرات ان بناتها كن يغشين بلاط كراكلا وانه اتصل باحداهن وانجب منها هذا الصبى .

---

(١) والذين يزورون مدينة روما فى العصر الحديث يستوقفهم اسم كراكلا منذ أقام موسولينى مسرحا ضخما فى اطلال حمامات كراكلا التى كان قد أقامها للشعب .

واذ كانت الأميرة اجزلت العطاء لرجال الجيش فقد نودى بالصبى «الاجابالدس» امبراطورا .

ولكن اهل الاسكندرية رفضوا الاعتراف بابن عدوهم كراكلا امبراطورا ، وانحازوا الى جانب مقرنيوس .

ولكن مقرنيوس لم يلبث ان قتل وايدت الجيوش الرومانية فى مصر اختيار الامبراطور الجديد ... ولكن اهل الاسكندرية وعلى راسهم الوالى بازيليانوس وماريوس سيكوندس مضوا فى مقاومتهم للامبراطور الجديد وقتلوا السعاة الذين جاءوا من سوريا يحملون النبأ .

ووقع الاشتباك بين الجيش الرومانى واهل الاسكندرية ، ولكن الغلبة كانت فى النهاية للجيش وقتل ماريوس سيكوندس وفر بازيليانوس الى روما .

٢١٨ م - الامبراطور الاجابالدس :

اشتق هذا اللقب من اسم اله حمص الذى كان كاهنا له ، ولكى يكسب الاجابالدس حكمه صفة شرعية ، سمى نفسه ماركوس اوريليوس انطونينوس .

على ان الصبى لم يكد يصل الى روما ويتربع على عرشها حتى اسلم نفسه لشهواته وملذاته ، التى بلغ فيها الحد الذى وصف معه بالجنون .

وذلك فى الوقت الذى تولت فيه السلطة الحقيقية فى روما امه (جوليا مايزا) .

٢٢٢ م - قتل الحرس الامبراطورى الاجابالدس وأمه وجروا جثتيهما فى شوارع المدينة ثم القوهما فى نهر (التيبر) ونادوا بالاسكندر ابن خالة الاجابالدس امبراطورا بعد أن وعدتهم أمه باجزال العطاء لهم ، بل واعطت مقدما ، وكانت أم الاجابالدس هى التى اقنعت ابنها أن يتبنى ابن خالته الاسكندر ويعلنه خليفة له من بعده . وكان ان حفرت قبرها بيدها .

الامبراطور سفيروس الاسكندر :

كان الامبراطور الجديد فى الرابعة عشرة من عمره ولذلك فقد تالف مجلس وصاية من اعضاء مجلس الشيوخ تحت سلطان أم الامبراطور الجديد ليباشر مهام الحكم . وهكذا حملت نساء سوريا الى روما تقليدا جديدا لم يسبق للمراة الرومانية ان زاولته من قبل وهو أن تضطلع بالحكم بطريق رسمية وان تشاطر الرجال السيادة والنفوذ .

وكانت أم الامبراطور قد عنيت عناية كبيرة باعداد ابنها عقليا وجسديا وخلقيا فكان يسبح فى بركة من الماء البارد ساعة فى كل يوم : ويقتصد فى الطعام ولا يأكل

الا ابسط الأطعمة . وكان شابا وسيما قوى الجسم طويلا ماهرا فى جميع الألعاب الرياضية وفنون الحرب ودرس الآداب اليونانية واللاتينية .

وقد اظهر احتراما عظيما لمجلس الشيوخ .

وكان رحيما دمث الأخلاق يعود المرضى فى منازلهم ، ويستمع الى اى مواطن حسن السمعة ويبادر بالعفو عن معارضيه ولم يسفك قط دماء مدنى طول حكمه .

ولما كانت الامبراطورية فى أيامه تشهد انتشار المسيحية فى الوقت الذى كانت الوثنية لا تزال دين الدولة الرسمى ، فقد هبت العقائد القديمة تدافع عن نفسها فيما يشبه صحوة الموت .

فرأى سفيروس الاسكندر أن يعظم كل الأديان التى تدعو الى الخير فأقام فى معبده الخاص الذى كان يتعبد فيه كل صباح تماثيل لجوبيتر وأورفيوس وابراهيم (اب اليهود) وهذا الاله الجديد الذى يسميه اتباعه المسيح ، وكثيرا ما كان يردد هذه القاعدة الذهبية التى تتضمنها كل الأديان الخيرة « عامل الناس بما تحب ان يعاملوك به » .

وقد أدى ذلك الى أن يتندر به أهل الاسكندرية وانطاكية « رئيس الكنيسة » .

وكانت امه تؤثر المسيحيين على غيرهم من الرعايا حتى قيل انها بسطت حمايتها على اوريجانوس واستدعته الى روما ليشرح لها اصول دينه .

٢٢٤ م — مات احد اباء الكنيسة المصرية الخالدين وهو الأنبا ديمتريوس بعد ان بلغ من العمر الخامسة بعد المائة وقاد الكنيسة طوال اثنين وثلاثين سنة وسبعة شهور .

وقد عرف أنه عند توليه عام ١٩١ قد انكب على اغتراف العلوم ليكون جديرا بمنصبه الرفيع . وقد وصل فى علمه الى حد انه وضع الحساب المعروف بالابقطى وهو الحساب الخاص بتحديد يوم قيامه المسيح والذى لا يزال معمولا به حتى الآن فى الكنائس الشرقية وقد استند فى وضعه على حساب بطليموس الفلكى صاحب المجسطى . وهو أول بابا رسم اساقفة لجهات القطر المصرى ، وعقد مجمعا بالاسكندرية حاكم فيه العلامة اوريجانوس .

بطريركية ياروكلاس :

وخلف ديمتريوس على كرسى الكرازة المرقصية الأنبا ياروكلاس . وكان ياروكلاس احد تلاميذ أوريجانوس وكان مشغوفا بالعلم جادا فى تحصيله الى حد استرعى اهتمام أوريجانوس ، فجعله يتولى التعليم فى الصفوف الأولى من المدرسة .

ولم يحصل ياروكلاس على تقدير أوريجانوس فحسب بل حصل على تقدير

ديمتريوس فرسمه قسا ، وعندما تخلى أوريجانوس عن المدرسة بعد أن غضب عليه ديمتريوس ، خلفه على راس المدرسة ياروكلاس بناء على تكليف من ديمتريوس ، فاظهر تفوقا كبيرا اذ انه فوق علمه الواسع كان خطيبا بليغا يؤثر على السامعين ، فيجمع القلوب حوله .

ولذلك فلم يكد الأنبا ديمتريوس يختم حياته حتى اجمع الاكليروس والشعب فى اتفاق روحى على انتخاب ياروكلاس خليفة له وفى عهده كانت المسيحية قد بدأت تعم مصر كلها بحيث راى نفسه مضطرا لرسامة عشرين أسقفا جديدا لمدن البلاد وصار هو أكبرهم فلقوه بالبابا اى الأب الأكبر (١) ، وكان أول عمل له بمجرد توليه مهام عمله ان اعلن رفع الحرم الذى كان ديمتريوس قد أوقعه على استاذه القديم أوريجانوس ، وكتب اليه يدعوه الى العودة الى الاسكندرية ليواصل جهاده من أجل العقيدة ، ولكن أوريجانوس رد عليه بأن مدرسة الاسكندرية أصبحت ثابتة الدعائم ولم تعد فى حاجة اليه قدر احتياج مدرسته الجديدة فى قيصرية فاقتنع ياروكلاس بهذا الراى وعين لرئاسة المدرسة خلفا له أيونسيوس .

٢٢٨ م — ولد الأنبا بولا الذى سيكون مقدرا له فى تاريخ المسيحية أن يكون منشىء الرهبنة حيث كان اول من انخلع عن أمواله وأسرته وهرب الى الصحراء بعيدا عن الناس وكل مظاهر الاجتماع .

٢٢٨/٢٢٩ م — من المحتمل على ما يقول الدكتور مصطفى العبادى أن يكون الامبراطور سفيروس اسكندر زار مصر فى هذا التاريخ وحاول التخفيف عن الأهالى بالتنازل عن بعض الضرائب ولكن المصادر الأخرى وأهمها (ملن) لم تشر الى هذه الزيارة .

وما يذكره « ملن » بمناسبة هذا الامبراطور أن مصر كانت قد بدأت تتدهور اقتصاديا وماديا حتى انه لم يعد يخشى من أن تتخذ قاعدة للقيام بثورة ضد روما ، ويستدل على ذلك بأنه عندما قام رئيس الحرس الامبراطورى ابيجانوس بثورة على الامبراطور وفشلت الثورة فان الامبراطور عفا عنه وبعثه واليا على مصر ، مما يدل على انها اصبحت آخر مكان يمكن لثائر أن يقوم بعمل منه (٢) .

على أنه اذا صح ما يقوله ملن من أن مصر كانت قد بدأت تفقد أهميتها الاقتصادية

---

(١) لا نوافق ايريس حبيب المصرى على ان يارو كلاس اول من سمى بابا ويقول ان بطاركة الاسكندرية قد سموا بهذا الاسم منذ اثيانوس أول بابا .

(٢) يذكر ملن أن أبا خاموس قد اعدم بعد قليل من الزمن مما يدل على ان ارساله الى مصر كان لتهدئة الخواطر ثم اعدامه بعد ذلك ..

والمادية كقوة فاعلة فى الامبراطورية الرومانية فان ذلك لا يصدق على مكانتها العلمية والروحية فى ذلك العهد حيث كانت الفلسفة تصل الى ذروتها على يد آخر أعلامها من الوثنيين وهو افلاطونين .

كما كانت الفلسفة المسيحية تصل الى ذروتها كذلك على يد أوريجانوس .

وقد كان افلاطونين صديقا لاوريجانوس وزميلا له فى دراسته حيث تلقى الاثنان دروسهما على يد أستاذ واحد وهو امتيوس سكاس ، وهو مسيحى ارتد الى الوثنية وكان يحاول التوفيق بين المسيحية والافلاطونية ، وهو ما سيفعله تلميذه أوريجانوس .

٢٣٥ ـ ٢٣٨ م ـ قتلت الجنود الرومانية سفيرس الاسكندر وكان الجنود يحنقون على سفيرس الاسكندر انه عمل جاهدا طوال حكمه على أضعاف سطرة الجيش على الحكم ، واعاد الهيبة الى مجلس الشيوخ والاشراف ، فانتهز الجنود فرصة محاولاته الصلح مع قبائل الراين لكى يقتلوه هو وامه واصدقاءه .

ويموت سفيرس الاسكندر انحدرت الامبراطورية الرومانية الى نصف قرن من الفوضى والفتن وعدم الاستقرار . حيث كان يجتمع فى وقت واحد ثلاثة او اكثر او اقل يدعى كل منهم انه هو الامبراطور يؤيده فرق من الجيش فى احدى الولايات او ينادى به السناتو . ثم تلتقى الجيوش ويذبح بعضها بعضا ، او يغتال الجنود امبراطورهم لشراء رضاء الامبراطور الآخر وهكذا .

الامبراطور مكسمنيس :

وكان أول من نودى به امبراطورا هو رئيس فرق الجيش فى ارض الراين ويدعى مكسمنيس . وهو من حيث الأصل فلاح من تراقيا ، وكان ضخم البنية بصورة غير عادية حتى يقولون انه كان يلبس سوار زوجته كخاتم فى احد أصابعه ، وكان جاهلا تعوزه الثقافة ، ولذلك فلم يعترف به مجلس الشيوخ .

ونصب من ناحيته كاوديوس ماكسيموس وبالينوس امبراطورين .

وفى نفس الوقت نادت الفرق الافريقية بنائب القنصل ماركوس انطونينس جوردبانوس الأول وهو شيخ فى الثمانين من عمره ولذلك فقد أشرك معه ابنه جورديانوس الثانى . ودارت المعارك بين القوى المتناحرة ، وكان أن قتل جورديانوس الأول وابنه ، ولكن جماهير الشعب فى روما أكرهت مجلس الشيوخ على اشراك جورديان الثالث حفيد جوردبان الأول مع بويتوس وبالينوس .

وقتل الجند الامبراطور ماكسمينس فى يونيو ٢٣٨ وفى نفس الوقت قتل رجال الحرس الامبراطورى بونيوس وبالنيوس فانفرد جورديان الثالث على العرش .

فى مصر :

وقفت الاسكندرية ومصر من هذه الاحداث موقفا سلبيا فلم تشترك فى هذه

المباريات النسطرنجية وكانت تنتقل فى غير منافسة الى حكم اى من الاباطره المدعين — فنرى فى مصر قيصرين باسم جورديانوس الأول والثانى كما نرى نقودا مضروبة باسم ماكسمنيس ولكن لا يرى لهم ذكر على جدران المعابد أما بالنسبة لبانيوس بونيثيوس فلا اثر لهما البتة — وقد وردت اشــارة عابرة فى احدى البرديات الى جورديان الثــالث .

موت ياروكلاس بابا مصر :

٢٤١ م — مات ياروكلاس بابا مصر بعد أن جلس على كرسى الكرازة المرقصية ستة عشر عاما وشهرا واحدا .

وقد شهد عصره اضطهادا — وقع على المسيحيين فى عهد الامبراطور مكسيمنس الذى اكتشف مؤامرة تستهدف قتله وأوهمه المقربون اليه من رجال البلاد أنها من تدبير المسيحيين فصدق هذه الوشاية وأثار اضطهادا مروعا ضد المسيحيين .

وقد اضطر باروكلاس تحت الحاح رعاياه الى الاختباء حتى مات ماكسمينس وقد كان هذا الاضطهاد هو الذى حدا باوريجانوس الى تأليف مؤلفه عن الاستشهاد على ما يقول تلميذه يوسيفوس القيصرى .

ولقد اجتذبت شخصية ياركولاس بوداعتها وغزارة علمها كثيرا من الأجانب الاعلام ومن بينهم افريكانوس مؤلف تاريخ العالم ابتداء من التكوين حتى عام ٢٢١ م والذى عرفنا من خلاله مؤلف مانيتوس .

ومن مآثر باروكلاس التى تحفظها له الكنيسة انه قبل توبة **التائبين من المسيحيين الذين جحدوا مسيحيتهم تحت وطأة الاضطهاد ، وبغــير حاجة الى تعميد جديد ،** ولكن شريطة أن يعلنوا توبتهم جهارا طالبين بتوسلات جمة .

الأنبا ديونسيوس :

وخلف ياروكلاس على كرسى الكرازة المرقصية الأنبــا ديونسيوس ، وهو أحد ابناء الاسكندرية وكان عمله الأول الطب ، ثم حدث أن اعتنق المسيحية وتتلمذ على أوريجانوس وانعقدت بينهما اواصر الصداقة ، ثم رسم شماسا وكاهنا ، وعين بعد ذلك ضمن معلمى المدرسة فى الاسكندرية عندما كان رئيسها صديقه باروكلاس .

ولما اعتذر اوريجانوس عن العودة لرئاســة المدرســة اصــبح ديونسيوس رئيسا عليهــا .

واستهل ديونسيوس عمله بمجرد اعتلائه الســدة المرقصــية بأن ارســل الى أوريجانوس يخبره رفع الحرم عنه ويدعوه الى العودة الى عمله فى رئاسة مدرســة الاسكندرية ولكن أوريجانوس كرر اعتذاره القديم لنفس الاسباب وهو أن مدرسة الاسكندرية اصبحت فى غنى عنه ... حيث يقوم بعمل نافع فى مدرسته الجديدة بقيصرية .

فعهد ديوبسيوس بادارة المدرسة الى تينوغناسست ، وعندما مات هذا الاخير عين الانبا ديونسيوس بيربوس حلبفة له والذى سيقدر له أن يعيش قرنا من الزمان .

افـلاطونين :

٢٤٤ م — وفى هذا العام وصل خاتم الفلاسفة الونتيين ومن أعاظمهم أفلاطونين السكندرى الى روما ليجعل منها قاعدة ليبث تعاليمه ومبادئه الفلسفية : فاستطاع أن يعيد الى الفلسفة سمعتها الطيبة ، وذلك بأن عاش معيشة القديسيين وسط ترف روما ورذائلها ، وحرم على نفسه اللحم ، ولم يأكل من الخبز الا قليلا وابتعد عن كل العلاقات الجنسية وان لم يذقها وليست فلسفة أفلاطونين التى سيطلق عليها اسم الأفلاطونية الجديدة الا مزيجا من فلسفة أفلاطون المثالثة بعد أن تأثرت بعقيـدة المصريين فى التثليث عندما يصل الأمر الى تصور الالوهية .

فالاصل فى الوجود هو الفكر وليس المادة والمادة لا تعرف الا عن طريق الفكر وليس ما نسميه مـادة الا مجموعة من الافكار وهى أكثر ما تكـون شىء افتراضى مراوغ يضغط على اطراف اعصابنا .

والانسان مؤلف من ثالوث بشرى هو الجسم والنفس والعقل . فاما الجسـد فعضو النفس وسجنها معا . والنفس تدرك انها نوع من الحقيقة أرقى من الجسد وتشعر بما اها من صلة بنفس اكبر منها واوسع ، وهى حين تعمل لنبلغ بالفكر الى حد الكمال تأمل أن تتصل مرة اخرى بتلك الحقيقة الروحية العليا .

أما بالنسبة للاله فهو ثالوث مكون من الوحدة والفكر والنفس ومن وراء الكائن الملث يوجد الواحد ونحن لا نعرف عن هذا الواحد الا انه موجود وكل صفة موجبة نصفه بها تحديد له غير لائق به ، وكل ما نستطيع ان نصفه به هو انه أول وواحد وخير وانه هدف رغبتنا العليا وينشأ من هذه الوحدة العقل العالى وليست هـذه التعاليم الا حلقة من تلك السلسلة التى بداها الفلاسـفة المصريون ابتداء من ميلون اليهودى ، وواصلها أفلاطونين واريجانوس والتى سيكون مقدرا لها أن تكون هى التى تصـوغ المسيحية فى النهـاية .

٢٤٤ م — قتل جورديانوس الثالث على يد قـائد حرسـه الامبراطورى فيلب العربى الذى جعل من نفسه فى بادىء الامر شريكا فى الحكم لجورديانوس ، ثم قرر فى هذه السنة التخلص منه واعلان نفسه امبراطورا .

الامبراطور فيليب العـربى :

وهو عربى الاصل كما يبدو من لقبه يمت الى مدينة (بصرة) وقد اسرع بمجرد مناداة الحرس به امبراطورا الى روما ليتقلد زمام الأمور ، وقدر لهذا العربى الوافد من الشرق أن يكون هو الذى يشهد الاحتفال بمرور الف عام على انشاء مدينـة رومـا « عام ٢٤٨ » .

٢٤٩ م مقتل فيليب :

نادت بعض فرق الجيش الرومانية بقائدهم دسيوس امبراطورا ، فزحف عليه فيليب ودارت الدائرة على فيليب فذبح .

الامبراطور ديسيوس :

تولى ديسيوس عرش روما وكان مقدرا لهذا الامبراطور الذى لم يعمر طويلا على العرش ان يكون هو أول من اصدر قرارا عاما باضطهاد المسيحيين (١) .

٢٥٠ م – وفى هذه السنة ولد فى مدينة قمن العروس الانبا انسطونى واذا كان الانبا بولا هو اول من اعتزل مدينة الناس وعاش وحيدا فى الصحراء فان الانبا انسطونى هو المؤسس الرسمى لنظام الرهبنة والاديرة الذى انتشر من مصر الى سائر العالم المسيحى .

محنة المسيحيين :

يذكر ملن فى تاريخه ان الوالى الرومانى فى هذه السنة على مصر كان هو ابيوس سيبينوس لكن تاريخ الكنيسة الذى يتحدث عن محنة المسيحيين التى بدأت فى هذا العام قد جرت على يد اميليانوس الوالى وكان الامر الذى أصدره ديسيوس يقضى بأن يطلب من كل فرد من الاهالى أن يعلن تمسكه بعقيدته فى آلهته القديمة عن طريق العبادة والتضحية لها.وأن يتم ذلك أمام الموظفين المسئولين وعلى كل فرد أن يحصل على شهادة من هؤلاء الموظفين باستيفاء هذا الاختيار ومن يرفض القيام به يكون جزاؤه الموت وقد عثر على نماذج من هذه الشهادات على بعض البرديات التى ترجع الى هذا التاريخ ٢٤٩ – ٢٥١ م .

القبض على ديوتسيوس وتخليصه :

وقد كان ديوتسيوس بابا المسيحيين فى مصر هو اول من قبض عليه بطبيعة الحال ليؤدى هذا الامتحان ويعلن جحود المسيحية وبذبح للاوثان والالهة القديمة ، ولكن بعض مسيحى الاسكندرية استطاعوا أن يخطفوه من يد الحراس ويهربون به الى الصحراء .

وقد راح من مخبئه يوجه الرسائل الى أبنائه المسيحيين يثبت أقدامهم ويشد ازرهم .

وقد ترك لنا عدة رسائل بعث بها الى اساقفة المشرق بعث لنا فيها انواع الاضطهادات والمذابح التى حلت بالمسيحيين الذين ابوا الا التمسك بعقيدتهم – وكيف ضعف الكثيرون خوف الموت فجحدوا المسيح – وكيف فر البعض الى الصحراء نجاة بأنفسهم .

---

(١) كانت الاضطهادات السابقة التى مرت بالمسيحيين اضطهادات محلية لم تأخذ شكل العمومية .

الانبا بولا :

وكان الانبا بولا الذى بلغ العشرين من عمره ممن هجروا المدينة فى هذه الفترة وهرعوا الى الصحراء . وقد تعددت الروايات فى سبب هذه الهجرة فمن قائل ان زوج شقيقته طمع فيه ووشى به الى الوالى فجعلته هذه الخسة يعاف البشر ويقرر ان يعتزل الخليقة ليعبد الخلاق الرحيم (قصة الكنيسة القبطية) .

ومن قائل بل انه زهد فى الدنيا عندما وجد أحد الاثرياء ميتا وقد بدأ ورثته يتنازعون الميراث ولما يوارى فى لحده بعد (تاريخ الاقباط) .

ثم تتفق الروايتان انه عندما هجر المدينة وتوغل فى الصحراء وجد كهفا تقوم الى جواره نخلتان وعين ماء فآوى الى هـذا المكان الذى هيأه له الله وظـل يعيش وحيدا تسعين عاما حتى اكتشفه الانبا انسطونى .

تعـذيب أوريجانوس :

وممن نالهم الاضطهاد فى أيام ديسيوس العلامة أوريجانوس حيث كبل بالحديد ووضع الطوق الحديدى فى عنقه ومدت قدماه فى المقسطرة اياما كثيرة وصبر على ذلك كله ولم ينج من الموت الا ان القاضى المكلف باصـدار الحكم عليه بذل جهـده لانقـاذ حياته .

موت الامبراطور ديسيوس :

٢٥١ م ــ لقى الامبراطور ديسيوس حتفه اثر مؤامرة دبرت ضده .

ونجد رسما لديسيوس على معبد لاتابوليس . وبموت ديسيوس بدأ فى تاريخ روما ما اطلق عليه على سبيل المجاز عهد الطغاة الثلاثين ، قياسا على هذه الفترة فى تاريخ الاغريق المسماة بهذا الاسم فقـد كثر التطاحن بين أدعياء العرش وانقسـم ولاء الجنـود ، واشـتد ضـعف السـلطة المركزية فى روما واعلنت الكثير من الولايات استقلالها .

٢٥١ م ــ الامبراطور جالوس :

ومن أبرز من تولوا عرش روما فى هذه الفترة جالوس بعد ان قتل ابن ديسيوس وترد اشارة لحكمه فى بعض البرديات المصرية . وفى عهد هذا الامبراطور بدأ الوباء الذى سيفتك فى روما وأوربا لمـدة خمسة عشر عاما .

الامبراطور فاليريانوس :

٢٥٣ م ــ ولى العرش فاليريانوس بعد ان قتل الجنود جالوس ، وكان فاليريانوس قائد القرى الالمانية التى نادت به امبراطورا ، ولما كان فاليريانوس كبيرا فى السن (٦٠ سنة) فقد أشرك معه فى الحكم ابنه جالينوس .

وكانت غارات القبائل المتبربرة قد بدات تترى على الامبراطورية . بينما كانت جيوش الفرس تهاجمها من الناحية الشرقية ، بعد أن سقطت هيبة الجيوش الرومانية التى ظلت ترهب البشرية ثلاثة قرون .

وقد عهد فاليريانوس الى ابنه جالينوس بالاشراف على القســم الغربى من الامبراطورية فأشتبك فى معارك طاحنة مع قبائل المتبربرين مر الفرنجة والقــوط والجرمان الذين وصلوا فى بعض الاحيان الى حدود مدينة روما نفسها .

واختص فاليريانوس نفسه بادارة القسم الشرقى من الامبراطورية والدفاع عنه .

مصـادقة المسيحيين ثم معاداتهم :

ولقد استهل فاليريانوس عهده بمصادقة المسيحيين حتى ليقول عنه دنسيوس بابا الاسكندرية على ما نقله عنه يوسالبوس القيصرى انه كان لطيفا نحو رجال الله محبا لهم اذ لم يعاملهم احد من الاباطرة قبله بهذا اللطف وهذه الرقة .

وكان بينه بأكمله مليئا بالاشخاص الاتقياء وكأنه كنيسة الله .

ولكنه لم يلبث أن انقلب على المسيحيين وراح يضطهدهم فعانى دنسيوس بابا الاسكندرية من هذا الاضطهاد الشيء الكثير .

٢٥٤ م ـ وفـاة أوريجانوس :

مات أوريجانوس فخر الكنيسة المصرية بعد أن بلغ التاسعة والستين من عمره والاجماع على أن كتابه « المبادىء الاولى » هو أول عرض فلسفى منظم للعقيـدة المسيحية . وفى كتابه « التـذرات » أخذ على عاتقه ان يتبنى جميع العقائد المسيحية بالرجوع الى كتابات الفلاسفة الوثنيين واستعان بالطرق الرمزية الاستعمارية التى استطاع بها الفلاسفة الوثنيون أن يوفقوا بين أقوال هوميروس وبين ما يفعله العقل المنطقى ، كما وفق فيلون بين اليهودية والفلسفة المنطقية . ومن أقوال أوريجانوس « أن وراء المعنى الحرفى لعبادات الكتاب المقدس طبقتين من المعانى أكثر منه عمقا هما المعنى الخلقى والمعنى الروحى ـ لا تصل اليهما الا الاقلية المتعلمة المتعمقة » .

وكان يرى أن النصوص الواردة فى الكتب المقدسة قد اخترعت لتوضح بعض الحقائق الروحية ويقول : متسائلا .. أى رجل عاقل يصدق ان اليوم الاول واليوم الثانى واليوم الثالث « من أيام التكوين » وأن المساء والصباح قد كانت كلها بغـير شمس أو قمر أو نجوم ، وأى انسان تصل به البلاهة الى حد الاعتقاد ان الله قد زرع جنة عــدن كما يزرع الفـلاح الارض وغرس فيها شـجرة الحياة حتى اذا ما ذاق انســان ثمرتها نال الحيــاة ..

والله عند أوريجانوس ليس هو « يهوه (١) » بل هو الجوهر الاول لجميع الاشياء وليس المسيح هو الانسان الآدمى الذى يصفه العهد الجديد ، بل هو العقل الذى ينظم العالم ، وهو بهذا الوصف قد خلقه الله الاب وجعله خاضعا له .

والنفس عند أوريجانوس كما هى عند افلاطونين تنتقل فى مراحل وتجسيدات متوالية تدخل الجسم : والحق انه من الصعب جدا أن يفرق الانسان بين آراء أفلاطونين وأوريجانوس الفلسفية، ولاعجب فى ذلك فكلاهما تلقى هذه الفلسفة فى مدرسة واحدة هى مدرسة امونياس سكاس .

واذا كانت هذه الشذرات التى نقلناها من آراء أوريجانوس تبدو جريئة حتى بمنطق القرن العشرين فلا عجب اذا روعت الانبا ديمتريوس فعقد له مجمعا ليحاكم وليحكم على آرائه واصدر قرارا بحرمانه .

وسيظل أوريجانوس هدفا للاضطهاد وحتى بعد موته بقرون ، فطعن البابا اثناسيوس فى آرائه التجديفية عام ٤٠٠ ومجمع القسطنطينية عام ٥٥٣ سيصدر ضده قرار حرمان .

ومع ذلك كله فهى حقيقه لا يختلف فيها اثنان أنه لم يأت عالم مسيحى واحد طوال الاجيال اللاحقة عليه لم يغترف من بحر علمه .

ولم يستطع حتى الد اعدائه ان لا يخشع أمام حياة الزهد والورع التى عاشها وصنوف الاضطهاد التى تحملها فى صبر ، وكيف عاش خمسين سنة فى جهاد متصل من اجل العقيدة المسيحية والبذل فى اعلانها بالعقل والجسد والروح .

وقد نسب اليه القدماء أن مؤلفاته جاوزت الستة آلاف . وانه كان أشهر انسان فى العالم المسيحى على الاطلاق . وأن تلامذته هم أعلام العالم المسيحى فى القرنين الثالث والرابع .

ويموت أوريجانوس ، كانت هذه السلسلة التى بدأها مكليمنتس ويارد خلاس تصل الى ذروتها .

٢٦٠ م موت فاليريان :

مات فاليريان امبراطور الرومان أسيرا لدى سابور كسرى فارس وهو أول امبراطور رومانى تجرع هذا الهوان ، وقيل أن سابور قد عامله بفظاظة وقسوة لاذلاله فكان يضع قدميه على ظهره كلما اراد أن يمتطى حصانه .

وليس لفاليريان أى نقوش أو رسوم على المعابد المصرية وإن كان ذكره يرد أحيانا فى بعض اوراق البردى التى تؤرخ لحكمه .

---

(١) الاسم الذى يطلقه « اليهود » على الله « رب الجنود » .

انفراد جالينوس بالحكم :

استمر جالينوس بن فاليريان يحكم منفردا وسط الفتن والاضطرابات والغارات المستمرة من قبائل الفرنجة والقوط والجرمان التى راحت تعيث فى الولايات الرومانية فسادا بينما كانت الهزيمة العسكرية تعكس التدهور الاقتصادى والاجتماعى الذى تردت فيه الامبراطورية بسائر أجزائها .

٢٦٢ م – مصر تنادى بالحاكم الرومانى امبراطورا :

لم يكن من الطبيعى ان لا تأخذ مصر بنصيبها من هذه الاحداث التى كان لا يكاد يمضى فيها عام دون المناداة هنا أو هناك بامبراطور جديد فاعترفت باديء ذى بدء بالامبراطور الذى نادت به سوريا وهو مقرنيبوس وابنه فلما أن قتلا – أعلن شعب الاسكندرية الحاكم الرومانى ايليانوس امبراطورا فاستجاب لهم وارتدى الطيلسان الامبراطورى .

وقد أظهر حزما فائقا فى سياسة البلاد وأراح منطقة طيبة من غارات البدو ومنع الخراج عن روما .

على أن جاليوس ارسل « تيودوسوس » احد قواده الى مصر وتمكن من هزيمة أيليانوس والقى عليه القبض وسيق الى روما حيث قتل فيها خنقا .. بينما عادت مصر الى حظيرة الامبراطورية الرومانية .

وقد عانت الاسكندرية الكثير من خلال هذه الأحداث فقد دمرت فيها أحياء باكملها تماما ومات من سكانها العدد الكبير ، حتى قيل انها فقدت نحو ثلثى سكانها .

٢٦٢ م وفاة ديونسيوس :

توفى ديونسيوس بابا الاسكندرية وهو الذى يلقبه أوسابيوس مؤرخ الكنيسة المسيحية بانه : « أسقف الاسكندرية العظيم » .

ويسميه اثناسيوس « معلم الارثوذكسية » .

وهو أول بابا جمع البابوية الى رئاسة المدرسة اللاهوتية اذ لا يعرف لها رئيس فى عهده .

وقد رعى شعبه تسعة عشر عاما وتسعة أشهر سجن فيها ونفى اكثر من مرة فى عهد ديسياس وفاليريان فكان المكان الذى ينفى اليه يتحول الى مركز اشعاع جديد للمسيحية . ووصل نفوذه الى حد ان كهنة روما عندما اختلفوا حول من ينصبونه اسقفا على روما ، أرسل اليه الطرفان المتنازعان يحكمونه فيما شجر بينهم من خلاف فأفتى بما يجب ان يجرى عليه العمل لحفظ وحدة الكنيسة وقد كانت وحدة الكنيسة هى محور نشاطه الدائم ، بحيث عالج كل المشاكل التى عرضت عليه بغرض المحافظة على هذه الوحدة فأفتى بقبول الساقطين (الذين جحدوا المسيح تحت العذاب أو خوفا منه) وأعادة تعميد المهرطقين .

وتصدى لكل بدعة جديدة فى الكنيسة حرصا على هذه الوحدة ، وكان آخر ما تصدى له من بدع من وجهة نظر المسيحية المصرية هو ما قال به بولس الساموساطى وقد كان بطريركا على الكرسى الانطاكى الذي يلى في الشهرة كرسى الاسكندرية .

وكان يقول ان ابن الله لم يكن من الأزل ، بل ولد انسانا حلت فيه حكمة الله وحكمته عندما ولد من العذراء . وان هذه الحكمة الالهية هى التى مكنته من ان يعلم ويعمل العجائب . وقد فارقته حين أمسكه اليهود ليصلبوه وسبب هذا الذى حدث من اتحاد القوة الالهية بالانسان يسوع ، قبل ان المسيح هو الله ولكن ذلك مجاز لا حقيقة .

ثم قال : انه يوجد اله واحد هو الذى تدعوه الكتب المقدسة بالآب . وان كلمته وحكمته ليست اقنوما بل انها الكيان الالهى بمقام الفهم فى العقل الانسانى .

ومن اجل مناقشة هذا المبدا دعى مجمع القساوسة للانعقاد فى مدينة انطاكية ولكن الشيخوخة حالت بين ديونسيوس وبين الذهاب بنفسه فاكتفى بارسال رسالة الى المجمع كانت هى السند الذى اعتمد عليه المجمع لتجريد الساموساطى من درجة الكهنة .

ولديونسيوس عدة رسائل شهيرة ، وان القارىء الحديث المثقف ليستمع وهو يطالع الحجج التى ساقها ديونسيوس لنفى نسبة سفر الرؤيا فى الكتاب المقدس الى يوحنا الرسول ، كما أوردها يوسابيوس على لسان ديونسيوس ، حيث يراه يستعمل أساليب التمحيص العلمى كما نستعمله فى الوقت الحاضر .

الأنبا ماكسيموس :

وخلف ديونسيوس الأنبا ماكسيموس وهو قس متـــهود له بأنه تحمل الاضطهاد ، الذى شنه الامبراطور دسيوس على المسيحيين ، بصبر عجيب وبهدوء ورضا ، فذكر الشعب والاكليروس له هذا الاحتمال ، وانتخباه ليكون الخليفة الخامس عشر القديس مرقص .

والانبا ماكسيموس هو بدوره احد تلامذة اوريجانوس ، وقد برع فى الفلسفة براعته فى العلوم المسيحية . حتى انه كان من حقه ان يرتدى ثوب الفلسفة فجمع لأول مرة فى تاريخ البطاركة المصريين ، بين الفلسفتين المسيحية والوثنية .

وكان من حسن طالعه ان استتب السلام بين المسيحيين فى أيامه فخمدت ريح الاضطهاد .

٢٦٤ م ــ ظهور دولة تدمر :

بدات دولة تدمر فى الظهور على مسرح الشرق العربى باعتبارها قوة عسكرية وسياسية تؤثر على كل ما يجاورها . ففى هذه السنة منح جالنيوس بموافقة

السناتو ادوناثوس (اذينة كما يسميه العرب) أمير تدمر وقائد قوات الشرق ، لقب قيصر واغسطس وكل القاب الشرف متخذا منه شريكا له في الامبراطورية بعد ما حققه من انتصارات بجهوده الذاتية ، اذ استطاع أن يؤلف بجهوده الذاتية جيشا من العرب والبدو المحيطين به ، وأن يهزم جيشا فارسيا أغار على سوريا ، بل واستطاع أن يتعقب جيش سابور حتى نهر الدجلة ، بل قيل أنه عبر النهر ، وهكذا اصيب سابور على يده بهزيمة منكرة ، فحمل ذلك جالنيوس على أن يعينه قائدا عاما لقوات الشرق ولما اندمج في دحر قوات احد من اعلنوا انفسهم اباطرة وهو مقرنيوس ومن بعده بالستا ، كافأة جالنيوس باشراكه معه في الحكم كما قدمنا .

وامارة تدمر التى تزعمها ادوناثوس تقع في الصحراء التى تفصل بين سوريا ودولة بابل ، وكان محور نشاطها طوال القرون الثلاثة الأولى من حياة الامبراطورية نقل التجارة بين الشرق الأقصى وبابل من ناحية وسواحل سوريا من ناحية اخرى . وكثيرا ما تعاون تجار تدمر مع الاسكندرية في التجارة الشرقية ، يشهد على ذلك عدد من النقوش ، التى تثبت وجود تجار تدمر في مدينة قفط بصعيد مصر .

وكانت امارة تدمر قد دخلت تحت سلطان روما منذ عصر مبكر ايام ثيبريوس ، ولكنها عوملت معاملة ودية . وتمتعت بنوع من الاستقلال الداخلى ، واستطاعت أن تستفيد كثيرا من النشاط التجارى في الامبراطورية الذى كانت تتزعمه الاسكندرية .

ووصل الأمر بها في عهد اميرها أدبناقوس الى القيام بهذا الدور الذى فصلناه فلما أن مات ادبناقوس خلفه ابنه « وهب اللات » ولكن امه زنوبيا (الزباء كما يسميها العرب) ، سيطرت على ولدها وعلى الدولة معا واصبحت هي مصدر السلطات .

٢٦٧ م ـ ملكة الشرق زنوبيا :

أعلنت زنوبيا استقلال مملكة تدمر تحت سلطان ابنها الرسمى وسلطانها الفعلى واطلقت على نفسها لقب ملكة الشرق ، ولبست تاجا على مفرقها ، وبسطت نفوذها على كل الولايات التى تحيط بها ، ورنت بعينها الى مصر معلنة عن نفسها انها سلالة كليوباترا وانها وريثة هذه الملكة الفذة .

ويصف المؤرخون المعاصرون زنوبيا بأنها كانت سمراء هيفاء ذات اسنان لؤلؤية ، وعيون نجلاء وكان صوتها قويا وموسيقيا في نفس الوقت ، وكانت تجيد التكلم باليونانية والسريانية والمصرية ، وتفهم اللاتينية ، وكانت محبة للدراسات الأدبية والعلمية . وتحب في نفس الوقت الرياضة العنيفة فكانت تصحب زوجها في رحلات صيد الأسود والنمور وغيرها من الحيوانات الضارية . ويعزو الكثيرون نجاح زوجها في معاركه الحربية الى خططها ومشورتها . والى جوار هذه المواهب العالية ، كانت تتمتع بعفاف نادر على من كان في مثل مركزها .

٢٦٨ م ـ موت جالنيوس :

قتل الامبراطور جالنيوس فى احدى المعارك فى اقليم اللريا ، وقد ورد اسمه فى بعض الروايات المصرية ، كما جاء فى بعض النقوش الاغريقية .

الامبراطور كلوديوس الثانى :

نادى قتلة جالنيوس بقائد احد الجيوش الرومانية وهو كلوديوس الثانى ليكون امبراطورا ، ويبدو انهم احسنوا الاختيار ليكون شفيعا لهم عند قتل جالنيوس . ذلك انه يتولى هذا الامبراطور العرش انتهت فترة الفوضى التى اغرقت الامبراطورية فى خضم من الفتن والحروب والثورات ، وبدأت هذه السلسلة من الاباطرة الليريين الذين اعادوا الاستقرار الى الامبراطورية .

٢٦٩ م ـ زنوبيا فى مصر :

استجابت الملكة زنوبيا لدعوة قائد مصرى يدعى تيموجنيس للتعاون معه تحرير البلاد من الرومان فارسلت جيشا من سبعين ألف مقاتل تحت قيادة زايدة ـ وقد تم النصر لهذا الجيش بمساعدة تيموجنيس على الجيوش الرومانية ، ولكن لم يكد الجيش التدمرى ينسحب تاركا وراءه حامية قليلة العدد حتى عاد القائد الرومانى للهجوم ودحر الحامية التدمرية فعاد زايدة ليتعاون مع تيموجنيس ، وقد استطاع القائد الرومانى فى بادىء الأمر أن يهزم الجيش الجديد ، ولكنه عندما حاول أن يقطع خط الرجعة على الجيش المنهزم عند بابليون ، ظهرت كفاءة تيموجنيس وتفوقه فى معرفة الأرض ، فحصل على انتصار باهر على الجيوش الرومانية ، جعل القائد الرومانى ينتحر .

وقد ظل سلطان روما طوال مدة حكم كلوديوس الثانى لا يتجاوز اسوار مدينة الاسكندرية .

وقد تحالف عرب تدمر مع عرب مصر وقبائل البدو (البليمى) باعتبارهم من أصل واحد وحكموا صعيد مصر ثم الدلتا وجزءا من الاسكندرية .

٢٧٠ م ـ الامبراطور اوريليانوس :

ولى العرش أوريليانوس بعد أن ماتت كلوديوس بالطاعون ، واذ كان أوريليانوس هو مساعده ومواطنه فقد نادت به الفرق البلقانية امبراطورا ويقال أن كلوديوس هو الذى رشحه قبل موته .

واوريليانوس يحمل فى التاريخ الرومانى لقب « منظم الدنيا » ذلك انه استطاع ان يخمد كل الثورات ، ويرد كل الحملات والغارات التى كانت تهدد روما ، وانشأ حول روما سورا ليحميها من غارات المتبربرين وقد رأى بثاقب بفكره ، ليستطيع التفرغ لرد عادية القبائل المتبربرة من قوط وفرنجة وغيرهم ، أن يتفاهم مع زنوبيا فى الشرق . فجعل ابنها شريكا له فى الحكم وصدرت العملة فى الاسكندرية تحمل صورة الامبراطورين اوريليانوس على احد وجهى العملة ووهب اللات على الوجه الآخر .

٢٧٠ م ــ موت افلاطونين :

وفى هذه السنة مات افلاطونين آخر فلاسفة الوثنيين العظام والمسيحى بغير مسيح ــ والذى قبلت المسيحية كل سطر من سطوره تقريبا . والمطالع لكتب القديس اوغسطس يراه كثيرا ما يردد فى نشوة صفحات من هذا الصوفى الجليل .

وقد كان افلاطونين كما قدمنا زميلا وصديقا لاوريجانوس ، وقد حدث أن حضر اوريجانوس فى روما احدى محاضرات افلاطونين فاحمر وجه افلاطونين وختم محاضراته بقوله : « أن تحمس المحاضر يزول حين يحس أن مستمعيه لا يجدون ما يتعلمونه منه » .

وقد قام تلميذه الفيلسوف برفيرى بترتيب رسائله الاربع والخمسين « الانباءوات » فى تسع مجموعات .

ميلاد اريوس :

على أن افلاطونين لم يمت الا وكان اريوس يولد ، وهو المسيحى الذى سيكون مقدرا له أن يلعب اكبر دور فى حياة المسيحية فى القرن الرابع ، متأثرا بالفلسفة الاغريقية كما يمثلها افلاطونين والفلسفة المسيحية كما يمثلها اوريجانوس .

٢٧٠ م ــ تنسك الانبا انطونى :

فى هذه السنة على ما يقول تاريخ الكنيسة القبطية بدأ الانبا انطونى تزهده ونسكه ، فقد صادف ان دخل الكنيسة والقارىء يتلو قول السيد المسيح « ان اردت ان تكون كاملا فاذهب بع كل ما لك ووزعه على الفقراء ثم اتبعنى » فأحس بان هذا الامر موجه اليه فغادر الى بيته ثم وزع امواله .. وذهب الى خارج المدينة مبتدئا هذه الحياة من النسك والرهبانية التى سيكون مقدرا لها أن تطبع العالم المسيحى فى العصور الوسطى كلها .

٢٧١ م — قررت زنوبيا ان تعلن استقلالها نهائيا عن روما فقررت أسقاط اسم الامبراطور أوريليانوس وصكت العملة فى الاسكندرية وهى تحمل صورتى زنوبيا وابنها وهب اللات .

فكان ان نشبت الحرب بين أوريليانوس وبين زنوبيا . وقد استطاع بروديوس ان يستولى على الاسكندرية ، ولكن بقية مصر ظلت خارج سلطان الرومان تحت قيادة زعيم مصرى يدعى فيرموس كان يعمل بالتعاون مع القبائل العربية المصرية وبقايا الجيش التدمرى .. فاستطاع أن يظل مسيطرا على مصر العليا ويهدد الاسكندرية .

٢٧٢ م — انتصر أوريليانوس على الملكة زنوبيا بعد سلسلة من المعارك ووقعت فى يده أسيرة ، واعفى مدينة تدمر وسكانها من التدمير ، ولكنه لم يكد يتجه صوب روما مصطحبا معه أسيرته زنوبيا حتى عادت تدمر للثورة وقتلت الحامية الرومانية التى تركها خلفه ، فعاد أوريليانوس من جديد الى تدمر وفى هذه المرة انتقم منها شر انتقام بحيث دمرها عن آخرها واعادها من جديد لتكون احدى قرى الصحراء وهى التى كانت احدى عواصم الشرق . ولم يكد الامبراطور يفرغ من اخماد ثورة تدمر نهائيا حتى كان فيرموس فى مصر قد استطاع أن يشعل نار الثورة فى الاسكندرية نفسها .

واسرع أوريليانوس الى مصر بجيوشه ، وضيق الخناق على الثوار فى الاسكندرية حتى حاصرهم فى حى البروخيون ، ولم يسلم سكان الحى الا بعد أن دمر الحى الذى كان يضم اهم مبانى المدينة تدميرا .

وعاد اوريليانوس الى روما ، فى موكب نصر لم تشهده روما منذ اجيال ، وتجرعت زنوبيا المصير الذى فزعت منه كليوبترا من قبل وآثرت الانتحار ، فسارت فى موكب نصر مقيدة بالسلاسل الذهبية .

بروبوس فى مصر :

وبينما كان اوريليانوس يحتفل بانتصاره فى روما ، كان واليه على مصر القائد بروبوس يمضى فى اخضاع مصر العليا لسلطان روما ، واستطاع أن ينتصر على قبائل البدو (البليمى) على ان بروبوس لم يكن مجرد قائد عسكرى ، بل كان فى نفس الوقت اداريا حازما ، وقد راعه سوء الاحوال فى مصر حيث ردمت الترع وانهدمت القناطر وخربت المعابد فأمر جنود الجيش باصلاح ذلك كله . وراحوا يعملون فى تطهير الترع ، واصلاح ما فسد من المرافق العامة .

٢٧٤ م — وفاة الانبا مكسيموس :

مات الانبا مكسيموس بعد ان جلس على كرسى الكرازة المرقسية اثنى عشر عاما وسبعة اشهر . ومما يؤسف له أن مؤلفات الانبا مكسيموس لم يبق منها سوى

بعض الشذرات . على ان ما اشتهر به من قداســة ومداومة على التعليم ، جعلته شعبه يجله مدى الحياة وبعد مماته .

وقد عم السلام المسيحيين فى ايامه فلم يعانوا اضطهادا فزاد عددهم وتضاعف .

الانبا ثيئوناس :

وانتخب الشعب والاكليروس خليفة له الانبا ثيئوناس . وقد كان مقدرا لهذا البابا الجديد ان يكون هو البانى لثانى كنيسة فى الاسكندرية بعد الكنيسة المرقسية ولم يكن المسيحيون — على تزايد عددهم — قد استطاعوا ان يبنوا كنيسة بعد أن شادوا الكنيسة المرقسية وذلك بسبب الاضطهادات . فكانوا خلال هذه المدة التى تناهز الفترتين يجتمعون فى بيوتهم الخاصة أو فى المقابر وكان الغرض الذى يهدفون اليه من اجتماعهم حول المقابر هو ان يعلنوا للوثنيين أن الصلة بينهم وبين من انتقلوا الى عالم الروح باقية لم تنقطع — فلما ان مــرت اثنتا عشرة سنة لم يقع خــلالها اضطهاد استطاع الانبا ثيئوناس ان يبنى الكنيسة وان يطلق عليها اسم الســيدة العذراء . وكانت الصلاة فى كنيسة العذراء كغيرها من الكنائس تتم حتى ذلك الوقت باللغة اليونانية الى أن افترق القبط عن اليونانيين وصاروا يصلون باللغة المصرية .

٢٧٥ م — موت الامبراطور اوريليانوس :

قتل بعض الضباط الامبراطور أوريليانوس وهو يعد العدة لغزو الفرس .

وعلى الرغم من ان اوريليانوس جاء الى مصر وقضى على حركة الانفصال وما قام من كوارث ، فلا نجــد له أى ذكر على الاثار ، وليس ســوى اسمه يرد من حين لآخــر فى بعض البرديات .

وقد ابى اوريليانوس الا أن يؤكد مركز مدينة الاسكندرية الاقتصادى الممتاز ، فقد اصدر امره بحظر صك النقود فى سائر الولايات الرومانية وذلك لاصلاح العملة ، ولكنه استثنى من هذا القرار مدينة الاسكندرية ، عاصمة الامبراطورية الرومانية التجــــارية .

الامبراطور تاستيتوس :

فوض القواد الحربيون لمجلس الشيوخ أن يختار الامبراطور الجديد ، فانتخب السناتو احد اعضائه وهو كلوديوس تاستيتوس البالغ من العمر الخامسة والسبعين . على أن الجنود لم يلبثوا أن قتلوه بعد ستة اشهر ، ولما حاول اخوه فلوريانوس ان يكون امبراطورا من بعده قتله الجند كذلك .

٢٧٦ م – مصر تنـادى ببرويوس امبراطورا :

نادت فرق الجيش الرومانى المصرية ببرويوس والى مصر امبراطورا وتابعتها فرق سوريا ، ثم فرق ايطاليا ، فذهب برويوس الى رومـا حيث نادى به مجلس الشيـوخ امبراطورا .

وقام بسلسلة من المعارك ضد هجمات الجرمان القوط والدندال .

وراح يطبق الأسلوب الذى بداه فى مصر وهو أن يكلف الجنود أثناء توقف المعارك بتجفيف المستنقعات وغرس الكروم وغير ذلك من الاشغال العامة .

٢٨٩ م – استعادت قبائل بدو البليمى سيطرتها على مصر العليا واحتلت مدينتى قفط وبطليموس فقدم برويوس الى مصر : وحارب قبائل البليمى ودحرهم ونكل بهم ، ثم عاد الى روما فى موكب نصر كبير باعتباره قد قام بعمل عظيم .

٢٨٠ م – عهد برويوس بولاية مصر الى القـائد سائورنينوس الذى دخـل الاسكندرية بجيش كبير فما كاد الشعب الاسكندرى يراه حتى خلع عليـه لقب اغسطس باعتباره امبراطورا ، فأنكر سائورنينوس ذلك عليهم وغادر الاسـكندرية الى فلسطين ، ومع ذلك فقد ظل فى خوف من أن يحاسبه برويوس على هذه الفعلة ، فانتهى بأن أعلن نفسه امبراطورا بالفعل . وارتدى طيلسان الاباطرة ، ولكن جنوده لم يلبثوا أن خذلوه وقبض عليـه وقتل .

٢٨٢ م – مقتل الامبراطور برويوس :

قتل الجند الامبراطور برويوس – ويرد اسمه فى بعض البرديات المصرية .

٢٨٤/٢٨٢ م – فترة من الفوضى :

انقضى العامان التاليان على مقتل برويوس فيما يشـبه الفوضى : حيث تولى الامبراطورية اوريليوس كاروس الذى كان قائدا للحـرس الامبراطورى فى عهـد أوريليانوس ثم لم يلبث أن قتل ، وقتل ابنه نوميرانوس من بعده شريكه فى الملك ، ثم حاول الابنه الثانى كاريتوس أن يحتفظ بالغرب امام دقلديانوس الضابط الذى اختاره جيش الشرق امبراطورا ، ولكن رجال جيشه قتلوه .

وقد أشار اسكندر صيفى فى كتابه الى أنه توجد بعض النقود التى ضربت فى الاسكندرية باسم كاروس وولديه نوميرانوس وكارينوس من بعده .

ولا يحتاج الامر الى كبير عناء لكى ندرك كيف أن احوال مصر الاقتصادية كانت

قد بلغت من التدهور حدا من السوء غير المتصور ، بعد هذه الثورات المتلاحقة التي اشتعلت في الاسكندرية وما ترتب عليها من خراب ودمار . وقد ادت الاضطرابات والفوضى الى تدهور النظام الادارى .. فى الوقت الذى تضاعفت فيه الضرائب ، حتى اضطر الكثيرون الى الهروب من مزارعهم وقراهم ليحيوا حياة التسول والتشرد ، ولدينا بردية من الفيوم تشير الى أن سدس الارض الخاضعة للضرائب قد أصبح بورا .

٢٨٤ م ـ الامبراطور دقلديانوس :

نصب أوريليوس فاليروس دقلديانوس امبراطورا فى شهر نوفمبر من هذه السنة ، وهو سليل أسرة الليرية رقيقة الحال ولكنه استطاع بجده ونشاطه أن يرقى سلم الرتب العسكرية حتى أصبح قائدا لحرس القصر . وكان اكثر دراية بالشئون الادارية منه بالشئون الحربية .

وقد اعتبره معاصروه كما يعتبره المؤرخون حتى الآن ثالث ثلاثة من أعظم اباطرة الرومان . فقد استطاع ان يخرج بالامبراطورية من بحر الفوضى الذى غرقت فيه ، وان يوقفها من جديد على قدميها ، وأن يمد فى عمرها ثلاثة قرون أخرى وذلك باعادة تنظيم الامبراطورية اداريا وسياسيا وعسكريا ، واقتصاديا ، حتى ليعتبر انه اول من طبق فى روما اشتراكية الدولة فأحيا نظم الاقتصاد الحر الذى سارت عليه حتى عهده .

٢٨٥ م ـ وفاة الانبا ثيئوناس :

عندما دنت ساعة الانبا ثيئوناس بعد ان ظل راعيا لشعبه تسع سنوات وتسعة شهور التف حوله بعض اخصائه باكين . وقائلين له « هل تتركنا يتامى يا أبانا المبجل» فابتسم فى دعة واشار بيده الى قسيس كان حاضرا وقال لهم « هذا ابوكم الذى يرعاكم من بعدى » .

فلما أن مات الانبا ثيئوناس اختار الشعب والاكليروس القسيس الذى أوصى عليه وهو بطرس ليكون الخليفة السابع عشر للقديس مرقص .

الانبا بطرس الشهيد :

ولد الانبا بطرس من أبوين تقيين بعد رؤية رأتها أمه فى النوم وجاء ميلاده مصداقا لهذه الرؤية التى بشرتها بأنه سيكون أبا لشعب عظيم وقد اسمته بطرس تيمنا باسم بطرس الرسول الذى جاءها فى الرؤية .

ولما بلغ من العمر اثنى عشر عاما رسم شماسا ثم قسيسا واشتهر بتعمقه فى العلوم اللاهوتية والدينية مما أهله لان يعين مديرا لمدرسة الاسكندرية اللاهوتية وان

ينال لقب « المعلم البارع فى الدين المسيحى » وينسب اليه تاريخ الكنيسة القدرة على اجراء الآيات والعجائب .

وفى عهد أيوته ، بدأ آريوس الذى سيقدر له ان يلعب دورا كبيرا فى القرن الرابع ، نشــاطه وتعاليمه .

تقسيم الامبراطورية الرباعى :

٢٨٦ م ــ شرع دقلديانوس فى وضع الخطط لاعادة تنظيم الامبراطورية الرومانية والنهوض بها فرأى أن يقتسم الســلطة مع شريك آخر ليتفرغ كل منهما للدفاع عن أحد أقسام الامبراطورية ، فاختار احــد القواد الممتازين وهو ماكسيميانوس ليشاركه أعباء الملك وكان رجلا خشنا غير مثقف ولكنه كان قائدا بارعا . وحمل دقلديانوس لقب (جوفيوس) نسبة الى جويتير معلنا بذلك قداسته والوهيته ، بينما حمل شريكه لقبا أكثر تواضعا وهو هرقل ــ وجعل دقلديانوس مقر اقامته فى مدينة نيقوميديا فاتخذ منها قاعدة لحكمه واعد بها بلاطا على الطريقة الشرقية ، بينما أقام ماكسـيميانوس فى مدينة ميلان ليكون بمقدرته الدفاع عن الحدود الشمالية .

وهكذا بدأت روما تتضاءل اهميتها من الناحية الفعلية بعــد أن انتقل مركز الحكم منها ، وأن ظلت بها كل مظاهرها القديمة .

وكان لهذه الخطوة أعظم الاثر فى رفع نفوذ أسقف روما المسيحى ، وسيظل هذا النفوذ يتضاعف ويتزايد حتى يكون هو الوارث الحقيقى لسلطان الاباطرة .

٢٩٠ م ــ ولد الانبا باخوم من أبوين وثنيين والذى سيكون مقدرا له أن يضع نظــام الاديرة فى العالم المسيحى .

٢٩٣ م مضى دقلديانوس خطوة جديدة فى اقتسـام الحـكم ، فاختار مساعدا له فى الحكم وخليفة له من بعده يسمى جاليروس ومنحه لقب قيصر وزوجه ابنته ، وعهد اليه بحكم ولايات الدانوب ، كما اختار ماكسـيميانوس من يدعى قسطنطيوس ليكون قيصرا وخليفة له من بعده ورغبه فى تدعيم الصلة بين الرجلين فقــد طلب دقلديانوس من قسطنطيوس أن يطلق امرأته (المسـيحية) هيلانه ليتزوج من ابنة ماكسيميانوس وتعهد دقلديانوس وماكسيميانوس أن يعتزلا الحكم بعد عشرين سنة ليخلفهما من بعدهما خليفتهما وقد أراد دقلديانوس بهذا الترتيب أن يسد الطريق على حروب الوراثة ، وأن يوزع السـلطة فى الامبراطورية فى أربعة مراكز على رأس كل منها قيصر ، لتكون على اســـتعداد وتأهب للاقاة الاخطار الناشئة عن الثورات الداخلية ، أو الغزوات التى تشنها القبائل المتبربرة .

وكان كل قانون يصدره أى من الحكام الاربعة يصدر بأسمهم جميعا ويطبق فى سائر أرجاء الامبراطورية بغير حاجة الى مصادقة مجلس الشيوخ كما كان الحكام هم الذين يتولون تعيين جميع موظفى الدولة .

وقسمت الامبراطورية تقسيما جديدا الى ست وتسعين ولاية .

٢٩٥ م – مصر تعلن امبراطورا جديدا :

وكان لا بد لمصر ان تأخذ بتصيب فى هذه الترتيبات والتنظيمات وتتابع خطتها فى تحريض كل من تستطيع للخروج على سلطان روما فاعترفت بأحد الضباط الرومانيين المدعو « اخيليوس » امبراطورا . ويبدو ان هذه الحركة بلغت من القوة الى الدرجة التى اضطرت دقلديانوس ان يجىء بنفسه على راس جيش لاخماد هذه الحركة ، ومما يدل على قوة الثورة ان الاسكندرية لم تستسلم بمجرد ظهور الامبراطور وجيوشه حول اسوارها ، مما اضطره الى محاصرتها ثمانية اشهر ، على انه استطاع فى خاتمة المطاف ان يقتحم اسوارها وقبض على اخيليوس ودمر الجزء الاكبر من المدينة ويبدو ان المدينة التعسة التى عانت الكثير خلال هذه الحركات والثورات ، قد حركت عطفة دقلديانوس عليها ، فاصدر امره بالعفو عن سكانها ، وزاد على ذلك ان امر بتوزيع بعض القمح المخصص لروما على اهلها .

فى الوقت الذى حال بين جنوده وبين نهب المدينة او المساس بسكانها .

وقد كان لهذا التصرف الرحيم اعمق الاثر فى نفس شعب الاسكندرية فاقاموا له هذا العمود الشهير باسم عمود بومبى والذى اقيم بساحة معبد سيرابيس وكتبوا على قاعدته مالا يزال مقروءا حتى الآن « الى الامبراطور العظيم راحم الاسكندرية دقلديانوس المنصـــور » .

وقد حرص دقلديانوس بعد القضاء على الثورة ان يعيد تنظيم مصر بالطريقة التى اتبعها فى سائر الولايات فاعاد تقسيمها الى ثلاث ولايات . وفصل بين السلطة المدنية والعسكرية ، واصلح نظام الضرائب ليساير النظام الذى وضع للتطبيق فى الامبراطورية كلها .

ابطال حق الاسكندرية فى صك النقود :

على ان دقلديانوس اساء الى الاسكندرية اعظم اساءة بأن الغى حقها التقليدى فى صك النقود المصرية مستبدلا ذلك بالنقود الرومانية .

وهكذا وضع خاتمة لهذا الكتاب التاريخى الرابع والذى كانت النقود المصرية المضروبة فى الاسكندرية تؤلف صفحاته والذى جمعه العالم سويفا فى كتابه المسمى « نومى اجبتى امبراطورى » اى اسماء اباطرة مصر « اسكندر صيفى » .

٢٩٨ م – بدء اضطهاد المسيحيين :

امضى دقلديانوس التسعة عشر عاما الاولى من حكمه متسامحا مع المسيحيين فلم يعرض لهم بسوء ، ولكن فكرة توطيد دعائم الامبراطورية وتوحيد نظمها بدأت تسيطر على كل تفكيره ، واذ كان قد جعل من نفسه ملكا شرقيا كالبطالسة او الفراعنة

الذين كانوا يعتبرون آلهة ، فقد رأى أن في توحيد العبادة في الامبراطورية لشخصه باعتباره ممثل جوبيتر على الأرض مما يزيد في تدعيم بناء الامبراطورية وكان مساعده وخليفته جاليروس يرى أن لا توجد عقبة لتنفيذ هذا البرنامج واجتماع شعوب الامبراطورية على عبادة آلهتها القديمة وتقديس الامبراطور سوى الديانة المسيحية ، فراح يزين لدقلديانوس البطش بالمسيحيين . ولم يشأ دقلديانوس في باديء الأمر أن يبالغ في خططه وأصدر في هذه السنة مرسوما يقضي بتطهير الادارة والجيش من المسيحيين . وكان ذلك هو أول خطوات الاضطهاد .

٣٠٢ م — كان الوالي الروماني الذي يحكم مصر في هذه السنة بومبيوس .

٣٠٣ م — كان الوالي الروماني الذي يحكم مصر في فبراير من هذه السنة كولكيانوس .

الاضطهاد العام للمسيحيين :

٣٠٣ م — أصدر دقلديانوس امرا عاما باضطهاد المسيحيين ، وكانت المراسيم الأولى تقضي بهدم الكنائس المسيحية وحرق الكتب المقدسة وطرد ذوي المناصب الرفيعة من المسيحيين وحظر تحرير العبيد من المسيحيين اذا أصروا على الاعتراف بمسيحيتهم .

وقد حدث عقب صدور هذه القرارات في مدينة نقوميديا حيث كان دقلديانوس وجلربوس يقيمان ان تقدم أحد المسيحيين وكان ذا حيثية الى هذا الاعلان الامبراطوري ، فمزقه في ازدراء وتحد ووصل علم ذلك الى دقلديانوس فاستشاط غضبا (١) لهذا التحدي وحدث ان اشتعلت النار في قصره مرتين واتهم جلربوس المسيحيين بتدبير ذلك ، فأصدر دقلديانوس ثلاثة مراسيم جديدة بالاضافة الى المرسوم الاول ، وتقضي هذه المراسيم بسجن الاساقفة ثم تعذيبهم وأعدام المسيحيين اذا رفضوا انكار مسيحيتهم .

وهكذا بدأت هذه الصفحة السوداء في تاريخ دقلديانوس وان الانسان ليعجب كيف ينزلق حاكم في مثل حنكته وبصيرته التي جعلته قادرا على ايقاف تدهور الامبراطورية ، الى الحد الذي يتصدى معه لقتل المئات والالوف بعد اخضاعهم للتعذيب للعدول عن عقيدتهم .

---

(١) لم يذكر يوسابيوس القيصر اسم الرجل الذي قام بهذا العمل ولم يزد في وصف ما قام به عن انه مزق الاعلان الامبراطوري ولكن تاريخ الاقباط للاستاذ زكي شنودة ذكر ان الذي قام بهذا العمل هو القديس مارى جرجس المشهور وانه كان يدعى في الاصل جاورجيوس ، وقد بلغ رتبة قائد بجيش دقلديانوس — وانه لم يقف عند حد تمزيق اعلان الامبراطور بل ذهب اليه بنفسه واعلنه في تحد انه مسيحي ، فأمر دقلديانوس باعدامه . ويقال أن جسده نقل الى مصر على عهد الانبا غبريال البابا الثامن والستين .

ومارى جرجس هو القديس المكرم لدى كثير من الطوائف المسيحية وخاصة لدى الانجليز الذين يطلقون عليه اسم القديس جورج .

عصر الشـــهداء :

وقد لقيت مصر المسيحية من اضطهاد دقلديانوس وشركائه ما يعادل كل ما تحمله المسيحيون فى اوربا الامبراطورية ، بحيث يقول ترتليانوس : « لو أن شــهداء العالم كله وضعوا فى كفة ميزان وشهداء مصر فى الكفة الاخرى لرجحت كفة المصريين » ولذلك فلا عجب اذا كانت الكنيسة القبطية تتخذ من هذا الحادث مبــدأ لتاريخها فالتاريخ القبطى يبدأ بعصر الشهداء فنحن الآن فى السنة القبطية ١٦٨٧ ش وهى المقابلة لعام ١٩٧١ حيث ان الكنيسة القبطية تبدأ عصر الشهداء منذ ولى دقلديانوس الحكم اى عام ٢٨٤ .

ويخصص لنــا يوسابيوس القيصر عشرات من الصفحات فى وصف صــنوف الاضطهاد التى حلت بالمسيحيين فى مصر .. فالبعض منهم القوا فى النيران بعد كشط اجسادهم وجلدهم جلدا قاسيا ، والبعض تعرضوا لانواع من التعذيب تقشعر الأبدان من مجرد سماعها ، والبعض اغرقوا فى البحر والبعض قدموا رؤوسهم بشجاعة لمن قطعوها ، والبعض ماتوا تحت أيدى معذبيهم . وآخرون هلكوا جوعا ، أو صــلبوا بالطريقة المضادة لصلب المجرمين أو بطريقة بشعة حيث كانوا يسمرون على الصليب ورءوسهم منكسة الى أسفل ويتركون احياء حتى يهلكوا جوعا .

اما المسيحيون فى طيبة فمن المستحيل وصف ما حل بهم . لقد كانت اجســادهم تكشط كشطا بالمحار بدل المناجل ، وكانت النساء يوثقن من احدى القدمين ويرفعن فى الجو بماكينات خاصــة فتتعرى اجســادهن امام المشاهدين ، وكان البعض من الشـهداء يوثق بفروع الاشــجار وتقرب الفــروع الى بعضها بآلات خاصة ثم تترك الفروع لتعود الى وضعها الأصلى فتتمزق الاعضاء . ويمضى يوسابيوس على هــذه الوتيرة يحدثنا فى اسهاب عن مختلف الطرق التى عذب بومات بها المئات والالوف . ويبالغ البعض فى تعداد من استشهدوا تحت التعذيب والاضطهاد فى العالم المسيحى فيقدرونهم بمليون .. بينما يهبط البعض بهم الى ١٥٠٠ (دورانت) ولا شــك أن الحقيقة بين هذين الرقمين .

مارمينا العجائبى :

وقد حفظ تاريخ الشهداء عشرات ومئات من الذين لاقوا الموت والعذاب من اجل المسيح مستبشرين مهللين ، ومن العبث أن نثبت اقاصيص هذا الحشــد ومع ذلك فلا مناص من ذكر رجل وامرأة ممن استشهدوا فى هذه المحنة ليكونوا رمزا للمئات والألوف إمثالهم .

وأول هذين المثلين هو مارمينا العجــائبى ولد من ابوين مســيحيين وكان ابوه حاكما لمريوط ، ولكنه لم يكد يبلغ الحادية عشرة من عمره حتى كان قد فقد ابويه . فلما بلغ أشــده انتخبه الشعب ليخلف اباه فى الحكم . فلما أن اعلن دقلديانوس مراسيمه : أعلن مارمينا على رؤوس الأشهاد ايمانه المسيحى، فحاول الوالى الرومانى

ان يستميله بالوعد والوعيد ولكنه أصر على موقفه فأمر الوالى بقطع رأسه ودفنه المؤمنون فى مكان عزلته بالصحراء .

وقد أطلق عليه تاريخ الكنيسة بالعجائبى اذ نسبوا اليه أن كل من اتصل بالبقعة التى كان مدفونا فيها قد شفى ، وأن ابنة الامبراطور زينون (القرن الرابع) قد شفيت من مرض عضال بعد زيارتها لمارمينا فأصدر الامبراطور أمره ببناء كتدرائية فوق قبره كانت عند انشائها من أجمل كنائس العالم ، وقامت حولها مدينة كبيرة ازدهرت بمن وفد اليها من الحجاج .

القديسة دميانة :

ومن ناحية أخرى فان القديسة دميانة هى خير رمز للسيدات اللواتى استشهدن فى هذه المذبحة . وقد ولدت هذه القديسة من أبوين مسيحيين وكان أبوها مرقص واليا على البرلس . ولما بلغت من العمر الخامسة عشرة أراد أبواها أن يزوجاها ولكنها أعلنت رغبتها فى أن تحيا حياة البتولة فأقاما لها قصرا فى جهة الزعفران لتنفرد فيه بالعبادة ، فلحق بها فى عزلتها اربعون من العذارى اللواتى وهبن أنفسهن للرب .

فلما ان بدأت محنة المسيحيين على أيام دقلديانوس بادر أبوها باعتباره واليا فأنكر مسيحيته فتركت دميانة عزلتها وذهبت الى أبيها وقالت له « كان الأهون على أن أسمع خبر انتقالك الى دار الخلود من أن أسمع أنك أنكرت ديننا » فألهبت هذه الكلمات قلب أبيها مرقص وذهب على الفور وقابل الامبراطور دقلديانوس وجهر بندمه على ما ارتكب من اثم فأمر بقطع رأسه . ولم يلبث دقلديانوس أن وقف على السر الذى حفز مرقص على أن يتصرف بهذا الاسلوب ، فأرسل الى دميانة ومن معها فريقا من الجند وأمرهم بأن يحملوا دميانة ومن معها على انكار المسيح والا تقطع رؤوسهن . وعبثا حاول الجنود أن يثنوا دميانة ورفيقاتها ولذلك فقد أعملت السيوف فى قطع رقابهن .. وقالت دميانة قبل قطع رأسها : اننى اعترف بالسيد المسيح وعلى اسمه أموت وبه أحيا حياة الأبد . ولا تزال كنيسة الشهيدة دميانة قائمة حتى الآن بالبرارى جهة بلقاس يتجدد بناؤها كلما تقادم العهد بها .

استشهاد الأنبا بطرس :

وكان على رأس الذين استشهدوا فى هذه المحنة الأنبا بطرس بابا الاسكندرية والذى أطلق عليه اسم خاتم الشهداء . لأن دمه فيما يبدو قد كفر عن سائر شعبه اذ لم يكد يستشهد حتى توقف ريح الاضطهاد والعلامة مرقص سميكة يجعل استشهاده عام ٢٩٥ م وتتابعه على ذلك الاستاذة ايزيس حبيب فى كتابها تاريخ الكنيسة مع أن المتفق عليه أن مراسيم اضطهاد المسيحيين قد صدرت عام ٣٠٣ م ومن المتفق عليه كذلك أن الأنبا بطرس هو آخر المستشهدين واذن فلا بد أن تكون استشهاده بعد هذا التاريخ (١) .

(١) جعل الاستاذ زكى شنودة تاريخ استشهاد الأنبا بطرس عام ٣١٢ .

ويصف تاريخ الكنيسة الساعات الأخيرة للشهيد بطرس بانه عندما قبض عليه وسيق الى السجن تجمهر الشعب حول السجن يريد ان يفتدى راعيه المحبوب وخاف الانبا بطرس على شعبه فاتفق مع الجنود على ان يمهلوه حتى يهدىء من ثائرة الشعب المتجمهر . ثم خطب فى الشعب وحثه على ان يعود ادراجه فى سكينة وسلام . فرضخ الجميع لحكم غبطته وتفرقوا الى بيوتهم وأعمالهم . وعندئذ أعطى البابا السكندرى العلامة للجند فجاءوا وأخرجوه من السجن وساقوه الى مكان الاستشهاد ووجهه يسطع بنور سماوى فذهل الجنود ولم يجسر أى منهم على ان يرفع يده عليه . فأخرج الضابط المسئول خمسا وعشرين قطعة من الذهب وقال هذا الذهب لمن يجرؤ على قطع رأس هذا الشيخ . فتجاسر احد الجند وضرب عنق الأنبا بطرس بالسيف فقطع رأسه ، ثم تركوه ملقى حيث هو ومضوا فلم يلبث أن انتشر فى المدينة خبر استشهاد البابا الجليل فتجمع المؤمنون باكين ورفعوا الجسد وأخذوه إلى الكنيسة المرقصية حيث ألبسوه ثياب التقديس وأجلسوه على كرسى القديس مرقص الذى لم يجلس عليه قط فى حياته تواضعا منه .

وكان دمه آخر دم يسفك ولهذا السبب لقبته الكنيسة بخاتم الشهداء .

وقد جلس على السدة المرقصية كما تقول جداول الكنيسة عشر سنوات واحد عشر شهرا باعتباره تولى عام ٢٨٥ واستشهد عام ٢٩٥ ولكن لا بد أن تكون مدة بابوينه أطول من ذلك بالنظر الى ما قدمنا من أنه مات فى المحنة التى لم تبدأ الا عام ٣٠٣ .

الأنبا ارشيلاوس :

ولقد اختار الشعب والاكليروس بعد استشهاد بطرس الأنبا ارشيلاوس خليفة له . وكان أرشلاوس كسلفه كاهنا فمديرا لمدرسة الاسكندرية ، أشتهر بقداسته وعلمه الغزير ومعرفته بالعلوم المتعلقة بما وراء المادة ، الا انه لم يجلس على السدة المرقصية غير ستة شهور ثم توفاه الله بعدها .

الأنبا الكسندروس :

اختار الشعب والاكليروس للخلافة المرقصية قسيسا متقدما فى السن وهو الكسندروس .

وفى عهده بدأ الصراع العقائدى بين أريوس والكنيسة الارثوذكسية يأخذ مظهره العنيف الذى شطر المسيحيين والمفكرين فى القرن الرابع مما كاد ان يهدد المسيحية لولا أنها كانت قد ثبتت أقدامها نهائيا واعتبرت دين الدولة الرسمى .

٣٠٥ م ــ تنازل دقلديانوس وماكسيميانوس عن العرش :

تنازل دقلديانوس وماكسيميانوس عن العرش فى احتفالين مهيبين أقيما فى

نقوميديا وميلان واصبح جاليريوس وقسطنطينوس بعد هذا التنازل امبراطورين الأول في الشرق والثاني في الغرب .

وهكذا طويت صفحة دقلديانوس بهذا الأسلوب الذى لم يسبقه أو يلحقه مثيل من نوعه ـ فلم يكن سنه قد تجاوز الخامسة والخمسين ، ولم يفكر أحد فى خلعه واعتزل بإرادته فى قصره الكبير وضياعه الشاسعة فى سبالاتا حيث عاش ثمانية أعوام اخرى من عمره متفرغا لمزرعته .. وقد قدر له أن يشهد اخفاق حملة اضطهاده المسيحية وانهيار الحكومة الرباعية التى انشأها خلال الحرب الأهلية التى اعقبت تنازله ، وقد الح عليه مكسيمان أن يستولى على السلطة من جديد ويقضى على الشقاق والحروب ، فرد عليه ردا غريبا حفظه لنا التاريخ اذ قال له : لو انك رايت الكرنب الجيد الذى اصبحت أزرعه فى مزرعتى لما طلبت منى أن أضحى بهذه المتعة جريا وراء السلطة » .

ذلك هو دقلديانوس الذى يقف أمامه التاريخ حائرا فحيث يلعنه المسيحيون وتعتبره الكنيسة عدو المسيح أو صورة من صور الشيطان ، ويقولون عنه بأنه عمى فى اخريات حياته ، وان امرأة مسيحية راحت ترعاه تطبيقا لقول الانجليل « احبوا أعداءكم » فان معاصريه من غير المسيحيين يلقبونه « أب العصر الذهبى » والمؤرخون المحدثون يعتبرونه أحد شوامخ الامبراطورية الرومانية .

الامبراطوران جاليريوس وقسطنطيوس :

ويتنازل دقلديانوس ومكسيميانوس عن العرش أصبح جاليريوس وقسطنطيوس امبراطورين .

٣٠٦ م ـ هرب قسطنطين ابن قسطنطيوس من زوجته هيلانة المسيحية ، من قبضة جاليريوس الذى يستبقيه عنده كرهينة ، ولحق بأبيه فى بريطانيا ، فلما أن مات والده نادى به الجند امبراطورا ، فى الوقت الذى نادى فيه الحرس الامبراطورى فى روما بمن يسمى مكسنيوس امبراطورا .

ومن الصعب أن نستعرض تفاصيل المعارك التى دارت فى هذه الفترة حول مختلف الاباطرة الذين نادت بهم جنودهم ، وفرقهم ، والذين بلغ عددهم فى بعض السنوات ستة من الأباطرة الذين كان يلقب كل واحد منهم بأغسطس .

وحسبنا أن نذكر قسطنطين والذى لن يلبث أن يلقب بالاكبر ، والذى سيعتبره المسيحيون بعد قليل قديسا لأنه لم يرفع الاضطهاد عن المسيحية فحسب ، بل اصبح حاميها وراعيها . ثم اعتنقها رسميا .

استطاع قسطنطين أن يشق طريقه وأن يتغلب على منافسيه فى الملك واحدا بعد آخر بالتعاون مع ليسنيوس الذى كان قد أصبح امبراطورا فى الشرق بعد وفاة جاليريوس .

وكان الوالى الرومانى الذى يحكم مصر هو ساتريوس اريانوس .

اعتناق قسطنطين المسيحية :

٣١٢ م ـ أما الحادث الذى ادى الى اعتناق قسطنطين المسيحية ، او بالاحرى انحيازه الى جانبها ، فقد رواه لنا قسطنطين بنفسه على ما سجله فى تاريخه يوسابيوس . وهو انه ابان حربه ضد ماكسنتيوس الامبراطور الذى نادى به الحرس الامبراطورى فى روما وصل فى زحفه على أبواب روما فى ٢٨ أكتوبر عام ٣١٢ ولم يعد يفصله عنها سوى جسر ملثيا على نهر التيبر فراى فى السماء قبل المعركة صليبا من النور كتب عليه عبارة « انتصر بهذه العلامة » .

فأصدر امره لجنوده أن يرسموا الصليب على اذرعتهم وأن يجعلوه شعارا لهم . وانتصر قسطنطين وهزم خصمه وقتله ودخل روما وجيشه المدينة واصبح سيد القسم الغربى بلا منازع .

٣١٣ م ـ راى قسطنطين ان يوفى لاله المسيحيين الذى نصره فاصدر « مرسوم ميلان » الذى رد للمسيحيين أملاكهم التى صودرت ، وأعلن التسامح الدينى مع كل الأديان .

وبهذا انتهت فترة العذاب والاضطهاد الذى حاق بالمسيحيين طوال عشر سنوات حيث قد أعلن دقلديانوس مرسومه الأول بالاضطهاد عام ٣٠٣ م .

٣١٨ م ـ بدء حركة اريوس :

فى هذا العام تقدم كاهن مصرى الى الأنبا الاكسندروس بآراء عن المسيح اعتبرت غريبة جدا فى ذلك الوقت ويصف مؤرخ كاثوليكى آريوس بقوله : كان آريوس طويل القامة ، نحيل الجسد ، مكتئب المظهر ، ذا منظر تبدو فيه آثار خشونة العيش ، وكان معروفا بأنه من الزهاد ، كما يستدل على ذلك من ملبسه ـ وهو جلباب قصير من غير كمين تحت ملحفة يستخدمها عباءة . وكانت طريقته فى الحديث ظريفة وخطبه مقنعة ، وكانت العذارى اللاتى تنذرن انفسهن للدين ، وهن كثيرات فى الاسكندرية يبجلنه أعظم التبجيل ، وكان له من بين رجال الدين عدد كبير من المؤيدين (دورانت جزء ٣ مجلد ٣ ص ٣٩٢) .

أما تعاليم آريوس فتقوم على ان الآب اقدم من الابن لأن الاب خلق الابن من العدم ، فلا يمكن أن يكون الابن مساويا للآب فى الجوهر لأنه أدنى منه فى الطبيعة والمنزلة ويمضى آريوس فى بيان عقيدته فيقول : أنه يؤمن بالله واحد متعال يفوق حد التصور منطو على نفسه ، وهو من العلو بحيث لا صلة له بتاتا بأى شىء له نهاية ، وهو فريد لاشبيه له ازلى لا بداية له ـ لا يموت ـ صالح وهو وحده سبحانه منفرد بهذه الصفات . والآب قد خلق الابن خلقا ، فالابن اذن غير ازلى وهو مخلوق مثل باقى المخلوقات ولا يمتاز عنها الا بكونه خلق قبلها ، وهو ليس مساويا للآب فى

الجوهر ، بل بالعكس تتغير طبيعته مثل اى مخلوق ، وهو كاى مخلوق ايضا قادر على عمل الخير والشر ، وهو معرض للخطأ ولا يستطيع أن يحيط بكل شيء .

وعندما جاء ملء الزمان اتخذ ابن الله صورة انسان وعلم الحقيقة وهو بهذا الوصف لا يستحق أن يعبد بل ان يحترم ويعترف بجميله (١) .

وغنى عن البيان أن هذه الآراء التى تقدم بها كاهن مسيحى قد صدمت الأنبا الكسندروس صدمة عنيفة ، ذلك انها تهدم الكنيسة المسيحية من اساسها ، فالكنيسة المسيحية تقوم اول ما تقوم على تأليه المسيح ، وعلى القول بأن الله ذات مثلث الاقانيم تتمثل فى الأب والابن وروح القدس ، وهو التثليث الضارب الجذور فى ارض مصر على شتى الصور والأشكال ، وكان اشهرها واعمها ثالوث اوزوريس وايزيس وحوريس والذى انتشر فى حوض البحر الأبيض كله فى صورة ثالوث سيرابيس وايزيس وحوريس .

فالقول بعدم الوهية المسيح هو هدم لهذه العقيدة الراسخة الثابتة من أن الألوهية تتعدد شخوصها واقانيمها .

غير ان مدينة الاسكندرية وقد كانت مركز الفلسفة اليونانية ، ومستقر الثقافة والفكر العالميين ، فقد رحبت بآراء آريوس ، فسرت فيها بكل سرعة ، حتى لقد أخذت شكل الأغانى والأناشيد التى كان يترنم بها اتباع آريوس .

ولم يقف سريان المبادىء الاريوسية على عامة الشعب والمثقفين ، بل تعدتهم الى رجال الدين انفسهم ، ولذلك فقد دعا الأنبا الكسندروس مجلسا من الأساقفة المصريين حكموا بتجريد آريوس من منصب الكهنوت ، فكان هذا الاضطهاد للفكرة وقودا جديدا لانتشارها وازدياد العطف على آريوس والتحمس لمبادئه .. وهكذا بدأ هذا الصراع العقائدى ، الذى لن يلبث أن يخفى فى طياته صراعا سياسيا ، ليطبع القرنين الرابع والخامس الميلاديين

٣٢٣ م ــ وكان الوالى الرومانى الذى يحكم مصر فى هذه السنة هو سابينيانوس .

باخوم يؤسس الديرية الجماعية :

وفى هذه السنة بدأ الأنبا باخوم حياة الأديرة الجماعية على ما يرويه لنا يلاديوس الذى زار مصر .

وقد ولد باخوم عام ٢٩٠ كما ذكرنا من قبل واعتنق المسيحية اثناء وجوده فى الجيش وكان عمره عشرين سنة فلما أن سرح من الجيش اتخذ لنفسه حياة النسك والرهبنة ، التى بدأها الأنبا بولا ووسع نطاقها الأنبا انطونيوس .

(١) تاريخ الاقباط زكى شنودة ــ لابد ان القارىء المسلم يلحظ مدى ما فى هذه التعاليم من انطباق على نظرة الاسلام للمسيح .

ولكن باخوم خطا خطوة وراء ذلك وهى تحويل الرهبنة والنسك الى حياة جماع
منظمة تخضع لارشاد وتوجيه ، وتسير على قواعد محددة . وأول دير أنشأه باخ
كان بالقرب من دندرة .

٣٢٤ م ـ قسطنطين يوحد الامبراطورية تحت قيادته :

وفى هذه الأثناء كان قسطنطين قد نجح نهائيـا فى توحيـد الامبراطورية تحت
سلطانه بعد ان هزم لسيثيوس شريكه فى الحكم وامبراطور الشرق .

وكان انتصاره بمثابة نجدة جديدة للمسيحيين ، فقد كان لسيثيوس قد بدأ ص
صواعق غضبه فوق رؤوسهم لمناصرتهم لقسطنطين . وأصدر قسطنطين أوامره باع
المسيحيين المنفيين الى أوطانهم وبيوتهم ، ورد كل ما يمكن ان يكون قد أخـ
ممتلكاتهم . واعاد لهم كل الحقوق ، والامتيازات الكاملة لأى مواطن رومانى .

وعلى الرغم من أن قسطنطين كان لا يزال باعتبـاره السـيد الأعلى للامبراطو
والكاهن الأعظم للديانات القديمة يقدر واجبه كملك مسئول عن رعاياه على اختلا
عقائدهم ، فقد أعلن انه من حق أى مواطن أن يعتنق الدين الذى يريد ، وأعلن هو
نفسـه انه قد اعتنق المسيحية ودعا رعاياه لاعتناقها .

وتدور ابحاث طويلة مسهبة حول اعتناق قسطنطين للمسيحية وهل كان ذ
عن اقتناع حقيقى او عن سياسة وكياسة ، بعد أن أصبح المسيحيون يؤلفون العن
الوحيد القوى المتماسـك فى الدولة ، وأحسب أن مثل هذه التساؤلات جد عق
فالحقائق الراسخة تسجل انه حول المسيحية من دين مضـطهد الى ان يكون
الدولة . بل أن العقيدة المسيحية كما يدين بها المسيحيون اليوم ، هو من وضع المج
الذى دعا اليه وترأسـه .

٣٢٥ م ـ مجمع نيقيه :

اما هذا المجمع الذى دعا اليه قسطنطين وتراسه ليضـع دستور الايمان وي
به مجمع نيقيه ، فان قصته تبدأ عندما رفع كل من آريوس والأنبـا الكسـندر
أمر الخـلاف الناشب بينهمـا حول المسـيح الى الامبراطور قسطنطين ليقول
كلمتـه :

وتصور قسطنطين بادىء ذى بدء انه من الميسور أن يعالج هذا الموضـوع ا
بدأ له تافهـا ، او انه زجر كلا من الطرفين وانبـه وطالبـه أن يشـتغل بما هو
واجدى . فبعث برسالة الى كل منهما حيث خاطب كلا منهما باسمه المجرد . و
فى خطـابه :

منذ آل الى حكم الامبراطورية باسرها اصبح امامى هدفان : أولهما ان نه

الجميع على معـرفة الاله الحق ، وثانيهما ان اضمد الجـروح التى سـببتها
ضطهادات ولبلوغ هذين الهدفين ، وجب ان يكون السلام حليفى . وهذا ما دفعنى
ان اخمد كل اضطراب قام فى افريقيا . وكنت اعتمد فى جهادى على اساقفة الشرق
ى بزغ منه نور المسيحية . واذا بهذا الشرق يمسى مسرحا للخصام . وبعد انعام
ظر فيما هو قائم من خلاف فى الاسكندرية خرجت بنتيجة واحدة هى انى ارى فى
انيته يا الكسندروس انك خضعت مع كهنتك فى موضوع تافه لا ارى له داعيا . واما
ت يا اريوس فقد اذعت ما جال فى خاطرك من امور سخيفة كان يجب كتمانها ولم
ن تمت حاجة الى اثارة هذا المشكل امام الجماهير لانها مسـائل لا يثيرها الا من
س لديهم عمل يشغلون به انفسهم ولا يرجى منها الا ان تزيد عقول الناس حدة .
ى اعمال خليقة بالاطفال عديمى التجـربة لا برجال الدين او العقلاء من الناس .
نت اود او ازور مدينتكما ، ولكنى امتنع عن ذلك مادام الخلاف قائما بينكما ،
عقدا صلحا يسرنى ويثلج فؤادى ويفتح لى ابواب مدينتكما (قصـة الكنيسـة .
رانت) .

وخاب امل قسطنطين فى حسم النزاع بهذه الرسالة فالخلاف كان اعمق غورا
ا تصور ، وانتشر فى ارجاء الامبراطورية ، وشغل الاذهان ، وبلبل الافكار . فرأى
ـطنطين ان يحسـم ذلك كله ، فأصـدر امره بدعوة مجلس عال من اسـاقفة
نائس فى مدينة نيقية ، فاجتمع ٣١٨ اسـقفا يصحبهم حشـد كبير من رجال
ين الاقل منهم درجـة .

وجاء معظم الاساقفة من الولايات الشرقية ، لان الولايات الغربية تجاهلت هذا
دل ، واكتفى البـابا سلفستر الاول (اسقف روما) بأرسـال بعض القسلوسة
ثلوه . وقـد اصدر المجمع بعد مداولات ومناقشات ما اعتبر منذ ذلك التاريخ
ستور الايمان ، وقد قام بصياغته الانبا الكسندروس بابا الاسـكندرية وشماسه
ساعده وصاحب القدح المعلى فى هـذا المجمع وهو اثناسيوس بعد ان ضم اليهما
قف قيسارية ، وهذا هو نص دستور الايمان :

« بالحقيقة نؤمن باله واحـد الله الاب ضـابط الكل خالق السـماء والارض
يرى وما لا يرى » .

« نؤمن برب واحد يسوع والمسيح بن الله الوحيـد المولود من الاب قبل كل
هور نور من نور ، اله حق من اله حق ، مولود غير مخلوق مساو للاب فى الجوهر،
ى به كان كل شىء ، هذا الذى من اجلنا نحن البشر ومن اجل خلاصنا نزل من
سماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء ، تأنس وصلب وقام من الاموات
اليوم الثالث كما فى الكتب ، وصعد الى السموات وجلس عن يمين ابيه وسيأتى
ا فى مجده ليدين الاحياء والموتى ، وليس لملكه انقضاء » .

« نعم نؤمن بالروح القـدس » .

وقد ذيل هـذا الدستور بالحرم الآتى نصه :

« أن جميع الذين يقولون عن الابن أنه جاء عليه حين من الدهر لم يكن موجودا ، او انه لم يكن له اثر فى الوجود قبل أن يولد ، أو انه ولد من العدم ، أو انه من غير جوهر الاب ، او انه مخلوق ومعرض للتحول والتبدل فالكنيسة الجامعة الرسولية المقدسة تعلن وقوعهم تحت طائلة الحرم » .

وقد وقع جميع الاساقفة الذين حضروا المجمع هذا الدستور ماعدا ثلاثة رفضوا توقيعه فى بادىء الامر ثم لم يلبثوا أن وقعوا خوفا من غضب الامبراطور . وقرر المجمع أيضا أن تحتفل الكنائس كلها بعيد القيامة فى يوم واحد يحدده كل عام أسقف الاسكندرية على اساس قاعدة فلكية ويذيعه أسقف روما (١) .

كما بحث المجمع فى عدة قضايا أخرى خاصة بموضوع زواج الكهنة ، وقبول المرتدين من حظيرة الكنيسة من جديد .

وجاء فى أحد قراراته (القانون السادس) لتحفظ السنن القديمة التى فى مصر وليبيا ونبتابوليس أن أسقف الاسكندرية له الرياسة عليها كلها ـ وقد أيد ذلك مجمع القسطنطينية الثانى الذى عقد سنة ٣٦١ .

نفى أريوس وحرق كتبه :

وعقب انفضاض المؤتمر أصدر قسطنطين أمرا بنفى أريوس من الاسكندرية وحرق جميع الكتب التى تضمنت آراءه وعقائده ، واعدام كل من يخفى منها كتابا .

٣٢٦ م وفاة الأنبا الكسندروس :

وكانما كان الأنبا الكسندروس على موعد مع القدر ليغادر الحياة بعد أن يحقق نصره على أريوس بعد أن أقام على السدة المرقصية اثنين وعشرين عاما وعشرة أشهر .

ولكنه لم يدع الكنيسة المصرية بغير راع بعده فقد رشح للخلافة من بعده اثناسيوس رئيس الشمامسة والمتصدى بالجدل العلمى والمنطقى لآريوس .

الانبا اثناسيوس (الرسولى) :

وبتربع الانبا اثناسيوس على كرسى مرقص الرسول كانت الكنيسة المصرية تجد بطلها الأعظم ، الذى لقب بالرسولى ، باعتباره أحد حواريى المسيح ، فقد قدر له أن يقف فى وجه الاباطرة فينهزمون وينتصر .

والانبا اثناسيوس قدمته أمه الى الانبا الكسندروس عندما بلغ الخامسة عشرة من عمره ليكرس حياة لخدمة المسيح ففرح به الكسندروس وقربه من نفسه وشجعه

---

(١) جاء فى كتاب المنارة التاريخية أن عيد الفصح الذى نقيمه الان قد تليه تمام القمر الربيعى . قد أصبح يقام يوم الأحد الذى يتلو تمام هذا القمر .

على اغتراف العلم على فطاحل علماء الاسكندرية ، فتعلم القواعد النحوية والمنطق والخطابة والبلاغة ، وشعر هوميروس والفلسفة اليونانية والقانون الروماني كما عنى باستيعاب تعاليم مدرسة عين شمس المصرية القديمة ، والتعاليم التى الفها أكليمنضس واوريجانوس وتوج ذلك بأن غاص فى بحار الأسفار الالهية ثم ذهب الى الصحراء ، حيث قضى فى صحبته الأنبا انطونى ما يقرب من ثلاث سنوات تشبع فى أثنائها بكل ما لقنه اياه ذلك القديس من حكمة وقداسة .

وعندما عاد الى الاسكندرية منحه البابا رتبة الشماس . وعندما بدأت تعاليم اريوس تنتشر فى الاسكندرية لم يوافق ذلك هوى اثناسيوس ، او عقيدته ، فتصدى لدحض هده التعاليم بكل ما أوتى من ذكاء وعلم وقدرة على الجدل ، وقد كان هو الذى تولى الرد على أريوس فى مجمع نيقيه وقد سجل التاريخ الجدل الذى قام بينهما .

وعندما مات الكسندروس ، كان اثناسيوس يعيش مع أستاذه الروحى الأنبا انطونى فى الصحراء . فأجمع الشعب فى غيابه على تنصيبه بطريركا ، فذهب مندوبوهم اليه فى عزلته بالصحراء فاقتادوه الى الاسكندرية وساروا به الى الكنيسة المرقصية فدخلوها واغلقوا الأبواب وقالوا للأساقفة الذين اجتمعوا ، لن تخرجوا من هنا حتى تضعوا عليه السيد ، فأسترك جميع الاساقفة الذين كانوا موجودين فى الاسكندرية وكان عددهم (٥٠) فى تنصيبه بابا للاسكندرية وسط التهليل والتعظيم .

٣٣٠ م ـ اتخاذ القسطنطينية عاصمة للامبراطورية :

اعلن قسطنطين مدينته الجديدة التى انشأها على البوسفور واطلق عليها اسم روما الجديدة . عاصمة للامبراطورية وكان قد اختار اطلال مدينة بيزنطة القديمة لتكون نواة لمدينته الجديدة ، التى عقد عزمه على جعلها من الضخامة والعظمة بحيث تكتسف نورها كل المدن التى اشتهرت من قبلها . فحشد لها كل الامكانيات والطاقات الفنية لتخطيطها ثم تشييد قصورها ، ومبانيها العامة وتنظيم ساحاتها وطرقاتها ، حتى اذا فرغ من بنائها . ضم كل ما فى الامبراطورية من علماء وفنانين ، مبتدئا بذلك هذا العصر الجديد الذى عرف فى التاريخ باسم العصر البيزنطى والذى يتألف من مزيج من حياة وتقاليد وعلوم ومعارف وصنائع وتراث مصر والاغريق والشرق بصفة عامة مع الرومان واللاتين .

وقد اراد قسطنطين أن يزين مدينته الجديدة باروع الآثار المصرية ممثلا فى مسلتها فنقل واحدة منها ، ثم جلب مسلة اخرى من هليوبوليس للاسكندرية لينقلها الى العاصمة ايضا ، ولكنه توفى قبل ان يفعل ، فنقلها ابنه فيما بعد الى روما .

كما نقل قسطنطين من مصر مقياس النيل ووضعه باحدى الكنائس كشىء مقدس .

واستحضر الامبراطور من الاسكندرية خمسين نسخة من الانجيل مكتوبة على رق ، لاستعمال كنائس القسطنطينية .

تلكم هى المدينة التى اطلق عليها فيما بعـد اسـم مؤسسها فأصبحت تدعى القسطنطينية ، والتى كان مقدرا لها ان نقرب نهاية سقوط روما فى يد المتبربرين ، وان تاقى ظلا على مدينة الاسكندرية عاصمة الامبراطورية الرومانيـة التجارية والاقتصادية .. وان يبدأ الصراع والتنافس بين المدينتين .

٣٢٥ م ـ مجمع صـور :

كان النصر الذى احرزته الكنيسة المصرية فى مجمع نيقية مصدر قلق للامبراطور قسطنطين . الذى كانت مسيحيته الجديدة لا تقلل من تشبثه بالسلطان المطلق . ولذلك فلم يكداريوس يقدم له التماسا يعلن فيه التوبة حتى تقبله بقبول حسن ، وبعث الى اثناسيوس يطلب منه اعادة اريوس الى حظيرة الكنيسة ، وكانت مفاجأة الامبراطور قسطنطين عظيمة . عندما رفض اثناسيوس تلبية أمر الامبراطور ورد عليه قائلا : أن من يحرمه مجمع مسكونى لا يحله من الحرم الا مجمع مسكونى آخر ، لان من يملك سلطان العقد هو وحده الذى يملك سلطان الحل .

وثارت ثائرة قسطنطين على اثناسيوس وانتهز اعـدؤه هذه الفرصـة ليدسوا له عند الامبراطور . ويصـوروا هـذا الخـلاف العقـائدى على انه فى حقيقته تمرد على السـلطة .

واراد قسطنطين ان يحسم القضية فدعا الى عقد مجمع جديد فى صور لمحاكمة اثناسيوس نفسـه ، حيث كيلت له التهم ليس فقط بالنسـبة لموقفه من اريوس والامبراطور ، بل ولاستخدامه القوة فى معاملة اتباع الاسـاقفة الذين يخالفونه فى الرأى . وفرضه الضرائب التى هى من حق الامبراطور وحده . بل وتدخله فى تعطيل ابحار القمح المصرى الذى كان يرسل الى القسطنطينية كل عام .

ووصلت التهم الى حد القول انه كان ينتوى تزعم ثورة ضد الامبراطور فى مصر يقودها شخص يدعى فيلدمنيوس ، وان كانت قد قضى عليها فى المهد .

وبناء على هذه الاتهامات (التى يعتبرها تاريخ الكنيسـة المصرية ملفقة كلها) قرر مجمع صور عزل اثناسيوس من منصبه ، وأصدر الامبراطور بناء على ذلك أمره بنفى اثناسيوس من مصر ، ليقيم فى بلاد الغال (فرنسا) .

٣٣٦ م ـ وفاة أريوس :

واذ خلا الجو بعزل اثناسيوس ونفيـه ، فقـد طلب الامبراطـور من اسقف القسطنطينية ان يقبل آريوس من جديد فى العشاء الربانى .

ويقول انا سقراط المؤرخ الكنسى :

كان ذلك يوم السبت . وكان اريوس يتوقع ان يجتمع فى اليوم الذى يليه . ولكن القصاص الالهى عاجله فأحبط عمله الاجرامى الجرىء . وذلك انه عندما خرج من القصر واقترب من العمود السماقى المقام فى سوق القسطنطينية . تملكه الرعب واصيب بإسهال شديد خرجت فيه أمعاؤه من بطنه واعقبه نزيف حاد ونزلت امعاؤه الدقاق، ومما زاد الطين بلة : أن طحاله وكبده انفصلا من حده النزيف ومات لساعته.

وغنى عن البيان ان فى هذا التصوير كثيرا من المبالغة والخلط . ولكن الذى لاجدال فيه ان مصادفة موته عشية اليوم الذى كان سيشهد انتصاره قد هز خصومه واتباعه على السواء ، فأعتبره الاولون آية ربانية على زيفه وضلاله .. وتوقف الآخيرون ليسائلوا انفسهم عن تفسير هذه المصادفة الكئيبة .

ولكن هذا الحادث فيما يبدو لم يغير من عقيده قسطنطين . ذلك انه عندما اراد ان يعمد فى العام التالى لوفاة اريوس . تلقى مراسيم العماد على يد واحد من اتباع اريوس وهو يوسبيوس أسقف نوموميديا .

٣٣٧ م – وفاة قسطنطين :

وأخيرا مات قسطنطين بعد ان احتفل بمرور ثلاثين عاما على حكمه . ولما عتبه مرض الموت استدعى الاسقف يوسبيوس ليجرى له مراسيم التعميد القدسى رجاء ان يطهره مما كان يضغط على ضميره من احساس بالاثم والخطيئة . وهذا الملك العظيم الذى أمد الدولة الرومانية بحياة جديدة من خلال اعتناق المسيحية . قدر له فى اخريات حياته ان يقتل ابنه كرسبس الذى رزقه من زوجته الاولى . تحت تأثير زوجته الثانية « فادستا » التى اتهمت كرسبس بأنه راودها عن نفسها . ولم يلبث قسطنطين بعد قتل ولده ان اكتشف براءته وكذب فادستا التى ضبطت متورطة فى علاقات آثمة ، فقتلها قسطنين بدورها .

كما سجل له التاريخ أعدام الكثيرين لغير علة مفهومة . وينسب له المؤرخون أنه كان اول من قسم الامبراطورية بين اولاده ضاربا بذلك اكبر معول فى هدم وحدتها .

ولكن الحقيقة المؤكدة ان قسطنطين قد وهب الامبراطورية الهرمة مائة وخمسين عاما جديدة ، وربط بينها وبين دين فتى ونظام قوى ومبادىء اخلاقية جديده . وقد اعتبرته الكنيسة الغربية أعظم الاباطرة على الاطلاق ، ولكن الكنيسة المصرية لا تخفى امتعاضها من السنوات الاخيرة من حكمه . حيث جنح الى ممالاة الاريوسية ضد العقيدة الارثوذكية كما يقررها دستور الايمان الذى وضعته الاسكندرية فى مجمع نقية ، وحسبه انه نفى اثناسيوس بطل الاسكندرية .

حكم ابناء قسطنطين :

كان لقسطنطين ابناء ثلاثة : وهم قسطنطين الثانى ، وقسطنطيوس ، وقسطانز فحمل كل منهم لقب اغسطس باعتباره امبراطورا ، وتولى الاول حكم ايطاليا والغال، وتولى الثانى (قسطنطيوس) حكم الشرق ، بينما اختص قسطانز بالليريا وجزء من افريقيا .

عودة أثناسيوس الى الاسكندرية :

كان اول عمل من اعمال السلطة التى باشرها قسطنطين الثانى الذى تولى حكم روما والغال . ان اعاد اثناسيوس الى الاسكندرية معززا مكرما ، ذلك أن قسطنطين الثانى كان على خلاف ابيه يدين بمذهب اثناسيوس . .

وانتدبت الاسكندرية بطلها العائد استقبال الغزاة الفاتحين ، وكان ممن وفدوا على الاسكندرية لاستقباله رهبان الصحارى كلهم يتقدمهم القديس انطونى ابو الرهبانية .

ولكن اتباع اريوس الذين كان يظاهرهم قسطنطيوس امبراطور الشرق اذ كان يدين بالاريوسية : لم يعترفوا بهزيمتهم . ووقفوا يترصدون لاثناسيوس ويكيدون له ويدبرون .

٣٣٨ م — كان الحاكم الرومانى على مصر فى هذه السنة هو انطونيوس تيودوروس

٣٤٠ م — نشبت الحرب بين ابناء قسطنطين . فقتل قسطنطين الثانى ، فانتهز قسطنطيوس هذه الفرصة . لكى يتخلص من اثناسيوس بطريرك الاسكندرية الذى كان قد بلغ من النفوذ والسلطان الحد الذى اصبح الامبراطور يراه خطرا عليه ، فعقد مجمعا فى انطاكية اجتمع فيه تسعون أسقفا . وجهوا اللوم الى اثناسيوس وانتخبوا للاسكندرية بطريركا جديدا وهو غريغوريوس الكبادوكى ، وقرر المجمع فوق ذلك الغاء ما جاء فى دستور الايمان الذى تقرر فى مجمع نقيه ، من أن المسيح « اله من اله . جوهر واحد مع الاب » الى النص بانه : بكر المخلوقات وصورة جوهر الاب .

وقد رفض المصريون هذا التغيير ، واعتبروه كفرا وخروجا على الدين .

ولكن ذلك لم يثن الامبراطور عن المضى فيما عقد العزم عليه فوجه البطريرك الجديد الى الاسكندرية مع قوة من الجيش مزودة بأوامر للقبض على اثناسيوس . ولكن اثناسيوس استطاع أن لا يقع فى قبضة الجند ، وقصد الى روما ملتجئا الى أسقفها .

وتعتبر حياة اثناسيوس فى روما فترة من أخصب الفترات فى حياته ، اذ انه وضع كتابا عن حياة أستاذه « انطونيوس » « حياة القديس انطونيوس » وقد كان هذا الكتاب الذى ترجم الى اللاتينية ، هو الذى نشر الرهبنة فى أوربا .

اما فى مصر فقد تحدى حزبه القوى غريغوريوس الذى فرض على مصر بدلا من اناسيوس ، وقد بلغ من ثورة هذا الحزب انه حرق الكنيسة المرقصية بالاسكندرية حتى يحول بين الاسقف الاريوسي وبين مزاولة عمله . وراح يطرد الاريوسيين ويتعقبهم فى كل كنائس مصر وأديرتها .

٣٤٦ م ــ موت الانبا باخوم :

مات الانبا باخوم فى هذا العام . وتقف دائرة المعارف البريطانية موقف المتردد فى الجزم بان وفاته كانت فى هذه السنة . ويصف البعض الأنبا باخوم بانه كان أميا وذلك لعدم معرفته اللغة اليونانية . والحقيقة انه كان مصريا صميما فلم يكن يعرف غير اللغة المصرية . وكان الانبا باخوم هو منظم الرهبنة الجماعية وحياة الاديرة ، واول من وضع لها قوانين لا يزال معمولا بها حتى الآن . وكانت هى الاساس الذى قامت عليه الحياة الديرية فى أوربا . والقول على أن نظم الرهبنة التى وضعها القديس بندكت مقتبسة بطريق مباشر من انظمة الانبا باخوم . ذلك أن راهبا مصريا وهو ديونيسيوس الصغير قد ترجم سيرة باخوم وقوانينه الى اللغة اللاتينية فكانت هى الوحى والالهام لكل الاديرة البندكية . بل والفرانسكية والدومينكانية التى تأسست فى عصر متأخر فى القرن الثالث عشر .

ويبدأ قوانين باخوم بتحديد الشروط التى يجب توافرها لقبول طالب الرهبنة اذ يجب عليه أن يتبت فى الدرجة الاولى انه غير هارب من العدالة أو المسئولية ، ويجب عليه بعد ذلك قضاء ثلاث سنوات تحت التمرين ، يتعلم فى خلالها القراءة والكتابة ان كان يجهلها .فان اثبت خلال هذه الفترة أهليته للترهب ، قبل فى الرهبنة. كما تحدد هذه القوانين كل ما يتصل بملابس الراهب وطعامه وساعات نومه والعمل البدوى الذى يتعين عليه أن يقوم به ، والتعلم والعبادة واخيرا العقوبات والجزاءات التى تحل به عند ارتكابه المخالفات .

والقاعدة الاساسية التى قام عليها النظام كله هى ذات القاعدة العسكرية وهى الطاعة التامة لمن هم أكبر وأقدم .

ولقد إستطاع الرهبان فى مصر فى ظل هذه الانظمة أن يقوموا بعمل كبير ، فكانوا هم الذين تولوا ترجمة العهد القديم والجديد من اليونانية الى اللغة المصرية (القبطية) مما سيمكن الكنيسة المصرية من الاستقلال بعد حين عن الكنيسة البيزنطية ، ليس فقط فى عقيدتها ، بل فى لغتها .

وقد بلغ عدد الرهبان عند وفاة الانبا باخوم خمسة آلاف راهب موزعين على تسعة اديرة للرجال ودير للنساء .

٣٤٦ م ـ عودة اثناسيوس الى كرسى البطريركية :

وفى هذه السنة ايضا مات البطريرك الملكى غريغوروس ، وبذلك خلا كرسى البطريركيه ، ورأى الامبراطور قسطنطيوس انه من الحكمة ومن مصلحة الدوله أن يعيد اثناسيوس الى كرسيه بعد ان اشترط عليه ان لا يتعرض للاريوسيين .

٣٥٠ م ـ قتل قسطانز ثانى أبناء قسطنطين على يد أحد المتطلعين الى العرش .

٣٤٣ م ـ استطاع قسطنطيوس ان يقضى على قاتل أخيه ويصبح بذلك لاول مرة بعد وفاة أبيه هو الحاكم الفرد **للامبراطورية الرومانية التى** توحدت فى ظله من جديد .

٣٥٤ م ـ كان الحاكم الرومانى على مصر هو **لونجينيانوس** .

٣٥٦ م ـ اختفاء اثناسيوس : ضاق الامبراطور قسطنطيوس ذرعا من جديد باثناسيوس الذى كان لا يستجيب لمطالبه ولا يؤدى رغباته ، فبعث اليه بقوة عسكرية للقبض عليه ، ولكن الانبا اثناسيوس تمكن من الاختفاء فى الاسكندرية وسط رعاياه ، وفشلت كل المحاولات التى بذلت العثور عليه حيث تفانى المخلصون فى حمايته .

٣٥٦ م ـ وفاة الانبا انطونى :

وفى هذه السنة ، والبعض يجعلها السنة السابقة عليها ، مات الانبا انطونى متجاوزا المائة عام . والاجماع على أن الانبا انطونيوس هو مؤسس نظام الرهبانية فى العالم ، فقد كانت الرسالة التى كتبها عنه اثناسيوس ابان مدة نفيه فى مدينة « توربن » حياة القديس « انطونيوس » هى التى بذرت تعاليم الرهبانية فى اوربا .

وقد كان ينتقل ، منذ آلى على نفسه ان يحيا حياة الرهبنة والنسك ، فى ارجاء الصحراء حتى استقر به المقام على جبل القلزم القريب من شاطىء البحر . وقد عرف مكانه المعجبون به ، فحذوا حذوه فى تعبده ونسكه فبنوا صوامعهم فى أقرب مكان منه تسمح لهم به ، حتى امتلأت الصحراء ، قبل موته باتباعه الروحيين .

وقد غادر الصحراء أكثر من مرة وقصد الى الاسكندرية فى مناسبات مختلفة ، كان أولها عندما حل الاضطهاد والتعذيب بالمسيحيين أيام دقلديانوس ومكسيمانوس . وعلى الرغم من أنه كان يصاحب المسيحيين المحكوم عليهم بالاعدام ويواسيهم ، ويحضر محاكمتهم ليثبت ايمانهم ، فان سيف الجلاد ، لامر ما ، لم يصل اليه .

ولما خفت ريح الاضطهاد عاد من جديد الى الصحراء . ولم يلبث أن عاد الى الاسكندرية من جديد ليساعد تلميذه اثناسيوس فى محاربة الاريوسية .

وهكذا عاش ٨٥ سنة من حياته ما بين ترهب ونسك وجهاد .

ولم يضع الانبا انطونيوس نظاما للاديرة والرهبانية الجماعية فقد كان هذا هو عمل الانبا باخوم كما قدمنا. ولكن الانبا انطونى هو واضع نظام الرهبنة بصفة عامة .

وهو لم يطالب الراهب الا بالصلاة والتقشف والعمل اليدوى . وقد حدد الساعات التى تقام فيها الصلوات والاسفار التى ترتل فيها . وقصد بالتقشف العفاف التام . أما العمل اليدوى فهو عنده ضرورة لان الناسك لا يليق به ان يكون متعطلا ولا ان يعيش عالة على غيره بل يجب أن يعيش من عمل يديه وبعرق جبينه .

وقد وضع زيا خاصا بالنسك متخذا اياه من زى كهنة الفراعنة . فكان يلبس ثوبا من الكتان الأبيض وهو الزى الذى انتشر بين رهبان العالم .

ويقال ان المنية عندما ادركته استدعى تلميذين من بين خاصة اخصائه . واحدهما هو الانبا مكارى (مقار) الذى سيصبح خليفة له . وطلب منهما أن يحفرا له قبرا يحميانه عن النـاس جميعا . تجنبا لتلك العـادة المختلفة عن الوثنية وهى زيارة القبـور (١) .

ولكن امنية الانبا انطونى لم تتحقق فعلى مقربة من البحر الاحمر يقوم دير الانبا انطونيوس فى ايامنا هذه على نفس البقعة التى مات فيها .

حيـاة الرهبنة :

ولم يمت الانبا انطونى الا وكانت هذه الروح العجيبة من الزهد والنسك قد عمت ارجاء مصر ، بحيث اصبحت نظاما كاملا بعد ان نظمها الانبا باخوم كما اشرنا من قبل ، وتحولت مدن بأكملها فى الصحارى الى مناطق الزهد والرهبنة .

ونشأت بين النسـاك منافسة قوية فى بطولة النسك فكان مكاريوس ألاسكندرى لايكاد يسمع عن عمل من أعمال الزهد الا وحاول ان يأتى بأعظم منه ، فاذا امتنع غيره من الرهبان عن اكل الطعام المطبوخ فى الصوم الكبير ، امتنع هو عن اكله سبع سنين ، واذا عاقب احدهم بالامتناع عن النوم شوهد مكاريوس وهو يبذل جهد المستميت لكى يظل متيقظا عشرين ليلة متتابعة . وحدث مرة فى صوم كبير أن ظل واقفا طوال هذا الصوم ليلا ونهارا لا يذوق الطعام الا مرة واحـدة فى الاسبوع ، ولم يكن طعامه اكثر من بعض أوراق الكرنب ولم ينقطع خلال هذه المدة عن ممارسة صناعته التى اختص بها وهى صـناعة النسـلال .

وكان الراهب سيرابيون يعيش فى كهف فى قاع هاوية لم يجرؤ على النزول اليها الا عدد قليل من الحجاج . ولما بلغ جيروم (القديس الغربى) وبولا الى صومعته هذه وجدا رجلا لا يكاد يزيد جسمه عن بضعة عظام وليس عليه الا خرقة تستر حقويه

---

(١) عجيب هذا التقابل بين المؤمنين من مختلف الاديان ، فان كراهية الانبا انطونى لزيارة القبـور وعبادة الاموات هى التى نجدها بين كثير من علماء المسلمين والمتهم .

ويغطى الشعر وجهه وكتفيه ، وكان فراشه لوح خشب وبعض أوراق الشجر ، وقد كان سيرابيون هـذا احـد اشراف روما .

وكان من الرهبان من تخصصوا فى الصمت ، وظلوا عددا من السنين لا تنفرج شفاههم عن كلمة ، وغيرهم الزموا انفسهم بأنواع من الجهد والمشقة لا تخطر على بال.

فلا عجب ان جاء الحجاج من جميع انحاء العالم المسيحى ليشاهدوا رهبان الشرق فى الفترة التالية ، فأحدهم المسمى رونينوس القادم من مدينة تريستا يقول لنا انه تجشم السفر للصعيد مع بعض رفقائه وشاهد مدينة أوخيرونيوس وفيها اثنتا عشرة كنيسة وعشرة آلاف راهب وعشرون الف راهبة ومنهم يكون العالم باللغات اليونانية.

وتطايرت الاقاويل والاقاصيص عما يأتى به هؤلاء الرهبان من اعمال وعجائب فيطردون الشياطين باللمس ، ويروضون الافاعى بنظرة ويعبرون النيل على ظهور التماسيح . ويقول القديس جيروم واصفا احوال الرهبان فى مصر ان الكثيرين منهم كانوا يحتقرون العلوم الدينية ويرونها غرورا وباطلا ومنهم من كان يرى أن النظافة لا تتفق مع الايمان ، وقد أبت العذراء سلبيان أن نغسل أى جزء من جسدها عدا اصابعها ، وكان فى احد الاديرة النسائية ١٣٠ راهبة لم تستحم واحدة منهن قط او تغسل قدميها . ولكن الرهبان انسوا الى الماء حوالى أواخر القرن الرابع فسخر الاب اسكندر من هـذا الانحطاط . واخـذ يحن الى هذه الايام التى لم يكن فيها الرهبان يغسلون وجوههم .

ولا عجب اذا كان هذا هو التيار الذى بدأ يغمر التفكير المسيحى ، أن بدأت ريح العلم تخفت فى مصر ، وأن ظلت المراكز الوثنية تواصل علومها ودراستها القديمة من فلسفة وعلوم وآداب .

ومن مصر سرت هذه الروح الى سوريا ، فأصبحت صحراؤها بدورها تغص بالنساك الذين يشد بعضهم نفسه بالسلاسل . ووصل الامر بواحد من النساك يدعى سمعان العامودى أن يبنى لنفسه عمودا ارتفاعه ستين قدما ومحيطه فيما لايتجاوز ثلاثة أقدام وعاش فوقه ثلاثين سنة .

٣٥٧ م – كان الحاكم الرومانى على مصر برناسيوس وقد تجلى عجزه المطلق فى فشله فى العثور على اثناسيوس الذى كان وهو فى مخبئه لا يكف عن محاربة التوحيد الاريوسى ، الذى أوشك فى هذه الفترة ان يتغلب على التثليث .

وقد ساد الاسكندرية فى هذه الفترة حكم الحديد النار ، وفرض الآريوسيون على السدة المرقصية اسقفا من كيدوكيا اسمه جورج (جرجس) ولكن أهل الاسكندرية قابلوه باحتقار وقاطعوه رافضين أن يدخلوا كنيسة يكون هو فيها . فرد على موقفهم باتباع سياسة العنف والشدة مستعينا بالسلطات العسكرية فنفى ١٦ أسقفا ، وفر من وجهه ثلاثون آخرون ، وبدأ فترة من الارهاب الحاد دامت ثمانية عشر شهرا .

وفى عيد العنصرة انفقت كلمة المسيحيين فى الاسكندرية على ان يصلوا فى الخلاء حتى لا يذهبوا الى الكنيسة . فاذا بقوة من الجيش مؤلفة من ثلاثة آلاف جندى تحيط بهم وراحت تعمل فيهم السيوف باندفاع جنونى . لم يتوقف الا بعد أن سئمت نفوس الجند من رؤية الدم المتفجر والجثث والاسلاء .

ولم يكن ذلك الا نموذجا لما حاق بالمسيحيين على يد اخوانهم المسيحيين ، مما يتضاءل الى جواره كل ما اوقعه الوثنيون من اضطهاد بالمسيحيين .

واذ كان هذا مدى التصميم لدى السلطات على استئصال شأفة كل من لا يدين بالاريوسية . فلا عجب اذا رأينا ان أساقفة الكنيسة العربية والشرقية (تقريبا) يعلنون واحدا اثر الآخر انصياعهم لتقاليد اريوس . بحيث بدا على الافق كما لو كانت تعاليم اريوس الداعية الى التوحيد قد انتصرت فى خاتمة المطاف . وان لم يبق يدين بالتثليث سوى اثناسيوس المختفى . واتباعه من أبناء مصر الذين كانت فكرة التثليث عميقة الجـذور بينهم .

٣٥٧ م — كان الحـاكم الرومانى فى شـهر يوليو من هـذه السنة هو بومبونيوس مترودوراس .

٣٦٠ م — كان الحاكم الرومانى ارتيميوس .

٣٦١ م — مـوت الامبراطور قسـطنطيوس .

فى نوفمبر من هذه السنة مات الامبراطور قسطنطيوس ، فحال موته دون وقوع حرب اهلية بينه وبين ابن عمه جوليانوس الذى كان قسطنطيوس قد عينه قيصرا على القسم الغربى من الامبراطورية ، فنادى به جنود الغال امبراطورا ، فكان وقوع الاصطدام محققا بين الرجلين لولا أن عاجل الموت قسطنطيوس .

وقـد مات قسطنطيوس فى سن الخامسـة والاربعـين بعـد أن حكم اربعـة وعشرين عـاما .

الامبراطور جوليانوس الوثنى المرتد :

اعلن جوليانوس بمجرد ارتقائه العرش ارتداده عن المسيحية وعودته الى عبادة الآلهة التقليدية ، فكان ذلك بمثابة آخر خفقة فى السراج للوثنيين كدين مسيطر فى الامبراطورية ولم يكن هذا الارتداد يمثل صراعا عقائديا ، بقدر ما كان يمثل صراعا سياسيا بين القسم الغربى للامبراطورية والقسم الشرقى ، فقد كان القسم الشرقى من الامبراطورية قد اصبح بفضل قسطنطين واولاده مسيحيا ، بينما ظلت الوثنية منتشرة فى ارجاء ايطاليا وفرنسا ، فلا عجب اذ جنح جوليانوس نحو الوثنية استرضاء للعناصر التى تدعم سـلطانه .

والمؤرخون الحديثون يعنون عناية فائقة بجوليانوس ويسـهبون بالحديث عنه باعتباره آخر ظـل لروما الوثنية القـديمة .

ويقولون عنه انه كان يحتفظ ببساطة الفيلسوف وسط ترف البلاط وكان يعيش عيشة الرهبان ، ويلبس كما يلبسون ، وينام على القش فى حجرة غير مدفأة ، بل ولا يسمح بتدفئة اى حجرة فى قصره « حتى يعتاد البرد » .

وقد أكبر الشعب فى بادىء الأمر فضائله وزهده وانهماكه فى العمل ، وكانوا يشبهونه بتيراجان فى حسن قيادته العسكرية وبأنطونيوس بيوس فى تقواه وصلاحه وبماركوس أوريليوس فى الجمع بين الملك والفلسفة .

وقد حدث مرة أن اعتدى من غير قصد على أحد الامتيازات الخاصة بمجلس الشيوخ فما كان منه الا أن حكم على نفسه بغرامة قدرها بعشرة ارطال من الذهب واعلن انه يخضع كما يخضع كل المواطنين لجميع قوانين الامبراطورية وتقاليدها .

وقد ملك عليه حب الفلسفة كل تفكيره ، وكان مولعا بالكتب ، وكتب فى ذلك يقول : من الناس من هو مولع بالخيل ومنهم من هو مولع بالطير أو الوحوش البرية اما أنا فقد كنت منذ نعومة اظفارى مولعا اشد الولع باقتناء الكتب .

وقد كتب مقالا يوضح به أسباب ارتداده عن المسيحية بعنوان « ضد اهل الجليل » وقد ظلت هذه الرسائل وعديد غيرها من كتاباته موضع اهتمام الشباب والمفكرين لاجيال حتى اضطر أحد بابوات اسكندرية ان يرد عليها بعد أكثر من نصف قرن ليقلل من اثرها فى نفوس القارئين .

وكان مما جاء فى هذه الرسالة : ان الاناجيل يناقض بعضها بعضا ، وان اهم ما تتفق فيه هو أنها ابعد ما تكون عن العقل ، فانجيل يوحنا يختلف كل الاختلاف عن الأناجيل الثلاثة الأخرى (١) فى روايتها وفيها تحويه من أصول الدين ، وقصة الخلق التى جاءت فى سفر التكوين تفترض تعدد الآلهة « فاذا لم تكن كل قصة من هذه القصص الواردة فى سفر التكوين ، اسطورة لا أكثر واذا لم يكن لها كما اعتقد تحقق ، تفسير يخفى على الناس ، فهى مليئة بالتجديف فى حق الله ، ذلك انها تمثله أول ما تمثله جاهلا بأن (حواء) التى خلقها لتكون عونا لآدم ستكون سبب سقوطه ، ثم تمثله ثانيا الها حقودا حسودا الى اقصى حدود الحقد والحسد ، وذلك بما تعزوه اليه من أنه يأبى على الانسان أن يعرف الخير والشر ، وانه يخشى أن يصبح الانسان مخلدا اذا طعم من شجرة الحياة ويخص جوليانوس فى رسالته فيقول موجها القول للمسيحيين :

ولم يكون الهكم غيورا حسودا الى هذا الحد فيأخذ الابناء بذنوب الآباء ، ولماذا يغضب الاله العظيم هذا الغضب الشديد على الشياطين والملائكة والآدميين ؟

الا توازنوا بين سلوكه وسلوك ليكورغ نفسه والرومان ازاء من يخرجون على القانون . يضاف الى هذا أن العهد القديم يقر التضحية الحيوانية ويتطلبها كما

---

(١) لا تزال هذه القصة تشغل الكثيرين من الباحثين فى اللاهوت المسيحى .

نفرها وتطلبها الوثنية . ولم لا يقبلون الشريعة التى انزلها الله على اليهود ؟ يقولون ان الشريعة الاولى كانت مقصورة على زمان ومكان معينين . ولكن فى وسعى أن أنقل الكم من اسفار موسى عشرات الآلاف (!!) لا العشرات فقط من الفقرات التى تقول ان الشريعة نزلت ليعمل بها فى جميع الازمان (دورانت ـ ١١ ـ ١٢) .

ولقد اطلنا عمدا فى النقل ليعلم من يتصور ان العصر الحديث ينفرد بجحد الاديان وانتقادها .. بحجة ارتقاء العقل البشرى هو قول غير صحيح . فالقضية قديمة قدم الانســـان . على أن جوليانوس الذى هاجم المسيحية هـذا الهجوم قـــد عاش بشهادة الجميع حياة مسيحية لم يكن ينقصها ســوى العقيدة . وهـو مدين فى حياته الفاضلة وســلوكه غير العــادى الى المبادىء والأخلاق المسيحية التى تلقيها فى طفولته وشبابه المبكر .

حرمان المســيحيين من الامتيازات :

على اننا لا يجب ان نفهم من ارتداد جوليانوس عن المسيحية انه اصـــدر امرا باضطهاد اتباعها .. أو طالبهم بالعدول عنها ، كما فعل الاباطرة الذين اضـــطهدوا المسيحيين من قبل ، كان ذلك فى زمن مضى واصبح المسيحيون هم اقوى جماعة متماسكة فى الدولة .

ولذلك فان ما فعله جوليانوس لا يخرج عن نطاق ما تتخذه الدول العلمانية من اجراءات فقد منع ما كانت الدولة تقدمه للكنيسة من اعانات ، وحرم المسيحيين من أن يشغلوا كراسى البلاغة والفلسفة والآداب فى الجامعات ، ووضع حدا لاعفاء رجال الدين من الضرائب وغيرها ، كما حرم الوصية بالمــال للكنائس ، وحرم المناصـــب الحكومية على المسيحيين وأمر الجماعات المسيحية فى كل ولاية ان يعوضوا الهياكل الوثنية التى دمروها أو نهبوها ، تعويضا كاملا .

أما من حيث ممارسة العبادة ، فقد ترك للمسيحيين حقهم الكامل فى ممارستها ، بل وفى الوعظ والتبشير بها . وذهب الى ابعد من ذلك ، فأعاد الاساقفة المتمسكين بدينهم والذين سبق لقسطنطيوس أن نفاهم .

ظهــور اثناسيوس :

ولذلك فقد انتهز اثناسيوس هذه الفرصة ، ليظهر من مخبئه ليباشر قيادته الروحية والمادية على ابنائه من اتباع الكنيسة ولكن جوليانوس غضب على هــذا التصرف ، حيث لم يستأذنه اثناسيوس فيه ، ولذلك فقــد ارسل الى والى مصر يطلب منه ابعاد اثناسيوس عن كرسيه والا حل به العقاب ، فلم يكن أمام اثناسيوس الا أن يعاود الاختفاء من وجــه السلطة .

٣٦٢ م – كان الحاكم الرومانى على مصر فى ديسمبر من هذه السنة « اكديسيوس » .

وفى هذه السنة وقعت فتنة سدبدة فى مدينة الاسكندرية قام بها العامة من الوثنيين الذين كانوا يحقدون اشد الحقد على جورج (جرجس) الاسقف الاريوسى الذى اغتصب كرسى اثناسيوس .

وكان قد اثار حفيظتهم بأن نظم موكبا عاما سخر فيه من الطقوس الوثنية ، فانتهز وثنيو الاسكندرية فرصة ارتداد الامبراطور عن المسحية لكى يصفوا حسابهم مع الأسقف الاريوسى ، فهاجموه وقبضوا عليه ، واذ لم يتحرك جمهرة المسيحيين للدفاع عنه ، فقد قتله المتمردون وفرقوا جسده ، كما هاجموا الكثير من المسيحيين وقتلوا أو جرحوا منهم الكثيرين .

وقد اراد جوليانوس ان يعاقب من أحدثوا الشغب ولكن مستشاريه اقنعوه بأن يكتفى بارسال خطاب احتجاج شديد الى أهل الاسكندرية .

٣٦٣ م – وفاة الامبراطور جوليانوس :

قتل الامبراطور جوليانوس ولم يتجاوز عمره الثانية والثلاثين أثناء حربه فى بلاد فارس (وقيل ان الذى قتله كان مسيحيا) وقد اعتبر كثير من المسيحيين أن قاتله كان شهيدا .

الامبراطور جوفيان :

اختار الجيش على الفور بمجرد مصرع جوليانوس قائد الحرس الامبراطورى المدعو جوفيان .

وقد بادر اثر توليه بعقد صلح مع فارس بأن رد اليها أربعا من الولايات الخمس التى انتزعها منها دقلديانوس منذ سبعين سنة .

وكانت توليته اعادة لاعتبار المسيحية الارثوذكسية فقد أعلن تمسكه بالمسيحية على المذهب النيقى ، كما يدعو له اثناسيوس .

عودة اثناسيوس الى كرسيه :

ولذلك فقد ظهر اثناسيوس مرة أخرى من مخبئه ، واعتلى الكرسى – الرسولى وسط تهليل الشعب وتمجيده ، والتسبيح بقوة الله القدير الذى أعاد لهم قطبهم الروحى فائزا منصورا .

٣٦٤ م ـ موت الامبراطور جوفيان :

على ان جوفيان لم يحكم سوى سبعة شهور ، ثم لم يلبث أن توفى فى ١٧ فبراير سنة ٣٦٤ .

الامبراطور فالنتيان وابنه فالنس :

وعلى اثر وفاته اختارت القوات المسلحة فلافيوس فالنتيانوس ، وهو كما يصفه التاريخ جندى فظ مقطوع الصلة بالثقافة اليونانية . يذكر بفياسيسيان .
وقد بادر بتعيين أخيه الأصغر فالنرا امبراطورا على الشرق مستبقيا لنفسه امبراطورية الغرب .

الامبراطور فالنس واثناسيوس :

كان الامبراطور فالنس يدين بالمذهب الاريوسى ، ولذلك فلم يكد يتربع على عرش الشرق ، حتى رفع الاريوسيون فى الاسكندرية رءوسهم من جديد ، وبدأ التحرش والاصطدام باثناسيوس ، الذى كان فى هذه الفترة يتجول فى ارجاء مصر كما لو كان أحد ملوكها الفراعنة ، حيث كان يستقبل فى كل مكان بالترحاب والتأييد والتمجيد ... واذ واصل رحلته فى النيل ، فقد كانت جموع الشعب تخرج لاستقباله بالصلبان والتراتيل والاهازيج ... وكان الرهبان والراهبات يتركن الأديرة ، لكى يصطفوا لتحيته واستقباله ونيل البركة منه ...

ولذلك فقد عجز الحاكم الرومانى ان يمتد بيد سوء الى اثناسيوس ، بل أن فالنس راى من حسن السياسة ولتهدئة الخواطر أن يعلن انه لن يتعرض لاثناسيوس، وهكذا عاد ــ اثناسيوس الى الاسكندرية ليستقر من جديد على كرسيه بقوة الشعب المصرى . حيث كان مقدرا له ان يمضى ما بقى له من العمر فى ذروة السلطان الروحى والمادى ، بعد ان تكسرت على صلابة ارادته كل صنوف الارهاب والمقاومة والاضطهاد .

٣٦٥ م ــ كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة تاتيانوس .

٣٦٩ م ــ كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة هو بوبليوس .

المسيحية فى الحبشة :

٣٧٠ م ــ اوفد اثناسيوس فى هذه السنة القديس افرونيوس للتبشير بالانجيل فى بلاد الحبشة .. ومنذ ذلك الوقت والكنيسة الحبشية تابعة للكرسى المرقسى

يرسم لها أسافقة مصرين بناء على طلب ملوكها (١) وقد تغير هذا التقليد في العصر الحديث جدا — وقد بدأ التحول برسامة أساقفة أحباش ، ثم أصبح الأساقفة الأحباش يديرون كنيستهم .

٣٧١ م وفاة القديس أثناسيوس الرسولى :

طويت في هذه السنة صفحة علم من أكبر أعلام المسيحية في الشرق والغرب معا . بعد أن أمضى في رئاسة الكهنوت ستا وأربعين سنة وهو ما لم يقدر لبطريرك من قبله أو بعده — وفي خلال هذه الفترة عاصر ستة عشر امبراطورا تحدى الأكثرين منهم فنفى من منصبه خمس مرات ، كان لا يلبث في كل مرة أن يعود أكثر قوة . والمسيحيون الشرقيون يعرفونه خاصة بعشرونه صاحب الفضل الأكبر في بدء م الحقيقتين الأساسيتين اللتين قامت عليهما المسيحية وهما :

١ — لاهوت المسيح المتحد بناسوته اتحادا لا يتطرق اليه مزج ولا خلط ولا تغيير .

٢ — وحدة الثالوث المقدس (١) .

واعترافا بفضله منحته الكنيسة لقبا لم ينله سواه في العالم بأسره وهذا اللقب هو : ثالث عشر الرسل الاطهار . ومن أجل ذلك كان يلقب بالرسولى .

الأنبا بطرس الثانى :

وقد أسرع الشعب والاكليروس بانتخاب تلميذ اثناسيوس وهو الأنبا بطرس ليكون الخليفة الحادى والعشرين لمرقس الرسول .

ولم تكد أنباء هذا الاختيار تصل الى الامبراطور فالنس حتى استشاط غضبا ، واحس أنه لو جنح لمشيئة الشعب المصرى في هذا الاختيار فسوف يفقد آخر ظل له من النفوذ .

فأرسل الى واليه في مصر يأمره بخلع الأنبا بطرس الثانى ونفيه وتنصيب لوسيوس الاريوسى أسقفا مكانه .

وتعزيزا لهذا الأمر الامبراطورى أصدر فالنس امره بأن ترافق لوسيوس قوة عسكرية ، وهكذا دخل لوسيوس ليتقلد كرسيه في الاسكندرية تحت حماية الحراب الرومانيــة .

وكانت الأوامر المعطاة لهذه القوة العسكرية أن تقبض على بطرس الثانى ، ولكنه استطاع كأستاذه أن يختفى في الوقت المناسب وينجو من يد السلطة .

وعندما وصل نبأ ذلك الى الامبراطور ، زاد في غضبه وأصدر أمره بنفى كل الأساقفة المصريين الذين يرفضون التعاون مع لوسيوس الأريوسى .

---

(١) ص ١٤٧ دليل المتحف القبطى .

(٢) قصة الكنيسة القبطية .

كما أصدر امره بالغاء الامتيازات التى كانت مقررة للرهبان منذ ايام قسطنطين وهو اعفاؤهم من الخدمة الاعسكرية ، ولما كانت الرهبانية قد انتشرت فى مصر ، انتشارا واسعا كما قدمنا ، فقد كان معنى تنفيذ القانون الجديد ، أن تجند مدن بأسرها ولذلك فقد قاوم الرهبان هذا القانون ، وفضل الكثيرون منهم أن يموتوا فى سبيل عدم الاذعان له من أن يصبحوا جندا فى جيش الامبراطور .

وهكذا عاشت الاسكندرية ومصر كلها ، فترة من أحلك فتراتها وبدأ اليأس يتسرب الى النفوس ، حيث خيل للكثيرين ان الاريوسيين سينتصرون فى النهاية .

وكان يضاعف فى تعقيد المشكلة ، انه بصيرورة المسيحية هى الدين الرسمى للدولة ، فقد بدأت تتكون ارستقراطية مسيحية تشايع الدولة من التجار والأغنياء ، فبدأت الوحدة التى كانت راسخة أيام اضطهاد المسيحية تتصدع وتتحلل فى ظل تمتع المسيحيين بالنفوذ والسلطان .

٣٧٤ م ـ كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة هو ايليو بالاديوس .

٣٧٥ م ـ موت الامبراطور فالنتيانوس :

مات الامبراطور فالنتيانوس بعد أن كان قد اشرك معه فى الحكم ابنه جراتيانوس فاصبح امبراطورا للغرب بعد وفاة ابيه حيث ظل فالنس امبراطورا للشرق .

٣٧٥ م ـ كان الحاكم الرومانى ، هو تاتيانوس .

٣٧٦ م ـ كان الحاكم الرومانى هو هادريانوس .

٣٧٨ م ـ موت الامبراطور فالنس :

قتل الامبراطور فالنس فى معركة هادريانوبولس (ادرنه) عندما حاول أن يتصدى للقوط الغربيين الذين عبروا نهر الدانوب وراحوا يعيثون فى بلاد البلقان نهبا وفسادا .

الامبراطور جراتيانوس :

ويموت فالنس انفرد جراتيانوس بحكم الامبراطورية ، وقد كان مسيحيا متحمسا للعقيدة الارثذوكسية كما يصورها مجمع نيقيه ولذلك فقد اعلن « ان العقيدة النيقيه فريضة واجبة على جميع الشعوب الخاضعة لنا » .

وقد قدر جراتيانوس انه لن يكون باستطاعته حكم الامبراطورية بقسميها بنفسه ولذلك فقد اختار ثيودسيوس ليكون امبراطورا للشرق .

الامبراطور ثيودسيوس :

كان أول عمل قام به ثيودسيوس فى الشرق هو تنفيذ هذا الذى دعا اليه جراتيانوس من الزام كل رعايا الامبراطورية باعتناق المسيحية النيقيه على مذهب اثناسيوس .

عودة الأنبا بطرس الثانى :

وكان من آثار هذا التطور الجديد أن عاد الأنبا بطرس الثانى الى كرسيه ، مثبتا بذلك أن بابا الاسكندرية أصبح أحد محاور السلطان الروحى فى أرجاء الامبراطورية .

٣٧٨ م — وفاة الأنبا بطرس الثانى :

على أن أيام الأنبا بطرس الثانى لم تطل بعد هذا النصر ، فقد توفى ولم يزد توليه لكرسى الكرازة المرقسية على خمس سنوات وتسعة شهور أمضى الجزء الأكبر منها فى المتاعب .

الأنبا تيموتيثوس :

وقع اختيار الشعب والاكليروس بعد وفاة الأنبا بطرس الثانى على الأنبا تيموتيثوس وهو تلميذ آخر من تلامذة اثناسيوس الكبير وكان يقوم بدور السكرتير الخاص لاثناسيوس فى بعض رحلاته وجولاته ، كما كان أحد معلمى مدرسة الاسكندرية اللاهوتية .

٣٨٠ م — كان الحاكم الرومانى هو يوليانوس .

٣٨١ م — مجمع القسطنطينية :

كان ثيودسيوس امبراطور الشرق يدين كما قدمنا بمبدأ اثناسيوس فعمل جاهدا منذ اعتلى السلطة على أن يعمم عقيدة نيقيه فى الكنائس ، فعهد الى تيموتيثوس بابا الاسكندرية بنسخ قوانين نيقيه العشرين وتوزيعها على كنائس العالم شرقا وغربا .

وفى هذه الفترة طلع مقدونيوس أسقف القسطنطينية على العالم المسيحى برأى جديد فحواه أن روح القدس ليس باله ولكنه مخلوق .

ولم يلبث النزاع أن استجد من جديد حول الوهية روح القدس ، كما دار من قبل حول الوهية المسيح .

واستطارت الفتنة بين صفوف رجال الاكليروس . فنصح البعض للامبراطور أن

يحسم هذه القضية بدعوة مؤتمر عالمى (مسكونى) للاساقفة كما فعل قسطنطين من قبل .

فوجه الدعوة الى عقد مؤتمر فى القسطنطينية ، ولبى الدعوة مائة وخمسون اسقفا من اساقفة الشرق .

واستقر راى المجتمعين على ان يضيفوا الى دستور الايمان كما تقرر فى مجمع نيقيه العبارات التالية :

« نؤمن بروح القدس ، الرب المحيى المنبثق من الآب المسجود له والممجد مع الآب والابن ، الناطق فى الأنبياء » .

نؤمن بكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وننتظر قيام الموتى وحياة الدهر الآتى . وبعد ان فرغ المجمع من تقرير العقيدة ، انتقل لتقسيم الاسقفيات الى درجات ، فقرر ان يكون لكنيسة القسطنطينية مكان الشرف الثانى بعد روما باعتبارها روما الجديدة وعاصمة الامبراطورية فاحتج على ذلك تيموتيئوس بطريرك الاسكندرية قائلا : لقد علمنا مخلصنا بأن من أراد ان يكون عظيما فليكن للجميع عبدا فالأولوية الروحية يجب ان تكون لمن يمتاز من الأساقفة بالجهاد فى الروحيات وقد تفانى أساقفة الاسكندرية فى خدمة الايمان الارثوذكسى . وكانت آخر الخدمات التى أدوها فى هذا السبيل تدعيمهم البنيان المتصدع فى كنيسة القسطنطينية نفسها .

ولكن المجتمعين اغفلوا هذا الاحتجاج لاعتبارات سياسية فما كان من الأنبا تيموتيئوس الا ان انسحب هو واساقفته من المجمع عائدين الى الاسكندرية .

٣٨١ م — كان الحاكم الرومانى على مصر فى هذه السنة باسيانوس .

٣٨٢ م — كان الحاكم الرومانى هو بالاديوس .

٣٨٣ م — قتل الامبراطور جراتيانوس :

نادت الفرق البريطانية بما خيوس ماكسيموس الذى استولى على بلاد الغال امبراطورا ، فقتل الامبراطور جراتيانوس .

واذ كان ثيودسيوس مشغولا بالأخطار المحدقة به من الشرق : فقد اعترف بماكسيموس امبراطورا على الغرب ، شريطة ان يتخلى عن حكم ايطاليا لابن جراتيانوس « فالنتيان الثانى » .

٣٨٣ م — كان الحاكم الرومانى على مصر فى هذه السنة هيبانيوس ثم انطونيوس.

٣٨٤ م — كان الحاكم الرومانى على مصر فى هذه السنة هو فلورنتيوس .

وفاة الأنبا تيموثيئوس:

وفى هذه السنة توفى الأنبا تيمونيئوس بعد أن أقام على كرسى الكرازة المرقسية ست سنوات وخمسة شهور .

الأنبا تيوفيلس :

واختار الشعب والاكليروس للسدة المرقسية الأنبا تيوفيليس ، وقد كان من تلامذه اثناسيوس وواحد من القائمين بأعمال سكرتاريته وكان متعمقا فى العلوم الفلسفية والرياضية وقد رسمه الأنبا اثناسيوس قسا وضمه الى سكرتيريته فظل يعمل فى خدمة المذبح طوال جزء من بابوية اثناسيوس وبطرس الثانى وتيموثيئوس .

وقد استطاع خلال هذه السنوات ان يكتسب قلوب المؤمنين ، فلما أن خلا الكرسى الرسولى وقع الاختيار عليه .

ويعزى اليه انه اقنع الامبراطور تيودسيوس بتحويل المعابد الوثنية الى كنائس مسيحية .

وقد راقت الفكرة للامبراطور واصدر امره على الفور بتنفيذها . وكان أول هيكل استولى عليه البابا السكندرى لتحويله الى كنيسة هو هيكل باكوس اله الخمر، فنزع منه التماثيل وراح يعرضها وسط الازدراء والسخرية فى شوارع الاسكندرية فأهاج هذا التصرف الوثنيين رغم قلة عددهم ، فتجمهروا وأحاطوا بمعبد سيرابيس للدفاع عنه . واذ كان المعبد أشبه ما يكون بالقلعة حيث كان مبنيا فوق هضبة ويرقى اليه بمائة درجة ، فقد استعان تيوفيلس فى الهجوم عليه بالجيش الرومانى « فجرى الاصطدام بينه وبين الوثنيين الذين اضطروا فى النهاية الى الاحتماء بالمعبد الكبير » .

فصدرت الاوامر بتحطيم المعبد فوق رءوس المقيمين به ، فجرت الدماء انهارا ، واشتعلت النار فى قسم من المعبد فأتت على مكتبته التى كانت تضم ٧٠٠ الف كتاب .

وهكذا تحول المضطهدون بالأمس الى مضطهدين لمخالفيهم فى الرأى . وتنقسم الآراء بطبيعة الحال حول هذا الحادث ، ما بين محبذ ومحايد ومستنكر ، فأما صاحب كتاب قصة الكنيسة المصرية فيلقى المسئولية على الوثنيين وانهم هم الذين بدأوا بالعدوان ، ونفى عن الأنبا ثيوفيلس تهمة التحريض على حرق معبد سيرابيس فضلا عن تدمير ما فيه من كتب ، ويسوق على ذلك كثيرا من أقوال المؤرخين الذين يدحضون هذه التهمة .

أما صاحب المنارة التاريخية فيقول لنا :

« وعند انتهاء معبد سيرابيس تشتت السبعمائة الف كتاب التى كانت فيه لأن المؤرخ الأسبانى أورسيوس الذى زار الاسكندرية فى العهد التالى لم يجد أثرا لهذه الكتب ، ولم يجد سوى الخزانات الخاوية » .

ثم يمضى فى تعليقه على هذا الحادث قائلا :

« وهنا يجرنا الانصاف ان نقول بأن كل اضطهاد دينى هو ممقوت ، سواء أكان واقعا من وثنيين أو مسيحيين ؛ لا سيما وهو ينصب فى الأغلب على احرار الناس أكثر من سواهم . فالذين اضطهدهم اسقف الاسكندرية كانوا من علماء ذلك الزمان واحدهم هو أولبميوس كاهن معبد سيرابيس كان مع كبر سنه ومقامه رجلا وديعا حليما عاقلا لا عيب فيه كافضل شهداء المسيحيين . بل ان الفرق بين الاضطهادين بعيد جدا . لأن الوثنى كان يضطهد عن سياسته واقتصادياته ، أما المسيحى فهو يضطهد غلوا فى دين اساسه الرحمه والوداعة . لايحب بسط اليد بالأذى ولا التطاول باللسان وقول الهجو » .

وقد زاد هذا الحادث الجديد فى تدهور مركز الاسكندرية الثقافى فوق تدهوره المستمر ، فقد هجرها كثير ممن كانوا بها من رجال العلم والفلسفه والدين كانوا يشرفون على مدارسها . باعتبارها مركزا للفلسفة اليونانية .

واذ لا يوجد حد يقف عنده التعصب للراى اذا اخذ سبيل العنف ، فسرعان ما وجدنا ثيوفيليس يحتلف مع رهبان وادى النطرون ممن كانوا يعجبون بأوريجانوس . فأصدر قرارا يعتبر فيه الاوريجانية ، بدعة مسيحية ، فاحتكم الرهبان الى اسقف القسطنطينية وهو يوحنا فم الذهب الذى كتب للانبا ثيوفيليس يسترضيه على الرهبان واوريجانوس فلم نزد ذلك ثيوفليس الا غضبا على يوحنا فم الذهب نفسه .

٣٨٥ م ــ كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة هو بولينوس .

٣٨٦ م ــ كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة فلورنتيوس .

٣٨٨ م ــ كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة ارتريوس .

٣٩٠ م ــ كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة الكسندر .

٣٩١ م ــ كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة ايفاجريوس .

٣٩٢ م ــ كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة بوتاميوس .

ثم هياتيوس . ثم بوتاميوس ثانية .

٣٩٤ م ــ الغاء الوثنية بصفة نهائية :

بعد سلسلة من الأحداث فى أوربا . طرد فيها ماكسيموس فالنتيان الثانى من ايطاليا ؛ فالتجأ هذا الأخير الى ثيودسيوس الذى استطاع ان يعيده الى عرشه بعد

ان قبض على ماكسيموس وقتله ، ولكن فالنتيان الثانى مالبث أن قتل على يد اريوجاست احد قواده الذى نادى بمن يدعى أيوجنيوس امبراطورا ، ولكن ثيودسوس استطاع ان يهزم الاثنين وان يقتلهما ، فأصبح بذلك هو الامبراطور الأوحد للشرق والغرب ، فزاد ذلك فى حماسته للديانة المسيحية فحمل مجلس الشيوخ الرومانى على أن يصدر تشريعا بالغاء الوثنية فى جميع صورها واشكالها فى أرجاء الامبراطورية شرقها وغربها ، ووضع العقوبات الصارمة لكل من يعبد الها غير المسيح ، او لمن يرتد عن دين المسيح أو يلحد فيه .

ومن هنا سجل له التاريخ انه هو وليس قسطنطين من جعل المسيحية دينا رسميا للدولة لا تسمح ببقاء دين آخر الى جوارها .

٣٩٥ م ــ وفاة الامبراطور ثيودسيوس :

وفى ١٧ يناير من هذه السنة توفى الامبراطور ثيودسيوس بعد ان حكم سبعة عشر عاما توحدت فيها الامبراطورية لآخر مرة فى ظل امبراطور قوى .

ولكنه كقسطنطين من قبله لم يمت الا بعد أن قسم المملكة بين ولديه اركاديوس وهونوريوس .

الامبراطور اركا ديوس :

كان عمر اركاديوس عندما اصبح امبراطورا للشرق ثمانى عشرة سنة ، وكانت هذه الامبراطورية تبدأ من حوض الدانوب الأدنى حتى تخوم فارس وتشتمل على تراقيا وآسيا الصغرى وسوريا ومصر أما أخوه هونوريوس فقد تولى حكم المغرب .

٣٩٥ م ــ كان الحاكم الرومانى على مصر فى هذه السنة هو شارموزيانوس .

ولكن السلطة الحقيقية كانت فى يد الأنبا تيوفيلوس ، الذى كان عدوا للاريوسيين مذهبا وللاغريق سياسة ... ولذلك فقد كان المصريون ينظرون اليه نظرتهم لا الى زعيم روحى بل الى قائد ورئيس سياسى .

شاءت الظروف أن تعمل على تدعيم سلطانه اكثر واكثر ، فوقع خلاف بين يوحنا فم الذهب أسقف القسطنطينية والامبراطور اركاديوس لمهاجمة يوحنا لزوجة الامبراطور (أودكسيا) فاصبح تيفيلوس هو القاضى الذى رأس مجمعا من الأساقفة المصريين ليحكم بحرمان يوحنا فم الذهب وطرده من منصبه وعاد تيفيلوس الى الاسكندرية ، فازداد ضراوة فى محاربة مخاليفه لا من الوثنيين بل من المسيحيين ، وكان الخلاف معه فى الراى لا يؤدى الى الكفر والالحاد فحسب ، بل واعتبار المخالف ثائرا على سلطة الامبراطور نفسه .

ويقول لنا المؤرخ الانجليزى « ملن » امتد تاريخ مصر منذ هـذه اللحظة حتى خمسين سنة قادمة ، لايخرج عن تاريخ بطارقة الاسكندرية ، والخلافات بين الاساقفة واتباعهم ، بحيث اصبحت الحياة وكأنها لم تعد شيئا الا مناقشة اللاهوت .

وقد وصف احد الاساقفة الذين زاروا القسطنطينية فى هـذه الفترة ما يمكن ان يصدق على مدينة الاسكندرية لذلك قال : ان جميع عمال هذه المدينة وعبيدها يشتغلون باللاهوت فاذا قصدت صرافا لاستبدال قطعة نقود اوقفك ليروى لك اوجه الخلاف بين الابن والاله الأب واذا ذهبت لشراء رغيف اخبرك صـاحب المخبز بأن الابن يجب أن يكون دولة الاله الاب واذا طلبت من الحمامى أن يعد لك الحمام أجابك بأن الابن وجد من لا شيء (أوربا العصور الوسطى ص ٥٦) .

ويقول « ملن » أن نيفيلوس اصطحب كتيبة من الجند وحطم زوايا الرهبان فى وادى النطرون لمخالفتهم اياه فى الراى ، وكان ذلك مظهر جمع السلطة الدينية الى السلطة الزمنية ، والذى لن يلبث أن يصل الى ذروته العليا على يد بابوات روما ..

٣٩٦ م – كان الحاكم الرومانى على مصر فى شـهر فبراير من هـذه السـنة جيناديوس .

أما فى شهر مارس فنرى اسما جديدا وهو ريميجيوس .

٣٠٧ م – كان الحاكم الرومانى ارشيلاوس .

٣٩٨ م – وفاة ديدموس الضرير :

فى هذه السنة مات كآخر اعلام مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وهو ديديموس الضرير . والذى كان قد اصيب فى طفولته بمرض أفقده البصر فجعله هذا الحادث يطلب من الله أن يمنحه قريحة وقادة وبصـيرة وفهما ، فأستجاب الله لدعائه ، اذ استطاع رغم عجـزه أن يصـبح من اكبر المتضلعين فى النحـو والبلاغة والشـعر والفلسفة والرياضـة والموسيقى .

وقد عهد اليه اثناسيوس برئاسة مدرسة الاسكندرية اللاهوتية فلم يكن يكتفى بالقاء المحاضرات فيهـا ، بل صرف همـه نحـو التأليف ولا يزال بعض ما كتبـه باقيا حتى الآن .

وكان ديدموس والانبا انطونى أبو الرهبان صديقين حميمين جمعت بينهما المحبة الخالصة .. وكلما وفد الناسك الى الاسكندرية كان يحل ضيفا عند ديديموس .

ومما يذكر له بالفخر انه إبتكر وسيلة لتعليم المكفوفين القراءة والكتابة سبق بها بريل بخمسة عشر قرنا . حيث كانت الكلمات والحروف تحفر على خشب ليتمكن الكفيف من مطالعتها باللمس ، ولكن شاءت الظروف الا يتطور هذا الاختراع ويجمد

عند هـذا الحد ثم يعفى عليه النسيان حتى يبعث من جديد فى العصر الحديث ويعود فضله الى بريل .

وقد ظل ديديموس يدير مدرسة الاسكندرية اللاهوتية زهاء نصف قرن ، فعاصر البابا اتناسيوس وبطرس الثانى وتيموتيس .

٤٠٨ م ـ وفاة الامبراطور اركاديوس :

مات الامبراطور اركاديوس ، وفى عهده وعهد هذه الفترة من حياة اخيه هونوريوس ، ظهر القوط والوندال والجرمان كقوى عاملة فى جسم الامبراطورية وذات قول فى تعزيز مصيرها وخاصة فى قسمها الغربى . وكانت هذه القبائل المختلفة التى توصف بالبربرية ، تؤثر على حياة الامبراطورية فى الطرفين الاول والثانى بهجماتها على أطراف الامبراطورية .. أما فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس فقد كانت هذه القبائل بأعدادها الوفيرة قد أصبحت هى الجيوش الرومانية نفسها ، بعد أن اسكنهم الاباطرة مختلف الولايات فى اليونان وايطاليا واتخذوا منهم قوادا لجيوشهم ، ووزراء لحكوماتهم .

الامبراطور ثيودسيوس الثانى :

ولى عرش الشرق ثيودسيوس الثانى ابن اركاديوس ولم يكن سنه يتجاوز سبع سنوات . وكانت اخته بوليكريا تكبره بعامين فأشرفت على تربيته ، ولن تلبث أن تصبح وصية عليه بمجرد بلوغها سن السادسة عشره بحيث سيقدر لها أن تكون هى التى تصرف شئون الامبراطورية خلال ثلاث وثلاثين سنة .

٤١٢ م ـ وفاة الانبا تيوفيلس :

توفى الانبا تيوفيلس بابا الكرازة المرقسية الثالث والعشرين ، بعد أن ظل على كرسيه سبعا وعشرين سنة وشهرين ، بلغ فيها قمة السلطان الروحى والزمنى .

وهو احدى الشخصيات التى تثير الجدل فى تاريخ الكنيسة المصرية ، فحيث يصفه البعض بأنه فرعون متجبر جعل من كلماته الدستور الذى يجب ان ينحنى أمامها الشعب مباشرة ، بينما يمتدحه البعض ويثنون على حسن ادارته وسرعة أدراكه للحقائق (قصة الكنيسة القبطية) .

الانبا كيرلس :

وقع اختيار الشعب والاكليروس ى الانبا كيرلس ابن شقيقة الانبا تيوفيليس وكان قد تعهده بعناية خاصة ، وعاش فترة فى بعض الاديرة ، حيث استغرق فى الدراسة وتحصيل كل صنوف العلوم .

على أن اختياره لم يتم بيسر وسهولة كاختيار بين سبعة من البابوات ذلك انه بتعاظم خطورة صاحب هذا المنصب فى النفوذ والسلطان ، فقد بدأت القوة الحاكمة تتدخل فى اختياره . فيقول لنا « مان » ان ايوندانتيوس قائد القوات الرومانية فى مصر بذل جهدا كبيرا فى انجاح مرشح له يمثل المذهب الاريوسى ، وعمت الاسكندرية المجادلات والمساحنات بل والمضاربات ، ولكن ارادة الشعب والكنيسة المصرية هى التى انتصرت فى نهاية الامر باختيار كيرلس الذى لم يكن يقل بغضا للاريوسيه عن سلفه ، ولذلك فلم يكد يتبوأ كرسى الكرازة حتى بدأ يقوم بدور عميق الاثر فى حياة الكنيسة المصرية والشرقية بعامة ، لا يقل عن دور اثناسيوس وأن كان امتدادا وتكميلا له .

٤١٠ م ـ أول هوان لمدينة روما :

تعرضت مدينة روما لاول هوان فى تاريخها ، اذ احتلها الريك ملك القوط الغربيين واستباحها جنوده لمدة ثلاثة أيام يقتلون ويذبحون وينهبون ويدمرون ، وقد وجد الوثنيون فى هذه الكارثة التى حاقت بالمدينة آية على غضب الآلهة التى انصرف عنها الرومان الى المسيحية .

على ان الريك الذى كان قد سيطر على ايطاليا كلها لم يلبث أن انسحب من روما ، ثم مات بعد ذلك .. ولكن بعد ان كشف لكل الشعوب المتبربرة عن ضعف روما وهوانها ـ مما سوف يعجل بسقوطها نهائيا فى يد المتبربرين ، أو بالاحرى ما اعتاد الرومان ان يصفوهم بهذا الوصف .

٤١٤ م ـ تولت يوليكا ريا أخت الامبراطور ثيودسيوس الثانى الوصاية عليه .

٤١٥ م ـ كان الحاكم الرومانى على مصر فى هذه السنة أورستوس .

تجدد اضطهاد اليهود :

وفى هذه السنة تجدد اضطهاد اليهود : فمنذ ولى الانبا كيرلس البطريركية زاد من تشدده فى نصرة المسيحية الارثوذكسية ومقاومة كل ما يخالفها بالقوة والعنف .

وقد كان اليهود الذين ازيلوا من الاسكندرية أيام تراجان ، أى منذ ثلاثة قرون سابقة ، قد عادوا فى هذه الفترة للتجمع والتكاثر والازدهار ، بحيث أصبحوا هم القوة السائدة فى دنيا المال والاقتصاد والتجارة .

ولا يعرف كيف بدات الفتنة ضد اليهود ولا ما هو السبب المباشر لاشعالها ، والمهم ان الذى قام بالفتنة هم عامة الشعب فى المدن ، والرهبان الوافدون من الصحراء الغربية ، فانتهب العامة اموال اليهود وممتلكاتهم وأجلوهم عن بيوتهم واضطرب حبل الامن فى المدينة حتى عمتها الفوضى وعبثا حاول أورستوس الحاكم الرومانى أن يعيد

الامن والنظام ، فقد كانت قواته أضعف من التغلب على الشعب الهائج . بل لقد وقع هو نفسه فريسة للاعتداء اذ قذفه البعض بقطعة من الحجر أوجعته .

وكان كيرلس هو سيد الموقف الوحيد .

مصرع الفيلسوفة هيباتيا :

وسكر الرهبان وعامة الشعب بهذا النصر ، فقرروا أن يقتلعوا من مدينة الاسكندرية ما تصوره آخر معالم الفلسفة اليونانية التى كانت تتمثل فى هذا الوقت فى الفيلسوفة هيباتيا ابنة العالم ثيون وزوجة الفيلسوف ايذادور والتى كانت تعتبر من أئمة المدرسة الافلاطونية وتمثل ذروة الجمال والوادعة والرقة النسائية فتربص لها البعض اثناء مرورها فى عجلتها بأحد شوارع المدينة ، وانقضوا عليها وجروها على الارض حتى كنيسة قيصر ، وهناك جردوها من ثيابها ورجموها حتى ماتت ثم مزقوها اربا وحملوها خارج المدينة حيث احرقوها فى أحد الافران .

٤٢٥ م — الامبراطور فالنتيانوس الثالث :

تولى فالنتيانوس الثالث امبراطورية الغرب بعد موت هرنوريوس ومصرع يوحنا مغتصب العرش على يد جيش ثيودسيوس الثانى .

٤٢٨ — النسطورية وتصدى كيرلس لها :

فى هذه السنة استمر النزاع من جديد بين الكنائس الارثوذكسية والاريوسية بعد أن اتخذ اتجاها وشكلا جديدين .

فما دامت الوهية المسيح ام تعد ميدانا للجدال فليدر البحث حول الوهية امه .

والعقيدة الارثوذكسية تقرر أنه ما دام المسيح الها فان مريم العذراء هى ام الاله ، فجاء نسطوريوس ليناقش هذه القضية بحيث انتهى الى نظرية جديدة .

وملخص هذه النظرية أنه لما كان الله تعالى لا يمكن أن يموت أو يتألم فلابد أنه كان للمسيح اقنومان متباينان : ذات الهية تعلو على الآلام الانسانية ، وذات انسانية عرضة للآلام والموت ، ومن ثم كانت الذات المتألمة هى الذات الانسانية وحدها منفصلة عن الذات الالهية ، تفريعا على ذلك مضى نسطوريوس يقول :

أن مريم لم تكن أم الطبيعة الالهية فى المسيح بل هى أم طبيعته البشرية وانه خير من تسميتها ام اله ان تسمى ام المسيح .

وقد تبلور هذا الفكر فيما اشتهر بأنه القول بالطبقتين للمسيح : الطبقة الالهية والطبقة الانسانية ، وذلك فى مواجهة القول بالطبقة الواحدة الالهية .

وقد كان الانبا كيرلس هو حامل لواء هذا القول الاخير والمدافع عنه بكل قوه وعنف وصرامة فراح يدبج الرسائل ويبعث بها الى رؤساء المجامع فى الشرق والغرب ويعقد المجامع ويخاطب الامبراطور ، بل والامبراطوره والاميره بوليكاريا ، مما جعل الامبراطور نيودسيوس الثانى يغضب لذلك ويتهم كيرلس بأنه يعمل على اثارة اعضاء أسرته بعضهم ضد البعض الآخـر .

٤٣١ م ـ مجمـع افسس :

لم يستطع الامبراطور بكل تهديداته او ضغطه أن يوقف كيرلس عن تسلطه فى مهاجمة القائلين بان مريم ليست أم الاله وقد رأينا فيما سبق ان عبادة ايزيس كانت احدى الديانات التى احـدث ثوره عالميه ، وكانت صورتها وهى تحمل الابن الاله (حوريس) هى التعويذه والتميمه التى يلوذ بهـا المـلايين من العبـاد فى أرجـاء الامبراطوريه .. لذلك فقد ربى عقد مجمع مسكونى جديد من الاساقفه فى مدينة افسس وكان المحرض للامبراطور لدعوه هذا المجمع هو نسطوريوس نفسه ، تصورا منه ان المجمع سيدين كيرلس ويأخذ وجهة نظر نسطوريوس .

ولم يكد كيرلس يتلقى الدعوة حتى شد رحاله الى افسس مصطحبا معه خمسين اسقفا وعشرات من رجال الكهنوت كان من بينهم الناسـك الانبا شـنوده . وكان كيرلس يحمل تفويضا من كنائس افريقيا التى عاقتها عوائق التهديد بغزو اجنبى عن المشاركة فى المؤتمر ، أن يمثلها ويتكلم باسمها كما تلقى تفويضا من كنيسة روما وهكذا اصبح يمثل ثلاث كنائس ، فعهد اليه برئاسة المجمع الذى احتشد فيه قرابة مائتين من الاسـاقفة .

ولم ينتظر كيرلس حضور أساقفه انطاكية الذين تأخروا فى الوصول الى افسس واسرع بعقد المجمع الذى اصدر قرارا بسحب بدعة نسطوريوس وعزله من كرسى القسطنطينية وحرمانه من الدين المسيحى جملة .

وقد حاول الامبراطور ثيودسيوس الثانى عندما وصله النبأ أن ينتصر لاسقف عاصمة بلاده نسطوريوس فاستمع لاقوال خصـوم كيرلس الذين كادوا له عنـد الامبراطور واتهموه بالتآمر فأصدر أمره بسجنه فى مدينة افسس ، ولكنه لم يلبث أن انصاع لاجماع الكنيسة فوافق على عزل نسطوريوس ثم نفاه بعد ذلك الى صحراء ليبيا ، فى الوقت الذى اطلق فيه سراح كيرلس فعاد الى الاسكندرية وقد بلغ ذروة النجـاح والنفـوذ .

٤٣٥ م ـ كان الحاكم الرومانى فى يناير من هذه السنة كليوباتر .

٤٣٨ م ـ اصدر ثيودسيوس الثانى ، او بالاحرى صدرت باسمه وفى عهده دون أن يكون له مشاركة فعلية ، ويقول بعض المؤرخين بل ربما دون أن يطالعها : أول

مجموعة للقوانين الرومانية منذ جلس قسطنطين على العرش ، لتطبق على الشرق والغرب معا ، فأصبحت هناك لاول مرة فى العالم الرومانى شريعة موحدة تنظم المجتمع الرومانى كله ، وقد ظلت هذه المجموعة نافذة المفعول ، حتى أصدر جوستنيان مجموعته الاعظم والاوسع والاشمل .

٤٤٢ م ـ وفاة الانبا كيرلس الكبير :

توفى الانبا كيرلس الكبير بعد ان ظل متربعا على كرسى الكرازة المرقسية واحدا وثلاثين عاما وثمانية شهور تمتع فيها بمكانة عالية لم يحظ بها بطريرك من قبله حتى أصبح يلقب بفرعون .

وفى عهده أصبح لبطريرك الاسكندرية من السلطة المباشرة على أساقفه مصر والمدن الخمس ما جعل من البطريركية المرقسية اكبر وحدة كنسية فى الشرق واصبح لبابا الاسكندرية ما لبابا روما من السلطة فى رسامة معاونيه من القسس والاساقفة .

ولم يعد نفوذ الكنيسة المصرية وقفا على سلطتها الروحية ، بل ان قوتها المادية بدات تتجلى فى ضخامة ثروتها التى أصبحت تتألف مما تمدها به الحكومة من هبات ومنح ، وما ينهال عليها من تبرعات وهبات ووصايا ، والتى تقدر بمليون دينار فى العام الواحد .

ولا تزال آثار الانبا كيرلس الكبير باقية حتى اليوم تتردد بين أرجاء الكنيسة المصريه ، فيما يسمى « بالقداس الكيرلسى » حيث تؤديه الكنائس فى اعيادها الكبرى .

الانبا ديسقورس :

واختار الشعب والاكليروس الانبا ديسقورس ليخلف الانبا كيرلس ولم يكن يختلف كثيرا عن سلفه الكبير فى شخصيته وسلوكه وسياسته ولذلك فقد استؤنف الصراع من جديد بينه وبين أسقف القسطنطينية الجديد (فلافيانوس) والذى ابعث المبادىء النسطورية من جديد ، بمناسبة مناداة أحد رؤساء الاديرة فى القسطنطينية ويدعى أوفيكس بمذهب الطبيعة الواحدة ، اذ انكر عليه فلافيانوس هذا القول وعقد مجمعا محليا من الاساقفة فأصدروا قرارا بانكار بدعة القول بالطبيعة الواحدة وحرم أوفيكس القائل بها من الكنيسة المسيحية وكان طبيعيا أن يلتجىء أوفيكس الى بابا الاسكندرية وبابا روما متظلما من هذا القرار بحرمانه .

واستطاع ديسقورس أن يقنع الامبراطور بعقد مجمع جديد فى مدينة افسس لحسم هذه القضية .

٤٤٩ م - مجمع افسس الثانى :

انعقد المجمع فى مدينة افسس وتولى رئاسته ديسقورس واصدر قراره بتبرئة اوفيكس وهوجم فلافيانوس هجوما عنيفا ، حتى قيل ان الرجل لم يستطع احتمال ما وجه اليه فلم يلبث ان قضى نحبه مغموما .

وكان من قرارات المجمع الاخرى ، لعن كل من يقول بوجود طبيعتين للمسيح .

ويبدو ان ديسقورس قد حرص هو والاساقفة الشرقيون ان يقللوا من شأن بابا روما ليو الاول ، فأغفلوا عامدين تلاوة رسالة بعث بها الى المجمع يحدد بها الصيغة الرسمية التى يجب ان يكون عليها حل القضايا محل البحث والجدل .

فلا عجب اذا غضب البابا لبو على مجمع افسس الثانى ولم يقف عند حد عدم الاعتراف بقراراته ، بل لقد وصفه بأنه « مجمع اللصوص » .

ولقد جعل هذا الموقف من بابا روما ، ما يؤكد الحقيقة التى كان يحس بها الجميع وهو ان الصراع فى حقيقته بين الاسكندرية والقسطنطينية وروما لم يكن نزاعا عقائديا بقدر ما هو نزاع على السلطة السياسية .

فمن ناحية كان هم ديسقورس كأسلافه تدعيم أولوية كنيسة الاسكندرية وسلطان بطريركها على العالم المسيحى ، فى الوقت الذى كان أسقف القسطنطينية باعتبارها عاصمة الدولة الجديدة ويتابعه على هذا الامبراطور يرى أن ذلك هو من حقه .

ثم تدخل بابا روما فى هذا النزاع لا لمصلحة العقيدة هذه المرة ولكن لتقويض سلطان كنيسة الاسكندرية التى بدت كأنها هى وحدها التى تملك تحديد العقيدة المسيحية .

٤٥٠ م - موت الامبراطور ثودسيوس الثانى :

مات ثيودسيوس بعد ان حكم من الناحية الرسمية اثنتين وأربعين سنة ، وان كان الحاكم الحقيقى خلال هذه المدة هو اخته بوليكاريا على أن التاريخ يحفظ لها حسن التصرف والادارة والكياسة ، فقد كانت هذه الفترة التى حكمت فيها مباشرة باسم ثيودسيوس ، ثم ما تلا ذلك من مباشرة ثيودسيوس الحكم بمعاونتها هى فترة هدوء واستقرار لم تنعم به الامبراطورية منذ أمد بعيد ، وذلك فى الوقت الذى كان القسم الغربى من الامبراطورية تمزقه الاضطربات والفتن والحروب والغارات .

الامبراطور ماركيانوس :

رفعت بوليكاريا على العرش خلفا لاخيها زوجها ماركيانوس .

٤٥١ – مجمع خليقدونية :

لم يكن باستطاعة كنيسة روما والقسطنطينية أن يسكتا على ما وصل اليه نفوذ بابا الاسكندرية بعد مجمع افسس وخاصة بعد أن نجح ديسقورس فى تنصيب مرشح له بطريركا على كنيسة القسطنطينية نفسها ، اذ أنه أصبح هو المسيطر الاوحد (بموافقة الامبراطور) على الكنيسة الشرقية .

ومن هنا بدأ المساعى لحمل الامبراطور على دعوة مجمع جديد فى مدينة خليقدونية التى تقع بالقرب من القسطنطينية ، ليحسم وبطريقة نهائية كل المسائل التنظيمية والعقائدية المتعلقة بالكنيسة المسيحية فوافق الامبراطور على عقد هذا المجمع ، الذى احتشد له عدد من الاساقفة لم يسبق له مثيل فى اى مجمع سابق اذ بلغ عددهم ٦٣٢ اسقفا .

وكانت قرارات هذا المجمع الجديد تكاد تكون معروفة قبل اجراء اى مناقشة ، وهى انكار قرارات مجمع افسس ، وقبول رسالة بابا روما المعروفة باسم Tome والتى رفض تلاوتها مجمع افسس واعتبارها متفقة مع العقيدة السليمة الارثوذكسية التى تقضى بوجود المسيح فى طبيعتين دون اندماج أو تغيير أو انقسام أو انفصال .

اما ديسقورس نفسه فقد جرت محاكمته وتقرر عزله لا لالحاده وهرطقته بل لان سلوكه كان يخالف القوانين الكنسية فقد اتهموه بسوء السلوك الشخصى وانه اغتصب من اقارب سلفه املاكا اضافها الى أملاك الكنيسة ، وانه يتصرف على اعتبار أنه الوالى الحقيقى للاسكندرية . وتتجلى قوة شكيمة ديسقورس واعتداده بنفسه وبالرسالة القومية التى يمثلها ، فى رفضه باباء لما عرضه عليه الامبراطور من ابقائه فى منصبه شريطة أن ينسحب لقرارات المؤتمر ويخضع للامبراطور وآثر النفى على قبول ما عرضه عليه ، فنفى الى احدى مدن آسيا الصغرى وظل بها الى أن مات عام ٤٥٤ م .

مختتما بذلك عهد بطاركة الاسكندرية الفحول الذين كانت لهم الكلمة العليا فى حياة المسيحية وتعزيز عقائدها .

انفصال الكنيسة المصرية عن الشرقية :

وتعتبر قرارات مجمع خليقدونية ذات أهمية سياسية فى تاريخ روما البيزنطية ، ففى الوقت الذى اعتبرت فيه قرارات هذا المجمع اساس العقيدة المسيحية نهائيا ، فان مصر والشام قد رفضتا الاخذ بها وازدادت تشبثا بمذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزتى) وفشلت كل الجهود التى بذلت خلال القرون المتعاقبة لرأب هذا الصدع .

اللغة القبطية :

وكان من أول مظاهر هذا الانفصال وما ساعد على تعميقه ابطال الكنيسة المصرية

استعمال اللغة اليونانية بصفة نهائية فى طقوس الكنيسة ، واحلت محلها اللغة المصرية القديمة التى اصبحت تعرف منذ ذلك الوقت باللغة القبطية ، وهى ليست سوى اللغة المصرية القديمة مكتوبة بحروف يونانية بعد ان اضيفت اليها سبعة حروف تخلو منها اللغة اليونانية .

وغنى عن البيان أن استعمال اللغة القبطية فى طقوس الكنيسة لم يكن ممكن التحقيق الا بفضل رهبان الاديرة وخاصة رهبان دير ابى مقار الذين توافروا على ترجمة اشعار العهد القديم والعهد الجديد الى اللغة القبطية البحيرية منذ عهد مبكر .

البطريرك بروتيروس :

أسرع الامبراطور بعد عزل ديسقورس بتعيين خلف له ، واجتهد أن يحسن الاختيار ، فرسح بروتيروس وهو أحد كهنة الاسكندرية وكان وثيق الصلة بديسقورس حتى لقد عهد اليه بتولى أمر الكنيسة أثناء غيابه فى مجمع خليقدونية .

وبادرت طبقة الارستقراطية المسيحية الجديدة فى الاسكندرية فايدت الاختيار واعلن الحاكم الرومانى تأييده ، فاصدر الامبراطور امره بتعيين بروتيروس بطريركا على الاسكندرية .

ولكن هذه الاجراءات كلها لم يكن لها سوى اثر عكسى على شعب مدينة الاسكندرية الذى كان يعكس ارادة مصر كلها فى التمسك ببطريركها ولذلك فقد هاجمت جموع الشعب موظفى الحكومة المدنيين والعسكريين ، وتراجع الجند أمام غضبة الشعب واعتصموا بالسرابيوم فأشعل الشعب النار بالمبنى العتيد ، واحتاج الامر الى ارسال مزيد من فرق الجيش لاعادة الامن والنظام وتثبيت البطريرك الجديد فى كرسيه .

فى الوقت الذى اصدرت فيه الحكومة بعض الاوامر على سبيل العقاب للشعب فأوقفت الالعاب العامة واغلقت الحمامات ، وحرمت المدينة من الانتفاع بهبات القمح المخزون .

ولكن هذه الاجراءات الجديدة لم ترد النار الا اشتعالا ولم يكن باستطاعة البطريرك الملكى أن يتحرك الا فى ظل الحراس .

ولقد اتخذ المصريون من معارضتهم لمجمع خليقدونية ومن تمسكهم بعقيدة كيرليس وديسقورس رمزا للمقاومة الوطنية .

وسيكون لهذه المقاومة أكبر الاثر لتيسير مهمة الفتح الفارسى لمصر ثم الفتح الاسلامى ثانيا فى القرن التالى .

٤٥٣ م — كان الحاكم الرومانى على مصر فى هذه السنة فلورس .

٤٥٧ م ـ الامبراطور ليو :

مات الامبراطور مرقيان مخلفا على العرش الامبراطور ليو الاول وهو اول امبراطور بيزنطى قام بتتويجه اسقف القسطنطينية وسط الشعائر الدينية .

٤٥٨ م ـ الانبا تيموتاوس ومقتل بروتيروس :

انتهز الشعب السكندرى فرصة غياب قائد الجيوش البيزنطية ديونسيوس فى الوجه القبلى لمواجهة الحملات التى عادت قبائل البليمى والنوبة تشنها على جنوب مصر ، لكى يسقطوا بروتيروس عن كرسى الاسقفية وينصبوا بدلا منه الراهب تيموتاوس العروسى اليعقوبى مؤكدين بذلك حق الشعب فى اختيار بطريركه ووصلت هذه الاخبار الى القائد البيزنطى فهرول مسرعا الى الاسكندرية ، ولكن الشعب الذى تسامع بقرب عودته اراد ان يضعه امام الامر الواقع فقتل بروتيروس وعلق جثته .

وكان طبيعيا ان يشتد غضب الامبراطور لهذا الذى حدث تحديا لسلطانه ، فاستشار اساقفته فيما يجب عمله ، فاشاروا عليه جميعا بضرورة عدم الاعتراف بمختار الشعب ، وان لا مناص من التمسك بالعقيدة الخليقدونية . فاصدر امره بعزل البابا الذى اختاره الشعب ، وعين بطريركا من قبله شاءت الصدف ان يكون اسمه تيموتاوس كذلك فاصبح يلقب بالملكى تعريفا له عن تيموتاوس اليعقوبى ولم يعترف الشعب بطبيعة الحال بالبطريرك الملكى وظل متمسكا ببطريركه وهكذا بدا ازدواج البطارقة فى الاسكندرية احدهما ملكى يرضى عنه الامبراطور ولا يعترف به الشعب ، والثانى يختاره الشعب ولا يعترف به الامبراطور .

واصبح من الاقوال التى تؤثر عن السكندريين (المونوفيزيين) فى هذه الفترة أن يقولوا للبطريرك الملكى : اننا نحبك غير اننا لا نريدك أسقفا علينا .

٤٧٤ م ـ الامبراطور ليو الثانى وزينون :

ارتقى عرش الامبراطورية عقب وفاة ليو حفيدة ليو الثانى ولما كان صغيرا فقد أشرك معه فى الحكم والده زينون ، فلما مات ليو فى نفس السنة اصبح زينون هو الامبراطور .

٤٧٥ م ـ تمردت بعض فرق الجيش ضد حكم زينون وبايعت بازيل زوج اخت ليو الاول ليكون امبراطورا فاستطاع أن يستولى على القسطنطينية بدون قتال وان ينفى الامبراطور زينون ويعلن نفسه امبراطورا .

وقد كان من حسن حظ مصر وكنيستها أن بازيل كان يدين بالمذهب المصرى

اى وحدة الطبيعة الذى بدأ يعرف من ذلك الوقت بالمذهب اليعقوبى ولذلك فقد اصدر أمره بالغاء قرارات خليقدونية وأعاد تيماثاوس العروسى اليعقوبى لكرسى الاسكندرية فدخلها دخول الفاتحين . وأعاد لمدينة افسس مقامها البطريركى الذى كان مجمع خليقدونية قد حرمها منه مؤكدا بذلك سلطانه الروحى على كنائس الشرق ولكن من سوء حظ الكنيسة المصرية أن ذلك لم يدم لفترة طويلة ، فقد استطاع زينون المخلوع ، أن يحشد من القوى ما قدره على التغلب على يازيل وقتله خلال عامين .

٤٧٦ م ـ نهاية الامبراطورية الرومانية :

في ٤ سبتمبر من هذا العام خلع أوردكر زعيم القبائل المتبربرة رومولوس اغسطس آخر أباطرة الغرب ، وقد اعترف زينون باحتلال أوردكر لروما واسقاطه لامبراطورها ، بل وخلع عليه لقب البطريق وهو لقب الشرف لقادة المتبربرين وقد أصطلح المؤرخون على اعتبار هذا التاريخ نهاية الامبراطورية الرومانية .

٤٨٠ م ـ وفاة الانبا تيموثاوس :

توفى الانبا تيموثاوس بعد ان اقام على كرسى الكرازة المرقسية اثنين وعشرين سنة وأحد عشر شهرا ، ومات قبل ان يمكن لزينون الذى كان قد عاد الى العرش أن يخلعه . وبموته انفتحت من جديد مشكلة كرسى الاسكندرية ومن يتولاه فقد اختار الشعب والاكليروس بطرس فيجوس ليكون بطريركا ولكن الامبراطور زينون لم يعترف به واعاد الى الكرسى تيوثاوس الملكى ليكون طوع يديه ومنفذا لسياسته فى مصر .

واستعمل الشعب حقه فى الاعتراض فبعث الى الامبراطور بكاهن مصرى يدعى حنا ليستعطف الامبراطور ويحمله على الموافقة على مختار الشعب بطرس فيجوس.

ولما كان الامبراطور يرغب فى تهدئة الجو والمصالحة فقد وعد الرسول خيرا ، وطلب من الشعب المصرى مهلة لتحقيق رغباته .

وحدث فى هذه الفترة ان مات البطريرك الملكى تياوثاوس فاختار الشعب والاكليروس الكاهن يوحنا ليكون هو البطريرك ، وأراد الامبراطور الا يتصدى لرأى الشعب فى الوقت الذى يعمل فيه على استرضائه فى نفس الوقت فأقام على الكرسى بطرس فيجوس الذى سبق للشعب أن اختاره بطريركا .

واتفق الامبراطور مع بطرس أن يجرى العمل طبقا لقرارات مجمع نيقيا وترك الخصام والعداوة بشأن قرارات مجمع خليقدونية .

٤٨٢ م ـ سياسة الوفاق الديني :

رأى الامبراطور زينون أن من الحكمة ان يضع حدا للخلافات الدينية بين كنائس الشرق المختلفة ، وساعده على ذلك سقوط روما في يد أودوكر ومن بعده في يد ثيودوريك فخرجت بذلك من دائرة السياسة البيزنطية ، فأصدر في هذا العام ما يعرف بمشروع الاتحاد Homotikon وقد جاء في ديباجة هذه الوثيقة أن سعادة الامبراطورية انما تتوقف على توحيد الصلوات والطقوس عند رجال الدين والرهبان والعلمانيين . ولضمان الحصول على الوحدة المطلوبة في الكنيسة والدولة ، فقد اتخذت الوثيقة العقيدة النقية من اعتبار المسيح الها وانسانا في شخص واحد اساسا لها وصرفت النظر عن التحدث عن طبيعتي المسيح وانكرت كل قول بخلافه ، ذلك سواء في مجمع خلقيدونية أو غيره من المجامع وادانت نسطوريوس وأوطاخي .

وقد وضعت هذه الوثيقة بحيث يقرها المعتدلون من المونوفيزيين والخلقدونيين وبالنسبة لمصر بالذات فقد تم الاتفاق على حق المصريين في اختيار أسقفهم دون تدخل الامبراطور . وقد اعتبر المصريون هذا الاتفاق نصرا لهم اذ انتزعوا استقلال كنيستهم وتأييد عقيدتهم .

وبالذات فقد انكر الانبا بطرس على الرهبان المتمسكين بقرار مجمع خلقيدونية واخطأهم [illegible] ، فاعتبر الامبراطور ذلك منه نقضا للعهد والاتفاق فأرسل اليه من [illegible] بعث اليه بالقائد ارسنيوس فقبض عليه وقاده للقسطنطينية [illegible] .

٤٨٤ م ـ وفاة الانبا بطرس :

توفي الانبا بطرس بعد أن أقام على كرسي الكرازة المرقسية ثماني سنوات وثلاثة اشهر .

الانبا اثناسيوس :

وقد وفق الشعب والاكليروس في اختيار خليفة له في شخص الانبا اثناسيوس (الثاني) الذي يوصف بالوداعة والذي استطاع ان يخمد جراح الكنيسة خلال أواخر الامبراطور زينون الذي خلت من أخبار المنازعات والخلافات العقائدية والمذهبية .

٤٩١ م ـ الامبراطور انسطاسيوس الاول :

توفي الامبراطور زينون فارتقى العرش انسطاسيوس الاول الذي تزوج بأرملة زينون وقد وصف بأنه كان رجلا قديرا شجاعا ، محبا للخير دعم مالية الدولة بادارته

الاقتصادية الحكيمة وخفض الضرائب ، والغى صراع الآدميين مع الوحوش في الحفلات والالعاب وانشأ حول القسطنطينية اسوارها الشهيرة التى جعلتها أمنع من عقاب الجو ، والتى كانت تمتد اربعين ميلا من بحر مرمرة الى البحر الاسود وكان لهـا الفضـل فى الابقاء عليها قرابة عشرة قرون ، وكان من الحكمة بحيث اوقف العداء للحـزب المنوفيزى .

٤٩٦ م ـ وفاة الانبا اثناسيوس :

توفى الانبا اثناسيوس بعد أن أقام على الكرسى الرسولى ستة أعوام وعشرة أشهر خلت من المنازعات ، واعتبر المصريون فيها أن عقيـدتهم (المونوفوزنية) هى التى سـادت أخـيرا وانتصرت .

الانبـا يوحنـا :

وارتقى السدة المرقسية الانبا يوحنا بناء على اختيار الشعب والاكليروس .

٥٠١ م ـ غـارة الفـرس على مصر :

اغار الفرس على سوريا ثم تقدموا الى مصر فاستطاعوا ان يجوسوا خلال الدلتا ، ولكنهم وقفوا عند أسوار الاسكندرية التى استعصت عليهم ويبدو أن القائد الفارسى خشى على نفسـه مما نسـمه استطالة خطوطه وابتعاده عن قاعدته بغير أمل فى وصـول نجـدات ، فاضطر للانسحاب .

وقد كان لحصاره الطويل اثر فى مدينة الاسكندرية اذ اصابها بمجاعة شديدة .

وقد عنى انسطاسيوس بمساعدة الاسكندرية ، وانعاشها وترميم مبانيها العامة وكانت منارة الاسكندرية الشهيرة قد أهملت خلال القرون السابقة حتى كادت أن تخرب ، فأمر بترميمها واعادة العناية بها .

وكان الحاكم الرومانى على مصر فى هذه السنة ايوستانيوس .

٥٠٥ م ـ وفاة الانبا يوحنـا :

توفى الانبا يوحنا بعـد أن أقام على كرسى الكرازة المرقسـية ثمانى ... وسـبعة أشـهر .

الانبا يوحنـا (الثانى) :

وخلفه بابا بنفس الاسم وقد اقر الامبراطور اختيار الشـعب والاكليروس ، مما جعـــل المصريين يتصـورون ان الامبراطور يدين بمذهب وحـــدة الطبيعة (المونوفيزنية) .

٥١٢ م – نصب سويروس بطريركا على انطاكية وكان يدين بمذهب المصريين فى وحدة الطبيعة فعارضت القسطنطينية فى اختياره فالتجأ الى الاسكندرية ويقول لنا الاستاذ اسكندر صيفى فى كتابه « المنارة التاريخية » انه عندما وصـل الى مصر ليقيم فيها لم يستطع ان يصادق على مذهب المصريين فى جملته فقد كان المذهب المصرى فى هذه الفترة يقول بأن يسوع لم يصلب بل شبه للناظرين كما جاء فيما بعد فى القرآن ، ومذهبه لم يكن كذلك (ص ١٨٩) .

٥١٦ وفاة الانبا يوحنـا :

توفى الأنبا يوحنا الثانى بعد ان اقام على كرسى الكرازة المرقسية احد عشر عاما .

الانبا ديسـقورس :

وارتقى السدة المرقسية الانبا ديسقورس وقد جاء فى كتاب المنارة التاريخية ان الشعب قاوم ارتقاءه بدعوى ان رسامته لم تجر على السنن الرسولية مما اضطر حاكم الاسـكندرية الى ان يحرسه بقواته العسـكرية حتى اجلسـه على كرسيه فى كنيسـة مار مرقص .

٥١٨ – وفاة الامبراطور انسطاسيوس :

مات الامبراطور انسطاسيوس وقد تجاوز الثمانين من عمره بعد أن حكم حكما رشيدا طوال سبع وعشرين سنة ، ساد فيها الهدوء أرجاء الامبراطورية البيزنطية ، وازدهرت اقتصاديات بيزنطة حتى لقد ترك خزانة مكدسة بالذهب بلغ فى تقدير البعض ٣٢٠٠٠٠٠ (١) رطل ، وهو الذى سيمكن جوستنيان من القيام بحروبه .

اغتصب الملك جستين الاول الذى كان قائدا للحرس الامبراطورى ، فاستعان فى الحكم بابن أخيه المحنك جوستنيان . وكان أول ما واجهه هو تهديد فارس المستمر للامبراطورية وكان انسطاسيوس قد اجتهد أن يحرك عرب حمير من اليهود أصحاب تجارة الهنـد والحبشة مع مصر ضد فارس .

---

(١) القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الابيض ص ٢٧ .

فلما ان أرتقى جوستين العرش ، سار فى هذا الطريق فبعث بسفارة جديدة الى الحارث ملك الحميريين من اليهود ، فاستقبل السفارة استقبالا حسنا ووعد بمهاجمة الفرس وابقاء طريق تجارة الهند والحبشة مع مصر مفتوحا .

٥١٩ م ـ وفاة الانبا ديسقورس :

فى مطلع هذه السنة او آخر السنة السابقة توفى ديسقورس بعد ان اقام على كرسى الكرازة المرقسية عامين واربعة اشهر .

الانبا تيموثاوس :

وخلفه على كرسى الكرازة المرقسية الانبا تيموثلوس .

٥٢٧ م ـ الامبراطور جوستنيان :

مات الامبراطور جوستين الاول فى نفس العام الذى اشرف فيه ابن اخيه جوستنيلان رسميا على الحكم ، فلما أن مات جوستين ، اصبح جوستنيان هو الامبراطور وكان عمره خمسا واربعين سنة .

وجوستنيان سليل أبوين مزارعين من أصل اليرى واذا كان جوستنيان يذكر فى التاريخ باعتباره رجلا قويا حازما طموحا ، فان التاريخ يكاد يعزو كثيرا من الفضل فيما أحرزه من نجاح الى زوجته تيودورة التى لم تكن تقل عنه قوة وطموحا أن لم تزد .

ويقول لنا بروكبيوس ـ أهم مصدر لنا عن تاريخ جوستنيان ـ أن تيودورة كانت فى الاصل تعمل مدربة دببة فى السيرك قبل ان يتزوجها جوستنيان ثم اشتغلت ممثلة ثم انحدرت بعد ذلك الى أن تكون مومسا ، وقصدت الى مدينة الاسكندرية لفترة من الزمن ، ثم عادت اى القسطنطينية حيث تعرف بها جوسنيان ، ثم أصبحت زوجته .

اما جوستنيان من ناحيته فقد كان متقشفا فى طعامه وشرابه تقشف الزهاد فكان لا يأكل الا قليلا ويعيش معظم أيامه على الخضر ، بل انه كان كثيرا مايصوم حتى لتخور قواه .

وبالرغم من صيامه كان لا ينقطع عما اعتاده من الاستيقاظ المبكر وتصريف شئون الدولة حتى ساعة متأخرة ، وقد بذل جهده ليكون موسيقيا ومهندسا معماريا وشاعرا ومشرعا ، وفقيها فى الدين وفيلسوفا وامبراطورا يجيد شئون الامبراطورية .

وكان يقبل النقد الصريح ولا يغضب منه .. وبالرغم من أن بروكبيوس مؤرخه الذى يمقته اشد المقت يصفه بأنه « رجل ظالم » فقد كان أسهل منالا من أى انسان آخر وكان احقر الناس فى الدولة ، ومن لا شـأن لهم على الاطلاق يستطيعون كلما شـاءوا أن يأتوا اليه ليتحدثوا معه (١) .

على انه قد عمل على أن تصبح حفلات البلاط ومراسيمه غاية فى الابهة والفخامة حتى لقد فاقت ما كان يجـرى أيام دقديانوس وقسطنطين . وكان يطلب الى من يمثلون فى حضرته أن يركعوا ويقبلوا اطراف ثوبه الارجوانى أو اصـابع قدميه من فوق حذائه .. وحرص على أن يـوجـه بطريرك القسطنطينية وأن يتقلد قـلادة من اللؤلؤ .

٥٣٢ م ـ فتنة الزرق والخضر (٢) :

ومن اكبر الحوادث الى واجهت جوستنيان فى مطلع حكمه هذه الفتنة التى قامت فى هذه السنة بين الخضر والزرق وهما الحزبان الكبيران اللذان كان ينقسم اليهما سكان بيزنطة حسب لون الثياب التى كان يلبسها راكبو خيول السباق . وقـد امتد هـذا الانقسام الى ارجاء الامبراطورية وخاصة فى مدينة الاسكندرية ، حيث لم تكن المعارك العنيفة تنقطع بين اتباع هذين الحزبين .

وقد عمد جوستنيان الى ايقاف تيار المنازعات بين الحزبين فاتحد الحزبان ضد جوستنيان . واشعلوا نيران الثورة فى القسطنطينية ، وقتلوا عدداً من رجال الشرطة، واطلقوا سرح المسـجونين ، وتمادى الثوار عندما وجـدوا جوستنيان لا يتحرك لقمعهم ، فانتخبوا امبراطوراً آخر ليكون بديلا من جوستنيان .

وأوشك جوستنيان على الانهيار ، وفكر فى الهرب وهنا يبدأ دور زوجته الخطير فى حياته ، فقد كانت هى الى قوت عزيمته ، وحالت بينه وبين الهـرب ، واصرت على وجوب المقاومة ، واستطاعت أن تقنع بلزاريوس قائد جيوش جوستنيان ، بأن يتولى قمع الثورة .. فصدع بامرها ، وقمع الثورة فى قسوة بالغة ، حتى ليقال ان عـدد من ذبحوا أربى على ثلاثين الفا .

٥٣٣ م ـ مـدونة جوستنيان :

كان جوستنيان قد أصدر أمره عام ٥٢٨ م لفقهاء دولته أن ينظموا قوانين الدولة

---

(١) دوارنت .

(٢) لم استطع ان اتمالك نفسى وأنا اسجل هذا العنوان ، من أن أشير الى هذه المقابلة العجيبة بين هذا العنوان ، وبين ما كان يحدث فى مصر بعد هذا التاريخ بأربعة عشر قرنا ... حيث كانت تقع مصادمات بين شباب مصر الفتاة (ذوى الاقمصة الخضراء) وشباب الوفد (ذوى الاقمصة الزرقاء) .

ويجمعوها ويصلحوها ، فاصدرت اللجنة الجزء الأول من عملها بعد عام واحد من تشكيلها ، فصدر عام (٥٢٩) تحت اسم « القانون الدستورى » .

وأعلن الامبراطور فى هذه السنة الغاء كل ما سبق هذا القانون الدستورى من تشريعات .

ثم انتقل أعضاء اللجنة الى القسم الثانى من مهمتهم ، وهو أن يضموا فى مجموعة واحدة آراء فقهاء القانون الرومانى ، فى تفسير مواد القانون المختلفة بحيث يصبح لها قوة القانون ، ويتحتم على القضاء اتباعها . وفى عام ٥٣٣ نشرت هذه المجموعة تحت اسم (مجموعة القوانين والمبادىء المدنية) ، والتى ظلت منذ صدورها حتى عصرنا الحديث تعتبر أكبر مصادر التشريع الاوروبى بصفة عامة ، وهى التى اشتهرت فى التاريخ باسم « مدونة جوستنيان » ولعله ليس هنالك ما يدل على عظمة هذه المدونة من أن نعرف انها تشتمل فيما تشتمل على أنه « لا يجوز القبض على أى انسان الا بأمر أحد كبار القضاة شريطة ان يحدد فى قرار القبض موعد المحاكمة تحديدا دقيقا لا تجوز مخالفته بأى حال من الاحوال » .

واحسب انه لا يزال كثير من المجتمعات التى توصف بالمدنية والرقى فى عصرنا الحاضر تفتقر الى مثل هذه الضمانة الكبرى لحرية الانسان وكرامته .

ولقد استعرض دورانت فى كتابه الكثير من احكام هذا القانون واثنى عليها ، ومع ذلك فلم يتمالك نفسه ان يمد بصره الى ما بعد ايام جوستنيان وكتب ان الشرقيين قد لاقوا أشد العذاب فى ظل هذا القانون مما جعلهم « يفتحون صدورهم للمسلمين ، وكانوا أكثر رخاء فى ظل القرآن منهم فى ظل هذا القانون » (١) .

٥٣٦ م ــ وفاة تيموثاوس :

توفى الانبا تيموثاوس بعد أن أقام على كرسى الكرازة المرقسية سبعة عشر عاما واربعة شهور . ترعرعت فيها وازدهرت المونوفيزية لان الخليقدونيين كانوا لا يزالون اقلية ضئيلة .

على ان المذهب المونوفيزى نفسه لم يلبث ان اصابه الانشقاق لظهور عديد من النحل والفروض حول جسد المسيح بعد صلبه وهل يتطرق اليه الفساد كبقية الاجساد أو لا يتطرق .

كما وجدت نحلة أخرى تتساءل عما اذا كان المسيح بحكم طبيعته البشرية يحيط بكل الامور أم يجهل شيئا منها . وهكذا ساد الاضطراب صفوف المذهب المونوفيزى . وقد انتهزت الامبراطورة تيودورة فرصة وفاة الانبا تيموثاوس لكى تتدخل فى اختيار خليفته . وقد كانت هى نفسها تدين بالمذهب المونوفيزى . فوقع اختيارها على

(١) ص ٣٢١ جزء ١٢ .

الشماس ثيودسيوس ليكون بطريركا على الاسكندرية وقد كان من المونوفيزنيين المعتدلين ، واشتهر بميله الى المسالمة .

الانبا ثيودسيوس :

ارتقى الانبا ثيودسيوس السدة المرقسية ، ولكن سكان الاسكندرية وقفوا فى وجهه واعتبروه صنيعة الحكومة البيزنطية ، كما اتهموه بالالحاد لانه لم يكن يدين برأيهم القائل بعدم فساد جسد المسيح وطلبوا أن يكون البابا عليهم هو جاتينوس رئيس الشماسة وزعيم الحزب القائل بعدم فساد جسد المسيح ، ولم يلبثوا أن هاجموا ثيودسيوس الذى لم يكن قد مضى على توليه منصبه أكثر من يومين ، وكادوا يتوصلون الى قتله لولا ان نجا منهم بنفسه . وأقام الشعب جاتينوس بطريركا .

ولكن الامبراطورة ثيودوره اعادت ثيودسيوس الى الاسكندرية مصحوبا بقوة من الجيش تحت قيادة نارسيس لتثبيته على كرسيه ، والقبض على جاتينوس .

فاندلعت نيران الثورة فى الاسكندرية ، وسالت الدماء وسقط المئات والالوف من الضحايا ، واشترك النساء فى الفتنة على ما يقول المؤرخون المعاصرون فكن يلقين من فوق اسطح المنازل كل ما يصل الى أيديهن من القذائف على جند نارسيس ، الذى كان كلما اشتد فى اجراءات القمع كلما ازدادت الفتن اشتعالا والشعب صلابة وتماسكا ، فلم يجد نارسيس امامه الا أن يحرق جانبا من المدينة للقضاء على الفتنة .

فلجأ السكندريون الى المقاومة السلبية بعد المقاومة الايجابية فقاطعوا الكنائس بحيث لم يعد يرتادها الا الموظفون ..

واذا كان الانبا ثيودسيوس رجلا صادقا امينا ، فقد رأى أن يستجيب لارادة الشعب ، وان يتخلى عن منصبه ، وان يعود الى القسطنطينية .

وكان جوستنيان قد استقر عزمه فى هذه الفترة على توحيد العقيدة الدينية فى ارجاء الامبراطورية على أساس مقررات مجمع خلقيدونيا ، ووضع حدا لسياسة التسامح التى سار عليها حتى ذلك الوقت ، وتصور أنه يستطيع ان يعتمد فى تنفيذ خطته الجديدة على ثيودسيوس باعتباره موتورا من المصريين ولكن ثيودسيوس رفض فى اصرار ان يكون اداة لتنفيذ السياسة الجديدة ، سياسة التنكيل والارغام .

فغضب عليه جوستنيان واعتبره كافرا وملحدا وقرر عزله عن بطريركية الاسكندرية ، ثم أصدر امره باعتقاله فى قلعة دير كوس . وقد كان هذا الموقف من جانب ثيودسيوس كفيلا بالهاب عواطف المصريين وان يحملهم على الالتفاف حوله واعتباره زعيمهم الشرعى الذى لا يدينون لغيره بالولاء .

بولس البطريرك الملكى :

اختار جوستنيان احد رؤساء الاديرة القريبة من الاسكندرية . وقد تصادف وجوده فى القسطنطينية فى ذلك الوقت ليكون بطريركا على الاسكندرية . وزوده بسلطات مطلقة استثنائية بما فى ذلك عزل رجال الدين وتعيين غيرهم ممن يدينون بالمذهب الخليقدونى ، بل خوله الحق فى أن يكون له يد فى تعيين الدونات أى حكام اقسام مصر المختلفة .

وقد استقبل السكندريون الاسقف الجديد اسوأ استقبال واعتبروه دخيلا عليهم وخائنا لقضيتهم ولقبوه باسم يهوذا اشارة الى ارتداده عن المذهب المونوفيزى .

ولكن بولس رد على الاسكندرية فى عنف مستخدما ما زود به من سلطات فأمر باغلاق الكنائس المونوفيزية ، ثم سلمها بعد ذلك الى الخليقدونيين ، ومضى فى اضطهاده لمعارضيه فى الراى الى حد لم يبلغه الحكام الوثنيون فى اضطهاد المسيحيين ، حتى قيل انه كان يلقى بالمصريين فى الحمامات ليكونوا وقودا لتسخين مياهها .

على أن ذلك كله لم يوهن من عزائم المسيحيين المصريين من اتباع المذهب المونوفيزى ، والذين مضوا فى سياستهم السلبية وتمسكوا اكثر واكثر بزعيمهم الروحى الانبا ثيودسيوس .

٥٣٨ م - اعادة تنظيم مصر :

كان للموقف الجديد الذى وقفه جوستنيان من العقيدة الدينية المصرية ، أسوأ الاثر على العلاقات بين مصر وبيزنطة ، فاشتدت كراهية الناس للادارة الامبراطورية فوق كراهيتهم القديمة التى كان سببها انتشار الفساد والرشوة بين رجال الادارة .

وبدات احوال البلاد الاقتصادية تضطرب ، فارتفعت الاسعار ارتفاعا فاحشا وعزت ضروريات الحياة ... وبدا مرجل السخط يغلى مهددا بالانفجار

وهنا قرر جوستنيان ان يتدخل لاصلاح الادارة المصرية اصلاحا اساسيا ، ليعيد النظام والاستقرار والازدهار الذى فقدته البلاد ، فأصدر قانونه المشهور الخاص باعادة تنظيم الاحوال فى مصر ، والذى اشتهر باسم القانون رقم ١٣ .

وقد افاض الدكتور السيد الباز العرينى فى مؤلفه مصر البيزنطية فى تفاصيل هذا القانون ونواحيه الادارية والمالية والقضائية والعسكرية .

وقد اعاد هذا القانون تقسيم مصر الى خمس دونيات تستقل بعضها عن بعض فى الناحية الادارية يرأس كل منها حاكم (دون) يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية ، على أن يبقى من اختصاص دون الاسكندرية (الارجسنال) تلقى القمح الخاص ببيزنطة وارساله اليها .

واعاد القانون ... ايم السلطة القضائية ، ونظام الشرطة كما اعاد تنظيم الضرائب وخاصة ضريبة ال... التى اصبحت عماد حياة بيزنطة كما كانت من قبل عماد حياة روما ، واعاد ... اختصاصات مجالس المدن ، واختصاصات كل موظف من موظفى الادارة .

ويبلغ من شمول هذا القانون .. أن تعرض لاجور شحن القمح من الاسكندرية الى القسطنطينية فزاد فى فئاتها .

وغنى عن البيان أن الهدف الاول من اجراء هذه التنظيمات لم يكن خيرا للمواطنين وانما هو نفس الهدف الذى حدا بالعاهل هادريان من قبل الى وضع مثل هذه الخطط ، وهو تنظيم البلاد لضمان حسن الجباية ، واستدرار أكبر قدر من الضرائب .

ولكن روح الاستقلال التى تجلت فى موقف الكنيسة المصرية سرعان ما احبطت مقاصد الامبراطور .. ووقع الاصطدام بين ما وضعه جوستنيان من نظم وما كان سائدا فى مصر من تقاليد ، ووصل الصدام الى ذروته حول القضية الدينية .

٥٣٩ م ــ الحاكم والاسقف :

كانت الامبراطورة تيودورة ، قد نجحت فى حمل الامبراطور على عزل بولس وتعيين خلف له اسمه زويل ، غير أنه كسلفه لم يستطع أن يتولى كرسيه الا فى حماية الجند .

وقرر جوستنيان فيما يبدو ، أن يمضى فى الشدة مع المصريين الى آخر مداها فارسل الى مصر بطريركا ملكيا جديدا ضم الى سلطته الدينية سلطة الحاكم العسكرية ، وطلب منه أن يتخذ كل الوسائل لصرف المصريين عن مذهب الوحدة والاخذ بالمبادىء الخلقدونية وكان هذا البطريرك يدعى ابوليناريس . ووصل رجل الدين الى الاسكندرية ، بملابس قائد الجند ، حتى اذ بلغ الكنيسة خلع ثوب الجند وارتدى لباس الاسقف ، ثم راح يوجه الحديث الى أهل الاسكندرية المجتمعين بالعبارات التالية : « يا أهل الاسكندرية ، يا أيها الاشراف .. أن رجعتم الى الايمان وتخليتم عن البدعة اليعقوبية كان ذلك خيرا لكم ، وان لم ترجعوا عما أنتم فيه ، فسوف يبعث اليكم الامبراطور من يهدر دماءكم ويستحيى نساءكم وييتم أبناءكم » وكان طبيعيا أن يرد عليه الاسكندريون هذه الخطبة بمثلها فحصبوه بالتراب والحجارة ، ولكن الرجل كان معدا عدته ومضمرا كيده ، فقد أعطى اشارة للجنود المتربصين فانقضوا على المحتشدين فى الكنيسة وراحت تذبح وتقتل ، حتى تغطت أرض الكنيسة بالدماء والجثث وانتقلت المذابح من الكنيسة الى خارجها فى أرجاء المدينة ، وتسرف بعض الروايات فى عدد الذين قتلوا فتجعلهم مائتى الف .. ولكن ساويرس الاشمونى يقول لنا بعبارة عامة : أن ما حدث وقتذاك لم يكن له مثيل حتى فى زمن الوثنيين .

وربما يكون ابولناريوس الحاكم ، قد نجح فى ترويع المصريين الموحدين ولكن البطريرك والرئيس الروحى قد قتل فلم يكن لكل ما عمله سوى اثر واحد ، وهو ازدياد المصريين تمسكا بمبدئهم ، واصرارا على زعامة بطريركهم المنتصر تيودسيوس.

٥٤٠ م ـ الحرب الفارسية الكبرى :

كانت الحرب بين الفرس والرومان ، منذ جاء الرومان الى الشرق لا تكاد تهدأ الا لتشتعل من جديد .. وقد انهمك جوستنيان فى السنوات الخمس الاولى فى حرب طاحنة مع الفرس ، ولكنه اذ كان يرنو ببصره نحو الغرب ، واعادة توحيد الامبراطورية الرومانية ، وبسط سيادته على البحر الابيض المتوسط ، فقد حمل قائده بازاريوس على عقد صلح مع الفرس ، على اساس أن يدفع لهم جزية سنوية .

واستطاع جوستنيان فى ظل هذا الصلح ، أن ينشىء قوة بحرية وسيادة فى البحر الابيض المتوسط مكنته من اعادة شمال افريقيا ، وايطاليا وجزر البحر الابيض واسبانيا الى سلطاته .

ولكن كسرى الاول ملك فارس ، لم يلبث ان شن الحرب من جديد على بيزنطة ، هذه الحرب التى توصف بالكبرى والتى ستظل متجددة الاوار بين الدولتين لمدة قرن من الزمان ، والتى لم يضع لها حدا ... الا قيام الدولة الاسلامة التى ستحطم جيوش الدولتين معا .

امتداد الحرب الى البحر الاحمر :

وقد كان المظهر الجديد للحرب بين فارس وبيزنطة فى هذه الحقبة من التاريخ ، هو هذا الصراع فى جنوب البحر الاحمر بين دولة اكسيوم (الحبشة) التى ترتبط ببيزنطة من ناحية ، وبين العرب فى بلاد اليمن الذين يرتبطون بالفرس من ناحية اخرى .

وقد كان الرباط الذى يجمع بين كل من الطرفين .. هو المنافسة حول تجارة الشرق ، وهل تأخذ طريق جزيرة العرب فبلاد فارس ، أم طريق الحبشة فالبحر الاحمر فمصر لتأخذ طريقها الى بيزنطة .

وسيظل هذا العراك ممتدا حتى مولد النبى العربى عام ٥٧٠ م ، عندما يتوجه جيش حبشى تحت زعامة ابرهه الى مكة عازما أن يهدم الكعبة ، فصدته عنها ارادة السماء .

وقد ظهر اثر الحرب بين الفرس والروم فى مياه البحر الاحمر على ارض مصر ، اذ ان جوستنيان حول الاديرة الكبيرة المنتشرة عبر صحراء مصر الشرقية ، الى حصون عسكرية لتحمى الطرق المؤدية من مصر عبر سينا الى سوريا ، بل وانشأت

سلسلة اخرى من الاديرة حشدت بالرهبان والجنود فى آن واحد لتكون قلاع دفاع ضد الجيوش التى قد تحدثها نفسها بغزو مصر عن هذا الطريق .

٥٤٨ م — موت الامبراطورة تيودورة :

ماتت الامبراطورة تيودورة فكانت وفاتها أكبر ضربة حلت بالامبراطور حطمت شجاعته وصفاء ذهنه وقوة بدنه على ما يقول مؤرخوه . واذ كان قد بلغ من العمر عند وفاتها خمسا وسبعين سنة ، فقد ترك شئون الحكم لعماله ، واهمل وسائل الدفاع ، وانهمك فى المباحث الدينية .

٥٥٣ م — مجمع القسطنطينية الثانى :

كانت تيودورة قد استطاعت أن تقنع جوستنيان قبل وفاتها بضمه للمذهب اليعقوبى (المونوفيزنى) وقد ظلت هذه النزعة تقوى عنده حتى قرر أن يضعها موضع التنفيذ ، فدعا الى عقد مجمع مسكونى فى القسطنطينية عام ٥٥٣ فلم يحضره احد من اساقفة الغرب ، وعرض جوستنيان عدة مبادىء على المجمع فوافق عليها المجمعون ، ولكن الكنيسة العربية رفضتها ، فعاد النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية من جديد .

ووصل الامر بجوستنيان فى اخريات حياته الى نقيض كل ما حارب عليه طول حياته من معتقدات دينية اذ اعلن ان جسد المسيح غير قابل للدنس كما اعلن أن طبيعة المسيح البشرية لم تتعرض فى يوم من الايام لحاجة من حاجات الجسد الفانى ، ولا لشىء من مساوئه وقد كان ذلك اقرارا من جوستنيان بما يؤمن به المصريون من وحدة الطبيعة . وقد حذره رجال الدين فى القسطنطينية ، من أنه اذا مات قبل أن يرجع عن هذه الخطيئة « فسيلقى فى نار جهنم ويبقى فيها الى أبد الآبدين » .

ولكن جوستنيان مات قبل أن يرجع أو يتوب عما طلب منه أن يتوب عنه .

٥٦٥ م — موت جوستنيان :

واخيرا مات جوستنيان . بعد أن تصور معاصروه أنه لن يموت ابدا وبعد ان وصل بامجاده الى حد قالوا فيه ان الدنيا لن تسعه ففى دنيا الحرب والسياسة فقد تضاعفت رقعة الامبراطورية فى عهده ضعفين .

واعاد سلطان بيزنطة على كل البحر الابيض المتوسط بشواطئه وكل ما فيه من جزر وما يقع عليه من بلاد مستخدما فى ذلك الاساطيل البحرية التى غيرت من طبيعة

سلطان بيزنطة فاصبح يعتمد على القوة البحرية اكثر من اعتماده على الجيوش البرية الجرارة ، وهو ما اتاح للاسكندرية ان تواصل لعب دورها الرئيسى فى البحر الابيض كأعظم مدينة فيه .

وتشهد مدونته القانونية بمقدار ما وصلت اليه القسطنطينية من ازدهار ففهى .

كما تشهد كنيسة اياصوفيا (جامع اياصوفيا) بما وصل اليه الفن البيزنطى من تألق ، وما استطاعت القسطنطينية أن تبلغ من عظمة جعلتها اكبر مدن العالم المعروف يومئذ بلا جدال .

الامبراطور جوستين الثانى :

تولى العرش جوستين الثانى ابن اخت جوستنيان بمساعدة طبربوس قائد الحرس . وقد اشتهر جوستين الثانى بأنه حاكم شديد الحذر حاول تركيز اهتمامه فى معالجة ما أصاب الامبراطورية من أزمة اقتصادية بعد أن ترك جوستنيان خزائنها خاوية على عروشها نتيجة حروبه المستمرة ، وعطاياه الباذخة لشراء كل القوى المحيطة بامبراطوريته .

٥٦٧ م ــ وفاة الانبا ثيودسيوس :

توفى الانبا ثيودسيوس فى منفاه بعد ان اقام من الناحية الروحية على كرسي الكرازة المرقسية واحدا وثلاثين عاما واربعة شهور . وان كان البطريرك الفعلى هو أبوليناريوس الملكى الذى لم يلبث ان مات قبل وفاة جوستنيان ، وتعين مكانه بطريكا ملكيا (يوحنا) فلم يحصل على رضاء اى من الحزبين المصرى المونوفيزى او البيزنطى الملكى فقد اتهمه الآخرون بالمانويه .

على انه لم يلبث بدوره ان مات وخلا الكرسى البطريركى .

الانبا بطرس الرابع :

واختار المصريون « الاقباط » أبا روحيا لهم عقب وفاة ثيودسيوس الانبا بطرس الرابع ليكون زعيما لكنيستهم « المونوفيزية » وقد كان بطرس الرابع شماسا رافق ثيودسيوس فى منفاه وكان من اقرب المقربين له .

وكان بعض الاساقفة المصريين قد اختاروا راهبا مصريا اشتهر بالزهد يسمى تيودور ، ولكن شعب الاسكندرية اعترض على هذا الاختيار الذى تم سرا ولم تجر استشارتهم فيه فتنازل تيودور عن اختياره حتى لا يثير النزاع والشقاق .

واذا كان جوستين الثانى قد قرر ان يصالح المصريين ، فقد سمح لبطرس الرابع ان يعود للاقامة فى الاسكندرية بعد أن كان البطاركة المصريون يقيمون فى دير يبعد

تسعة اميال من الاسكندرية ، وقد اعتبرت هذه العودة بمثابة انتصار جديد للكنيسة « المونوفيزية » ، وقد عمل بطرس من جانبه على تدعيم هذا الانتصار فرسم ستة وستين اسقفا دفعة واحدة .

٥٧٠ م — مولد محمد بن عبد الله :

فى هذه السنة ولد فى مكة التى تقع فى اقفر جزء من صحراء جزيرة العرب محمد بن عبد الله ، الذى سيكون مقدرا له ان يقوض سلطان كسرى والروم معا ، وان يفرض سلطانه الروحى على شعوب الشرق الاوسط وشمال افريقيا منذ ذلك التاريخ حتى اليوم .

وقد عاصر مولده أهم حادث فى جزيرة العرب بحر جزيرة العرب .. حيث امتد الصراع بين الفرس والروم الى قلب الجزيرة العربية .. فقد قصد جيش حبشى بقيادة أبرهة لتخريب بيت الله الحرام فى مكة .. وكان الجيش الحبشى المسيحى الضالع مع الروم يستعمل فى مقدمته فيلا ، فسموا أصحاب الفيل (١) . ومحمد (عليه الصلاة والسلام) هو ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن كنانة بن النضر بن عبد مناف ، بن عدنان ينتهى نسبه الى اسماعيل نبى الله الذى رزقه سيدنا ابراهيم الخليل من هاجر المصرية التى أهداها اليه فرعون مصر عند زيارة ابراهيم الخليل لها فأنجبت له اسماعيل فنفست عليها سارة التى كانت عقيما لا تنجب فطلبت من ابراهيم أن يغرب هاجر وولدها . فسار بها حتى جاء الى هذا الموقع حيث بنيت مكة وتركها فى هذا المكان (٢) وانصرف عنهما .

فقدر لهاجر أن لا تموت جوعا أو ظمأ هى وابنها اذ تفجرت عين زمزم وجاءت قبائل من العرب فسكنت باذنها الى جوار الماء ... وهكذا شب اسماعيل واستعرب فكان أبا للعرب المستعربة أجداد محمد .

فاذا كان تاريخ مصر بعد سنوات قليلة من الآن سيرتبط أشد الارتباط بالاسلام فليس ذلك الا جنى لثمرات ما زرعته مصر من قبل .

وقد أشار الرسول صلوات الله عليه الى هذه العلاقة التى تربطه بمصر اذ قال لاصحابه فى أحد الايام على سبيل التنبؤ الذى صدق :

« ستفتحون مصر من بعدى ، فأوصيكم بأهلها خيرا ، فان لكم بها رحما وذمة » وفى رواية ونسبا :

---

(١) يشير القرآن الكريم الى هذا الحادث بقوله : ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول . وقد روى عن رسول الله قوله : ولدت فى عام الفيل .

(٢) أرجع الى فيصل هذه القصة كما وردت فى البخارى ، وفى كتاب مناسك الحج للمؤلف .

ومولد اسماعيل من هاجر المصرية هو الرحم الذى يربط العرب المستعربة وعلى رأسهم سيدنا محمد بمصر ... أما الذمة أو النسب والصهر فسيرد علينا تفصيله فيما بعد .

٥٧١ م — وفاة الانبا بطرس الرابع :

توفى الانبا بطرس البطريرك القبطى ، اذ لم تطل مدة اقامته على الكرسى الرسولى سوى عامين اثنين . كان البطريرك الملكى فى اثنائهما هو يوحنا الثانى .

الانبا دميانوس :

وجلس على الكرسى الرسولى بعده الانبا دميانوس الذى اختاره الشعب والاكليروس المصريين ليكون البابا الخامس والثلاثين على كرسى الكرازة المرقسية .

وقد حاول الانبا دميانوس ان يعالج الضعف الذى طرأ على الكنيسة المونوفيزية ، حيث انقسمت على نفسها انقساما خطيرا ، ومزق المونوفيزيين الى مالا يقل عن عشرين نحلة فكان دميانوس يكثر من التردد على مدينة الاسكندرية ويطيل مدد اقامته بها ويعقد المجامع الدينية ويعظ فى الكنائس .

وقد هيأ له هذه الحرية سياسة التسامح الجديدة التى سلكها البطاركة الملكيون فى هذه الفترة وخاصة الاسقف الوج (٥٨١—٦٠٨) الذى اشتهر بالتبحر فى اللاهوت وقوة بيانه وحسن منطقه ، فجعله ذلك يتسامح مع دامیانوس الذى استغل من ناحيته هذه الفرصة فعمل على اعادة الحيوية الى الكنيسة « المونوفيزية » .

٥٧٧ م — النوبيون يعودون للهجوم على مصر :

كان من بين الاوامر التى اصدرها جوستنيان لقائده ناريسيس عندما بعث به الى مصر عام ٥٧٣ م أن يضع حدا للوثنية فى جنوب مصر وذلك بتدمير معبد فيلة آخر معقل لعبادة ايزيس . وقد كان هذا المعبد هو قبلة النوبيين المقدسة وكذلك قبائل البليمى .

وقد كانت هذه الرابطة الروحية هى التى تبقى قبائل البليمى والنوبيين فى حالة هدوء وسكينة ... فلما أن دمر معبد ايزيس تجددت غارات النوبيين وقبائل البليمى على جنوب مصر .. بحيث نرى أن ثيودسيوس حاكم طيبة يرى نفسه مضطرا لاعادة تحصين جزيرة فيلة ، التى كانت قد أصبحت فى هذه الفترة أسقفية كما تحول معبد ايزيس الى كنيسة .

٥٨٧ م ـ الامبراطور تبريوس :

مات جوستين الثانى بعد أن كان قد اصيب بلوثة من الجنون ، فخلفه على العرش تبريوس قائد الحرس الامبراطورى الذى رفع جوستين على العرش ، الذى كان قد أصبح الحاكم الفعلى للبلاد من عام ٥٧٤ م .

سـوء الاحـوال فى مصر :

يقول لنا ملن فى كتابه « مصر تحت الحكم الرومانى » أن مصر فى هذه المرحلة كانت تندفع نحو حالة من الفوضى ، فاصبحت الحكومة فى جانب والشعب فى جانب آخر ، وكل من الطرفين يفعل ما يحلو له ، بينما وقفت حكومة القسطنطينية مترددة عاجزة عن حسم الامور ، فبعد أن أصدرت امرها بالقبض على قـائد الجيوش فى مصر استوماخوس ، واقتيد الى القسطنطينية ليحاكم بتهمة سـوء التصرف ، ولكنه لم يكد يصل مقبوضا عليه حتى صدر امر بالعفو عنه ، وكلف بالعـودة الى مصر ليواجه هجوما جديدا من النوبيين على جنوب مصر ، فلم تكن التحصينات التى اقيمت فى جزيرة فيلة بقادرة على رد هجماتهم .

وعاد ايستوماخوس ، حيث سجل لنا التاريخ انه خاض معارك ضد النوبيين والموريتانيين وانتصر عليهم .

٥٨٢ م ـ موت الامبراطور تبريوس وولاية الامبراطور « موريس » :

مات الامبراطور تبريوس وخلفه زوج ابنته الامبراطور موريس .

تدهـور الاحـوال فى مصر :

ويمضى ملن فى كتابه فيحدثنا عن استمرار تدهور الاحوال فى مصر فى هذه المرحلة كما تكشف عن ذلك بعض الوثائق التى عثر عليها . فتحدثنا بعض هذه الوثائق عن نهب بعض الرجال قريتين من قرى الدلتا وهما قـريتا كيثوبوليس وبوسيريس « بدون اذن حـاكم الاقليم » .

وعندما هددهم حاكم الاسكندرية بالعقاب ، حشدوا قوة اضافية من الرجال واستولوا على القمح الذى كان يرسـل من الريف الى الاسكندرية فأحدث ذلك مجاعة بها .

وتصرفت الحكومة بترددها المعهود فعزلت حنا حاكم الاسكندرية ولكنه لم يكد يصل الى القسطنطينية ويشرح موقفه حتى أعيد الى منصبه .

فلم يكن لهذا التصرف من أثر الا زيادة اشتعال الفتنة فى الاقاليم المصرية ، بحيث احتاج الامر الى ارسال جيش لاخمادها .

كما وقع تمرد آخر فى بلدة بانابوليس تحت قيادة من يدعى آزريوس ولكنه كان اقل خطـرا .

٥٨٩ م ــ المرحلة الاخيرة من الحــرب الفارسية :

كان كسرى الاول قد مات عام ٥٧٦ وخلفه ابنه كسرى الثانى فنشبت ضده ثورة عسكرية فى هــذه السنة (٥٨٩) ادت الى خلعه عن العــرش ، فهــرب الى القسطنطينية مستنجدا بعدو الفرس التقليدى امبراطور بيزنطة ، فاستقبله الامبراطور موريس استقبالا حسنا ، وانتهز هذه الفرصة ليبسط سلطانه على بلاد الفرس من خلال مساعدته لكسرى ، فأمده بجيش بيزنطى كبير استطاع بواسطته ان يسترد عرشه ، ومضى موريس فى تنفيذ خطته فزوج كسرى بابنته واتخذ منه ولدا له .

٦٠٢ م ــ الامبراطور فوكاس :

تمرد احد قادة الجند ويدعى فوكاس ضد الامبراطور موريس ، وقد كان فوكاس هذا جنديا جلفا غليظ القلب مشوه الخلقة مجردا من كل قدرة وكفاية ، سوى استخدام القوة الوحشية بحيث لم يكتف بأعدام الامبراطور موريس ليستولى على منصبه بل اعدم جميع ابنائه وكل من يمت اليه بصلة او أيده أو ناصره .

وقد اشعل هذا الحادث نيران الحرب من جديد بين الفرس والروم التى كانت قد خبت أيام موريس .

والحق ان كسرى منذ زمن طويل عقب عودته الى عرشه ، لم يكن ينظر بعين الرضا للعلاقة التى أصبحت تربطه بامبراطور بيزنطة ، ولم يكن يحــول دون قطع العلاقات ســوى احساسه بالدين الذى يدا ينه به الامبراطــور موريس ، وصلة المصاهرة التى تربطهما .. فلما ان قتل فوكاس موريس ، اســتغل كسرى الثانى هذه الفرصة ، فأعلن غضبه لهذا الحادث وأصدر امره لجيوشه فزحفت على البلاد البيزنطية فأستولت على ارض الجزيرة وسوريا وأوغلت فى الاناضول حتى مدينة خليقدونيا

٦٠٦ م ــ وفاة الانبا داميانوس :

توفى الانبا داميانوس بعد ان اقام على كرسى الكرازة المرقسية ابا لأقباط مصر خمسا وثلاثين سنة واحد عشر شهرا .

وكان البطريرك الملكى خلال الجزء الاكبر منها هو (أيلوج) .

الانبا اسطاسيوس :

واختار الشعب والاكليروس القبطى الانبا انسطاسيوس ليكون بطريركا وابا وزعيما روحيا لهم .

اما القسطنطينية ، فقد أرسلت بطريركا ملكيا جديدا وهو ثيودوروس .

٦١٠ م – ظهور هرقل :

دبرت مؤامرة لخلع فوكاس ونقله من القسطنطينية ، فأسرع هرقل حاكم افريقية لتأييدها وكان ابن هذا الحاكم يدعى بنفس الاسم « هرقل » وكان اكثر شبابا وقوة من ابيه فأخذ على عاتقه الحرب ضد فوكاس وخلعه .

مصر بين فوكاس وهرقل :

تحولت مصر الى ميدان الصراع بين فوكاس وهرقل الشاب فقد أرسل هذا الاخير القائد بوناكيس ليستولى على مصر ، تقديرا منه ان الاستيلاء على مصر يفقد بيزنطة مصدر قمحها . وقد استطاع بوناكيس أن يهزم الجيش الموالى لفوكاس خارج مدينة الاسكندرية .

بينما فتح الاسكندريون مدينتهم لاستقبال بوناكيس فى حماس منقطع النظير ، اذ تضامن الشعب مع رجال الكنيسة فى تأييد هذه الثورة الجديدة على بيزنطة ، ليستعيدوا سلطان كنيستهم « المونوفيزية » واستقلالها عن بيزنطة .

ولكن فوكاس ارسل من ناحيته جيشا جديدا تحت قيادة برنوسوس ، الذى استطاع ان يهزم بوناكيس بل وان يقتله .

واغارت فلول بوناكيس المنهزمة على مدينة الاسكندرية التى اغلقت ابوابها وارسل هرقل الابن مددا الى الاسكندرية تحت قيادة نيكيتياس ، الذى اعاد تنظيم فلول الجيش الذى انحاز الى الاسكندرية وخرج لملاقاة بونوسوس فانتصر عليه واجبره على الفرار الى القسطنطينية ، تاركا مصر اخيرا تحت سلطان نيكيتياس ليحكمها باسم هرقل .

٦١٠ م – الامبراطور هرقل الاول :

فى الوقت الذى كان فيه نيكيتياس يتجه بجيشه شرقا نحو الاسكندرية كان هرقل يستقل اسطولا بحريا ويبحر به نحو سالونيكا تمهيدا للهجوم على القسطنطينية نفسها .

وفى هذا العام تمكن من اقتحام القسطنطينية بعد أن ثارت الجماهير داخل المدينة ضد فوكاس ، ونادوا بهرقل امبراطورا على بيزنطة .

ويعتبر هرقل مؤسس بيت امبراطورى جديد ، وفى عهده كما سترى أخذت بيزنطة صورة جديدة اقرب ما تكون الى اليونان منها الى الرومان واللاتين ، واذا كان هرقل قد بدأ حكمه بأسطول بحرى فكأنه كان يكشف عن حجب الغيب ، وان لن يبقى على بيزنطة بعد ذلك فى الوجود الا قوتها البحرية ونشاطها التجارى .

فهرس

موسوعة تاريخ مصر

الجزء الأول

صفحة

صفحة

انتهى الجـــزء الاول

ويليه الجـــزء الثانى

مطابع مؤسسة دار الشعب - للصحافة والطباعة والنشر
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت: ٣٥٥١٨١٠ - ٣٥٥١٨١٨ - ٣٥٤٣٨٠٠